الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية

معهد الدعوة وأصول الدين

الفكر العقدي عند سيد قطب

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير

إعداد الطالب:
عثمان مبارك حداد

إشراف الدكتور:
مولود سعادة

1997/96

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهـــداء

إلى والدي الكريمين برا بهما و اعترافا بفضلهما

إلى زوجتي الفاضلة لما وفرته لي من جو مناسب لإعداد هذه الرسالة

إلى ولدي ياسر و صفية سائلا الله تعالى أن ييسر لهما طريق العلم والإيمان.

أهدي هذا العمل

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمة

إن الحمد لله تعالى نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله تعالى فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله. وبعـد،

فإن العقيدة الإسلامية من أشرف العلوم وأهمها على الإطلاق ، وأخطرها في الوقت نفسه . فهي شريفة لتعلق موضوعها بمعرفة الله تعالى. وهي من أهم العلوم باعتبار أنها الكفيلة وحدها بإعطاء التصور الصحيح عن الله تعالى والإنسان والكون والحياة ، وما من علم آخر يمكن أن يمد الإنسان بهذا التصورالذي لا غنى له عنه سوى العقيدة الإسلامية، ولقد ضلت البشرية في عقيدتها وانحرفت في سلوكها لما اعتمدت في استمداد تصوراتها على غير العقيدة الإسلامية ذات المصادر الموثوقة. وأما أنها من أخطر العلوم، فلأن أعظم وأشدالإنقسامات التي حدثت في تاريخ المسلمين كانت تلك التي تعلقت بالعقيدة الإسلامية ، ووقع المسلمون في أشد المحن والإبتلاءات فكفروا بعضهم بعضا ، وربما أفتوا بهدر دماء بعضهم وإسقاط عصمتهم. ولا زال العالم الإسلامي يجتر بعض آراء تلك الحقبة ، ويتجرع مرارتها .

بفضل هذا الشرف والأهمية ، وبسبب تلك الخطورة ، حظيت العقيدة الإسلامية باهتمام بالغ من طرف العلماء المسلمين على مر العصور. وإذا كانت التآليف العقدية تميزت في فترة من فترات التاريخ الإسلامي بالتقليدالمحض والترديد لما كتب الأولون ، وربما بكثير من التعصب ، فإنها عرفت في فترات عديدة تآليف أخرى تميزت بالجدة في القضايا والعمق في الطرح.وسيد قطب واحد من هؤلاء الذين اهتموا بموضوع العقيدة إهتماما عظيما ومتميزا في الوقت نفسه . وهو ما حدا بي إلى تسجيل هذه الرسالة محاولة مني لتجلية فكره العقدي، يدفعني في ذلك عدة أسباب من أهمها :

1- إهتمام سيد بالعقيدة الإسلامية ، إهتماما متعاظما ، خاصة في المرحلة التي أصبح فيها توجهه النفسي والفكري توجها إسلاميا.أين انتهى سيد إلى رأي مفاده أن الموضوع الأساسي للقرآنالكريم هوالعقيدة الإسلامية ، و أن ما عداه من المواضيع هي فروع له. ومن ثم جعلها محور كتاباته الفكرية والحركية.

2- لقد كان سيد صاحب طريقة خاصة في تناوله لموضوع العقيدة، وهي طريقة تعتبرتجديدا نوعيا بالمقارنة مع ما ألف في هذا المجال، سواء من حيث المنهج ، أو من حيث الموضوع، و سنرى أن سيد قطب بقدر ما إلتزم بمنهج السلف أضاف أيضا بعض القواعد المنهجية، استنبطها من القرآن الكريم ، وطريقته في عرض العقيدة الإسلامية، كما سنرى أنه بقدر ما عزف عن بعض الموضوعات التي كانت الشغل الشاغل للمتكلمين ، فقد أبدع في تناول موضوعات عقدية أخرى، خاصة الإنسان والكون والحياة ، والبعد الإجتماعي للعقيدة الإسلامية، إن الهدف الذي رسمته لنفسي من خلال هذه الرسالة هو الوقوف على الفكر العقدي لسيد قطب ، في صورته الشمولية المتكاملة ، وأبعاده المختلفة ، و لم يكن هدفي الأساسي هو بيان آراء سيد قطب العقدية ، والتي اعتاد المؤلفون أن يمحوروها حول ثلاثة موضوعات : الآلهيات ، النبويات و السمعيات ، ذلك أن سيد قطب لم يسلك هذا المسلك في دراسة العقيدة الإسلامية ، إلا أنني حاولت أن أجعل الرسالة تستجيب للأمرين معا. فعمدت إلى جمع آراء سيد العقدية ، المتناثرة في كتبه المختلفة ، خاصة << في ظلال القرآن >> و << خصائص التصور الإسلامي و مقوماته >> و حاولت أن أرتبها على منوال الطريقة المدرسية . و في الوقت نفسه أبرزت المسائل التي أضافها سيد، والقضايا التي ركزعليها ، كما نبهت على بعض المسائل التي أغفلها ، بسبب انشغاله ببيان الصورة الكلية المتكاملة للعقيدة الإسلامية ، التي تجعل منها عقيدة للضمير و منهجا للحياة.

إن الفصل الأخير، والمعنون بقضايا عقدية ، والذي تناولت فيه موضوع الإنسان والكون و الحياة ، والبعد الإجتماعي للعقيدة ، هذا الفصل يعتبر موضوعا جديدا في الدراسات العقدية ، ومن ثم إهتممت به تبعا لاهتمام سيد به ، و نظرا لخطورة شأنه في واقع الحياة . وبمسائل وقضايا هذا الفصل تجاوز سيد الطريقة التقليدية التي كانت تركز على الآراء العقدية فقط ، وذلك على الرغم من أهمية هذه القضايا ، التي لا يستقيم إيمان المرء إلا بمعرفتها ، والإيمان بها.

و حتى يتسع موضوع الرسالة للآراء العقدية وغيرها من الموضوعات الجديدة ، التي لم يعهد طرقها من قبل ممزوجة و مرتبطة بموضوع العقيدة ، لأجل ذلك جعلت عنوان الرسالة << الفكر العقدي عند سيد قطب >> .

3- حامت حول فكر سيد العقدي بعض الشبهات والأوهام، وأصدر بعض الناس في حقه أحكاما خطيرة، كالقول بالتكفير، ووحدة الوجود، واعتبره البعض معتزلي المذهب، إلى غير ذلك من الأحكام ، وهي أحكام كانت في أغلبها مبنية على دراسة غيرواعية لفكرسيد، وسوء فهم لأقواله ، ولذلك حاولنا من خلال هذا الموضوع الوقوف على حقيقة هذه الأحكام، وتلك الشبهات ، وبيان مدى موضوعيتها، إلى جانب بيان مدى إلتزام سيد بمنهج السلف في العقيدة منهجا وآراء.

و قد قسمت هذه الرسالة إلى مقدمة، و مدخل تعرضت فيه إلى العوامل المختلفة التي أثرت في سيد قطب من الناحية الفكرية ، وبينت من خلاله مميزات سيد الفكرية . وثلاثة فصول ، خصصت الأول منها لبيان منهج المتكلمين والفلاسفة في العقيدة وموقف سيد منه. ثم عرضت لبيان منهج سيد ، وقسمته إلى قسمين ، منهج الفهم والإستنباط ، ومنهج الصياغة والتقرير. وركزت فيه على بيان مدى مطابقة منهج سيد لمنهج السلف ، و مدى إتفاق موقفه من الفلسفة والكلام مع موقف السلف خصوصا ، والعلماء المسلمين عموما.

و أما الفصل الثاني فقد خصصته لبيان آراء سيد قطب العقدية ، وقد وجدتها مطابقة لآراء السلف . و أما الفصل الثالث والأخير، فقد درست من خلاله بعض القضايا العقدية والمتمثلة في الإنسان والكون والحياة ، و كذا البعد الإجتماعي للعقيدة . هذه القضايا التي من شأنها أن ترسم لنا بوضوح << نظرية الإسلام>> في الإنسان والكون و الحياة ، والمنهج الإجتماعي الذي ينبغي أن يحيا من خلاله الإنسان. و إنما أقول هنا نظرية من باب التجوز، وإلا فالعقيدة الإسلامية لا تعطي نظريات كالنظريات البشرية، وإنما أحكاما شرعية . وهذه القضايا هي الإضافات الإيجابية التي أضافها سيد إلى موضوع العقيدة ، وركزعليها تركيزا شديدا ، محررا إياه من الحجر الذي فرضه عليه علم الكلام والفلسفة . وأما الخاتمة فقد بينت فيها جملة النتائج التي توصلت إليها من خلال هذه الدراسة .

إن هذه الدراسة بفصولها، و قضاياها المتنوعة إضطرتني إلى عدم الإعتماد على منهج واحد، فقد استفدت من جملة من المناهج، ذلك أن الدراسة كانت وصفية تقريرية أحيانا ، كما كانت تحليلية في بعض الأحيان ، ومقارنة عندما يقتضي المقام ذلك . فكثيرا ما كنت أقارن بين آراء سيد ومواقفه ، وآراء و مواقف غيره من الإسلاميين لأرى مدىالإتفاق أو الإختلاف . كما كنت أقارن أيضا بين ما انتهى إليه سيد وما إنتهت إليه النظريات الغربية ، خاصة عند دراستي للفصل الأخير.على أن عملي يتمثل كذلك في صياغة هذا الموضوع بطريقة مدرسية حاولت

من خلالها أن ألم شتات آراء سيد، وأن أوجد نوعا من الترابط والتناسق بين موضوعاتها، ليستوي هذا العمل في صورة دراسة متكاملة .

لقد صادفت أثناء إنجازي لهذه الرسالة عدة مشاكل، وحال دوني و دون إنجازها قبل هذا الوقت عدة عقبات. لعل من بينها قلة المراجع المتعلقة بفكر سيد في المجال العقدي. وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها والإتصالات الداخلية والخارجية التي أجريتها، فلم أتحصل إلا على القليل من ذلك. وحتى فكر سيد العقدي ذاته لم يحوه كتاب واحد من كتبه ، بل كان موزعا بين دفات أغلب كتبه مما اضطرني إلى قراءتها صفحة صفحة خاصة موسوعة << في ظلال القرآن >> . كما أن من بين المشاكل التي واجهتني عدم استقرار المشرفين، الأمر الذي جعل هذه الرسالة تتنقل بين أيدي أربعة مشرفين ، كان آخرهم الدكتور مولود سعادة ،الذي لم يبخل علي بتوجيهاته القيمة، على الرغم من كثرة ارتباطاته . و يعود له الفضل الأكبر في استواء هذه الرسالة في هذه الصورة . فإليه أتقدم بالشكر الجزيل . وإلى كل من مد لي يد المساعدة بالكثير أو القليل ، و حتى بمجرد التشجيع .

والله ولي التوفيق

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مسيرة سيد قطب الحياتية وأبعادها الفكرية

1- سيد قطب في سطور :

هو سيد بن الحاج قطب إبراهيم حسين شاذلي، ولد سنة 1906 بقرية موشا إحدى قرى محافظة أسيوط بالصعيد المصري. وكان والداه من أسرتين عريقتين، كما كانا ميسوري الحال. ولما بلغ السادسة من عمره دخل المدرسة الأولية التي قضى بها أربع سنوات. ولما بلغ عشرسنوات كان قد أتم حفظ القرآن الكريم ، وانتقل بعد ذلك إلى القاهرة ليدخل المدرسة الإعدادية لمدة ثلاث سنوات، حاز فيها على شهادة الكفاءة التي تؤهله للتعليم ، ولكن حب العلم و المعرفة دفعاه إلى دخول تجهيزية دار العلوم ، التي أهلته بعد سنتين من الدراسة لدخول دار العلوم .

لما تخرج سيد في دار العلوم اشتغل بالتعليم.ليشتغل بعد ذلك موظفا في وزارةالمعارف تحت إشراف طه حسين . وقد عرف سيد بالنشاط والمثابرة والجدية في العمل ، يدل على ذلك الإقتراحات الكثيرة التي تقدم بها إلى وزارة المعارف لأجل إصلاح التعليم ، إلا أن إقتراحاته لم تؤخذ بعين الإعتبار،الأمرالذي دفعه إلى التفكير فيْ الإستقالة، لولا محاولة طه حسين الذي أقنعه بالبقاء في الوزارة ، وكلفه بمهـمة تفتيشية في الصعيد ليقدم له تقريرا شاملا حول تدريس اللغة العربية ، ومقترحات لإصلاح التعليم فيها.

و في الوقت الذي كان سيد يعمل ، سواء في التعليم أو وزارة المعارف،كان أيضا يزاول مهنة الصحافة ، فينشر مقالات في النقد والأدب ، كما ينشر مقالات سياسية عنيفة ، منتـقدا الأوضاع الإجتـماعية التي يعانيها الشعب المصري ، و المتميزة بالفقر و التخلف ، و هو الأمر الذي سبب له مضايقات كثيرة ، خاصة في ميدان عمله . غير أن مكانة سيد قطب حالت دون التعرض له بأذى. وأغلب الظن أن تسفيره إلى أمريكا من أجل القيام بدراسة ميدانية لمناهج التدريس بأمريكا ، لم يكن الباعث عليه علميا بقدر ما كان سياسيا ، فالطريقة الوحيدة التي يمحى بها أثر قلم سيد الجريئ و العنيف من على صفحات الجرائد و المجلات المصرية ، خاصة << الرسـالة >> هو تسفيره إلى أمريكا ، غير أن سيد لم يتوقف عن الكتابة حتى و هو بعيد عن مصر ، و عن الواقع الإجتماعي و السياسي المصري.

و يرجع البعض تسفير سيد إلى أمريكا ، إلى محاولة حمايته من السلطات الملكية التي عزمت على اعتقاله .

و أيما كان السبب ، فإن الدافع الحقيقي على هذه الجولة العلمية الميدانية ، لم يكن دافعا علميا ، و الدليل على ذلك ، أن مشروع الإصلاح الذي تقدم به سيد إلى وزارة المعارف بعد عودته من أمريكا بعد عامين قضاها متجولا بين جامعاتها ومراكزها التعليمية، هذا المشروع لم يلق آذانا صاغية، شأنه شأن المشاريع السابقة. وهو الأمر الذي دفع سيدا إلى الاستقالة من وزارة المعارف سنة 1952. ليبدأ بعد ذلك حياة جديدة ، قضى فترة طويلة منها وراء القضبان ، ليلقى ربه شهيدا سنة 1966 [1].

2- شخصيته و العوامل المؤثرة فيها :

أ – العوامل المؤثرة في الشخصية :

قبل أن نتعرف على شخصية سيد قطب ، و ماتصف به من صفات ، جعلت منه شخصية متميزة . نحاول أولا أن نتعرف على العوامل التي أثرت في طبعه و تكوينه ، لأن الإنسان إبن بيئته .

من خلال دراستنا لمسيرة سيد قطب بمختلف تشعباتها ، وقفنا على ستة عوامل أساسية كان لها الأثر الكبير في تكوينه ، وهذه العوامل هي : 1- أسرته -2- القرآن الكريم -3 – ظروف العصر -4- سفره إلى أمريكا -5- مقتل حسن البنا -6- السجن . و سنبين بإيجاز أثر كل عامل من هذه العوامل ، و طبيعة هذا الأثر .

1- أسرته :

قلنا فيما سبق أن سيد قطب ينحدر من أسرة عريقة النسب و المكانة الإجتماعية و الدينية سواء في ذلك الأب والأم. كان أبوه << على حظ من المعرفة و التنور >> [2] و لذلك حرص على إدخال ولده إلى المدرسة الأولية في القرية ، ثم سفره إلى القاهرة لمواصلة التعليم ، كما كان يمكنه من شراء بعض الكتب لمطالعتها

1- اعتمدت في هذه السيرة الموجزة على كتاب : - سيد قطب الأديب الناقد :عبد الله عوض الخباص

- سيد قطب من القرية إلى المشنقة: عادل حمودة

2- عبد اله عوض الخباص : سيد قطب الأديب الناقد ص 82

و هو في مرحلة التعليم الأولى . << حتى أصبح يقتني مكتبة ضخمة >> [1] . و هو الأمر الذي جعله يشتهر بين مثقفي قريته ، في هذه السن المبكرة . وقد كان سيد قطب يقرأ كل ما تقع عليه يده من الكتب ، مما أكسبه ثقافة واسعـة و متنوعـة.

و إذا كانت أسرته هيأت له أن يتعلم القراءة و الكتابة و المطالعة، فإنها هيأت له كذلك أن يتلقى مبادئ الأخلاق الإسلامية. فقد كان والداه على جانب كبير من التدين، ونكتفي للتدليل على ذلك، بالإهداء الذي صدر به كتابيه << مشاهد القيامة في القرآن>> و << التصوير الفني في القرآن >>. فقد أهدى الأول إلى روح أبيه، ومما جاء فيه :<< لقد طبعت في حسي، وأنا طفل صغير، مخافة اليوم الآخر، لم تعظني أو تزجرني ، ولكنك كنت تعيش أمامي ، واليوم الآخر في حسابك و ذكراه في ضميرك، وعلى لسانك>> [2] . وأهدى الثاني لأمه التي كان يراها دائما تستمع للقرآن الكريم من خلال المذياع، فتبدو في قسمات وجهها علامات التأثر والخشوع،وكانت تتمنى أن يكبر سيد فيحفظ القرآن و يرتله لها ترتيلا [3]. و قد تأثر سيد بتدين والديه كثيرا ،إلى درجة أنه بقي يتذكر تلك المشاعر و الأحاسيس التي تطفو على وجه أمه و هي تستمع للقرآن الكريم . كما كان يدرك من أبيه خشيته لله و تقواه له . غير أن هذا التدين الأسري بقي تأثيره على سيد ضعيفا أو سطحيا ، و لم يتمكن من أعماقه، ليصير عقيده و مبدأ. و لذلك سيهتز فيه هذا التدين حينما ينزل إلى القاهرة ، و هي يومها تعج بالأفكـار و المفكريـن، والمذاهب المختلفـة، فما من مذهب ينشأ في أوروبـا إلا و يهب على مصر، بخيره و شره ، وإن كانت هـذه المذاهب أكثرها شراً.<< و كان سيد مشغوفا بقراءة ما يكتب في مباحث علم الحياة، والبحوث النفسيـة، و بعض المواضيع العلمية البحتة >> [4]. و قد أبقى سيد صلتـه بالقرآن الكريـم، إلا أنها صلة لم تكن لتتجاوز الجانب الجمالي الذوقي للقرآن، و حينما كتب << التصوير الفني في القرآن >> و كذلك << مشاهد القيامة في القرآن >> فإنما بدافع ذوقي أدبي أكثر منه ديني. على أن هذه الصلة بالقرآن– وإن كانت جزئية و باردة من ناحية العاطفة الدينية– ستتقد يوما ما، فهي في نفس سيد كالجمر المخبوء في الرماد ، يحتاج لمن ينفخ فيه فيتأجج ، وقد حدث ذلك ، خاصة بعد سفره إلى أمريكا ، وقبل ذلك حينما اتجه إلى كتابة بعض الدراسات القرآنية.

---

1 - عـادل حمودة ، سيد قطب من القرية إلى المشنقة ، ص 39

2 سيد قطب ، مشاهد القيامة في القرآن ، ص 05

3- أنظر ، سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، ص 05

4- عبد الله عوض الخبـاص ، سيد قطب الأديب النـاقد ، ص 114

لا يتوقف تأثير الأسرة في سيد عند مسألة العلم والتدين، ولكن يتعدى ذلك إلى القضايا السياسية. فقد كان والده مناضلا في الحزب الوطني، الذي كان يطالب بالجلاء البريطاني عن مصر، والعودة إلى الخلافة الإسلامية العثمانية، وكان بيتهم ملتقى مناضلي الحزب الوطني في قريته [1]، و من ثم بدأ يتفتح على عالم السياسة والأحداث السياسية، و يُكوِّن معها أول علاقاته التي تتمتن بعد ذلك في القاهرة، خاصة على يد العقاد.

وهكذا، يمكن القول إن أسرة سيد كانت عاملا مؤثرا في شخصيته، و محطة هامة من محطات حياته المثيرة.

2- القـرآن الكريـم :

دخل سيد الكتاب ليحفظ القرآن الكريم بأمر من والديه، حبا في القرآن الكريم، و جريا على عادة أهل القرية. غير أن سيد سرعان ما انقطع عن الكتاب، و لكنه لم ينقطع عن حفظ القرآن الكريم. فقد آلى على نفسه أن يحفظ ما استطاع منه، لينافس بذلك تلامذة الكتاب. و لم يتجاوز سيد العاشرة من عمره حتى حفظ القرآن كله. و ينتقل إلى القاهرة، فيتعمق فهمه للقرآن، وتتقوى صلته به، لامن الناحية الدينية الشرعية، ولكن من الناحية الأدبية – كما أسلفنا – يقول سيد : << كان همي كله موجها إلى الجانب الفني الخالص، دون التعرض للمباحث اللغوية أو الكلامية أو الفقهية أو سواها من مباحث القرآن المطروقة >> [2]. لكن شدة ملازمة سيد للقرآن ترك في نفسه آثارا ظلت كامنة إلى حين. و كلما ازدادت دراسة سيد للقرآن الكريم، كلما ازدادت معرفته بالقرآن، و تأثره به. إلى أن صار هو مصدر معرفته، و مصدر قوته و عدته في معركته.

3- ظروف عصره :

يمكن أن نسمي عصر سيد قطب بعصر التناقضات والتحديات حيث عرفت الساحة العربية و الإسلامية عموما، والمصرية على وجه الخصوص الكثير من الأفكار والمذاهب المتباينة إلى حد التناقض، سواء في ذلك الأفكار و المذاهب الأدبية أو السياسية أو الإجتماعية و الإنسانية. و لم تكن هذه الأفكار وليدة البيئة المصرية أو العربية، بل كان أغلبها وافدا من الغرب مع الحملات الإستعمارية، والموجات التغريبية. ففي المجال السياسي ظهر هناك تياران كبيران أحدهما يتبنى فكرة الجامعة الإسلامية، والآخر فكرة القومية،ودون ذلك تيارات بعضها يعمل ضد الإنجليز، مطالبا بالجلاء والإستقلال. والبعض الآخر يعمل لتحقيق بعض الإصلاحات تحت الرعاية البريطانية،

1- أنظر، عـادل حمـودة، سيـد قطب من القريـة إلى المشنقـة، ص 39

2- سيـد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص 09

و في المجال الإقتصادي كان النزاع شديدا بين أنصار التيار الإشتراكي و الرأسمالي . و في المجال الإجتماعي عرفت مصر الكثير من الأفكار الهدامة ، التي كان هدفها هدم الأخلاق، و هدم الدين جملة. و إلى جانب كل هذه المذاهب و الحركات، كان هناك من يدعون إلى التمسك بالدين و القيم و الأخلاق، و يحاولون كشف حقيقة هذه المذاهب، و خطر تلك التيارات. و لعل من أهم الحركات التي عرفتها مصر في هذه الفترة حركة محمد عبده الداعية إلى تطوير الإسلام بما يناسب البيئة. و قد كان الباعث له على هذه الدعوة ، ما رآه في أروبا من تطور علمي كبير ، مقابل التخلف المرعب التي ألت إليه أوضاع المسلمين، و تفشي الخرافة والجهل. غيرأن أهم حركة عرفتها مصر ، هي حركة << الإخوان المسلمون >> التي أسسها حسن البنا بعد أربع سنوات من سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية. وإنما كانت أهم حركة لأنها كانت حركة تغييرية شاملة وقد شهد لها بذلك القريب والبعيد. ولعل هذه الميزة هي التي جعلت سيد بعد ذلك ينخرط في صفها.

كانت الصحافة–والتي يعتبر سيد أحد أعمدتها– تترجم في تلك الفترة هذه الأفكار والمذاهب في مقالات تدافع بها عن هذه الفكرة أو تلك، و تهدم بها هذا المذهب أوذاك. وتصور الواقع المصري بتناقضاته الفكرية و المذهبية . وقد صور هذه الحقيقة أحسن تصوير كتاب:<<الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر>> [1] والذي يعتبرخلاصة للواقع المصري على الخصوص في هذه الفترة.

ما دام الإنسان ابن بيئته ، فلا بد أن يتأثر سيد بهذا التيار أو ذاك ، و هو الأمر الذي حدث . حيث تأثر سيد تأثرا كبيرا ببعض المذاهب المخالفة للقيم الدينية،وعاش فترة ضياع طويلة [2]. لكنه يعود من تلك الرحلة الشاقة أصلب عودا وأذكى فؤادا وأشد إيمانا.

و كما تأثرسيد بهذه المذاهب الأخلاقية ، التي عاد بعد ذلك لينقدها نقدا مرا. فإنه تأثر بالسياسة أيضا، التي بدأت معرفته بها منذ صباه في القرية، فانظم إلى حزب الوفد ،بإيعاز من صديقه العقاد، و بقي وفديا إلى أن تغيرت سياسة الوفد و أصبحت تساير أطماع الإنجليز،لينظم بعد ذلك إلى السعديين،ويعتزل بعدها الأحزاب السياسية [3] و لكنه لاينسحب من ميدان السياسة و الإشتغال بها ، فما إن تقوم ثورة يوليو 1952 حتى يبادر سيد إلى مساندتها بالكتابة والمحاضرة . و قد كان الدافع لمساندة حركة الضباط الأحرار هو اعتقاد سيد أن هذه الحركة

1- أنظر ، محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر

2- أنظر ، عادل حمودة ، سيد قطب من القرية إلى المشنقة ، ص 50

3- أنظر ، عبد الله عوض الخباص ، سيد قطب الأديب الناقد ، ص 99/98

ستمثل القطيعة مع النظام السابق الذي كان يسيطر عليه الأعيان والإقطاعيون . بل يذهب البعض إلى << أن علاقة سيد بالثورة وقادتها لم تكن علاقة سطحية ، ولكنها علاقة متينة . فقد كان من الداعين لها ، المبشرين بها >> [1]. كما كان من الثائرين على الأوضاع الإجتماعية القائمة آنذاك.

و الخلاصة التي يمكن أن ننتهي إليها، هي أن عصر سيد قطب كان عصر الإزدواجية. إزدواجية في التفكير ، وازدواجية في التعليم، إزدواجية بين الأفكار العلمانية والمبادئ الإسلامية ، إزدواجية بين المظهر الغربي والزي الإسلامي في اللباس والسلوكات اليومية، وغير ذلك من المظاهر الإزدواجية التي ستؤدي لا محالة إلى التناقض والإنفصام بين ما تلقاه الإنسان من مبادئ دينية و قيم خلقية و ما يقع عليه بصره و يتناهى إلى سمعه من الأفكار الوافدة ومظاهرها الضاغطة ، و قد عرف سيد قطب التيه فترة طويلة ، كما عرف بعد ذلك طريقه إلى الرشاد، شأنه في ذلك شأن من يتعرض إلى هذا النوع من المد والجزر . فإذا عرفنا عصرسيد وشدة ضغطه ،لا نستغرب من انتقال سيد من حال إلى حال تناقضها ، خاصة بعد سفره إلى أمريكا .

4- سفره إلى أمريكا :

كان أغلب الذين يذهبون في البعثات التعليمية إلى أروبا و أمريكا ، لا يعودون من هناك إلا بأسمائهم العربية . أما العقليات و طرق التفكير و أسلوب الحياة فكل ذلك يتغير ، تبعا لثقافة الغالب . أما سيد قطب فكان سفره إلى أمريكـــا نقطة تحول جذري في حياته ، بحيث عرف الإسلام و قيمة الإسلام من خلال الجاهلية التي رآها في أمريكا [2]. فكان الذي رآه في أمريكا، وهي يومئذ كما وصفها ورشة العالم، يتناقض تماما مع الفطرة السوية ، ويتناقض تماما مع المبادئ التي ترسبت في لاشعوره. ومن ثم كان يهاجم الحضارة الغربية ، وهوفي عاصمتها. و ليس غريبا أن يهاجم سيد هذه الحضارة ، فهو عربي مسلم ، ولكن الغريب أن يهاجمها، وقد عاش مدة طويلة معجبا بها، و مبهورا بما وصلت إليه . غير أن سيد يرى أن الأمر ليس من الغرابة في شيء، لأن ما تلقاه سيد في صغره من مبادئ الدين و قيمه، وإن خبت جذوته أيام القاهرة و بهرجها ، فإنه ظل كامنا في نفسه بكل قوة، لأن سيد الذي عاش أربعين سنة من عمره في ظل الثقافة الغربية بمختلف مشاربها ، وبكل تناقضاتها ،

1- عبد الله عوض الخباص ، سيد قطب الأديب الناقد ، ص 107

2- أنظر ، سيد قطب ، معركة الاسلام و الرأسمالية ، ص 08 و ما بعدها

<< ثم عاد إلى مصادر عقيدته و تصوره، فإذا هو يجد كل ما قرأه ضئيلا ضئيلا إلى جانب ذلك الرصيد الضخم – و ما كان يمكن أن يكون إلا كذلك – و ما هو بنادم على ما قضى فيه أربعين سنة من عمره – فإنما عرف الجاهلية على حقيقتها >> [1] .

بدأ سيد قطب يحول مساره نحو الإسلام قبل سفره إلى أمريكا . ولكنه هناك أقتنع إقتناعا مطلقا بصلاحية الإسلام وضرورته للحياة. و أن ما عداه من مذاهب و مبادئ غير صالحة، لأنها أول ما تناقض تناقض فطرة الإنسان. ولعل المهمة التي ذهب لأجلها سيد قطب هي التي نبهته من غفلته ، كما كان سيد حريصا على دراسة أوضاع المجتمع الأمريكي ، فلم يترك مكانا يرتاده الأمريكان إلا و سجل حضوره فيه ، ليسجل مشاهداته وانطباعاته ، دخل الجامعات والمعاهد ، ودخل الكنائس و الملاهي ، وخالط الأمريكيين مخالطة مكنته من معرفة نفسية الأمريكي ، وطبيعة المجتمع الأمريكي [2] . فآمن أن الإسلام هو الحضارة ، وأن ما يسمى بالحضارة الغربية هي التخلف بذاته ، لأنها وعلى الرغم من الرفاهية التي تحققها ، خاوية الروح ، تتصادم و فطرة الإنسان ومقوماته الأساسية . وقد سجل سيد أحاسيسه و مشاعره تلك فيما كتبه من رسائل إلى أصدقائه بمصر، ومن ذلك قوله:<< هنا الغربة، الغربة الحقيقية، غربة النفس و الفكر،غربة الروح والجسد.هنا في تلك الورشة الضخمة التي يدعونها العالم الجديد >> [3]. فكان لهذه السفرية التي لم تكن للنزهة، وإنما للدراسة الميدانية الأثر العميق في نفس سيد و فكره ، فأعلن أن الإسلام إذا كان يتسامح في أن يتلقى المسلم من غير المسلم في العلوم البحتة، فإنه << لا يتسامح في أن يتلقى أصول عقيدته ولا مقومات تصوره، ولا تفسير قرآنه وحديثه وسيرة نبيه ، ولا منهج تاريخه و تفسير نشاطه، ولاموحيات فنه وأدبه وتعبيره... إلخ ، من مصادر غير إسلامية >> [4]. على أن الذي زاد ايمانه بالفكرة الإسلامية مقتل حسن البنا .

1- سيد قطب ، معالم في الطريق ، ص 144

2- أنظر ، سيد قطب ، الاسلام و مشكلات الحضارة ، ص 82

3- عبد الله عوض الخباص ، سيد قطب الأديب الناقد ، ص 101

4- سيد قطب ، معالم في الطريق ، ص 143

5- مقتل حسن البنا :

كان حسن البنا و جماعة الإخوان المسلمين حديث العام و الخاص، القريب والبعيد . لأنها لم تكن حركة تقليدية وإنما حركة تغييرية شاملة . و قد رأى سيد شدة إهتمام الغرب بهذه الحركة ومرشدها قبل موته وعند موته [1]. فبدأ التفكير في الانظمام إلى هذه الجماعة ، و لعل الذي حمل سيد على ذلك هو التطابق الكبير بين الروح التي صار سيد يحملها بين جنبيه و روح تلك الجماعة ، و الإلتقاء بين فكره و فكرها ، و الذي يجمعها إرادة التغيير الشامل . و بعد مدة قصيرة من انظمامه . إلى جماعة الإخوان المسلمين يتولى إدارة تحرير مجلتها ، باعتباره كاتبا مقتدرا، يحمل توجهات الحركة التغييرية نفسها. ولعل تأثيرمقتل حسن البنا في سيد قطب يتمثل في اقتناعه النهائي و الجازم بالتغيير الإسلامي ، الذي يهدف إلى إقامة مجتمع إسلامي ، وتحكيم الناس لشريعة الله تعالى. كما يتمثل أيضا في انتقال سيد من العمل الفردي المحدودعلى قوته وأصالته إلى العمل الجماعي المنظم والفعال. ومثلما كان ذلك ذا فائدة بالنسبة لسيد ، فقد أفادت الجماعة من سيد الكثير ، و هي مدينة له بأفكاره الكثيرة والأصلية . ويبقى هناك عامل آخر له أثره و خطورته في حياة سيد و ذلك هو السجن و معاناته . .

6 – السجن :

ما من شك أن للسجن تأثيرا كبيرا على نفسية المسجون، و على تفكيره، حيث يصبح يفكر بعاطفته بدل عقله، أو على الأقل قد تمتزج العاطفة بالعقل فتضيع الحدود بينهما. وسيد قطب بشر، يتأثربما يتأثر به البشر، على أن الذي زاد من تأثير السجن على نفسيته وتفكيره كونه شخصية مرموقة، وإدخاله السجن محاولة لإذلاله و كسر كبريائه، كما أن شعوره بالظلم في إدخاله السجن ، من غير جريرة ارتكبها ، اللهم إلا التعبير بكل صدق وصراحة عما يعتبره حقا. من شأن ذلك أن يضاعف من إحساسه بالغربة و الظلم خاصة وأنه كان يعاني من أمراض مزمنة ، الأمر الذي استدعى و ضعه تحت الرقابة الصحية ، كل هذه الظروف و الملابسات لابد أن يكون لها تأثير علي السجين الأديب ، صاحب الذوق الشاعري الرقيق . و لعل أثر السجن يبرز في القوة التي تتميز بها عبارة سيد كالجاهلية و الطاغوت ، و غيرها من الكلمات التي أكثر سيد من استعمالها ، خاصة في كتبه الفكرية التي كتبها في ظلمة السجن و ضيقه . كما يبرز أثر السجن في القوة التي يتميز بها فكر سيد ، فهو فكر تغييري جذري لا

---

1 أنظر ، عبد الله عوض الخياص ، المرجع السابق ص 102

يؤمن بالإلتقاء والتقاطع بين منهج الله و منهج البشر . و الحقيقة أن هذه القوة ليس سببها السجن فقط ، بل سببها قوة شخصية سيد في حد ذاته ، كما أن سببها هو القطيعة التي أعلنها القرآن مع الجاهلية كما مثلتها ووضحتها سورة << الكافرون >> وغيرها من السور .وقد كان سيد يعيش في ظلال القرآن، و يستمد تصوراته من القرآن . و سنعود لتفصيل هذه المسألة بعد حين.

إن هناك ملاحظة يجب إبدائها ، و هو أنه لولا ما تميزت به كتابات سيد من القوة في العبارة و الفكرة ، والتي لم تكن كلها بسبب السجن ، لولا ذلك لقلنا إن السجن لم يؤثر في سيد أبدا. و لو حدث لوجدنا سيد يبث شكواه عبر كتاباته ، و لظهر فيها شيئ من الضعف، أو لظهر فيها شيئ من التجريح للهيئات والأشخاص، وذلك ما لم يحدث فيما كتبه سيد و هو في السجن. بل نملك أن نقول إن السجن زاد من عزيمة سيد ، ولذلك اتجه لتأكيد الأفكار التي كان يؤمن بها ، وبسببها سجن ، فكتب <<هذا الدين>> و<< المستقبل لهذا الدين>> وأتم << الظلال >> و ختمها << بالمعالم >>.

هذه في رأينا أهم العوامل التي كونت سيد قطب << الشخص >> و سيد قطب << الفكرة >>. فما هي أهم ملامح هذه الشخصية النفسية و الفكرية ؟

ب- صفاتـه النفسيـة :

I- القوة و الشجاعةالأدبية :

يمتاز سيد قطب بالقوة و الشجاعة الأدبية ، و هي صفة جد بارزة حتى إن الانسان الذي لم يعايش سيد قطب عن قرب ،لايجد عناء في إدراك هذه الحقيقة . فمن خلال ما كتب سيد سواءا في المجال الأدبي أو السياسي أوغيرهما تظهر هذه الميزة واضحة جلية . << كان جريئا حاد الألفاظ أحيانا..عباراته عيدان نار.. قلمه سوط .. لا يعتقد من يراه أنه هو نفسه الذي يكتب >> [1] . و يكفي أن تأخذ نموذجا واحدا مما كتبه سيد ليجلي لنا هذه الحقيقة . يقول سيد قطب- معقبا على دعوته إلى إصلاح الأوضاع الإجتماعية بطريقة واقعية وعملية- : << فليقل من شاء كيف شاء من الطغاة المستغلين، ومن رجال الدين المحترفين، ومن الكتاب المرتزقين، والصحفيين المأجورين:إن الدعاة إلى إصلاح هذا الواقع الإجتماعي السيئ، شيوعيون، أوخارجون عن القانون أو خطرون على الأمـن والنظام،

1 عـادل حمـودة ، المرجع السابق ، ص 48

أو دعـاة هدم و فوضى >> [1]. فهو لا يبالي بمن يعترض عليه ، و لا يهتم بمن يتهمه بأي اتهام ، ما دام مؤمنا بما يدعو إليه،و يعتقد فيه الصواب و الصلاح. و لا يملك أن يقول هذا الكلام، و يقف هذا الموقف ، في ظروف مصر تلك ، إلا من كان على قدركبير من القوة و الشجاعة .

2- العزة النفسية :

و هي صفة أخرى من صفات سيد ، يدلنا عليها الكثير من مواقفه . و يكفي أن نـذكر بسبب إستقالته من وزارة المعارف. فلما رأى سيد أن اقتراحاته التي قدمها للوزارة لأجل إصلاح التعليم أُهملت قرر الإستقالة دون أن يقيم اعتبارا لمكانة المنصب الذي يحتله . فقد يقبل كثير من الناس الإهانة في سبيل المنصب . أما سيد فلا يقبل بشيء من ذلك . بل إنه لا يفهم أبدا كيف يقبل فرد أو جماعة الإهانة، وهو يجد منها مخرجا . يقول سيد :<< وأنا أفهم جيدا أن نهون عند الآخرين . فأما أن نهون على أنفسنا فذلك أمر فهمه علي عسير. لأنه لا يخالف طبيعة الرجل الكريم فحسب ، بل يخالف طبيعة الإنسان >> [2] . و هذا الخلق ليس غريبا على رجل صعيدي ، رضع من لبن الشرف و عراقة النسب والتدين . وعاش أديبا مرموقا ، ومفكرا كبيرا .

3- إستعلاء الإيمان :

وهذه صفة مكملة لسابقتها. فالمؤمن يشعر بأنه الأعلى دائما،لا بلونه ، أو ماله ، أو مكانته الإجتماعية ، ولكن بإيمانه، و بالحق الذي يقوم عليه هذا الإيمان . و من ثم لا يرهبه شيئ مهما عظم ، و لا يغريه شيء مهما كبر . وقد عاش سيد – خاصة بعد خروجه من التيه- مستعليا بإيمانه على حضارة أمريكا وزينتها وبهرجتها ، كماعاش مستعليا بإيمانه على التهديد والوعيد الذي تعرض له في السجن مدة طويلة، وآمن أن هذا هو الطريق ، فاختاره ، مقتديا في ذلك بأصحاب الأخدود . و قد ارتفع الإيمان بقولهم و انتصرت فيها العقيدة على الحياة ، فلم ترضخ لتهديد الجبارين ، و لم يستذلها حب البقاء و هي تعانق الموت بتلك الطريقة البشعة [3].

هذه هي أهم ملامح شخصية سيد قطب، و صفـاته النفسية. فما مواصفاته الفكرية؟

جـ - مميزاته الفكريـة :

يتميز فكر سيد قطب و إنتاجه الثقافي بعدة مميزات ، يمكن إجمالها في الآتي :

---

1 سيد قطب ، معركة الاسـلام و الرأسمالية ، ص 06

2 المرجع نفسه ، ص 26

3 أنظر ، سيد قطب ، معـالم في الطريق ، ص 188

1- الشمول و التنوع :

فسيد قطب الذي بدأ حياته أديبا ، وانتهى مفكرا إسلاميا كتب في مجالات مختلفة . كتب في الأدب ، شعرا ومقالة وقصة،كما كتب في السياسة والشؤون الإجتماعية، كما كتب دراسات قرآنية، وألف في الفكر والحركة، مما يدل على أن اهتماماته كانت متنوعة ومتعددة . ولم تنحصر في فن دون آخره وما لم يخصص له كتابات مفردة، أشار إليه إشارات طويلة وعديدة ، كالعلوم الطبيعية البحتة ، والفلسفة وعلم النفس ، والمذاهب الوضعية وغيرذلك، كما كان يقتبس فقرات طويلة من كتب علمية واجتماعية،ويثبتها في كتاباته المختلفة خاصة(الظلال).

2- العمق و الدقة :

لم تكن كتابات سيد سطحية ، لأنه لا يكتب من أجل الكتابة و لكن من أجل دراسة الفكرة التي يطرحها دراسة معمقة ، وسيشهد لكل فكرة يريد تأكيدها أو دحضها بالقرآن والحديث و أقوال العلماء من المسلمين، كمايستشهد لذلك أيضا بالواقع التاريخي أو الواقع المعيش ، وبأقوال الغربيين، و يكفي للتدليل على هذه الميزة، أن سيد يشد القارئ إليه فلا يمل قراءة كتاباته، وليس ذلك بفضل أسلوبه الجيد، ولكن قبل ذلك لعمق الدراسة ودقتها.

3 - الجـدة :

فعلى الرغم من أن المجالات والموضوعات التي كتب فيها سيد مقالات أوألف فيها كتبا، كان قد طرقها غيره من قبله، إلا أن كتابة سيد فيها تميزت بالجدة في طريقة البحث، كما تميزت بالجدة في الأفكار التي بشربها، والأحكام التي إنتهى إليها. فإذا كان الكثير من المتقدمين والمتأخرين فسروا القرآن الكريم ، فإن<< الظلال >> يعتبر تفسيرا مميزا . وإذا كان الكثير أيضا كتبوا في قضايا النظام الإجتماعي، أو الفكر و الدعوة . فإن ما كتبه سيد له طابعه وله مميزاته الخاصة ، ويمتاز بالجدة فتبدو موضوعاته و كأنها بكر. على أن القول بهذه الصفة ، والحكم لسيد وكتاباته بهذه الميزة لا يعني أبدا الصوابية المطلقة ، ولايعني أبدا الأفضلية المطلقة . فهو بشر يخطئ و يصيب ، << و فوق كل ذي علم عليم >>.

4- الإستقلالية الفكرية :

ما من شك أن الإنسان يتأثر بمن سبقه ، و بمن عاصره ، و ما من شك أيضا أن المفكر الحق هو الذي يمتاز

بعد ذلك بالإستقلالية في التفكير ،والإستقلالية في الرأي، ونحسب أن سيدا من هذا الصنف من الكتاب، فإلى جانب اعتماده على منهج السلف في العقيدة، وإلى جانب استشهاده الكثير بأقوال من سبقه ، وعاصره من العلماء، إلا أنه كان دائما يبدي رأيه مسنودا بالتدليل والتعليل . وهو ما أكسب سيدا مصداقية فكرية لدى موافقيه ومخالفيه . فسيد قطب لم يكن نسخة لأحد ، بل كان أصيلا. بغض النظر كذلك عن الصواب والخطإ فيما كان يذهب إليه .

5 – التغيير :

إن سيد قطب من دعاة التغيير الجذري ، ولذلك فهو محسوب من المفكرين الإسلاميين الراديكاليين . فهو لايكتب من أجل الكتابة ، و لكن من أجل التغيير . و يعتبر الكتابة التي لا تؤدي إلى تغيير مجرد عبث ، ومن هنا أعلن صراحة ، وفي أكثر من مناسبة أننا << لسنا حريصين على أن تكون هناك فلسفة إسلامية >> [1] ،لأنها في رأيه و جدت لملء فراغ ، و هي تعبر عن ترف فكري ليس إلا . يقول سيد : << إن مهمتنا الأولى هي تغيير واقع هذا المجتمع. مهمتنا هي تغيير هذا الواقع الجاهلي من أساسه >>[2] . ومما يدل على هذه السمة كخاصية مميزة لفكر سيد استعماله لكثير من المصطلحات ذات المضامين العميقة ، كمصطلح الجاهلية والحاكمية والإستعلاء ، وغيرها من المصطلحات التي تحمل في طياتها معاني التغيير الشامل وليس مجرد التلفيق و التوفيق[3] .

6 – الإيمان بالفكرة :

ما من شك أن المفكر الصادق هو الذي يؤمن بما يدعو إليه إيمانا جازما . و يتحمل في سبيل الدفاع عن رأيه وفكرته كل الضغوط المادية و المعنوية . و المفكر الإسلامي خاصة في هذا المجال إنما يقتدي بالأنبياء، الذين تعرضوا للمساومة فأبوا،لاقتناعهم بصدق الوحي . ونحسب أن سيد قطب بلغ في الإيمان بفكرته مبلغا جعله يتحمل سنين طويلة من السجن والمضايقة ، ولايزيده ذلك إلاعزيمةوتمسكا برأيه. إننا نحس ، وبكل موضوعية ومن دون تحيز ونحن نقرأ لسيد أنه صادق فيما يقول ، مؤمن بما يدعو إليه. و ما تلقف الناس أفكاره ، وانكبوا على قراءتها و دراستها إلا لما تميز به صاحبها من إيمان شديد بها ، إيمان دفع ثمنه من دمه.

هذه بعض المميزات الفكرية لسيد قطب ، وهي مميزات من شأنها أن تجعله مفكرا متميزا ، وأن تجعل فكرة أهلا للدراسة والتحليل .

---

1 سيد قطب ، خصائص التصور الاسلامي و مقوماته ، ص 16

2- سيد قطب ، معالم في الطريق ، ص 22

3 أنظر ، المصدر نفسه ، ص 169

الفصل الأول

منهج سيد في دراسة العقيـــدة
و موقفـــه من منهج الكلام و الفلسفة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مـقدمـة حـــول أهـــميـة الـمنـهـــــج :

تختلف منهجية العلوم باختلاف طبيعة العلوم ذاتها. وقدانصبت اهتمامات المفكرين والباحثين على دراسة المناهج بشكل أساسي و كبير، خاصة في العهود الأخيرة ، ذلك أن الإهتداء إلى المنهج الصحيح يضمن البحث المثمر و النتائج الباهرة في هذا الفن أو ذاك . وقد يكون البحث متعثرا والنتائج هزيلة ، بل قد تكون عكسية، على الرغم من أهمية الموضوع و ضرورته، إذا لم يهتد الباحث إلى المنهج الأقوم والطريق الأسلم في دراسة موضوعه . إن قيمة البحث بقيمة منهجه ، بما يوفر من جهد ، وبما ييسر من عمل ، و بما يوصل إليه من نتائج، و بما يفتح من آفاق جديدة أمام الدارسين و الباحثين .

- لقد انتهى ذلك العهد الموسوعي الذي كانت تمتزج فيه العلوم و تتداخل فيه النتائج دون الوصول إلى نتيجة تكون في مستوى الجهد المبذول . وإذا كانت العقيدة الإسلامية هي أشرف العلوم ، لتعلق موضوعها بمعرفة الحقائق الكونية الكبرى. ولأن ثمرتها هي هداية الإنسان. فإن الإهتمام بدراسة العقيدة من خلال المنهج الصحيح ، والمناسب لطبيعتها و غايتها أمر بالغ الأهمية.

هناك أمرينبغي الإشارة إليه، وهو أن هناك فرقا أساسيا بين منهج الفهم والإستنباط، ومنهج الصياغة والعرض. إن منهج الفهم يرمي إلى فقه الحقائق الإعتقادية،ومن ثم فأساسه العلاقة بين العقل كأداة للتعقل و الوحي كمصدر للعقيدة، و منهج الصياغة يرمي إلى تنزيل الحقائق الإعتقادية في الواقع وتصييرها سلوكا للإفراد و المجتمعات، و بالتالي فأساسه العلاقة بين النص و العقل و الحياة . و لعل فقدان العقيدة الإسلامية لفاعليتها في الواقع يعود في جزء منه إلى عدم الإهتداء إلى المنهج الصحيح لصياغتها . و جعلها أكثر إيجابية و تأثيرا . فبدل أن تصاغ العقيدة صياغة علمية عملية واقعية صيغت في كثير من الأحيان صياغة عقلية تجريدية غير واقعية . وإذا كانت الحقائق الإعتقادية ثابتة ، لا يدخلها التطور و لا يجري عليها التغيير، فإن واقعات الحياة وأحداثها متغيرة،والعقيدة الإسلامية مدعوة لأن تستجيب لهذا التطور والتغير كي تصلحه و تقومه وفق المنهاج الذي ارتضاه الله لعباده. إن المنهج الصحيح للفهم ، يؤدي إلى الإدراك الصحيح للحقائق الإعتقادية. و المنهج الصحيح للعرض يؤدي إلى تثبيت هذه الحقائق في نفوس المؤمنين بها حتى يحصل لها اليقين، كما يؤدي إلى إغراء المرتدين والمناوئين لها

إلى الإيمان بأحقية العقيدة الإسلامية ، فكم من باطل زينه حسن العرض ، و كم من حق خذله سوء العرض.إن الصياغة الصحيحة للعقيدة ، والمتجاوبة مع التغيرات تؤدي إلى إبراز القيمة الذاتية للعقيدة حتى تصير هي المرجع الأساسي في صياغة الحياة البشرية وحل مشكلاتها.إن الفصام النكد الذي يعيشه المسلم بين عقيدته وسلوكه نتيجة لغياب مرجعية العقيدة و هيمنتها ، و الذي كان بدوره نتيجة عدم الإهتداء إلى المنهج الأقوم في صياغة العقيدة الإسلامية .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تـــمـهيـد :

قبل دراسة منهج سيد قطب في فهم وعرض العقيدة الإسلامية، ينبغي لنا أن نتعرض أولا بشيء من الشرح لأهم المناهج التي تناولت العقيدة و مسائلها المختلفـة. والمتمثلـة في المنهج السلفي والمنهج الكلامي والمنهج الفلسفي. دون أن نتعرض لطريقـة المتصوفـة في هـذا الباب، لأنها لم ترق في نظرنا لكي تكون منهجـا علميـا بيّن المعالم واضح القسمات، قائما على الدقـة و الضبط، وإنما هي طريقـة ذوقيـة، تختلف من شخص إلى آخر ، باعتبارها قائمـة على الكشف عن طريق الأذواق و المواجيـد، التي لا تستطيـع أن تبرهن علميـا على صدق كشـوفها. فالعلم كما يقولون إما نقل مصدق أواستدلال محقق.<<وليس البرهان والدليل بنافع في هذا الطريق رداوقبولا>>[1]. وهاهنا ملاحظة ينبغي بيانها، وتتعلق بترتيب هـذه المناهج. فقد بدأنا بالمنهج الكلامـي ثم الفلسفي، وجعلنا المنهج السلفـي أخر المناهج من حيث الترتيب، لاعتقادنـا أن هنـاك تطابـقا كبيـرا بينـه وبين منهج سيد قطب. ولذلك تجوزنا كثيرا عندالحديث عن هذا المنهـج،لأن ما يجيء من كـلام حول منهج سيد قطب يشرحه ويوضحه أكثر .

أولا : منهج المتكلميـن في العقيـدة و موقـف سيد قطب منـه :

1- تعريـف علـم الكلام و أسبـاب نشأتـه :

لا نستطيع الحديث عن منهج المتكلميـن في العقيـدة من دون معـرفة خلفيـة نشـوء هـذا العلم والغرض منـه. أماالغرض من علم الكـلام فيستفـاد من تعريف كل من صاحب المقدمة وصاحب المواقف. فقد عرفـه ابن خلدون بأنـه << علم يتضمن الحجاج عن العقائـد الإيمـانيـة بالأدلـة العقليـة و الرد على المبتدعـة والمنحرفيـن في الإعتقـادات عن مذاهب السلف و أهـل السنـة >>[2].وعرفـه الإيجي بقولـه:<<الكلام علم يقتدر معـه على إثبـات العقـائـد الدينيـة بإيـراد الحجج و دفـع الشبـه >>[3]. من خـلال هذين التعريفين ندرك أن هـذا العلم وضع لرد الأفكـار و الإعتقـادات المنحـرفـة، و تفنيد شبـه و دعـاوى المبطليـن من أصحاب الديـانات والملل الأخـرى، بل و حـتى ممن ينتمـون – ظـاهرا – للإسلام وعقيـدتـه.

1- ابن خلـدون ، المقـدمة ، ص 470

2- المرجـع نفسـه ، ص 458

3. الإيـجي ، المواقف في علـم الكلام ، ص 07

ومن الواضح البين أن هـذا المنهج عقلي إلى حد كبير ، إن لم يكن عقليا صـرفا . و قد أدى إلى نشوء هذا العلم، ثم انتشـاره إنتشارا واسـعا أسباب كثيـرة، بعضهـا نابع من عمـق المجتمع الإسلامـي، وبعضـها وافد، بعضها فكري، وبعضها الآخرسياسي واجتماعي [1]. وقد لخص سيدقطب هذه الأسباب جميعا في إحتكاك الحياة الإسلامية الأصيلة بألوان الحياة الأخرى في البلاد المفتـوحة والثقافات السائـدة فيـها ، واشتغال المسلمين بالفلسفـة اليونانية و المباحث اللاهوتيـة المسيحيـة، و التي أخـذت طابع الترف العقلـي خـاصة بعد أن فرغت حياة المسلمين من هموم الجهـاد و استسلموا لموجـات الرخـاء [2]. ولسنا الأن بصدد التحقيق في هذه الأسباب ، وإنـما هي إشـارة اقتضاها سياق الحديث عن منهج المتكلمين في مسائل العقيـدة الإسلاميـة.

2- منهج المتكلميـن في الإستدلال على المسائل العقديـة :

إذا كـان المتكلمون ينطلقـون في حجاجهم و دفـاعهم عن العقيـدة الإسلاميـة من منطلق المؤمن بهـا ، المصـدق بقضـاياها و أحكـامها، خـلافـا للفلاسفة الذين ينطلقون من الفكر المجرد، فإن القاسـم المشترك بين الإثنيـن هو الإعتمـاد الكبيـر ، إن لم يكن الكلي على العقل في الإستدلال، و الإعتماد أيضـا على المنطـق اليونـاني ، وخاصة المعتزلـة الذيـن فتنـوا بالعقل فتنتهـم بالفلسفـة اليونـانيـة << فأضـافوا إلى اعتمـادهم المنطـق و الفلسفـة في مباحثهـم الكلاميـة لتوضيـح العقيـدة و الدفـاع عنها من شبـه المذاهب الثنوية وبخـاصة المانوية منهـا، البحث في خصـائص الأشيـاء و النفاد إلى حقائق الطبيعة للوصول إلى معرفة الخالق >> [3]. و هذا هو منشأ الخطإ في منهج المتكلمين، و الإنحـراف الذي صـاروا إليـه ، حيث أصبحت المعرفـة بالله تتوقف من الناحيـة المنهجيـة على النظر العقلي،حيث تنفرد الدلالـة العقليـة عندهـم بإثبـات حدوث العـالم لإثبـات قدم الصـانع، و لا تنضم إليـها الدلالـة السمعيـة إلا على سبيـل الموافقـة لا الإستدلال [4].

تحت تأثيـر فلسفـة أرسطو – المعلم الأول – القائمـة على التجـريد بالنسبة لخـالق الكون، إضطر المعتزلـة أن ينفـوا الصفـات الإلهيـة ، فقـالوا الله قـادر بلا قدرة، عـالم بلا علـم ... لأن إثبـات الصفـات في زعمهـم مناف للتوحيـد و التجـريد. و تحت تأثير اللاهوت المسيحـي اضطروا إلى القول بخلـق القـرآن حتـى يبطلوا دعـوى النصارى في عيسى، كلمـة اللهءأنه إلـه. وهكذا نجـد المتكلمين كلما اقتربـوا من الفلسفـة وطبيعتـها ابتعدوا عن

1- أنظر ، نجي هـاشم فرغل ، الأسس المنهجية لبنـاء العقيـدة الاسـلامية ، ص 22

2- أنظر ، سيـد قطب ، خصائص التصور الاسـلامي و مقومـاته ، ص 10

3- علي الشـابي ، مباحث في علم الكـلام و الفلسفـة ، ص 13

4- أنظر ، نجي هـاشم فرغل ، المرجع السـابق ، ص 271

العقيدة و حقيقتها ، و أنها أحكام إلاهية مستفادة من الوحي المعصوم. و أنت حينما تطالع كتابا من كتب متأخري المتكلمين لا تكاد تجده ذا صلة متينة بالعقيدة الإسلامية كما بينها النبي صلى الله عليه و سلم، و كما عرفها وتعامل معها المسلمون ، خاصة في صدر الإسلام. و غاية ما يجد القارىء في مثل هذه الكتب بحوث طبيعية و منطقية تتمحور حول الجواهر والأعراض و الخلاء و الأفلاك و غيرها من الموضوعات الفلسفية والطبيعية البحتة، كما يلاحظ ذلك جليا في كتاب << المواقف في علم الكلام >> للإيجي و غيره من الكتب الكلامية. ولم يفد علم الكلام العامة في تصحيح عقيدتها أو تثبيت الإيمان في قلوبها. و كان فتنة للخاصة حيث أدى إلى التنازع بينها. و لم يبق القرآن الكريم هو كتاب العقيدة الإسلامية الصحيحة الصافية، بل أصبح عند هذه الفرق و المذاهب مصدرا لتأييد انقساماتها و اختلافاتها، و صارت كلها << تنظر إلى القرآن الكريم بعين مذهبها و تفسره بما يلائمه، فالمعتزلي يطبق القرآن على مذهبه في الاختيار و الصفات والتحسين والتقبيح العقليين، و يؤول ما لا يتفق و مذهبه >>[1]. و كذلك يفعل كل فريق من الفرق المخالفة، مما أدى إلى إضعاف سلطة القرآن الكريم على القلوب و الأرواح و العقول، بعد أن أصبح – بحكم الواقع – مجرد رافد من روافد الثقافة الإسلامية.

ولم يكن الإفتتان بالعقل زلة الأولين فقط، بل حتى كثير من المعاصرين فتنوا بما وصل إليه العقل الغربي اليوم، في مجال العلوم التطبيقية والعقلية، فأرادوا أن يبرزوا دور العقل في مجال العقيدة الإسلامية فأبتعدوا عن الصواب، و غالوا حين رأوا أن القرآن الكريم امتاز << عن غيره من الكتب الدينية بمخاطبة العقل في جميع العقائد، والتحاكم إليه عند التحالف والتعاند، فلم يقرر عقيدة أو يرد أخرى إلا بالدليل العقلي>> [2]. وإذا كان القرآن الكريم قد خاطب العقل حقا ، ورفع من شأنه فعلا، وإذا كان هناك من العقائد ما يمكن إثباته عقلا بمساندة الشرع،فإن هناك من العقائد ما لا دليل عليه إلا الشرع الحكيم، كالإيمان بالغيب عموما، من الجنة و نعيمها، والنار وعذابها، والملائكة والجن و غير ذلك. و بذلك يكون الإعتماد على العقل في مجال العقيدة أمرا محفوفا

---

1 - أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، 368/1

2- محمد توفيق صدقي ، الدين في نظر العقل الصحيح ، ص 63

بمخاطر كثيرة، لعل من بينها الإبتعادعن المنهج الذي جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم، و سار عليه السلف الصالح، و ما ينجر عن ذلك من الإختلاف و التفرق في شأن العقيدة و الإيمان.

لا شك أن القرآن الكريم مليء بالآيات التي تدعوا العقل إلى التأمل و التفكر، و لا يستطيع أحد أن ينكر ما في القرآن الكريم من الدلائل العقلية والبراهين المنطقية اليقينية. << والمتكلمون يعترفون بأن في القرآن الكريم من الأدلة العقلية الدالة على أصول الدين ما فيه، لكنهم يسلكون طرقا أخرى كطريق الأعراض>>[1].

و هذا المنهج الذي سار عليه المتكلمون تحت تأثير الفلسفة اليونانية وعلم الكلام المسيحي[2]، هو الذي صدهم عن القرآن و منهجه، و أنساهم ما فيه من أدلة يقينية بسيطة.

إن اليقين العقلي الذي يبحث عنه علماء الكلام، و الارتقاء المعرفي من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان، لم يحصلوا عليه، و أنى لهم ذلك، وهم يختلفون في القضية الواحدة اختلافا كبيرا. بل و هم يغيرون آراءهم – التي صارت يقينا عندهم – مرة بعد أخرى. <<وأفضى الكلام بأكثرهم إلى الشكوك و ببعضهم إلى الإلحاد، و لم تسكت القدماء من هذه الأمة عن الكلام عجزا و لكنهم رأوا أنه لا يشفي غليلا ثم يرد الصحيح عليلا، فأمسكوا عنه و نهوا عن الخوض فيه >>[3]. لأجل هذا عارض كثير من العلماء منهج علم الكلام، و تاب منه كثير ممن ساروا في طريقه، و على رأسهم حجة الإسلام أبي حامد الغزالي، الذي ظل طول حياته متكلما كبيرا، يضع القواعد، و يؤصل الأصول لهذا العلم و لكنه لم يَنْفَهِ إلى مراده، ولم يحصل على بغيته، ففضح علم الكلام و بَيَّنَ مضاره ، فقال:<< أما مضرته فإثارة الشبهات وتحريك العقائد و إزالتها عن الجزم والتصميم >>[4]. يكاد ولا ينفي عن علم الكلام أي فائدة مرجوة، معتبرا ذلك مجرد ظَنِّ حَسَنٍ بهذا العلم، فيقول : << و قد يظن أن فائدته كشف الحقائق و معرفتها على ما هي عليه، و هيهات فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، و لعل التخبيط و التضليل فيه أكثر من الكشف و التعريف >> [5].

1- ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، 163/19

2- أنظر ، آدم متز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ص 374

3- ابن الجوزي ، تلبيس ابليس ، ص 82

4- أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ،68/1

5- المرجع نفسه ، ص 86

وهذا كَلَامٌ مَمن خَبَرَ هذا الفن، و حُكْمٌ ممن مارسه ممارسة العارف المقتدر. لذلك وقف الأئمة الأربعة من علم الكلام موقف المعارض و المنفر بل و المحرم له لما ينطوي عليه من مخاطر تمس عقائد المؤمنين[1]. و هو الموقف الذي وقفه كثير من العلماء. غير أنه من تمام هذا البحث، و ما تقتضيه الموضوعية و الأمانة العلمية القول بأن بعض متأخري السلف مالوا قليلا نحو منهج علم الكلام، كعبد الله بن سعيد الكلابي و الحارث المحاسبي ، وحتى ابن تيمية الذي سل سيفه و أبرى قلمه للدفاع عن منهج السلف، إلا أن منهجه تطغى عليه المسحة العقلية في المناقشة و التحليل، و حتى في استعمال بعض مصطلحات المتكلمين.

ولعل عذره في ذلك أنه كان يورد شبهات الخصوم و يرد عليها، و من ثم اضطر إلى ما ذكرناه. و لم يكن هؤلاء الذين ذكرناهم و أمثالهم متأثرين بشيء مما تأثر به علماء الكلام عموما، من فلسفة يونانية أوعلم كلام مسيحي، و لكن الضرورة التي فرضها علم الكلام أنذاك هي التي جعلتهم يميلون شيئا ما إلى المنهج الكلامي لمناصرة المنهج السلفي.

الآن، وقد انتهينا من هذا العرض الموجز عن علم الكلام و دوافعه و نتائجه و موقف جمهور العلماء منه، و المتمثل في رفضه شكلا و مضمونا، نأتي الآن لنعرف موقف سيد قطب من علم الكلام، كمنهج من مناهج دراسة العقيدة الإسلامية.

3- موقف سيد قطب من علم الكلام :

خصص سيد قطب في كتابه << خصائص التصور الإسلامي و مقوماته >> فصلا تحت عنوان ((كلمة في المنهج)) بين فيه منهجه في دراسة العقيدة الإسلامية، و التعامل مع القرآن الكريم، الذي هو المصدر الأول لهذه العقيدة. كما تحدث بالتفصيل عن منهج الفلسفة و علم الكلام، و النكسة التي أصابت العقيدة الإسلامية على مستوى المنهج، وعلى مستوى الشعور ، يوم صيغت من خلال هذين المنهجين، حيث أصبحت العقيدة جدلا و لجاجا ، و خصومة و عنادا. بدلا من روح يسري في القلوب و نظام يحكم حياة الأمم و الشعوب. و لهذا كان رفضه للفلسفة و علم الكلام قاطعا. معتبرا إياهما فتنة أصابت الإسلام و المسلمين، كفتنة التقليد التي وقع فيها كثير من المسلمين اليوم للفكر الغربي، وكأن التاريخ يعيد نفسه فكما << يُفتَن

---

1 أنظر : عبد الحليم محمود : التفكير الفلسفي في الاسلام ص 127 و ما بعدها

منا ناس اليوم بأزياء التفكير الغربية، فكذلك كانت فتنتهم بتلك الأزياء وقتها فحاولوا إنشاء فلسفة إسلامية كالفلسفة الإغريقية، وحاولوا إنشاء علم الكلام على نسق المباحث اللاهوتية مبنية على منطق أرسطو»[1].

إن الفلسفة اليونانية ليست مجرد بحوث عقلية، وإن المنطق الأرسطي ليس مجرد آلة تعصم الذهن من الخطإ، بل هما مشحونان بالأساطير اليونانية و الأفكار الوثنية، و من هنا فإن الإعتماد عليهما من شأنه أن يعرض نصاعة العقيدة الإسلامية و نضارتها إلى الفساد، و قد حدث. كما أن موقف سيد قطب الرافض للفلسفة و الكلام مبني على إدراكه للفرق الجوهري و الكبير بين العقيدة الإسلامية و الفلسفة و الكلام. فهذان الأخيران فنا عقليا بحتا و نظريا صرفا. و أما العقيدة الإسلامية فهي عملية أكثر منها نظرية، ومن هنا كان << لابد أن تعرض العقيدة بأسلوب العقيدة، إذ أن محاولة عرضها بأسلوب الفلسفة يقتلها، ويطفىء إشعاعها و إيحاءها، و يقصرها على جانب واحد من جوانب الكينونة البشرية الكبيرة >>[2]. وأسلوب العقيدة الذي يشير إليه سيد، هو الأسلوب القرآني القائم على بناء العقيدة نظريا من خلال الإستدلال، و بنائها عمليا من خلال التأثير النفسي و الوجداني. و إذا كان المنطق و الفلسفة يخاطبان العقل وحده، فإن القرآن يخاطب العقل و الفطرة و الوجدان معا، وذلك مظهر من مظاهر الإعجاز القرآني. ومن هنا – يرى سيد قطب – أنه لا سبيل إلى محاولة التقريب بين هذين المنهجين المختلفين، و لا فائدة من صياغة العقيدة الإسلامية بغير منهجها الأصيل، لأن ذلك يفسدها بل و يفسد فهمنا للقرآن الكريم، حين يُؤوَّل بطريقة تعسفية لتأييد وجهة نظر معينه، أو دحض أخرى، و من هنا << ما كان لنا اليوم أن نقع فيها فنفسد جمال العقيدة و جمال القرآن بقضايا علم الكلام >>[3]. إن عصمة الفكر من الإنحراف، والقلب من الضلال انما هو باتباع القران و منهجه،أما إذا أراد العقل أن يستقل بنفسه في قضايا العقيدة فإن الضلال و الشطط هو نِهَايَتَهُ المحتومة. فلقد ضل فلاسفة اليونان، و أضلوا ، حينما زينت لهم عقولهم البحث فيما وراء الطبيعة، و ضل الغربيون اليوم وأضلوا، حين فتنوا بالعقل ومنجزاته العلمية، فظنوا أنه كفيل بالإجابة عن كل سؤال، والإحاطة بكل موجود، وكانت النهاية هي عدم الإهتداء إلى قول سديد أو أمر رشيد. << وعصم الإسلام أهله المؤمنين بحقيقته أن يضربوا في هذا التيه بلا دليل، و أن يحاولوا هذه المحاولة الفاشلة ، الخاطئة

---

1 - سيد قطب ، خصائص التصور الإسلامي و مقوماته ، ص 11

2 - المصدر نفسه ، ص 16

3 - سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 53/1

المنهج ابتداء ، فلما أراد بعض متفلسفتهم متأثرين بأصداء الفلسفة الإغريقية على وجه خاص أن يتطاولوا إلى ذلك المرتقى، باؤوا بالتعقيد و التخليط، كما باء أساتذتهم الإغريق ! و دسوا في التفكير الإسلامي ما ليس من طبيعته، و في التصور الإسلامي ما ليس حقيقته >>[1].

إن علم الكلام- في نظر سيد قطب- ليس بالعلم الإسلامي الأصيل، و إنما هو آفة أصابت الفكر الإسلامي تحت التأثر بالفكر الإغريقي والمسيحي. و من ثم كان غريبا على حقيقة و طبيعة التصور والفكر الإسلاميين. ولذلك كان من رأي سيد أن يطرح هذا الفكر جملة، و أن يصادر كلية. يقول سيد - بعد حديثه عن أثر الفكر الدخيل في علم الكلام-:<< و من ثم يحسن عزل ذلك التراث جملة عن مفهومنا الأصيل للإسلام >> [2].

و سنرى بعد حين مدى أحقية هذا الطلب من طرف سيد.

كان من القضايا التي أتسع نطاق الإختلاف فيها بين المتكلمين ما سمي بقضية الجبر و الإختيار. فعمدت كل فرقة إلى بعض النصوص الشرعية التي تؤيد في ظاهرها مذهبها، لتتخذها سندا في تقرير ما تراه صوابا، و دحض ما تراه باطلا. مع غض الطرف عن بقية النصوص الأخرى التي تعطي مجتمعة مع بعضها المفهوم الصحيح و الواضح لهذه المسألة، التي شاء لها أصحاب الكلام أن تصير غامضة و معقدة. يقول سيد : << والذين أثاروا قضايا القضاء و القدر و الجبر و الاختيار، وإرادة العبد و كسبه ليجعلوا منها مباحث لاهوتية تخضع لما تتصوره عقولهم من فروض و تقديرات، إنما يجانبون منهج القرآن في عرض هذه القضية في صورتها الواقعية التقريرية البسيطة >>[3].

يرى سيد قطب أن المتكلمين لم يكونوا ينطلقون من القرآن الكريم في تقرير مثل هذه القضايا انطلاقا مجردا من الخلفيات الفكرية، و التصورات العقلية، بل يعملون على تأويل آيات القرآن لتأييد ما استقر في أفهامهم، و ذلك أكبر خطإ منهجي وقع فيه المتكلمون، خاصة أيام التقليد الأعمى و التعصب المذهبي المقيت. لقد أحسن الرعيل الأول الأخذ من القرآن الكريم و الامتثال له. فبدل حالهم من حال إلى حال، و بقي هذا القرآن هو هو، قادرا على إحداث مثل ذلك الأثر في العقول و الوجدان، و الواقع المعيش متى ما وجد من يحسن التعامل معه، و الإستماع إليه، لأنه يلمس العقول و النفوس و الفطر لمسا

---

1 المصدر نفسه ، 106/1

2 سيد قطب ، خصائص التصور الاسلامي و مقوماته ،ص 12

3 المصدر السابق 1066/2

مباشرا، فيوحي إليها أعظم الحقائق فتفهمها و تنفعل بها. غير أن المتكلمين فلسفوا العقيدة، فبعّدوا ما قرّبه القرآن، و عقّدوا ما بسّطه، و طلسموا ما وضحه حتى أضحت العقيدة لغزا محيرا للخاصة ناهيك عن العامة.

إن المنهج القرآني لا يلغي العقل و لا يصادمه، و لكنه في الوقت نفسه لا يعول عليه و حده،شأن المنهج الكلامي. و من هنا يعقد سيد قطب مقارنة بسيطة بين المنهجين في الجدال عن العقيدة الإسلامية، فيرى أن المنهج القرآني << يستخدم مشاهد الكون و حقائق النفس، فيجعل الكون كله إطارا للمنطق الذي يأخذ به القلوب، و يوقظ به الفطرة و يجلوها لتحكّم منطقها الواضح الواصل البسيط و يستجيش به المشاعر و الوجدانات بما هو مركوز فيها من الحقائق التي تغشيها الغفلة و النسيان، و يحجبها الجحود و الكفران، و يصل بهذا المنطق إلى تقرير الحقائق العميقة الثابتة في تصميم الكون و أغوار النفس، و التي لا تقبل المراء الذي يقود إليه المنطق الذهني البارد التي أنتقلت عدواه إلينا من المنطق الإغريقي و فشا فيما يسمى علم التوحيد أو علم الكلام >>[1]. و خلاصة هذه المقارنة أن المنطق الذهني بارد لا يجلو فطرة، و لا يحرك وجدانا. و أن المنطق القرآني يستخدم حقائق ثابتة للتأثير على الفطر و القلوب في منطق واضح بسيط. إن علم الكلام كما قلنا من قبل، لم ينبت نباتا طبيعيا في البلاد الإسلامية، و إنما جاء نتيجة تأثر بالفكر الوافد، أو رد فعل ضده، و لذلك يعتمد سيد قطب على غرابة المنهج الكلامي و جفوته و مجانبته للمنهج القرآني ليصادر علم الكلام بالتصريح تارة و بالتلميح أخرى. يقول سيد قطب مبينا طريقة القرآن في إثبات العقيدة : << و لايتخذ طرائق الجدل الذهني البارد، و القضايا المنطقية التي لاحياة فيها و لا حركة، تلك التي وفدت على التفكير الإسلامي من خارجه فظلت غريبة عليه، و في القرآن المثل و المنهج و الطريق >>[2]. إن موقف سيد من علم الكلام و قضاياه و منهجه واضح و صارم. فهو يعتبره وافدا غريبا مجافيا لطبيعة العقيدة الإسلامية، و للمنهج القرآني في عرض هذه العقيدة.

---

1. المصدر نفسه 2660/5 - 2661

2. المصدر نفسه 2729/5

قبل أن نعرف ما إذا كان سيد على صواب أو على خطإ في هذا الموقف، ينبغي أن نشير إلى أن كثيرا من العلماء في العصر الحديث وقفوا من علم الكلام موقف الرفض المطلق، مثل ما هو موقف زعيم الحركة الوهابية، محمد بن عبد الوهاب كما يتجلى ذلك من خلال << كتاب التوحيد >>.

و وقف بعضهم موقف الإصلاح كما هو الحال بالنسبة للإمام محمد عبده و محمد إقبال و مالك بن نبي الذي دعا إلى تجاوز علم الكلام، و قد عبر عن الأزمة التي عجز علم الكلام عن تخطيها فقال: << إن مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده و نملأ به نفسه باعتباره مصدرا للطاقة>>[1]. إن علم الكلام في صورته المنطقية الجافة كان عاجزا طوال قرون عديدة أن يقوم بدور فعال و حيوي في حياة المسلمين. و من ثم كانت الحملة ضده قوية من طرف العلماء قديما و حديثا، ومن بينهم سيد قطب.

إن السؤال الذي ينبغي طرحه الآن هو لماذا كان موقف سيد قطب تجاه علم الكلام صارما كل هذه الصرامة إلى حد المطالبة بعزله عن الثقافة الإسلامية، و هل كان هذا الموقف سديدا ؟ يعلل سيد قطب موقفه من علم الكلام باعتبار أن هذا الأخير متأثر كثيرا بطبيعة الفلسفة الإغريقية و عناصرها الوثنية مما شاب صفاء التصور الإسلامي كما أن منهج علم الكلام حوّل العقيدة الإسلامية إلى ثقافة نظرية جافة، وكانت غاية نتاجه الخلافات المذهبية، التي عادت حتى على القرآن الكريم بالفساد بسبب التأويلات المتعسفة[2]. و لعل هذه الأسباب نفسها هي التي جعلت الكثير من العلماء المتقدمين و المتأخرين يقفون من علم الكلام موقف الرفض أو عدم الرضى على الأقل.

كان سيد قطب مدركا تماما لموقفه هذا، و كان يعلم أنه سيقابل بالدهشة و الاستغراب على الأقل من قبل المشتغلين بهذا الفن و مع ذلك يمضي في قناعة تامة و حزم أكيد مطالبا بإلقاء كل مباحث علم الكلام، و ما ثار بين الفرق من جدل في مختلف العصور، و العودة إلى القرآن الكريم لاستمداد خصائص و مقومات التصور الإسلامي [3]، كما أستمدها السلف الصالح.

1- مالك بن نبي ، وجهة العالم الاسلامي، ص 48

2- أنظر ، سيد قطب ، خصائص التصور الاسلامي و مقوماته ، ص 11

3- أنظر ، المصدر نفسه ، ص 12

إن سيد قطب بهذا الموقف الحازم لا يقبل بعلم الكلام إلا من خلال << دراسته دراسة تاريخية بحتة لبيان زوايا الانحراف فيه و أسباب هذا الانحراف، و تجنب نظائرها فيما نصوغه اليوم من مفهوم التصور الإسلامي >>[1]. و موقف سيد قطب من علم الكلام سواء في شكله القديم أو الحديث واحد، و لذلك فهو يرفض المنطق التي سارت عليه المدرسة العقلية الحديثة بزعامة محمد عبده [2]. و على الرغم من اعترافه بحسن نوايا أصحاب هذه المدرسة و جهدهم الكبير في هذا المجال إلا أنه يرفض استعارة أي منهج لدراسة العقيدة الإسلامية غير المنهج القرآني الأصيل.

و إذا تم لنا التعرف على المنهج الكلامي، و موقف سيد قطب منه، فلنجعل حديثنا الآن عن المنهج الفلسفي، و موقف سيد قطب منه.

1 المصدر نفسه ، ص 13

2 أنظر ، سيد قطب ، في ظلال القرآن 3978/6 و ما بعدها

ثانيـا : منهج الفلاسفـة في العقيـدة و موقف سيـد منـه :

1- طبيعـة الفلسفـة و منهجـها :

إذا كـان المتكلمـون ينطلقـون في أبحـاثهم من باب الدفـاع عن العقيدة، فإن الفلاسفة يعملون من أجـل التقريب بين حـقائق الدين و مقـولات الفلسفـة.

عـرف المسلمـون الفلسفة عن طـريق الإغـريق، بعدما اهتم بعـض خـلفاء بني العباس بها، و انتدبوا من يقوم بترجمتها و تدوينها، و من هنا بدأ طلب بعض المسلمين لها، فأقبلوا عليها ، وتناظروا في مسائلها، كما درسوا المنطق اليوناني.وغالى بعض المسلمين في تقليد فلاسفة الإغريق،وأعجبوا إلى حد كبير بعقل أرسطو وأفلاطون وغيرهما. وكانت القضايا الطبيعية تبحث في الفلسفة اليونانية إلى جانب القضايا الإلهية والأخلاقية. فلما انتقلت إلى المسلمين،انتقلت بكل قضاياها و بمنهجها العقلي البحت، و ظن الفلاسفة الإسـلاميون، في غمرة الإفتـتان بالفلسفة اليونانية أن العقل ليس يعجزه شيء << فزعموا أن الوجود كله الحسي منه و ما وراء الحسي تُدرَك أدواته و أحواله بأسبابها وعللها بالأنظار الفكرية والأقيسة العقلية ، و أن تصحيح العقائد الإيمانية من قِبَلِ النظر لا من جهة السمع >> [1] . وإذا كان البحث العقلي في الإلهيات أمرا طبيعيا بالنسبة للمفكرين الذين نـشأوا في أقاليم لم يوجد فيها كتاب منزل فإنه << في البيئات التي فيها كتاب مقدس يحتفظ بنضرته، و لا يشك إنسان في صحته، فإنه من غير الطبيعي أن ينشأ بجوار هذا النص المعصوم إختراعات ذهنية تتصل بعالم الغيب>> [2].

وإذا كان العقل هواللطيفة التي ميز الله بها الإنسان عن الحيوان، و جعله أساس المعرفة فإنه لم يؤت من الطاقة ما يخوله حق بحث القضايا الغيبية.

2- محاولات التوفيق بين الفلسفة و الدين و مجالاته :

كان هم الفلاسفة الإسلاميين- و خاصة الفلاسفة المشائين- منصبا على محاولة التقريب والتوفيق بين الفلسفة و الدين على عدة مستويات. أما على المستوى الأول ، فقد حاولوا التوفـيق بين العقل في طبيعته والـدين في طبيعته،وكان ابن رشد من أكثر الفلاسفة محاولة في هذا المجال .فهو يوضح ذلك بقوله:<<فإنا معشرالمسلمين نعلم

1 ابن خلـدون ،: المقـدمة ، ص 514

2- عبـد الحليـم محمـود ، التفكيـر الفلسفـي في الاسـلام ، ص 463

على القطع أنه لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة مـــا ورد به الشرع، فإن الحق لا يضاد الحق بل يـوافقـه و يشهد له >> [1]. فانظر كيف جعل الشرع و العقل في منزلة واحدة ، و نحن نعلم أن الشرع معصوم، والعقل ليس كذلك. بل يذهب ابن رشد مذهبا أبعد من ذلك، حين يجعل الحكم العقلي هوالحكم النهائي، والحكم الشرعي تبعا له، فيقول : << ونحن نقطع قطعا أن كل ما أدى إليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع أن ذلك الظاهر يقبل التأويل>>[2] و إذا كنا نتفق مع ابن رشد في إمكانيه تأويل بعض الأحكام الشرعية غير القطعية، فإن هذا المذهب لا يعمَّم ليصير الشرع تابعا و العقل متبوعا، كما هو الأمر عند جل الفلاسفة و كثير من المتكلمين.

أما المستوى الثاني الذي حاول الفلاسفة من خلاله التوفيق بين الدين والفلسفة فهو المصطلحات.إن المصطلحات ليست كلمات جامدة، بل هي أوعية لمعان. والدين، من حيث هو شرع الله تعالى، له اصطلاحاته الخاصة، و الفلسفة من حيث هي نتاج بشري محض، لها اصطلاحاتها الخاصة، لكـن الفلاسفـة الإسلاميين وهم يحاولون التقريب بين الفلسفة و الدين تركوا المصطلحات الدينية جانبا، واستعملوا بدلها المصطلحات الفلسفية. وهوما أشار إليه سيد قطب- في معرض بيان تأثر الفلاسفة الإسلاميين بفلسفة الإغريق - بقوله :<<أما المصطلحات فقد كادت تكون كلها مستعارة >> [3] ، فراحوا يضعون المعاني الشرعية في قوالب وضعية [4]. فإذا كان الله تعالى سمى نفسه ((اللـه))، و جعل هذا الإسم علما على ذاته المقدسة، فإن الفلاسفة الإسلاميين - تقليدا منهم لفلاسفة الإغريق - يطلقون عليه مصطلح ((واجب الوجود)) أو ((الوجود المطلق))، و إذا كـان اللـه قد سمى نفسه ((الأول)) فإنهم سموه ((القديم)). و شتان بين الكلمتين، خاصة إذا أدركنا أن كلمة القديم عند اليونان هو من حرك العالم ثم تركه. أما ((اللـه)) فهو القائم على كل نفس، وهو قيوم السماوات و الأرض. وسموا الله أيضا ((بالعقل الأول))، الذي تعقل ذاته ففاضت عنه عقول أخرى. و على هذه الطريقة من الإقتباس، بـل من الإستعارة الكاملة للمصطلحات اليونانية الوثنية سار الفلاسفة للتقريب بين الدين و الفلسفة ، فركبوا بذلك صعبا، و راموا محالا.ولم تكن محاولة الفلاسفة الإسلاميين - و المشائين بوجه أخص- لتتوقف عند التقريب بين الدين والفلسفة من حيث طبيعتها ومصطلحاتهما ولكن تجاوزت ذلك إلى التوفيق بينهما في القضايا والمسائل والمباحث.

---

1 - ابن رشد ، فصل المقال ، ص 33- 34

2- المرجع نفسه، ص 44

3 - سيد قطب ، خصائص التصور الاسلامي و مقوماته ،ص 11

4 - أنظر ، عبد المنعم صالح العلي العزي ، أصول العقيدة الاسلامية ، ص 66

و لنأخذ على سبيل المثال مسألة خلق العالم، و هي من المسائل التي شغل بها الفكر البشري قديما و حديثا، أما العقيدة الإسلامية فقد حسمت هذه المسألة بأن الخلق كله صادر عن الله تعالى بكلمة ((كن)) ، قال تعالى : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئا ان يقول له كن فيكون** ﴾ يس 81 . والوجود كله ، في التصور الإسلامي معادلة طرفاها خالق ومخلوق، فكل ما عدا الله تعالى مخلوق لله عز وجل . أما الفكر الفلسفي الإغريقي فقد انتهى إلى أن العالم قديم، فلما أطلع الفلاسفة المشاؤون على هذه النظرية، حاولوا أن يقربوا و يوفقوا بينها و بين((نظرية)) الخلق في القرآن – و أقول هنا نظرية من باب المشاكلة – فانتهوا إلى نظريتين عجيبتين، الأولى نظرية القدم النسبي، والثانية نظرية الفيض أوالصدور أوكما يسميها ابن سينا(الإبداع).وملخص نظرية القدم النسبي أن الحدوث عندهم نوعان :

1- حدوث زمني و يقابله قدم زمني.

2- حدوث ذاتي و يقابله قدم ذاتي.

أما الحدوث الزمني فهو وجود الشيء بعدأن لم يكن. وأما القدم الزمني فهو امتداد الشيء في الزمن إلى ما لا نهاية. والحدوث الذاتي هواحتياج الشيء إلى غيره، أي احتياج المعلول إلى العلة، و القدم الذاتي عدم الاحتياج إلى العلة. و بهذا التفريق << الذكي >> من طرف الفلاسفة ، يصبح من غير الضروري التلازم بين الحدوث الذاتي و القدم الزمني. فالعالم حادث ذاتيا، و لكنه قديم في الزمن ، ممتد إلى مالا نهاية .

و أما ملخص نظرية الفيض فهو أن الله ما دام واحدا، لا تجوز عليه الكثرة، فلا يصح، ولا يعقل أن يباشر الخلق بنفسه لئلا تصدر عنه الكثرة. فتعقل الله تعالى أو ((العقل الأول))، كما اصطلحوا عليه، ذاته فتولد عنه موجود عقلي، فتعقل هو الآخر ذاته إلى غاية وجود العقل العاشر أو العقل الفعال، الذي توجد عنده العناصر الأربعة، و الذي يباشر بدوره الخلق و تصدر عنه الكثرة. و كانت هذه إحدى عجائب الفلاسفة المشائين، و هم يحاولون التقريب بين الدين و الفلسفة [1]، ليهزوا الدين من أركانه، فيهدوا العقيدة هدًّا.

وكأني بهم نسوا جميع الآيات التي ترد أمر الخلق إلى الله ردا مباشرا ، كقوله تعالى : ﴿ **قل هو الذي أنشأكم**

---

1 أنظر ، عباس محمود العقاد ، الفلسفة الاسلامية ، ص 25- 26

و جعل لكم السمع و الابصار و الافئدة قليلا ما تشكرون » الملك 23. وقوله تعالى:« **يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسويك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك** » الانفطار 8،7،6. و هناك الكثير من الآيات غيرها. كما هناك الكثير من الأمثلة على هذه المحاولة للتقريب بين الدين والفلسفة، والتوفيق بين آراء العلماء و الحكماء.

إن هذه المحاولة ،والأفكار التي تولدت عنها، لم تلق صداها في العالم الإسلامي، لا في وسط طبقة الجمهور من العامة ، و لا حتى في وسط جمهور الخاصة ، اللهم إلا القليل منهم ، كبعض علماء الكلام الذين تأثروا بعض التأثر بمقولات بعض الفلاسفة، وما عدا ذلك فإن أغلب الطبقة المثقفة على اختلاف تخصصاتها و نزعاتها و قفت ضد الفلسفة و الفلاسفة، نظرا لما كانت تشعر به من بعد عميق بين الفلسفة والعقيدة الإسلامية . وقد كان حجة الإسلام أبو حامد الغزالي أشد الناس حربا على الفلسفة . و لم تكن حربه تلك مبنية على عاطفة دينية فقط – شأن عامة الناس– بل موقف دراية و خبرة. كيف لا وقد وضع في الفلسفة كتابا وافيا بمقاصد الفلاسفة، شارحا أقوالهم و مبينا أدلتهم ، فلما وَفَّى العمل و أكمله أتى عليه من القواعد في ((تهافت الفلاسفة)) فأصبحت الفلسفة أنقاضا بعد أن كانت قصرا شامخا. يقول الغزالي : << فلما رأيت هذا العِرْق من الحماقة نابضا على هؤلاء الأغبياء، انتدبت لتحرير هذا الكتاب ردا على الفلاسفة القدماء، مبينا تهافت عقيدتهم و تناقض كلمتهم فيما يتعلق بالألهيات، و كاشفا عن غوائل مذهبهم و عوراته، التي هي على التحقيق مضاحك العقلاء و عبرة عند الأذكياء >> [1] .

و يصل الغزالي إلى نتيجة مفادها أن الفلسفة بحث في خراب و جري وراء سراب فيقول : << ونحن نكشف عن فنون ما انخدعوا به من التخاييل و الأباطيل، و نبين أن كل ذلك تهويل ما وراءه تحصيل >> [2] . و هو الحكم نفسه الذي أصدره بعد ذلك ابن خلدون على الفلسفة حين قال << فهذا العلم كما رأيته غير واف بمقاصدهم التي حوموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع و ظواهرها، و ليس له فيما علمنا إلا ثمرة واحدة و هي شحذ الذهن في ترتيب الأدلة و الحجج >> [3] . وإذا كان الفقهاء و المفسرون و أصحاب الحديث – عموما – حرموا الفلسفة، واعتبروا ذلك بدعة أو كفرا بواحا، فإن ابن خلدون يشترط فيمن ينظر فيها أن يكون واسع الإطلاع على الشرع

1 ابو حامد الغزالي ، تهافت الفلاسفة ، ص 38.

2 المرجع نفسه ، ص 39

3 ابن خلدون ، المقدمة ، ص 519

مُلِمًّا بعلومه المختلفة، فيقول: << و ليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير و الفقه، و لا يُكِبَّن أحد عليها و هو خِلوٌ من علوم الملة، فقلَّ أن يسلم لذلك من معاطبها >> [1].

إن العقل مهما كان حاد الذكاء نافذ البصيرة فإنه يبقى دائما قاصرا، و يحتاج دوما إلى من يعلمه و يعرفه بما لا طاقة له به، يبقى في حاجة ماسة إلى الوحي الإلهي المعصوم. الذي عرَّف الناسَ بقدر وطاقة عقولهم فقال تعالى: ﴿ **و يسئلونك عن الروح قل الروح من امر ربي و ما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ الإسراء 85. وإذا كان العقل عاجزا عن إدراك الغيب والإحاطة بكنه مخبوءاته ففيم البحث؟ وفيم إضاعة الوقت؟ وحتى إن بحثوا واستقصوا في البحث فإن تفلسفهم لا يصلح << أن يكون أساس توجيه ديني لأنه لا يلتئم مع طبيعة الدين كدين ، كما لا يصلح أن يكون أساسا لتوجيه عقلي لما فيه من كثرة التعاريج و الإلتواءات نتيجة الخلط من عدة مذاهب وآراء >>[2] .ولو أن هؤلاء الفلاسفة تكلموا في الرياضيات و الطبيعيات وغيرها من الموضوعات لما خاصمهم أحد، و لما حمل عليهم من حمل من العلماء إلى درجة أن فسقوهم و كفروهم ، و لكن لما تكلموا في الآلهيات ، و جعلوا العقل مستقلا بالإدراك ، مستغنيا عن الشرع، مستلهمين الرشد من الفلاسفة الإغريق، أكثر من استرشادهم بهدي الأنبياء. لما فعلوا ذلك انحرفوا ، و لم يعودوا بشيئ من اليقين، فأنكر الناس صنيعهم واعتبروه من تلبيسات إبليس كما قال ابن الجوزي : << و قد لَبَّس إبليس على أقوام من أهل ملتنا فدخل عليهم من باب قوة ذكائهم و فطنتهم فأراهم أن الصواب اتباع الفلاسفة لأنهم حكماء، قد صدرت منهم أقوال و أفعال دلت على نهاية الذكاء و كمال الفطنة >> [3]. و الحقيقة إن العقل أعجز من أن يحيط بشيء من الغيب ، خاصة ما يتعلق بذات الله تعالى، ويستوي في ذلك عقل العالم و الجاهل.فالغيب منطقة محرمة. وقد طلب المشركون من النبي صلى الله عليه وسلم أن ينسب لهم ربه ، فسكت النبي– صلى الله عليه وسلم – و في سكوته أبلغ جواب ، حتى كان القرآن الكريم هو الذي يتولى الإجابة، و يعلمهم أن إدراك ذات الله مستحيل قالى تعالى :﴿ **قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد و لم يولد. و لم يكن له كفؤا احد** ﴾ (سورة الإخلاص) . إن الإسلام لا يحرم النظر، بل يأمر به ، و لكنه لا يسمح للعقل أن يتجاوز حدوده الممكنة، و لأن العقول تختلف، و هي إنما تأخذ صورها من الواقع،

---

1 ابن خلدون ، المقدمة ،ص 519

2 محمد البهي ،الجانب الإلهي من التفكير الإنساني ،ص 454 بتصرف

3-ابن الجوزي ، تلبيس إبليس ، ص 49

فحتى الصور الخيالية التي ينسجها العقل إنما يستمدها من الواقع، و الله تعالى مخالف و مغاير للواقع كله، لقوله تعالى : ﴿ **...ليس كمثله شيء و هو السميع البصير** ﴾ الشورى 09. فأنى للعقل إذا أن يستقل بمعرفة الحقائق الإعتقادية.

الآن و قد عرفنا منهج الفلاسفة في دراسة العقيدة، و القائم أساسا على العقل كوسيلة للمعرفة، و القائم أيضا على محاولة التوفيق و التقريب بين الدين و الفلسفة طبيعة و مصطلحا وقضايا. وعرفنا أيضا موقف جمهور العلماء من الفلسفة و الفلاسفة.نأتي لنتعرف على موقف سيد قطب من الفلسفة ومنهجها، في تعاملها مع القضايا العقدية .

3- موقف سيد قطب من المنهج الفلسفي في دراسة العقيدة :

لا يرى سيد قطب مجالا للإلتقاء و التوافق بين العقيدة و الفلسفة ، بل هما مختلفان اختلافا كليا ، ذلك << أن التصور الفلسفي ينشأ في الفكر البشري من صنع هذا الفكر لمحاولة تفسير الوجود وعلاقة الإنسان به. ولكنه يبقى في حدود المعرفة الفكرية الباردة، فأما التصور الإعتقادي - في عمومه - فهو تصور ينبثق في الضمير ،ويتفاعل مع المشاعر ، و يتلبس بالحياة، فهو وشيجة حية بين الإنسان و الوجود، أو الإنسان و خالق الوجود >> [1] .

ومن هنا فإن محاولة التقريب والتوفيق بين العقيدة والفلسفة محاولة خاطئة من أساسها لاعتماد الأولى على الوحي أساسا، و اعتماد الأخرى على الفكر البشري المحض أساسا . إن تلك المحاولة << كانت تنم عن سذاجة كبيرة، وجهل بطبيعة الفلسفة الإغريقية، وعناصرها الوثنية>> [2]. إن المنهج الفلسفي لا يصلح أساسا لدراسة مسائل العقيدة، لاختلافهما طبيعة و مصطلحا و قضايا. << و لما كانت هناك جفوة أصلية بين منهج الفلسفة ومنهج العقيدة وأسلوب الفلسفة وأسلوب العقيدة، و بين الحقائق الإيمانية الإسلامية و تلك المحاولات الصغيرة المضطربة المفتعلة التي تضمنتها الفلسفات و المباحث اللاهوتية البشرية فقد بدت ((الفلسفة الإسلامية)) - كما سميت - نشازا كَامِلاًفِي لحن العقيدة المتناسق >> [3]. والحقيقة أن مزج القضايا الفلسفية بالقضايا العقدية على ضوء الأفكار الفلسفية قد أدى إلى خلط كبير ، و تكدير لصفاء الحقائق الإيمانية المنبثقة من التصور الإسلامي ، و قد ضربنا من قبل مثالا واحدا لهذه المحاولة التي رامها الفلاسفة والمتعلق بمسألة الخلق، و كيف انتهوا فيها إلى نظرية عجيبة، هي نظرية الفيض، ويمكن أن نضرب أمثلة أخرى، تبين بوضوح كيف عاد هذا المنهج الغريب

---

1 سيد قطب ، خصائص التصور الاسلامي و مقوماته ، ص 43 44

2 المصدر نفسه ،ص 12

3 المصدر نفسه ، ص 11

المستعار على الحقائق الإيمانية بالتشويش والتشويه، كمسألة العلم الإلهي، حيث زعموا أن الله يعلم الكليات و لا يعلم الجزئيات، لأن علم الله بالجزئيات التي تقع في أوقات مختلفة يؤدي إلى تغير علم الله بها، وتغير العلم يؤدي إلى تغير العالم و هو الله تعالى. إن هذه الأفكار الغريبة التي جاء بها الفلاسفة ، الذين كانوا متأثرين إلى أقصى درجة بالفلسفة الإغريقية هي التي جعلت سيد قطب يطالب بمصادرة الفلسفة الاسلامية و يلح على ضرورة دراسة العقيدة الإسلامية من خلال منهجها الطبيعي الأصيل، أي المنهج القرآني، الذي يخاطب الكينونة البشرية بكل مقوماتها[1].

إن المنهج ليس قالبا حياديا، أو عديم اللون، بل هو وثيق الإرتباط بالموضوع الذي يُصَب فيه، ويُعالَج من خلاله. والموضوع << يتأثر بالقالب، و قد تتغير طبيعته و يلحقها التشويه ، إذا عرض في قالب، في طبيعته وفي تاريخه عداء وجفوة وغربة عن طبيعته ! الأمر المتحقق في موضوع التصور الإسلامي والقالب الفلسفي>> [2] .

إن مما يجعل الفلسفة غريبة عن العقيدة، كون الفلسفة – و هي إنتاج بشري، يخاطب الفكر البشري- تحصر الحقيقة في العبارة، بينما توحي العقيدة بالحقائق الكبيرة التي لا تتمثل كلها في العبارة ، فلا يكون المعنى واحدا، و الأثر النفسي واحدا في كلمة ((المطلق)) الفلسفية ، والعبارة القرآنية « **...ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**» الشورى 09 . ولا بين كلمة ((العلة)) و ((الخالق)). وغير ذلك من المصطلحات الفلسفية و القرآنية.إن الحقائق الشرعية الإلهية لا يُعبَّر عنها إلا بالألفاظ الشرعية. والفلسفة أعجز من أن تعبر عن الحقائق العقدية خاصة ما يتعلق منها بذات الله تعالى [3] . و لذلك يرى سيد قطب أنه << لا بد أن تعرض العقيدة بأسلوب العقيدة ، إذ أن محاولة عرضها بأسلوب الفلسفة يقتلها، و يطفئ إشعاعها و ايحاءها و يقصرها على جانب واحد من جوانب الكينونة البشرية الكثيرة >> [4] . وهو الذي حدث في تاريخ العقيدة الإسلامية يوم أن عرضت من خلال المنهج الفلسفي فأصبحت تخاطب العقل وحده، و من ثم تخاطب خاصة الناس ولا تخاطب جمهور الأمة لأنهم لا يرقون لفهم اصطلاحاتها و تعقيداتها. إن هذا الموقف الذي و قفه سيد قطب ضد محاولة عرض العقيدة الإسلامية ، ذات المصدر الإلهي، من خلال المنهج الفلسفي، لم يكن موقفا ضد الفلسفة الإغريقية أو الفلاسفة المشائين فقط، و لكنه موقف مبدئي و نهائي بالنسبة إليه ، و لهذا أبدى سيد اعتراضه على محاولة الإمام محمد عبده الذي واجه

---

1 المصدر نفسه ، ص 11

2- المصدر نفسه ، ص 15

3 أنظر ، سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 1/106

4 سيد قطب ، المرجع السابق ، ص 16

انغماسا في التقليد و الخرافة بالنسبة للعالم الإسلامي، يقابله تأليه للعقل و العلم بالنسبة للعالم الغربي، فأراد أن يفسر بعض المعجزات تفسيرا عقليا،مما يضيق نطاق الغيب، وحاول أن ينتهي إلى أن العقل و الوحي ندان في هداية الإنسان، لأنهما جميعا أثرمن آثار الله في الوجود ينسجمان و لايتعارضان. كماعارض سيد منهج الفيلسوف الإسلامي محمد إقبال الذي مال فيه كثيرا إلى المذهب الحسي و التجريبي الغربيين لإبراز الذاتية الإنسانية التي قتلتها إشراقات التصوف الأعجمي السلبية[1] . و يرى سيد أن << الأولى في منهج البحث الإسلامي، هو عرض حقائق التصور الإسلامي في تكاملها الشامل، و في تناسقها الهادئ، وفق طبيعتها الخاصة و أسلوبها الخاص. >> [2] . و أما محاولة استعارة المناهج البعيدة و الغريبة عن طبيعة و روح العقيدة الإسلامية ، فهي محاولة عاقبتها سيئة . وبناء على كل ما سبق ينتهي سيد إلى حكم، يراه صحيحا و واجبا في الوقت نفسه ، وهو ضرورة اطراح منهج الفلسفة الإسلامية من مجال العقيدة الإسلامية . يقول سيد : << و أنا على يقين جازم بأن التصور الإسلامي لن يخلص من التشويه و الإنحراف والمسخ، إلا حين نلقي عنه جملة بكل ما أطلق عليه إسم الفلسفة الإسلامية >> [3] . و يذهب سيد أبعد من ذلك حين يعتبر أن الفلسفة ليست ضرورية – ما دام لنا عقيدة ربانية ناصعة – و من ثم فلا ينبغي الحرص على إنشاء فلسفة تضاهي ما عند الأمم الأخرى من فلسفات. يقول سيد : << ولسنا حرصين على أن تكون هناك فلسفة إسلامية، لسنا حريصين على أن يوجد هذا الفصل في الفكر الإسلامي، ولا أن يوجد هذا القالب في قوالب الأداء الإسلامية ! فهذا لا ينقص الإسلام شيئا في نظرنا، ولا ينقص الفكر الإسلامي بل يدل دلالة قوية علىأصالته ونقائه وتميزه >>[4]. ومهما يكن هذا الرأي الذي ذهب إليه سيد ، فنحن نظن أن الذي حمله على ذلك هو ما انتهت إليه العقيدة الإسلامية الربانية من انحراف و تشويه حين درسها المسلمون من خلال المنهج الفلسفي، الذي كان متأثرا إلى حد بعيد بفلسفة الإغريق بكل عناصرها، الأمر الذي جعل الفلسفة الإسلامية غير نقية من الأفكار الدخيلة و غيرأصلية بالمدلول الواسع و الصحيح لكلمة الأصالة.

إذا كان سيد قطب ينتهي إلى نفس الموقف الذي انتهى إليه من سبقه من العلماء في شأن الفلسفة الإسلامية كالغزالي وابن تيمية و ابن خلدون و غيرهم. و إذا كان هؤلاء العلماء قد ناقشوا الفلاسفة في مسائلهم وأفكارهم،

1-أنظر ، المصدر نفسه ،ص 15

2 المصدر نفسه ، ص 21

3 المصدر نفسه ، ص 12

4 المصدر نفسه ، ص 16

و يبنوا عوارماجاؤوا به من أراء، وَ زَيْفِ ما انتهوا إليه من أحكام ، فإن سيد قطب لم يشأ أن يسلك هذا السبيل، لأنه يعتقد أن إيراد الإنحرافات الفكرية و الرد عليها مضيعة للوقت من جهة ، و من جهة أخرى أن هذا المنهج ذو خطر عظيم، إذ من شأن الإنحراف أن يولد انحرافا آخر.فمن أجل الرد مثلاعلى من يزعم أن الفكر الإسلامي يهمل العقل يلجأ الكثير منا إلى تقديس العقل بشتى المبررات، و ربما إلى تقديمه على الوحـــــي، والأمثلة على ذلك كثيرة[1].وبدلا من ذلك وجب تقديم التصورالإسلامي الصحيح من خلال المنهج الرباني مباشرة دون سوابق فكرية، هذه السوابق الفكرية التي كان الفلاسفة و المتكلمون يخضعون إليها النصوص الشرعية، و يضطرون لتأويلها تعسفا حتى توافق أفكارهم و مذاهبهم.

1 المصادر نفسه ، ص 16

ثالثا : منهج السلف في العقيدة و موقف سيد قطب منه :

إذا كانت السلفية فترة مباركة من تاريخ الأمة الإسلامية ، كما أخبر بذلك الرسول صلى الله عليه و سلم ، فعن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم...) الحديث[1]، فإن السلفية أيضا منهج تفكير ،ومنهج حياة.منهج يقوم على الإدراك التام و الإلتزام المتين بقول الله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين ءامنوا لاتقدموا بين يدي الله و رسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم** ﴾ الحجرات 01. و من هنا جعل السلف – خاصة في باب العقيدة – الوحي هو الأول و العقل في المحل الثاني، فكانوا يستقون العقيدة من النصوص الشرعية الثابتة، دون إخضاعها للعقل، أو إخضاعها لمقررات فكرية سابقة على نحو ما كان يفعل المتكلمون و الفلاسفة. و ليس ذلك من باب الإهمال للعقل و إقصائه من الساحة الفكرية، وإنما من باب صيانة العقل من الخوض فيما لم يؤهل له، و صيانة للوحي من التحريف والتشويه، وإلا فإنهم في مجال الفقه قد أعطوا للعقل صلاحية الإستنباط والتحليل والتدليل والقياس و إصدار الأحكام في المسائل الفقهية المختلفة، مع ورعهم وتقواهم. وقد بين ابن الجوزي منهج السلف في العقيدة فقال متسائلا : << فإن قال قائل عِبْتَ طريق المقلدين في الأصول و طريق المتكلمين فما الطريق السليم من تلبيس إبليس ؟ فالجواب أنه ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم و أصحابه و تابعوهم بإحسان من إثبات الخالق سبحانه، و إثبات صفاته، على ما وردت به الآيات و الأخبار ، من غير تفسير و لا بحث عما ليس في قوة البشر إدراكه>>[2]. فلم يكن السلف يقرؤون القرآن ليستخرجوا منه النظريات و الآراء المختلفة، ليكوِّنُوا منها بعد ذلك ثقافة فكرية نظرية جامدة، على نحو مافعل المتكلمون و الفلاسفة، إنما كانوا يقرؤون القرآن للفهم و العمل، و صياغة النفس و الحياة وفق التصور الإسلامي الصحيح. و لم يُؤثَر عن الصحابة الجدل في أمور العقيدة. فقد خرج عليهم النبي مرة فرأهم يتنازعون في القدر فنهاهم، ولذلك << ما عرفنا في العصر الأول إنحياز الصحابة إلى مذاهب دينية، و آراء في الملل و النحل >>[3]. و إنما انزلق الناس بعد ذلك إلى هذا المنزلق لما تأثروا بالفلسفة، و جعلوا العقل ندا للوحي، و ربما مقدما عليه.

1- ابن الأثير ، جامع الأصول من أحاديث الرسول ، 66/14 أخرجه البخاري في الفضائل باب فضائل أصحاب النبي وصلم في الفضائل باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم

2- ابن الجوزي ، تلبيس إبليس ، ص 88

3- أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ص 367

و قد يحلو لبعض الدارسين أن يرد عدم اشتغال السلف – وخاصة الصحابة – بمثل هذه العلوم العقلية إلى انشغالهم بالفتوحات، و هذا الإعتقاد – و إن كان فيه بعض الصحة – إلا أنه ليس السبب في ذلك، و إلا كيف نفسر اهتمامهم ببقية العلوم الأخرى، من دون أن تقف الفتوحات عائقا في وجوههم في هذا المجال؟ إن هَمّ السلف كان متوجها لفهم روح القرآن و التمثل به، وتزكية النفوس وتهذيبها، وهو المنهج الذي اختطه لهم رسول الله – صلى الله عليه و سلم –. و يرد البعض الآخر عدم اشتغال السلف بمثل هذه العلوم، إلى عدم تبلور الشبهات الفكرية و العقدية. وهذا غير صحيح لأن القرآن الكريم ذاته قد عرض لشبه المشركين و الدهريين و اليهود و النصارى، و ناقشهم فيها، و ردها عليهم. بل السبب أن السلف الصالح لم يكن همهم الجدل، خاصة في أمر العقيدة، فكانوا يقررون ما قرره الوحي من دون تأويل أو تمثيل. و ينقل محمد البهي عن المقريزي في خططه قوله :<< إن القرآن الكريم قد تضمن أوصافا لله تعالى فلم تثر التساؤل عند واحد من العرب عامة قرويهم و بدويهم، و لم يستفسروا عن شيء بصددها كما كانوا يفعلون في شأن الزكاة و الصيام و الحج و ما إليه، ولم يُرْوَفي دواوين الحديث وآثار السلف أن صحابيا سأل رسول الله عن صفات الله >>[1]. و هكذا كان السلف يكتفون بما ورد به الشرع، دون محاولة لتوجيه عقلي، اللهم إلامحاولة الفهم . و ليس معنى ذلك أن العقل ملغى في مجال العقيدة الإسلامية ، كما يزعم بعض الفلاسفة الذين يدعون أن الخطاب القرآني خطاب عاطفي لا يصلح إلا لعامة الناس، أما الخاصة فيحتاجون إلى خطاب عقلي يرقى إلى مستواهم. و كأن هؤلاء نسوا ما في القرآن الكريم من توجيه للعقل كي يتفكر و يتدبر، بل ما فيه من خطاب عقلي، غير أنه خطاب مؤثر، ذو شحنة روحية، خلاف الخطاب الفلسفي و الكلامي الجاف البارد. فنسمع إلى الخطاب القرآني و هو يقرر مثلا حقيقة الوحدانية بطريقة عقلية لا يتطرق إليها ضعف و لا تدع مجالا للشك و الارتياب، ولكن في جو روحي تخشع له القلوب و تقشعر له الأبدان، قال تعالى : ﴿ **أمن خلق السمٰوٰت و الارض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أءلٰه مع الله بل هم قوم يعدلون، أمن جعل الارض قرارا و جعل خِلٰلَهَا**

---

1 محمد البهي ، الجانب الالهي من التفكير الانساني ، ص 41

أنهـارا وجعل لها رواسـي و جعل بين البحـرين حـاجـزا أءله مع اللـه بل اكـثرهم لا يعلمـون ﴾ النمل 62-63. فأين ما ادعـاه الفلاسفـة من هذا الكـلام الإلهي البليـغ المعجـز ؟.

إذا كان المتكلمون والفلاسفـة قصـروا همهم على استنهـاض العقل بالجدل الذهني المعقد، فإن القرآن الكريـم الذي اتخذ السلف منهجـه منهجا لتقـرير العقـائد في الأذهـان و بنـائها في النفـوس يتوجه إلى عقل و وجـدان و إرادة الإنسـان، وهـذا هو الأسلـوب الذي غفل عنـه المتكلمـون و الفلاسفـة في غمـرة افتتـانهم بالعقل.

إن أصحـاب المنهج السلفـي في العقيـدة لم يثيـروا أيـة أسئلة ميافيزقية أولاهـوتيـة، ليجعلوا منها قضية تُبحث و تُناقش. و لقد ظل القرآن الكريم عـامـة والمكي منه خاصة يشرح كثيـرا من المسـائل العقـديـة، و خـاصة الألوهيـة . و كان الصـحابة وقافين عنـد منهجهـم، حيث فهمـوا من تلك الآيات و السور أن ذات اللـه تعـالى مقدسـة، مبرأة من كـل عيـب، منـزهـة عن كـل نقـص، و لا تشبـه ذاتا من الذوات التي يقع عليـها الحـس، أو يتخيلهـا الفكر ، وأنها ليست << مبهمـة مجهـلة، كما أنها ليست محـدودة مجـسدة >>[1]. و إذا كان الفلاسفـة و المتكلمون جعلوا الذات الإلهيـة مشكـلة، أثـاروا حـولها جـدلا كثيـرا، و لغطا كبيرا، فإن السلف اعتقـدوا أن العقل قـاصر عن إدراك ذات اللـه تعالى. و إذا كـان أصحـاب المنهج الكلامي و الفلسفي وقفـوا عنـد صفـات الله بين معطـل و مشبـه ، فإن أصحاب المنهج السلفي وصفـوا الله بما وصـف به نفسه من دون تشبيـه و لا تعطيـل و لا تكييـف مصـداقا لقوله تعالى : ﴿ **و لله الاسماء الحسنى فادعـوه بهـا و ذروا الذيـن يلحـدون في أسمـائه سيجزون ما كانوا يعملون** ﴾ الأعراف 180، وقوله تعالى:﴿ **... ليس كمثله شيء و هـو السميـع البصيـر** ﴾ الشورى 09. وقد فسـر ابن تيمية منهجهـم فقـال :<< فهم في باب أسماء اللـه وآياته وصفاته وسـط بين أهـل التعطيل الذيـن يلحدون في أسماء الله وآياته ويعطلون حقائق ما وصف الله به نفسه حتى يشبهـوه بالعدم و الموات، و بيـن أهـل التمثيل الذيـن يضربون له الأمثال ويشبهـونه بالمخلـوقات >> [2]. غير أن هـذا المنهج الذي سار عليه أهـل القرون المفضلـة الأولى لم يبق على ما هو عليه عندالمتأخـرين، فأدخلوا عليه بعض التعديلات، و التي لم تمـس بجـوهره، و ذلك كـالاشتغال بإيراد الشبـه و الـرد عليـها، تصحيحـا للعقـائد و نفيـا للبـدع، كمـا فعـل ذلك ابن تيميـة و الحـارث المحـاسبي و الامام الدارمي الذي علل هـذا التعـديل في المنهج - و هو

1 عبد الكريم الخطيب ، اللـه ذاتا و موضوعـا ، ص 405

2 ابن تيمية ، مجمـوع الفتـاوى ، 373/3

يرد على أحد المبتدعة المؤولين للقرآن - بقوله : << ويحك، إنما ذكره السلف الخوض فيه مخافة أن يتأول أهل البدع و الضلال و أغمار الجهال، ما تأولت فيه أنت و إمامك المريسي، فحين تأولتم فيه خلاف ما أراد الله، و عطلتم صفات الله، وجب على كل مسلم عنده بيان أن ينقض عليكم دعواكم فيه >>[1].فإذا كان أوائل السلف يعتمدون على النص اعتمادا كليا، من دون التفات للعقل إلا للفهم فقط، فإن متأخري السلف قد طغى الخطاب العقلي نسبيا على منهجهم. و من أحسن الأمثلة على ذلك بعض كتابات ابن تيمية حتى قيل : << إن ابن تيمية لم ينزل العقل عن عرشه الذي أجلسه عليه المعتزلة و الاشاعرة، و إنما رفع النص إليه ليجلس بجواره >>[2]. غير أن الاهتمام بالأدلة العقلية في منهج هؤلاء المتأخرين لم يغيرمن حقيقة المنهج لأنه كان يعتمد- بعد الوحي-على العقل العام و ليس الكلامي والفلسفي[3] . هذا هو منهج السلف في العقيدة، وتلك ملامحه وقسماته العامة. يسيرولكنه متين،واضح ولكنه عميق، مصدره القرآن والسنة، والعقل فيه أداة الفهم، لا ينشئ عقيدة ،إنما يكشف عنها ويؤمن بها[4].

إذا كنا بينا موقف سيد قطب من منهج علم الكلام والفلسفة مباشرة عقب إيراد الخطوط العريضة لهذين المنهجين ، فإننا سنبين موقف سيد من المنهج السلفي من خلال معرفة منهج سيد ذاته، لاعتقادنا أن هناك تطابقا كاملا بينهما، و سيتضح هذا الحكم أكثر بعد معرفة أصول منهج سيد قطب في فهم و عرض العقيدة الإسلامية .

---

1 - عمار طالبي و سامي النشار ، عقائد السلف ، ص 465

- و أنظر ، البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص 363

2 - يحي هاشم فرغل، الأسس المنهجية لبناء العقيدة الاسلامية ، ص 205

3 أنظر ، أبو الاعلى المودودي ، موجز تاريخ تجديد الدين و إحيائه ، ص 87

4 أنظر ، ابن باديس ، مجالس التذكير ، ص 142

رابـــعا : منهـــج سيـد قطـب في دراسـة العقيـــدة

أ- منهـــج الفهـم و الإستنبـاط :

يقوم منهج الفهم و الإستنباط عند سيد قطب على القواعد التالية :

1- الكتـاب و السنـة :

يرى سيد قطب أن المصدر الأول، بل الوحيد لاستنباط الأحكام الإعتقادية ، وأخذ التصور الصحيح و الشامل عن الحقائق الكونية هو الوحي المعصوم، ممثلا في كتاب الله تعالى وسنة النبي صلى الله عليه و سلم وأن أي مصدر آخر مهما كانت قيمته، لا يرقى إلى مستوى المصدر الرباني، حتى الكتب المنزلة الأخرى، بسبب ما أصابها من تحريف، و ما نالها من تزييف، فلم يبق أمامنا إلا كتاب الله تعالى و سنة نبيه عليه الصلاة و السلام منهما نستقي عقيدتنا، و عليهما نعول في تصحيح تصورنا، مستهدين في ذلك بهدي السلف الصالح حين اتخذوا الوحي مصدرا فعصمهم من الخطإ في الفهم و من الإنحراف في السلوك. يقول سيد قطب مؤكدا هذا المعنى : << و ليس هناك ميزان آخر يرجع إليه، و ليس هناك مقررات سابقة و لا مقررات لاحقة يرجع إليها في هذا الشأن. إنما هو يتلقى قيمهُ و موازينه من هذا التصور ، و يكيف بها عقله و قلبه ، و يطبع بها شعوره و سلوكه ، و يرجع في كل أمر يعرض له إلى ذلك الميزان : ﴿... **فإن تنـازعتم في شيء فردوه إلى الله و الرسول إن كنتم تومنون بالله و اليوم الآخـر ذلك خير و أحسن تاويـلا**﴾ النساء 59 >> [1]. و يعني سيد بالمقررات السابقة كل التصورات و الاعتقادات التي كانت سائدة قبل بعثة النبي صلى الله عليه و سلم ، سواء كان مصدرها إلـهيا أو وضـعيا ، و المقررات اللاحقة ما ظهر من اعتقادات مخالفة لعقيدة الإسلام المنبثقة من الكتاب و السنة، إذ هما الميزان الذي توزن به جميع التصورات، و هما الحكم عند الإختلاف.

إذا كان الإنسان قد أوتي من المدارك و المعارف، ما كشف به كثيرا من أسرار الكون، و سخر به جزء هائلا من الطبيعة، فإن ذلك لن يُبَلِّغَهُ ليكشف أسرار الغيب ، و ينشئ عقيدة صحيحة شاملة . فلم يبق إلا << مصدر واحد يتلقى منه البشر التصور الصادق الكامل الشامل لحقيقة الوجود كله ولحقيقة الوجود الإنساني، و لغاية الوجود كله، و غاية الوجود الإنساني >> [2] فأما إذا زاغت البشرية عن هذا الطريق، وأعرضت عن هذا المصدر فإن الضلال

---

1 سيد قطب ، خصائص التصور الاسلامي و مقوماته ، ص 42

2 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 281/1

هو النهاية المحتومة التي ستنتهي إليها . وقد كان سيد قطب يؤكد على ضرورة الإعتماد على المصدر الرباني المعصوم في بناء التصورات الإعتقادية خاصة في كتابيه : ((خصائص التصور الإسلامي و مقوماته)) و ((في ظلال القرآن))، و لم يكتف سيد بالدعوة النظرية لذلك، بل وجدناه يطبق هذه القاعدة و ينبه عليها كثيرا حين تفسيره للآيات ذات المضامين الإعتقادية . فعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿**عليها تسعة عشر**﴾ المدثر 30. يقول:<< فهذا الأمر الغيبي كله من شأن الله، وليس لدى البشر عنه من علم كثير ولا قليل، فإذا أخبر الله عنه خبرا فهو المصدر الوحيد لهذا الطرف من الحقيقة، وشأن البشر هو تلقي هذا الخبر بالتسليم >> [1] . وعند تفسيره لقوله تعالى:﴿ **وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا و شهبا**﴾ الجن 08 يقول سيد : << أما أين يقف ذلك الحرس؟ و من هو؟ و كيف يرجم الشياطين بالشهب؟ فهذا كله مما لم يقل لنا عنه القرآن ولا الأثر شيئا،وليس لنا مصدر سواهما نستقي منه عن هذا الغيب شيئا>> [2]. وهكذا إذا يلتزم سيد قطب بهذا المصدر الوحيد للعقيدة الإسلامية ، كما التزم به السلف من قبل.

إذا كان سيد قطب على خطى السلف في هذه القاعدة، فإنه خالف جمهورهم في عدم الأخذ بحديث الآحاد في القضايا الإعتقادية. فاشترط التواتر ، فعند تفسيره لسورة "الفلق"وبشأن سحر الرسول – صلى الله عليه و سلم – الذي وردت به أحاديث صحيحة ، و لكنها غير متواترة يقول سيد قطب بوضوح: << و أحاديث الآحاد لا يؤخذ بها في أمر العقيدة . و المرجع هو القرآن . و التواتر شرط للأخذ بالأحاديث في أصول الإعتقاد >>[3]. و قد أكد سيد هذا الموقف مرة أخرى بقوله :<< و نحن على منهجنا في هذه الظلال لا نتعرض لهذه الأمور الغيبية بتفصيل لم يرد به نص قرآني أو حديث نبوي صحيح متواتر فهي من أمور الإعتقاد التي لا يُلتَزَم فيها إلا بنص هذه درجته >>[4]. و إذا كان سيد قطب لم يقدم أي مبرر لهذا المذهب الذي انتهجه، ولم يشر من قريب أو بعيد إلى مذهب السلف في الأخذ بخبر الواحد في العقيدة[5]، فإننا نظن أن الذي حمل سيد على ذلك هو حرصه الشديد على أن يبقى مصدر العقيدة الإسلامية في أرقى درجات الصحة والثبوت، بحيث لا يتطرق إليه أدنى احتمال يشكك في يقينيته، و تلك الدرجة لا يبلغها إلا القرآن الكريم و السنة المتواترة. ومهما يكن هذا الموقف من سيد، و بغض

1- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 3758/6

2- المصدر نفسه 3730/6

3- المصدر نفسه، 4008/6

4- المصدر نفسه، 1531/3

5- أنظر ، عمر سليمان الأشقر ، العقيدة في الله ، ص 51 ، ما بعدها

النظر عن مخالفته لجمهور أهل السنة كما أسلفنا فإنه يبقى حريصا على الإعتماد على الوحي المعصوم وحده في مجال العقيدة.

2- استبعاد المقررات الفكرية و الإعتقادية :

إذا كان سيد قطب لا يستلهم التصور الإسلامي إلا من الكتاب والسنة المتواترة، فإنه مع ذلك حريص كل الحرص على إبقاء هذا المصدر بعيدا عن كل المقررات الفكرية والإعتقادية القبلية . وإذا كان علماء ا الكلام والفلسفة و غيرهم من أصحاب المذاهب يؤولون النصوص الشرعية لتوافق مذاهبهم، و تؤيد آراءهم، فإن سيد قطب يفرغ ذهنه من كل تصور قبلي فلسفي أو اعتقادي ، ناشئ عن نظر واستدلال ، أومأخوذ من مصدر آخر غير المصدر المعصوم ، يقول سيد : << و منهجنا في استلهام القرآن الكريم ، ألا نواجهه بمقررات سابقة إطلاقا ، لا مقررات عقلية و لا مقررات شعورية-من رواسب الثقافات التي لم نستقها من القرآن ذاته- نحاكم إليها نصوصه أو نستلهم معاني هذه النصوص وفق تلك المقررات السابقة>>[1]. إن من شأن الأفكار العالقة، أن تحرف المعنى قليلا أو كثيرا، و ما اشتد الخلاف واتسعت الهوة بين الفرق والمذاهب إلا بسبب تأويل النصوص لتستجيب إلى ما ترسب في النفس واستقر في الفكر ، ومن هنا بقي الغبش عالقا بالتصور الإسلامي ما بقيت تلك الأفكار ،ولذلك وجب العودة إلى المصدر الرباني وحده دون تأثر بأي فكر دخيل، كما فعل الجيل الأول من المسلمين . يقول سيد : << إن الطريق الأمثل في فهم القرآن و تفسيره، و في التصور الإسلامي و تكوينه أن يَنْفُضَ الإنسان من ذهنه كل تصور سابق، و أن يواجه القرآن بغير مقررات تصورية أو عقلية أو شعورية سابقة ، و أن يبني مقرراته كلها حسبما يصور القرآن و الحديث حقائق هذا الوجود>>[2]. إنه لخطأ منهجي شنيع أن نحمل النصوص الشرعية المعصومة على ما لدينا من أفكار و تصورات، سواء فعلنا ذلك عمدا، أو وقعنا فيه دون شعور منا . وهوخطأ مثلما وقع فيه الفلاسفة و المتكلمون من قبل ، وقعت فيه بعض المدارس الحديثة ، ومنها المدرسة العقلية بزعامة الإمام محمد عبده، التي حاولت أن تقضي على الفكر الخرافي في العالم الإسلامي لمواجهة طغيان العقل الأروبي، فوقعت في أخطاء مشينة ، مما جعل سيد قطب ينبه إلى ذلك مرات كثيرة [3]. كما أشار إلى ما وقع فيه العقاد حين تابع الباحثين الغربيين في تاريخ الأديان، في نظرية الأطوار الدينية الثلاثة التي مرت بها البشرية، و هي نظرية

---

1 سيد قطب ، خصائص التصور الاسلامي و مقوماته ، ص 15

2 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 6/ 3730

3 أنظر ، المصدر نفسه ، 6 /3978

تحطم أصل الإعتقاد الإسلامي القائم على التوحيد ، الذي قررته كل الرسالات السماوية [1]. كل هذه الأخطاء إنما وقع فيها الباحثون المسلمون بسبب إخضاعهم النصوص الشرعية للمقررات الفكرية السابقة بوعي أو دون وعي . و لن يعود للتصور الإسلامي صفاؤه وأصالته إلا باستلهامه من النصوص الشرعية مباشرة من دون تأثر بأي فكر آخر .

3- إخضاع العقل لمقررات الوحي :

إذا كان العقل هبة الله لهذا الإنسان، ليتميز عن عالم الحيوان، و هو وسيلة هامة للمعرفة ، فإن الإنسان كثيرا ما ضل وانحرف إما بتعطيلة العقل، أو بتأليهه إياه . و الخير كل الخير في استعمال العقل فيما خلق له و كفه عما لا طاقة له به كعالم الغيب، الذي تبقى وسيلة الإنسان الوحيدة لمعرفة حقائقه هي الوحي الإلهي المعصوم . وإذا كان الإسلام احتفل بالعقل واستنهضه للعمل و حرره من قيود الخرافة و الوهم ، و من قيود الكهانة والأسرار المحظورة، فإنه مع ذلك عرفه حدوده و منعه من الاطلاع إلىالأسرار الكونية الغيبية التي هي فوق طاقته و من هنا كان العقل لا يغني عن الوحي شيئا . << و الذين يرون أن هذا العقل يغني عن الوحي، إنما يقولون في هذه القضية غيرما يقول الله. فالله قد جعل حجته على الناس هي الوحي و الرسالة، و لم يجعل هذه الحجة هي عقلهم البشري و لا حتى فطرتهم لأن الله يعلم أن العقل و حده يضل ، و أن الفطرة وحدها تنحرف>>[2].

لقد غالى كثير من أصحاب المذاهب الفلسفية و الكلامية قديما فقدموا العقل على الشرع، بل و حكّموا الأول في الثاني. و يغالي اليوم كثير من المذاهب و المدارس فيقعون في الخطإ نفسه[3] . و إذا كان لنا الحق في استعمال العقل في مجال العالم المشهود إلى حد بعيد، فليس من حقنا أن نتجاوز عتبة عالم الغيب لننشئ عقيدة ، أو نحكم عقولنا في الوحي الإلهي لنفسر هذه العقيدة كما نشاء فإنّ فعلنا انحرفنا وشقينا ، مثلما انحرفت وشقيت الأمم قديما، و تشقى حديثا على الرغم من التقدم العلمي الهائل ، لأن << العقل البشري ليس ندا لشريعة الله ، فضلا على أن يكون الحاكم عليها، لأنه لا يدرك إلا إدراكا ناقصا في المدى المحدود>>[4] وهيهات أن يبلغ بمفرده هداية الانسان

1- أنظر، المصدر نفسه ، 1882/4

2- المصدر نفسه ، 1098/2 بتصرف

3- أنظر ، محمد عبده ، تفسير القرآن الكريم ، ص 160

4- سيد قطب، المصدر السابق ، 723/2

وهيهات أن يفتح مغاليق الغيب. و كفاه شرفا أن يوفق في فهم الوحي، فذلك أقصى ما يمكن أن يبلغه.و يؤكد سيد قطب على هذه الحقيقة – و هو يجعل العقل ملبيا من وراء الوحي – بقوله : << **إن الوحي والعقل** ليسا ندين . فأحدهما أكبر من الآخر و أشمل ، و أحدهما جاء ليكون هو الأصل الذي يرجع إليه الآخرو الميزان الذي يختبر الآخر عنده مقرراته و مفهوماته و تصوراته، و يصحح به اختلالاته و انحرافاته>>[1]

وذلك لا ينقص من قيمة العقل في حد ذاته، ولامن أهميته بالنسبة للحياة الإنسانية ، **بل هو عصمة له في** حد ذاته من أن تذهب طاقته سدى فيما لم يوضع له أصلا، ولم يهيأ لإدراكه. و لذلك و جب إخضاعه لمقررات الوحي.

و سنزيد هذه النقطة توضيحا من خلال القاعدة التالية:

4- عـــدم التـــأويـــل :

إن من أخص خصائص المنهج السلفي عدم التأويل ، وقد ذم الله التأويل في قوله تعالى : ﴿ **... فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تاويله و ما يعلم تاويله الا الله و الراسخون في العلم يقولون امنا به كل من عند ربنا و ما يذكر إلا أولوا الالباب** ﴾ آل عمران07. و يعلق سيد قطب على هذه الآية بقوله :<< فأما الذين في قلوبهم زيغ و انحراف و ضلال عن سواء الفطرة فيتركون الأصول الواضحة الدقيقة التي تقوم عليها العقيدة و الشريعة و المنهاج العملي للحياة، و يجرون وراء المتشابه الذي يحول في تصديقه على الإيمان بصدق مصدره والتسليم بأنه هوالذي يعلم الحق كله >> [2] فليس بعدالتصديق إلا التسليم و الرضى، ولا مطمع في إدراك الكنه، ولا حق في التأويل أو التعطيل أو التشبيه. فإذا كان الله تعالى كما وصف نفسه ﴿ **... ليس كمثله شيء و هو السميع البصير** ﴾ الشورى09.﴿ **و لم يكن له كفوا احد** ﴾ الإخلاص04. فلا مجال إذا لكل محاولة عقلية لمعرفة كنه ذاته تعالى ، و عليه فقد كان عبثا ذلك الجهد الذي أنفقه الفلاسفة والمتكلمون محاولة منهم لإدراك كنه الذات الإلهية ، فلما قصرت بهم عقولهم وأفهامهم انقسموا بين مؤول ومعطل ومشبه. ولم ينج إلا من فوض الأمر في ذلك لله تعالى.و بناء على هذه القاعدة، فإن سيدا يصف الله تعالى بكل ما هو موصوف به شرعا من غير إثبات للكيفية . يثبت له صفة اليد الواردة في قوله تعالى : ﴿ **... يد الله فوق**

1- سيد قطب ، خصائص التصور الاسلامي و مقوماته ، ص 19

2- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 369/1

أيديهم...» الفتح10. يقول سيد-تعليقا على ذلك- :<< فالله حاضر البيعة. و الله صاحبها. و الله آخذها. وبده فوق أيدي المقابيحين>>[1]. كما يثبت له صفة العين، يقول سيد - في معرض تفسيره لقوله تعالى:« **و لتصنع على عيني** » طه 39 - إنها منزلة << و إنها كرامة أن ينال إنسان لحظة من العناية ، فكيف بمن يصنع صنعا على عين الله >>[2]. و هكذا يسير سيد على المنهاج نفسه، مثبتا لله تعالى ما أثبته لنفسه من دون كيف. يقول سيد: «و كل فعل ينسب لله سبحانه مثل الذي يحكيه قوله هذا كقوله تعالى« **ثم استوى إلى السماء و هي دخان** » ...« **ثم استوى على العرش** » ..« **يمحو الله ما يشاء ويثبت** » .. « **و السماوات مطويات بيمينه** » ..« **و جاء ربك و الملك صفا صفا** » .. « **ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم** » إلى آخر ما تحكيه النصوص الصحيحة عن فعل الله سبحانه ، لا مناص من التسليم بوقوعه دون محاولة إدراك كيفيته>>[3]. هكذا، و من خلال هذه الأمثلة و التي يزخر ((في ظلال القرآن)) بمثلها يتبين لنا مدى تطبيق سيد لقاعدة عدم التأويل، القائمة على اعتبار ذات الله غيب وصفاته كذلك. وبالتالي فلا يمكن بحال إدراك كيفية صفات الله وكيفيات أفعاله، و من ثم فلا مجال لأية محاولة للتأويل . وهذه هي القاعدة التي يسير عليها سيد قطب في مثل هذه القضـــايا، ولعله إنما خرج عنها فقط عند تفسيره لصفة الإستواء [4] . حيث اعتبرها كناية عن الهيمنة على الخلق،ثم عاد في الطبعة المنقحة للظلال فعدل عن هذا القول،ليؤكد أن عقيدة التوحيد لا تدع مجالا لأي تصور بشري عن ذات الله وصفاته بما في ذلك صفة الإستواء التي لانملك تأويلها[5].

هذا الأمر يسوقنا إلى الحديث عن مسألة هامة كثيرا ما استوقفت سيد قطب و هي طريقة القرآن في التعبير ، القائمة على التصويرو التخييل . تصوير الأشياء المحسوسة و الملموسة ، و تصوير الأشياء المعقولة حتى تصير كأنها أشياء واقعية يحسها الإنسان و يتعامل معها ، و ذلك من أجل تقريب المعاني إلى الذهن . يقول سيد مبينا هذا المعنى:<< لقد كانت السمة الأولى للتعبير القرآني هي اتباع طريقة تصوير المعاني الذهنية و الحـــالات

1 - المصدر نفسه ، 3320/6

2 المصدر نفسه، 4/ 2335

3 - المصدر نفسه، 3/ 1393

4 أنظر ، المصدر نفسه، 3480/6

5 أنظر ، المصدر نفسه ، 1296/3

النفسية،وإبراز هافي صورة حسية.وكأنها حاضرة شاخصة بالتخييل الحسي الذي يفحمها بالحركة المتخيلة .[1].

فإذا الصبح يتنفس، و الذباب يسلب الآلهة أشياءها و الموتى يخرجون من قبورهم كالجراد، وغيرذلك . و هي طريقة اتبعها القرآن الكريم ليقنع العقل و يأسر الوجـدان << فبلغ الغاية بمادته و طريقته و جمع بين الغرض الديني و الغرض الفني، من أقرب طريق و من أرفع طريق>>[2]. و إذا كان سيد قطب قد استخرج هذه النظرية من القرآن الكريم ذاته كما يوضح ذاك في كتابيه :((التصوير الفني في القرآن)) و((مشاهد القيامة في القرآن)) فإنه كان يتوقع أن ينكر عليه بعض الناس هذا القول، أو هذه النظرية، خاصة بسبب المصطلحات التي سمى بها هذه النظرية ككلمة التخييل والتجسيم،و كلمة الفني، فكلمة التخييل إن حملت على ظاهرها ستؤدي إلى القول بأن صفات الله تعالى ليست صفات حقيقية يتصف بها الله تعالى - و إن كنا لا نعرف كنهها - و إنما هي مجرد تخييلات و أمثال، كما هو مذهب بعض الفلاسفة المثاليين. و كلمة التجسيم إن حملت على ظاهرها ستؤدي إلى القول بتجسيد الذات الإلهية و من ثم مشابهتها للمخلوق، و الحال أنه ليس كمثلـه شيء. و لذلك بادر سيد إلى توضيح المقصود بهذه المصطلحات فقال:<< لم يَجُلْ في خاطري قط أن " الفني " بالقياس إلى القرآن معناه: الملفق أو المخترع أو القائم على مجرد الخيال ! ذلك أن دراستي الطويلة للقرآن لم يكن فيها ما يلجئني إلى هذا الفهم أو هذا التأويل >>[3]. و إنما المقصود " بالفني" في هذا المجال هو العرض العلمي الجميل للحقائق، ولذلك يتساءل سيد مستغربا ومنكرا حصر معنى الفني في مجرد التلفيق فيقول:<< ألا يمكن أن تعرض الحقائق الواقِعَة عرضا فنيا و عرضا علميا ثم تبقى لها في الحالتين صفتها الأسـاسية من الصدق و الواقعية ؟ >>[4]. و حتى يبعد المعنى الذي قد يتبادر إلىالذهن عند إطلاق كلمتي التخييل والتجسيم خاصة في موضوع الصفات يقول سيد : << و نحن نستخدم هنا كلمة التجسيم بمعناها الفني لا بمعناها الديني بطبيعة الحال، إذ الإسلام هو دين التجريد والتنزيه >>[5].

هذا الشرح لهذه النظرية إنما أملاه إرتباطها الوثيق بمسألة التأويل فسيد قطب يرفض التأويل من أساسه، و يمنع

---

1 - سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، ص 241 بتصرف

2 - المصدر نفسه ، ص 238

3 - المصدر نفسه ، ص 255

4 - المصدر نفسه ، ص 255-256

5 - المصدر نفسه ، ص 229

من مجرد الجدل في هذه المسألة، و يعتبره – الجدل – حرمانا من لذة معايشة إيحاءات القرآن الكريم، وما تنشئه من أثار نفسية ، و لذلك يقول مستفسرا و متعجبا:<< ما بال أناس يحرمون أرواحهم أن تعانق النور ؟ و يشغلونها بالجدل حول مطلق لا تدركه العقول المقيدة بمألوفات العقل و مقرراته>>[1].

بهذه النصوص التي أوردناها، والأمثلة التي ضربناها يتأكد لدينا رفض سيد للتأويل، واعتناقه لمذهب التفويض.

5- الجمع بين النصوص :

حينما نتعامل مع النصوص الشرعية مقطوعة عن سياقها ، أو منفردة لا رابط بينهما، يكون فهمنا ناقصا، وأحكامنا خاطئة، بل متعارضة إلى حد التناقض. و هو الخطأ الذي وقع فيه كثير من المتكلمين، فبدّع بعضهم بعضا، و كفّر بعضهم البعض الآخر. و إذا كانت بعض الآيات تبدو لنا- ظاهريا – متعارضة ، فإن فهمنالها لايستقيم إلا من خلال الجمع بينهما. و كم طال الجدل بين الفرق واحتد في مسألة الهدى و الضلال ، و المشيئة الإنسانية إزاء المشيئة الإلهية و غيرهما من المسائل، بسبب البعد عن المنهج الصحيح القائم على الجمع بين النصوص المتعارضة – ظاهريا –. أما سيد قطب فقد أدرك قيمة هذا المنهج فسلك سبيله الميسرة، لإعتقاده أن التصور الإسلامي الصحيح إنما << تنشئه مجموعة النصوص القرآنية مقارنة متناسقة ، حين لا تؤخذ فرادى وفق أهواء الفرق والنحل،وحين لايوضع بعضهما في مواجهة البعض الآخر على سبيل الاحتجاج والجدل>>[2].

و حينما نأخذ الآيات متفرقة لا نكاد نقرر حقيقة، أو ننتهي إلى حكم، و كذلك حين نُكوِّن تصورات قبلية ثم نأتي إلى النصوص الشرعية لنؤيد بها هذه التصورات و نستدل بها لتلك الأحكام. و هو الخطأ المنهجي الخطير الذي وقع فيه كثير من علماء الكلام و الفلسفة .

إن من شأن الجمع بين النصوص الشرعية أن ينفي التعارض المتوهم بينهما، و ما هو بتعارض لأنه كلام الله تعالى« **لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** » فصلت 41 . كما أن من شأنه أيضا أن يحقق التوافق في عقل الإنسان و و جدانه، و لذلك << فاجعل أيها القارىء هذا المصباح بين يديك و سر في نوره بين شتى السور ، فلن تجد في دين الله قلقا أو اضطرابا. وإنما القلق والفوضى في عقول الحمقى و قلوب الغافلين >>[3].

1- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 3771/6 بتصرف

2- المصدر نفسه ، 1400/3

3- محمد الغزالي ، عقيدة المسلم ، ص 102

إذا كان سيد يقرر هذه القاعدة، فإنه أيضا يطبقها حين التعرض للموضوعات التي تَرِدُ فيها مثل هذه النصوص. فعند حديثه عن المشيئة الإنسانية إزاء المشيئة الإلهية، و مسألة الهدى و الضلال يقول سيد :<< إقتضت هذه المشيئة أن يجري قدر الله بهداية من يجاهد للهدى، و أن يجري قدر الله كذلك بإضلال من لا يستخدم ما أودعه الله من عقل و ما أعطاه من أجهزة الرؤية و السمع في إدراك الآيات المبثوثة في صفحات الكون، و في رسالات الرسل، الموحية بالهدى >> [1]. و يعلق على قول الله تعالى : « **و ما كان لنفس أن تومن إلا بإذن الله ...** » يونس 100. فيقول :<< فلا شيء يتم وقوعه إلا بقدر خاص به. إنما الناس يسيرون في الطريق، فيقدر الله لهم عاقبة الطريق، و يوقعها بالفعل جزاء ما جاهدوا في الله ليهتدوا >>[2]. و عند حديثه عن إرادة الله و إرادة العبد يبتعد سيد عن الطريقة التي عالج بها المتكلمون هذه المسألة فانتهوا إلى الاختلاف الكبير ،بين معطل لإرادة الله ومعطل لإرادة الإنسان و بين مبين لكيفية عمل الإرادتين. فيسير هو على ضوء المنهج الذي سار عليه السلف من قبل، فيجد أن النصوص القرآنية تقول : << إن كل ما يحدث بإرادة الله و قدره. و تقول في الوقت ذاته : إن الإنسان يريد و يعمل و يحاسب على إرادته و عمله . و القرآن كله كلام الله و لن يعارض بعضه بعضا. فلابد إذن أن تكون هناك نسبة معينة بين هذا القول و ذاك. ولابد إذا أن يكون هناك مجال لإرادة الإنسان و عمله يكفي لحسابه عليه و جزائه ، دون أن يتعارض هذا مع مجال الإرادة الربانية و القدر الإلهي >>[3]. ثم يتساءل سيد – كما يتساءل كل إنسان مع نفسه إزاء هذا الموضوع – عن كيفية عمل الإرادة الإنسانية مع الإرادة الإلهية دون تعارض،ويجيب إجابة المفوض أمر ذلك و علمه لله تعالى، فيقول:

كيف ؟ هذا ما لا سبيل لبيانه ، لأن العقل البشري غير كفء لإدراك كيفيات عمل الله >>[4]. وعلى المنهاج نفسه يسير سيد مع هذه المسائل و ما شاكلها، والتي صيرت منها المناهج غير القويمة مشكلات عويصة، ضيعت على المسلمين جهدا كبيرا، ولم تنتهي فيها إلا إلى الاختلاف و التفرق.

---

1 - سيد قطب ، المصدر السابق 3، /1400

2 المصدر نفسه 3، /1822

3 المصدر نفسه ، 719/2 (الحاشية)

4 المصدر نفسه ، 719/2

- استحضـار الجو الذي نزل فيـه القـرآن :

يرى سيـد قطب أن إدراك مدلولات القـرآن ، والحقـائق التي يوحي بها إلى العقول والنفوس تتطلب إستعـداد هذه النفـوس برصيـد من المشـاعر و التجـارب تشبـه تلك التي صـاحبت نزولـه. و من ثم تتلقـاه كما تلقـاه الصحـابة، ذلك التلقي الذي تحولـت بفضلـه نفـوسهم و تصـوراتهم، فأصبحـوا أمـة جـديدة أنشأها القـرآن إنشـاءفكـرا و تصـورا، و وجـدانا و مشـاعرا، و سلوكـا و حـركة. و إذا كـانت ظـروف اليوم، و واقع اليوم قـد تغيـر ، فإن القـرآن و الإنسـان لم يتغيـرا. فالقـرآن هو القـرآن، و الإنسـان هو الإنسـان. وفهـم القـرآن و التفـاعل معـه لايتم إلا باستحضار الجو الذي نزل فيـه، و مـراجعة ركـام الجـاهلية الذي واجهه، و الملابسـات التي صحبتـه . لأن << جمـال العقيـدة وكمـالها و تنـاسقها، و بسـاطة الحقيقـة الكبيرة التي تمثلهـا، إن هـذا كلـه لا يتجلـى للقلب و العقل ، كـما يتجلى من مـراجعة ركام الجاهليـة السـابقة للإسـلام و اللاحقة >> [1]. إن الذي حمـل سيـد على اعتبار هـذا العنصـر مقومـا من مقومـات منهج الفهـم هو كون الحقيقـة الشرعيـة لا تستفـاد كـاملة من الكلمـات المجـردة عن الملابسـات و الظـروف التي صـاحبت نزول القـرآن [2]. ولذلك حـرص سيـد أن يعيـش في ظـلال القرآن، و أن يستحضر ذلك الجو وتلك الملابسات ما أمكن، ليعـرف أكثر حقيقـة و قيمـة العقيدة الإسـلامية، و يدرك معها حقيقة الجاهلية . و قـد أفصح عن ذلك بقـوله : << منهجنا أن نستلهم القرآن الكـريم مبـاشرة ، و أن نستحضـر- بقـدر الإمكان - الجو الذي تنزلت فيه كلمات اللـه للبشر ، و الملابسات الاعتقادية و الاجتمـاعيـة و السياسية التي كانت البشرية تتيه فيها وقت أن جاء هـا هـذا الهدى >> [3]. إن من شـأن ذلك أن يوفق الانسان إلى الفهم الصحيح، و يجعله يتفاعل مع القـرآن عقيـدة و شريعة كما تفـاعل معـه الجيل الأول.كما أن من شأنه أن يعصمه من الخطإ الذي وقع فيـه كثير من أصحـاب الجدل يوم أن تعاملوا مع كلمات القرآن، ولم يتعاملوا مع روحه، أو يعيشوا في ظلالـه.

هـذه هي القواعـد التي بنى عليها سيـد منهجـه في فهـم و استنبـاط العقيـدة الإسـلامية. و التي حـرص من خـلالها على الإلتزام بالمنهج السلفي، و إعـادة إحيـائه، كما حرص على الابتعاد عن كل منهج يخالف طبيعـة

1- سيد قطب ، خصائص التصور الاسلامي و مقوماته ، ص 39.

2- سيد قطب ، في ظلال القرآن 6، /1453

3- المصدر السابق ، ص 14

العقيدة الإسلامية. بل كان حرصه أكبر على استقاء تصوراته العقدية من القرآن مباشرة دون مقررات سابقة. و إذا كان هذا منهج سيد في الفهم و الاستنباط، فما هو منهجه في التقرير و الصياغة ؟ و ماهي القواعد التي أسسه عليها؟

ب : منهج الصياغة و التقرير :

اعتمد سيد قطب في صياغة العقيدة الإسلامية، و تقرير حقائقها عل جملة من القواعد من شأنها بعث العقيدة من جديد، و إضفاء الحيوية عليها لتؤدي دورها في النفس و المجتمع كما هو شأنها. لا كما هوالحال بعد أن انتهت إلى نظرية جامدة على أيدي الفلاسفة و المتكلمين. و يمكن حصر هذه القواعد المنهجية فيما يلي :

1- العزوف عن القالب الفلسفي :

تمتاز العقيدة الإسلامية بالحيوية و التفاعل مع الفطرة و العقل و الوجدان، والحياة الإنسانية بمختلف شعبها. و هي بهذه الصفة تمتاز على كل فكر و كل منهج بشري مهما كان قويما و سديدا. بل إن العقيدة كما قررتها النصوص الشرعية تسمو و تزيد على العقيدة حين تصاغ في قالب بشري، لاعلى معنى أن حقائقها تتبدل و تتغير ، فهي ثابتة، و لكن على معنى أن خطابها و إيحاءها و انفعال الكينونة البشرية بها يختلف عن الخطاب البشري، و ذلك أحد مظاهر الإعجاز في القرآن. لأجل ذلك عزف سيد قطب – و هو الذي عاش في ظلال القرآن كثيرا – عن صياغة العقيدة الإسلامية في قالب عقلي، فلسفي أو كلامي. و صاغها و عرضها بالأسلوب الملائم لروحها و طبيعة حقائقها. و هو الأسلوب الذي يخاطب في الإنسان العقل فيقنعه، و القلب فيأسره، و الفطرة فيستنهضها، خلاف الخطاب الفلسفي أو الكلامي الذي يقتصر على الجانب العقلي و حده. و من هنا رأى سيد أنه :« لابد أن تعرض العقيدة بأسلوب العقيدة إذ أن محاولة عرضها بأسلوب الفلسفة يقتلها و يطفيء إشعاعها و ايحاءها، و يقصرها علي جانب واحد من جوانب الكينونة البشرية »[1]. إن هذه القناعة المنهجية التي آمن بها سيد إنما تكونت لديه من خلال معايشته الطويلة للقرآن الكريم و تذوق أسلوبه الرفيع. ومن خلال ما آلت إليه العقيدة الإسلامية يوم أن صيغت في منهج غريب عن روحها و طبيعتها، و أعني به المنهج الكلامي و الفلسفي.

---

1 سيد قطب ، خصائص التصور الاسلامي و مقوماته ، ص 15

إذا كان سيد يرفض صياغة العقيدة من خلال هذا المنهج فإنه يرفض أيضا صياغتها بمصطلحات غير مصطلحاتها، باعتبارها أوعية تحمل مضامين قيمية و تصورية تختلف اختلافا كليا عن المضمون الإسلامي. فمثلما هناك ارتباط بين طبيعة الموضوع و طبيعة القالب، هناك ارتباط أيضا بين طبيعة الموضوع و طبيعة المصطلح، و لذلك عاب سيد على الفلاسفة و المتكلمين استعارة المصطلحات الغريبة عن روح العقيدة الإسلامية لصياغة الحقائق الإيمانية من خلالها [1].

إن من البعد عن المنهج الأصيل للعقيدة الإسلامية استعارة هذه المصطلحات، << فكل اصطلاح له تاريخ معين، وله ايحاءات معينة مستمدة من ذلك التاريخ، و لا يمكن تجريده من هذه الملابسات، و الزج به في مجال جديد منقطع عن تاريخه، و للتصور الإسلامي اصطلاحاته الخاصة المتفقة في طبيعة اشتقاقها اللغوي و في ملابساتها التاريخية مع طبيعته و ايحاءاته >>[2]. فشتان بين أن نستعمل المصطلحات الشرعية للتعبير عن الحقائق الإيمانية، و بين أن نستعمل مصطلحات مستعارة، سواء على مستوى التعبير اللفظي، أو على مستوى الأثر النفسي و الشعوري لكل مصطلح. فلفظ الله أسمى و أدق و أبلغ في الدلالة من مصطلح واجب الوجود، و الأول غير القديم، و الخالق غير المحرك الأول. لذلك عزف سيد عن هذه المصطلحات و أمثالها كما عزف عن القالب الفلسفي عموما.

قد يستعمل سيد أحيانا بعض المصطلحات التي لم تُؤْثَر عن السلف كلفظ ((المطلق))، ولكنه لا يستعملها بالمعنى الإصطلاحي الديني، و إنما بمعناها اللغوي. إن الوقوف عند المصطلحات الشرعية كفيل بالتعبير الدقيق عن الحقائق الإعتقادية، و كفيل بأن يترك أثره الطيب في النفس، و أن يعصم الفكر الإسلامي من الدخن و الانحراف.

1 - المصدر نفسه ، ص 11

2 - المصدر نفسه ، ص 97

2 عـدم استحضـار الانحـرافات و الانشغـال بالرد عليـها:

كـان هدف سيـد قطب هو بيـان التصور الإسـلامي صافيا غير مشوب بأية شائبـة من الشـوائب التي عكـرت صفوه، وأفقـدته حيويتـه. لذلك عـاد إلى القـرآن الكـريم مبـاشرة يستلهم منـه العقيـدة الإسـلاميـة، من دون مقـررات سـابقة و لا لاحقـة، ودعا إلى تجـاوز الكـلام و آراء الفرق الإسـلامية [1]، لأنها أصبحت لا تعبـر عن حقيقـة العقيـدة الإسـلامية الصحيحـة و الصـافية. و قـد حصر سيـد همـه في تقديم الحقائق الإعتقـادية من القـرآن مبـاشرة، دون الانشغـال بالانحـرافات الفكـرية القديمـة و الحديثـة، لأن ذلك من شأنـه أن يُشوِّه حقيقـة التصـور الإسـلامي، كما من شـأنه أيضا أن يُؤثِّـر على الباحث و هـو يحـاول أن يبـرر فكـرة ما أو يدحضـها.

إذا كـان كثيـر من الباحثين إنما كتبوا في العقيدة الإسـلامية من هـذا المنطلق، و كان الدافع لعملهم هو تصيُّـد شبهات المغرضين، و انحرافات المتكلميـن، فإن سيد قطب لم يهتـم بهذا الأمـر أبـدا، و إنما بتقـرير التصور الإسـلامي من القـرآن مبـاشرة. و قـد أعـرب عن ذلك بقـوله :<< إننا لا نستحـضر أمامنا انحرافا معينا من انحـرافات الفكـر الإسـلامي، أو الـواقع الإسـلامي، ثم نـدعه يستغـرق اهتمـامنا كلـه، بحيث يصبـح الـرد عليه و تصحيحه هو المحرك الكلي لنا فيما نبذله من جهد في تقرير خصائص التصور الإسلامي ومقوماته >>[2].

و قد علل سيد هـذا الموقف بقـوله :<< إن استحضـار انحـراف معين، أو نقص معين، و الاستغراق في دفعـه، و صيـاغة حقائـق التصور الإسلامي للرد عليه منهج شديد الخطر، و لـه معقبـاته في إنشـاء انحـراف جديـد في التصور الإسـلامي لدفع انحـراف قـديم >>[3]. لقـد حـاول المسلمون صيـاغة العقيدة من خلال استعراض و استحضار الشبهات و الانحرافات و ذلك أيام فُشُوِّ الفلسفة الإغريقية و اللاهـوت المسيحـي. كما حاولوا ذلك أيضا في هذا العهـد الذي نعيشه، و الذي يتميز بطغيان الفلسفة الغربية و الانبهار بنتائج التقدم العلمي في مختلف الميـادين، و على الرغم من تحقيق هـذا المنهج لبعض الأهداف الجزئية فقد أدى إلى انحراف كبير على مستوى المنهج و المصطلحـات و حتى التصورات.

---

1 أنظر ، عبد المنعم صالح العلي العزي ، أصول العقيـدة الاسـلامية ، ص 66

2 سيد قطب ، المصدر السابق ، ص 16 17

3 المصدر نفسه ، ص 17

إذا كان الدفاع عن العقيدة واجبا، و التصدي للشبهات و الأفكار الهدامة لازما، في كل وقت – وقد تصدى لها القرآن الكريم – فإن صياغة التصور الإسلامي من خلال النصوص الشرعية مباشرة، لتقرير حقائقه وتعريف الناس بها، من أولى الواجبات. وذلك كفيل وحده بتحصين المسلم من كل فكر دخيل، أما جعل الانحرافات و الشبهات هي المحور و المنطلق في صياغة العقيدة فذلك ما يجعل التصور الإسلامي مشوها و غير منسجم و لا متكامل.

3- الواقعية :

و هي القاعدة الثالثة من قواعد منهج الصياغة، و نعني بالواقعية أن العقيدة الإسلامية ليست تصورات عقلية مجردة، و ليست مثاليات خيالية [1]، و لكنها حقائق موضوعية ذات وجود مستيقن، و هي قابلة للتحقيق الواقعي [2]. و إذا كان الواقع يتغير من زمان لآخر، و من مكان لآخر فإن العقيدة الإسلامية مطالبة بالاستجابة لهذا الواقع المتغير، لا بأن تتغير بتغيره لتوافقه، و لكن لتوجد الحلول لمشكلاته على الرغم من ثباتها، وتلك واقعيتها.

إن العقيدة الإسلامية ينبغي أن تصاغ الصياغة التي تجعلها قادرة على الاستجابة للواقع المتغير، لاحداث التغيير المنشود. وعلى الرغم من أن الفكر الكلامي إنما ظهر للتصدي للواقع الذي طرأ على الساحة الإسلامية، إلا أنه لم يحقق المطلوب بسبب تأثره بالفكر الوافد كما بينا ذلك سابقا.

إن الدعوة إلى صياغة العقيدة الإسلامية صياغة واقعية لا يعني بحال تجاوز النصوص الشرعية و أسلوبها في التقرير، ولا يعني أيضا الخروج عن المنهج السلفي ، وإنما يعني التجديد داخل إطار ذلك المنهج الصحيح السليم. أما الجمود بدعوى المحافظة على المنهج و الإتباع، فقد يؤدي إلى فقدان العقيدة لحركيتها وهيمنتها على الفكر و السلوك ، و قد حدث ذاك منذ قرون طويلة فقد فيها المسلمون المرجعية العقدية ، بسبب الصياغة غير الواقعية التي أوجدت انفصاما بين المسلم وعقيديه على مستوى الفكر والواقع. ولذلك حاول سيد أن يصوغ حقائق التصور الإسلامي صياغة واقعية، راعى فيها حال المخاطبين، وما وصلوا إليهم من تقدم علمي،ونتاج حضاري، فاعتمد على الأسلوب العلمي بمعناه العام متجنبا الخطاب الفلسفي أو الجدلي،ذلك أن إنسان هذا العصر ذو عقلية

---

1 - عبد المجيد النجار ، في فقه التدين فهما و تنزيلا ، 46/2

2 - أنظر ، عماد الخطيب ، المصدر السابق ، ص 163

علمية، فاستند سيد إلى الحقائق العلمية المعملية و الفلكية و النفسية و الاجتماعية وغيرها، فتجده يتكلم عن الخلية وتكوينها، و الأعضاء و وظائفها، و الأفلاك و أبعادها و النفس و طبائعها، ويشرح النظريات المختلفة وغير ذلك. و مختلف كتبه -خاصة ((الظلال)) و((الخصائص))- تزخر بالأمثلة الكثيرة في هذا الموضوع. وهو في ذلك لا يخالف طريقة القرآن الكريم، لأن القرآن الكريم ذاته مليء بمثل هذا الحديث، الذي يتخذ منه العقل والفطرة دليلا على ثبوت الحقائق الإيمانية.

إذا كان أصحاب الفكر المادي ينكرون الغيب لأن العلم لم يثبته، و يضعون العلم والعلمية في مقابل الغيب والغيبية، ويعيبون على المؤمنين أنهم أصحاب عقلية غيبية، بمعنى خرافية. فإن سيد قطب يعتبر ذلك جهلا بعينه فيقول : << إن الذين يعيشون على فتات القرون الماضية يزعمون أن الغيبية تنافي العلمية، و أن المجتمع الذي يريد أن يعيش بعقلية علمية ينبغي له أن يتخلص من العقلية الغيبية. ذلك، بينما العلم البشري ذاتـــه، علم القرن العشرين يقول إن كل ما يصل إليه من النتائج هو الإحتمالات ! و إن الحقيقة المستيقنة الوحيدة هي أن هناك غيبا لا شك فيه>>[1]. إن هناك ما لا يمكن حصره من العمليات التي تقع و لا يدركها الإنسان إلامن خلال آثارها، ومن ذلك الموت و الحياة . << إن الإنسان ليجيئ إلى هذا العالم على غير رغبة منه و لا علم بموعد قدومه ! وإنه ليذهب عن هذا العالم على غير رغبة منه و لا علم بموعد رحيله ! >>[2] . و من ثم فإن إنكار الغيب هو الجهل بذاته. مثلماكان سيد قطب واقعيا في تقرير الحقائق الاعتقادية،كان واقعيا أيضافي تزييفه للفكرالغربي بشقيه الرأسمالي و الشيوعي، فمن خلال الحقائق العلمية كشف عِلَلَ الحضارة الغربية، القائمة على الفكر المادي، و بيَّن أخطارها النفسية و الاجتماعية، و هدَّمَها للقيم و المبادئ و تحطيمها لخصائص الإنسان الأساسية، التي بها استحق التكريم و الاستخلاف،و نملك أن نقول إن سيد قطب صاغ العقيدة الاسلامية صياغة واقعية وقدمها على أساس أنها بديل علمي و عملي، يجد فيه العقل الدليل على صلاحيته، ويجد فيه القلب الدليل على ربانيته و تجد فيه الفطرة الدليل على إستقامته ، و يجد فيه الواقـع الانسانـي الدليل على فعاليته و إيجابياتـه، و من أجل ذلك كتب سيد قطب ((خصائص التصور الاسلامي ومقوماته)) ليبين فيه طبيعة العقيدة الاسـلامية وأركانـها، و كتب << مـعالم في

---

1 سيد قطب، في ظلال القرآن، 1119/2

2 المصدر نفسه ، 1120/2

الطريق ... ليوضح كيفية تلقي الصحابة لهذه العقيدة التي ولدوا بسببها ميلادا جديدا فكانوا جيلا فريدا. و كتب ((نحو مجتمع اسلامي)) ليرسم الطريق العملي لتحقيق هذه العقيدة في واقع الحياة الانسانية.

بهذه الصياغة الواقعية و ضع سيد قطب يده على المشكلات الحقيقية التي تعانيها البشرية اليوم، و خاطب الناس بما يفهمون، و قدم لهم العقيدة على أساس أنها بديل واقعي، و ليس مذهبا نظريا. و كما حاول أن يصوغ العقيدة بشكل واقعي، فقد صاغها أيضا بطريقة شمولية تكاملية.

4- الشمولية:

مثلما تعطلت فاعلية العقيدة في النفس و الحياة، بسبب عرضها في قوالب فلسفية جامدة، كذلك تعطلت بسبب دراستها أجزاء متفرقة لا يربط بين أطرافها رابط ، و لا يجمع بين موضوعاتها محور. و قد حدث في التاريخ الاسلامي أن طغت موضوعات عقيدية جزئية،مثل الكسب والقضاء والقدر ، وغيرها من الموضوعات، واجتُزِئَت من صلب العقيدة أجتزاء أفقدها قيمتها العملية، وكاد يفقدها قيمتها العلمية،حيث تحولت إلى مجرد نظريات ذهنية. كما حدث أن درست مسائل العبادة والتشريع و الاخلاق بعيدا عن العقيدة، تحت اسم الفروع، ففقدت بذلك العقيدة قدسيتها ومرجعيتها وهيمنتها على كل فروع الثقافة والفكر الاسلاميين. لذلك وجب أن تصاغ العقيدة وفق منظور شمولي لأنها مهما تعددت مسائلها وتنوعت قضاياها،فإن لها أصولا تعود إليها، وقواعد كلية تنتظمها، كالألوهية و النبوة و الغيب. وهي القضايا التي ركز عليها سيد قطب و هو يقدم التصور الاسلامي، و حاول أن يرد إليها كل مسألة من مسائل الاعتقاد و التصور ، معتبرا أن التوحيد هو قاعدة التصور الاسلامي التي يجب أن تُجَلَّى، و أن ينْصبَّ الاهتمام على التركيز عليها فهما و تطبيقا. يقول سيد : << التوحيد الكامل الخالص المجرد الشامل، الذي لا تشو به شائبة من قريب و لا من بعيد هو قاعدة التصور التي جاء بها الاسلام و ظل يجلوها في الضمير ، و يتتبع فيه كل هاجسة و كل شائبة حول حقيقة التوحيد، حتى يخلصها من كل غبش. و يدعها مكينة رَاكِزَةً لا يتطرق إليها وهم في صورة من الصور >>[1]. و قد كان اهتمام سيد قطب بالتوحيد بالغا، لا بوصفه مجرد قضية عقيدية، كما تناولته الفرق الاسلامية، و لكن بوصفة المحور الاساسي، لا لرسالة محمد صلى الله عليه و سلم، و لكن لكل الرسالات السماوية. كما سنوضحه في

1 الاسلام وقضايا ... 23/1

فصل آراء سيد العقدية. و قد اهتم سيد أيضا بعقيدة اليوم الآخر ، و ما يستتبع ذلك من الايمان بالغيب كله الذي هو كلية من كليات العقيدة الاسلامية [1]. كما اهتم أيضا بموضوع العبودية باعتبارها الطرف الآخر في معادلة التصور الاسلامي.

إن تسمية سيد لهذه المحاور الأساسية للعقيدة الاسلامية بالكليات يدل على مدى اهتمامه بها، و تقديم التصور الاسلامي من خلالها، و بالارتكاز عليها، دون الاهتمام بالمسائل الجزئية مقطوعة عن أصلها، كما ظهر ذلك في فكر الفرق الاسلامية، و كثير من الكتّاب.

إن التصور الاسلامي الصحيح الشامل، لا يتحقق إلا من خلال نظرة كلية و صياغة شمولية. و لا يعني ذلك عدم توضيح القضايا الجزئية و بيان حقيقتها، و إنما يعني أنها بمفردها لا تعطي التصور الاسلامي الذي أراد سيد أن يستخلصه من القرآن مباشرة، و يقدمه للمسلمين أولا، ثم للناس جميعا، << لأن التصور الاعتقادي هو أداة التوجيه الكبرى إلى جانب النظام الواقعي الذي ينبثق منه، و يقوم على أساسه >>[2].هذه الكليات هي التي تمد الانسان بالصورة الصحيحة الشاملة عن الله والانسان والكون والحياة. ولأمر ماظل القرآن الكريم طيلة العهد المكي ينشئ هذا التصور و يصححه حتى أصبح التصور الاسلامي بهذه الشمولية يمثل تحديا عقديا، و بديلا إسلاميا أمام كل الطروحات الفكرية و المذهبية.

إذا كانت العقيدة الاسلامية نظرة شاملة للحقائق الكونية، قبل أن تكون أحكاما جزئية، فإنها شاملة باعتبار انتظامها لجميع أوجه النشاط الإنساني. لذلك ينبغي أن نقدمها كمرجع للإنسان في تفكيره وسلوكه و كل نشاطاته. وقد كان اهتمام سيد قطب منصبا على رد كل نشاط بشري إلى أصله الذي ينبثق منه، وهوالعقيدة. سواء كان هذا النشاط فرديا محضا أو اجتماعيا. سواء ما تعلق منه بالفكر أو العبادة أو التشريع أو الاخلاق. يقول سيد:<< إن الإيمان بالله هو أصل الحياة الكبير ، الذي ينبثق منه كل فرع من فروع الخير ، و تتعلق به كل ثمرة من ثماره، وإلافهو مقطوع من شجرته، صائر إلى ذبول و جفاف >>[3] . فليس هناك أي انفصال بين العقيدة و العبادة و السلوك، << والعقيدة الاسلامية عقيدة سلوكية في المقام الأول. وليست مفهوما مجردا، والعكس صحيح، وهو أن السلوك

---

1 - أنظر ، المصدر نفسه ، 23/1

2- سيد قطب ، خصائص التصور الاسلامي و مقوماته ، ص 06

3 - سيد قطب ، المصدر السابق ، 3966/6

في الاسلام عقائدي. و لا قيمة له ولاوزن إذا لم يكن منبثقا من هذه العقيدة مطابقا مقتضياتها.»[1].

كان القرآن الكريم يتنزل على الرسول صلى الله عليه و سلم متضمنا العقيدة و العبادة والتشريع والاخلاق في السورة الواحدة، بل الآية الواحدة، و لم يكن الصحابة يفرقون بين آيات العقيدة و آيات الاحكام، بل الأمر كله راجع إلى العقيدة، في كلياتها الاساسية.وإذا كان القرآن الكريم ظل طيلة العهد المكي يغرس العقيدة في النفوس، فإنه ظل طيلة العهد المدني يتكئ على هذه العقيدة، و هو يتنزل بالتشريعات المختلفة [2]. إن الطريقة التي دُوِّنَ بها الفقه ، الاخلاق قد قطعت- بدون قصد- تلك العلاقة الوثيقة بين العقيدة والشريعة و السلوك، علاقة الانبثاق. و صيرت العقيدة في حد ذاتها مجرد نظرية ذهنية. و الصياغة الشمولية للعقيدة، باعتبارها كليات ترتد إليها كل المسائل الاعتقادية، و باعتبارها الأصل المبارك الذي تنبثق منه التشريعات و تقوم عليه الأعمال، هذه الصياغة هي الكفيلة وحدها بإعطاء التصور الاسلامي الصحيح و الشامل، و هي الكفيلة أيضا بإعادة الهيمنة الشرعية للعقيدة على حياة الفرد و المجتمع. و من ثم تصير جميع تصرفاته منضبطة بهذه العقيدة. و قيمة الأعمال إنما بانبثاقها من العقيدة.فإذا انفصلت عنها كانت هباء منثورا[3].فلا ينبغي إذا أن تصاغ العقيدة بصورة تجعلها مجرد نظرية. «و الواقع أن العقيدة الاسلامية واضحة الاثر في كل جزئيات النظام الاسلامي، ماقرب من هذه العقيدة في الظاهر كالعبادات و الاخلاق ، و ما بعد عنها في الظاهر كالمعاملات المالية و الارتباطات الاقتصادية ، والعلاقات السياسية،داخلية أو دولية بحيث يصعب إدراك طبيعة أي جانب من هذه الجوانب المتعددة، و فهمها فهما حقيقيا، بدون دراسة العقيدة الاسلامية »[4]. فقُربُ جزئيات النظام الاسلامي و بُعدُها عن العقيدة ليس إلا ظاهريا، لأنها جميعا متصلة بالعقيدة اتصال الفرع بالأصل،والثمرة بالشجرة. ولانستطيع هنا أن نقف عند هذه القاعدة أكثر من هذه الوقفة، فمن خلال ما كتب سيد، خاصة في الظلال و الخصائص تتجلى هذه المسألة أكثر .

1- فتحي الدريني ، دراسات و بحوث في الفكر الاسلامي المعاصر ، 846/2

2- أنظر ، عبد المجيد النجار ، المقتضيات المنهجية لتطبيق الشريعة الاسلامية ، ص 45

3- أنظر ، سيد قطب ، المصدر السابق ، 3966/6 -3968

4- سيد قطب ، خصائص التصور الاسلامي و مقوماته ، ص 142

5- تبيان خصائص العقيدة ومميزاتها:

ان القواعد السابقة،على الرغم من أهميتها و قدرتها على صياغة العقيدة بطريقة علمية وعملية تبقى مفتقرة إلى بعض القواعد المكملة، و منها تبيان خصائص العقيدة، من أجل تقريبها إلى العقول والأفهام،وتحبيبها إلى النفس والوجدان.وقد صدّر سيد قطب حديثه عن المنهج بضرورة تحديد خصائص التصور الاسلامي ومقوماته، << لأنه لابد للمسلم من تفسير شامل للوجود، يتعامل على أساسه مع هذا الوجود. لابد من تفسير يقرب لإدراكه طبيعة الحقائق الكبرى التي يتعامل معها و طبيعة العلاقات و الارتباطات بين هذه الحقائق >>[1]. وإذا كانت البحوث القديمة، و التآليف السابقة قد ركزت على شرح الحقائق الاعتقادية، فإن سيد قطب أضاف إلى ذلك بيان مميزات هذه العقيدة عن غيرها من العقائد و المذاهب. و من أجل ذلك ألف << خصائص التصور الاسلامي و مقوماته >> شارحا فيه هذه الخصائص التي أجملها في :

- الربانية : فالتصور الاسلامي رباني المصدر، و بالتالي فهو الحق، لأنه ليس تصورا بشريا كبقية المذاهب، حتى الدينية الأخرى بسبب التحريف الذي أصابها.

- الثبات : فهو لا يتغير و لا يتطور بتغير أحداث الحياة الواقعية.

- الشمول : فهو يتناول مظاهر الوجود كلها بالتفسير، و هو صالح لكل زمان و مكان و حال و مستوى.

- التوازن : بحيث يجمع بين عالم الغيب و الشهادة، و الدنيا و الأخرة و طلاقة المشيئة الالهية و ثبات السنن الكونية و العبودية المطلقة لله و مقام التكريم الانساني...

- الإيجابية : الإيجابية في علاقة الله بالكون و الانسان و الحياة. و إيجابية الانسان في حد ذاته في هذا الكون.

- الواقعية : فهو ليس مجرد نظريات ذهنية و لا مثاليات وهمية، بل هو تصور واقعي يتعامل مع الحقائق ذات الوجود الفعلي الموضوعي.

- التوحيد : و هو الحقيقة الأساسية، و المحور الكبير الذي يقوم عليه التصور الإسلامي.

1- المصدر نفسه، ص 05

هذه الخصائص انما استنبطها سيد من القرآن الكريم . و هي خصائص مستمدة جميعا من مصدرية العقيدة الإسلامية ، إذ أنها عقيدة ربانية ، و ليست بشرية قاصرة . و من شأن إبراز هذه الخصائص أن يتميز التصور الاسلامي الرباني عن غيره من التصورات ، فترى البشرية بوضوح << تفرد هذا التصور ، و تميز ملامحه، و وضوح شخصيته >> [1].وقد كان القرآن ذاته يبرز هذه الخصائص، ويغري بها الناس جميعا، خاصة مصدرية العقيدة التي تعنى الحق المطلق و الكمال المطلق، كما في قول الله تعالى : ﴿ **إنه لقول رسول كريم. و ما هو بقول شاعر قليلا ما تومنون. و لا بقول كاهن قليلا ما تذكرون. تنزيل من رب العالمين** ﴾ الحاقة(40-43.

و يعلق سيد على هذه الايات بقوله : << إن هذا القرآن يقرر منهجا متكاملا للحياة يقوم على حق ثابت، و نظرة موحدة،و يصدر عن تصور للوجود الالهي ثابت، وللكون والحياة كذلك >>[2]. فالتصور الإسلامي يتميز بكونه حقا ثابتا. لأن مصدره إلهي، و شتان بين ما هو من وضع الله، مالك الوجود و عالم الغيب و الشهادة، وما هو من وضع البشر . ومثلما أبرز سيد قطب خصائص العقيدة ، فقد أبرز أيضا أثرها في النفس و المجتمع.

6- إبراز أثر العقيدة في النفس و المجتمع :

إن العقيدة الاسلامية هي أغلى سلعة يملكها المسلم ، وعليه فلا يليق به إلا أن يعرضها في أحسن صورة ، مبينا منافعها ومحاسنها في حياة الفرد و الجماعة، و الجزاء الذي يناله معتنقها في الدنيا و يوم القيامة . وقد كان القرآن الكريم يعرض هذه العقيدة عرضا جذابا يستهوي العقل و القلب ، فهي النور و غيرها الظلام ، و هي الحق و ما سواها هو الباطل، و هي الهدى و غيرها الضلال، و هي الحياة و ما دونها هو الموت قال تعالى : ﴿ **أو من كان ميتا فأحييناه و جعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون** ﴾ الأنعام 123. إن الحق لا ينتشر وحده، ولاينتصر لأنه حق، ولكنه ينتشر وينتصر كذلك بحسن عرضه ، و بيان فوائده ، لأن الإنسان جُبِل على حب مافيه نفعه و فائدته . يقول سيد – مبينا فضل العقيدة و مزاياها – << إن هذه العقيدة تنشئ في القلب حياة بعد الموت، و تطلق فيه نورا بعد الظلمات،حياة يعيد بها تذوق كل شيء، وتصور كل شيء، و تقدير كل شيء بحس آخر لم يكن يعرفه قبل هذه الحياة ، ونورا يبدو

---

1 - المصدر نفسه ، ص 42

2 - سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 3686/6

كل شيء تحت أشعته و في مجاله جديدا كما لم يبد من قبل قط >>[1]. و مثلما تحدث العقيدة هذا الأثر الطيب الجميل في نفس الفرد، فإنها تنشئه في واقع الحياة الاجتماعية كذلك . يقول سيد :<<لقد أنشأ هذا القرآن للبشرية تصورا جديدا عن الوجود والحياة والقيم والنظم كما حقق لها واقعا اجتماعيا فريدا، كان يعز على خيالها تصوره مجرد تصور[2].

إن قيمةالعقيدة الاسلامية وأهميتها بالنسبة للفرد والمجتمع لا تظهر جليا كما تظهر حين تقارن بالوضع النفسي والاجتماعي والديني الذي كان الناس يعيشونه قبل مجيئ هذه العقيدة على يد محمد – صلى الله عليه وسلم – فأخرجهم بها من الظلمات إلى النور[3]. و ما أصدق تلك الكلمة التي أجاب بها جعفر بن أبي طالب النجاشي – و قد سأل المهاجرين عن الدين الذي فارقوا فيه قومهم –.ما أصدقها في تصوير الواقع الذي كونته الجاهلية وكرسته قيمها، و الواقع الجديد الذي أنشأه الاسلام فاستهوى القلوب والنفوس . قال جعفر : << أيها الملك : كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام، و نأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيئ الجوار، و يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه و صدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، و نخلع ما كنا نعبد نحن و آباؤنا من دونه من الحجارة و الاوثان و أمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة و صلة الرحم، و نهانا عن الفواحش >>[4]. و لذلك كان سيد قطب يؤكد على ضرورة مراجعة ركام الجاهلية [5] لمعرفة مدى قيمة و أهمية هذا الدين، الذي أحيا الناس بعد موت، و هداهم بعد ضلالة. و صدق الله القائل : « **أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم** » الملك 22.

هذه إذن هي القواعد التي أسس عليها سيد قطب منهجه في صياغة العقيدة وتقريرها.وتلك هي القواعد التي أسس عليها منهجه في الفهم والاستنباط. ونعود الآن لنطرح مرة أخرى السؤال السابق عن موقف سيد من منهج السلف في العقيدة ؟ ولعل الجواب واضح و صريح أن منهج سيد ذاته منهجا سلفيا محضا، بل لقد أضاف إليه إضافات نحسبها ذات قيمة عظيمة، و أثر كبير ، خاصة فيما يتعلق بمنهج الصياغة، الذي حرص فيه على عرض العقيدة بشموليتها و بيان خصائصها و أثرها في النفس و المجتمع. وسيتضح ذلك أكثر من خلال بيان آرائه الاعتقادية.

---

1 المصدر نفسه ، 1200/3

2 المصدر نفسه ، 10/1

3 أنظر ، المصدر نفسه ، 293/1

4 سعيد رمضان الندوي ، فقه السيرة ، ص 91

5 أنظر ، سيد قطب ، خصائص التصور الاسلامي و مقوماته ، ص 22 و مابعدها

الفصل الثاني

آراء سيد قطب العقديـــــة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا : الالهيات

I - الطريق إلى معرفة الله:

أ - الفطرة:

شغل الإنسان نفسه منذ القدم بالبحث عن الإله، و كل الآثار التي خلقها الانسان على مر العصور تشهد على اهتمامه بهذه المسألة و انشغاله بها. و قد كان الانسان مدفوعا في هذا البحث بدافع الفطرة، التي كانت تدرك وجود هذا الاله، ولكنها لم تتعرف عليه في كثير من الأحيان، فاتخذ الناس من بعض قوى الطبيعة، كالشمس والقمر و الرعد وغيرها آلهة، يرجون نفعها ويخشون بأسها، و يتقربون إليها بشتى الطقوس. ولقد كان، ومازال بالفطرة البشرية حاجة ذاتية إلى التدين ، وإلى الاعتقاد بإله. بل إنها حين تصح وتستقيم تجد في أعماقها اتجاها إلى إله واحد، و إحساسا قويا بوجود هذا الإله الواحد >>[1] .وما ذلك إلا لأن الله فطر الإنسان على الايمان به و توحيده . قال تعالى: ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني ءادم من ظهورهم ذريتهم و أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾ الاعراف 172.<< إن الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة في الكيان البشري. فطرة أودعها الله في هذه الكينونة و شهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته ، و حكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة >>[2] .و قد قال السلف و الخلف إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد[3].ولما كان الايمان بالله تعالى مركوزا في فطرة الانسان، ويخرج به كل مولود إلى الحياة، كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم في قوله :<<من يولد يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه كما تنتجون البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها >>[4]. لذلك كان المشركون يقرون بوجود الله تعالى، كما أخبر بذلك القرآن الكريم: ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات و الأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم** ﴾ الزخرف08).وفي الآية إشارة لطيفة إلى أنهم لم يكونوا يؤمنون بالله فقط، و لكن كانوا يعرفونه ببعض صفاته و أسمائه ومنها:العزيز العليم.و على الرغم من ذلك فقد كانوا يتخذون آلهة من دون الله زعما منهم أنها

---

1 - سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 1823/3

و أنظر ، محمد حسين آل ياسين ، مفاهيم إسلامية ، ص 19

2 - سيد قطب ، المصدر السابق ، 1391/3

3 - أنظر ، محمد نسيب الرفاعي ، تيسير العلي القدير ، 251/2 252

4 - الإمام البغوي ، شرح السنة ، 154/1

تقربهم إلى الله تعالى، فهم يظنون أنهم لا يستطيعون الاتصال بالله تعالى ، والتقرب إليه إلا من خلال الوسطاء والشفعاء . و هو ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ ... **والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى...** ﴾ الزمر 03. وإذا كانت هذه الطائفة من الناس تقر بوجود الله تعالى،وما يتصف به من بعض الصفات . فإن طائفة أخرى تتبجح فتنكر ، و لكنها لا تلبث أن تذعن لله فتدعوه وحده لا شريك له ، وذلك عندما تلم بها بعض الملمات، و تحاصرها بعض أقدار الله تعالى القاسية على النفس الضعيفة. وصدق الله القائل: ﴿ **و إذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجيكم إلى البر أعرضتم و كان الانسان كفورا** ﴾ الاسراء 67. و هو في الواقع إذعان لنداء الفطرة المقرة بوجود الله تعالى، المؤمنة به.

إن الانسان في الحقيقة مؤمن بالله تعالى بفطرته ، و هو بإرادته واختياره يخرج هذا الإيمان من عالم الفطرة المكنون ، إلى عالم الشهادة المعلوم . وهذا يؤدي بنا إلى القول بأن الإيمان بالله تعالى أحد مقومات الإنسان، حتى وان أنكر الانسان ذلك لسبب أو لآخر . وهذه الحقيقة أيضا هي التي أدت بكثير من الطوائف إلى اعتبار معرفة الله تعالى ضرورية و ليست نظرية[1]. على أن هذه الفطرة قد تضل وتنحرف لأسباب كثيرة. وأشدها عليها البيئة التي يحيا فيها الإنسان . فيتأثر بأفكارها واعتقاداتها و مناهجها . و لعلها هي التي قصدها النبي صلى الله عليه و سلم بقوله:(فأبواه يهودانه أو ينصرانه). إلا أن هذه المؤثرات وتلك الحجب، ومهما كانت كثيفة وقوية فإنها لا تقوى على إبطال حقيقة الإقرار بالله تعالى المستكنة في النفس ، و إن استطاعت أن تخمدها فإنها << تبرز عارية حين يمسه الضر . ويسقط عنها الركام و تزول عنها الحجب ، وتنكشف عنها الأوهام فتتجه إلى ربها >>[2]. ومن هنا كان دليل الفطرة بسيطا كبساطتها ، واضحا كوضوحها ، و قويا كقوتها التي لا يملك لها الانسان دفعا . لأنها نابعة من داخل الانسان، و من أعماقه التي شهدت لله بالوحدانية و هي لم تزل بعد في عالم الذر.من هنا نملك أن نقول إن الفطرة دليل على وجود الله تعالى، بل دليل على وحدانيته ، وأن دليل الفطرة ميسور لكل إنسان، سواء كان مؤمنا أو كافرا ، وسواء كان عالما أو عاميا . و هو ما يجعل دليل الفطرة أقوى من غيره من الأدلة الأخرى،لأنه لا يحتاج إلى نظر ، و إلى مقدمات عقلية ، و إنما يفرض نفسه على صاحبه فرضا.

و إذا كانت الفطرة قد تتعرض لعوامل الطمس و التشويه، فإن الله تعالى زود الإنسان بملكة تعرف الحق الكامن في هذا الوجود، وتميز بينه و بين الباطل، وتلك هي العقل.

ب- العقل:

الإنسان وحده من دون المخلوقات هو العاقل. وإذا كان الانسان يُعَرَّف عند المناطقة بأنه حيوان ناطق ، فهوأيضا عاقل ، و لما كان للعقل منطقٌ و قواعد كان أداة للحكم، و وسيلة للمعرفة،ومناطا للتكليف ، ولذلك ما فتئ القرآن الكريم ينوه بشأن العقل والعقلاء كما في قوله تعالى: ﴿ **إن في خلق السمٰوٰت و الارض و اختلاف اليل و النهار لأيٰت لأولي الالباب. الذين يذكرون الله قيٰما و قعودا و على جنوبهم و يتفكرون في خلق السمٰوٰت و الارض ربنا ما خلقت هذا بٰطلا سبحٰنك فقنا عذاب النار** ﴾ آل عمران 190-191 و في مقابل ذلك ينعي على الذين يعطلون هذه الطاقة ، فيفقدون بذلك مقوما من أهم مقومات الانسان . فينزل بهم ذلك إلى درك الحيوان ، كما في قوله تعالى: ﴿ **و لقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن و الانس لهم قلوب لا يفقهون بها و لهم أعين لا يبصرون بها و لهم ءاذان لا يسمعون بها أولٰئك كالانعام بل هم أضل أولٰئك هم الغٰفلون** ﴾ الأعراف 179. إن منطق العقل كمنطق الفطرة في الاستدلال على الله تعالى- وهو أظهر من أن يستدل عليه- و لأمر ما ربط الله بين الفطرة و العقل في آية العهد. وبيَّن أن الانصراف عن نداء الفطرة، كالانصراف عن مدركات العقل سواء. لأن دلائل الايمان و الهدى مثلما هي كامنة في الفطرة فهي أيضا حاضرة في الوجود و في الرسالات تدركها القلوب المفتوحة و البصائر المكشوفة>>[1].

و إذا كان العقل قسمة بين جميع العقلاء من بني آدم، فإن الناس يتفاوتون بعد ذلك في مدى الذكاء والفطنة ، كما تتفاوت العقول بقدر رياضتها و تدريبها. فبقدر ما يولى العقل من التربية و التطوير بقدر ما يقوى، و العكس صحيح. و إذا كان الفلاسفة و المناطقة يستعملون العقل المنطقي المدرب لإقامة الأدلة على وجود الله تعالى. كما فعل ذلك أهل الكلام. فإن العقل العادي بمنطقه البسيط يهتدي إلى ما اهتدى إليه الأول. و ان كان من غير تمكن من الأدلة. و قد استدل الأعرابي بالبعرة على البعير. و بالأثر على المسير . و بالسماوات و الأرض على العلي القدير .

---

1 - سيد قطب ، المصدر نفسه ، 1401/3

كان القرآن الكريم يلفت العقل البشري، سواء في ذلك العقل الساذج أو المدرب ، إلى أيات الله الملحوظة و إلى ايات الله المكتوبة. ففيها ما يقنع،وما يكفي من الأدلة على وجود الله تعالى- إن كان وجوده يحتاج إلى دليل – و على وحدانيته،يقول سد قطب :<< و المنهج القرآني في تكوين التصور الاسلامي في الادراك البشري يتكىء على ما في السماوات و الأرض،ويستلهم هذا الكون. يوجه إليه النظر و السمع و القلب و العقل >>[1]. ذلك أن كل ما في هذا الكون، مما تقع عليه الحواس المجردة. وما توصل إليه الانسان من حقائق مخبرية، وما يدركه العقل مجرد إدراك، كل ذلك يشهد<< أن الانسان في هذا الكون بصفاته العليا دليل على الله >>[2]. و يرى سيد أن الحكمة في اعتماد المنهج القرآني على الكون في تكوين التصور الايماني الصحيح ليس مرجعه فقط دلالة الكون الظاهرة على وجود الله، وإنما علاقة الوحدة، وحدة الخلق و وحدة الفطرة فأياته الكونية و تجلياته المختلفة << معروضة للأنظار ، يراها العالم و الجاهل. و لها في القلب البشري روعة مباشرة. و لولم يعلم الانسان شيئا عن حقيقتها العلمية، فبينها و بين الكائن البشري صلة أعمق من المعرفة العلمية. بينها و بينه هذا الاتصال في النشأة و في الفطرة و في التكوين ، فهو منها و هي منه>>[3]. غير أن الإنسان كثيرا ما يغفل عن هذه الحقيقة، التي لو تدبر لأدرك قوة سلطانها و شدة إيحائها للنفس. و إذا كان أصحاب المعامل و المخابر يتعرفون على الله من خلال معارفهم العلمية. فإن أصحاب البصائر المفتوحة يزيدون عليهم بإدراك ذلك السر اللطيف الذي يوحد بين الانسان و الكون. و هو سر لا يقوم عليه دليل حسي خارجي، و لكن نفسي باطني كدليل الفطرة.

و إذا كان سيد يتخذ من هذه الوحدة الكونية دليلاعلى وجودالله تعالى، وهو دليل بسيط وأكيد لا يحتاج إلا لمجرد تذكرة من القرآن الكريم،فإنه يتخذ منها أيضا دليلاعلى وحدانية الله تعالى ذلك << أن ناموس التوحيد الذي يحكم هذا الوجود، واضح الأثر في شكل الكون، و تنسيقه و تناسق أجزائه، وانتظام حركته،واطراد قوانينه >>[5]. فلا يصح أن يكون هذا التنسيق و التناسق، وانتظام الحركة واطراد القوانين – لا يصح أن يكون – حدث صدفة ،

1 المصدر نفسه ، 1401/3

2 المصدر نفسه ، 1822/3

3 سعيد حسوى ، الله جل جلاله ، ص 70

4 سيد قطب ، المصدر السابق ، 3124/5

5 المصدر نفسه ، 1395/3

أو بالطبيعة. كما لا يصح أن يكون من صنع آلهة متعددة. و صدق الله القائل :﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا...** ﴾ الانبياء 22.

و إذا كان العقل البشري مدعوا للنظر في الكون للاهتداء إلى الله. فإن القرآن الكريم دعا العقل أيضا إلى التفكر في كتاب الله لأن ذلك كفيل أيضا بمعرفة وجود الله من خلال وحيه و كلامه الذي لا يشبه كلام البشر . فهذا << القرآن شاهد بذاته، بتعبيره ثم بمحتوى هذا التعبير على أنه من عند الله >>[1].

إذا كانت الفطرة دليلا على الله تعالى، و العقل أيضا يملك أن يصل إلى معرفة هذه الحقيقة الأكيدة. فإن الله تعالى لم يشأ أن يدع الانسان إلى فطرته التي قد تطمس، و إلى عقله الذي قد يضل. و لذلك عرّفه بنفسه عن طريق الوحي المعصوم.

جـ - الـــــوحـــــي :

إن طريق الوحي بقدر ما يعرفنا بالله تعالى، يصون عقيدتنا من الانحراف، و تصورنا من الزيغ و الضلال، لأنه معصوم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه، أما العقل فقد يزيغ، و الفطرة قد تطمس.و لذلك يأتي الوحي لا لينشئ هذا التصور إنشاء، و إنما ليذكر به، و يقومه. يقول سيد << أما الرسالات فتذكير و تحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم الأولى >>[2].و لذلك كلما ضل الناس عن سواء الصراط، فأشركوا بالله تعالى ، أرسل الله إليهم الانبياء ليردوهم إلى الحق، ويدعوهم إلىعبادة الله وحده لا شريك له، وليقيموا الحجة على الناس جميعا- و هي قائمة عليهم من قبل فطرهم و عقولهم - كما قال تعالى: ﴿ **رسلا مبشرين و منذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل و كان الله عزيزا حكيما** ﴾ النساء 164. يقول سيد- معلقا على هذه الاية-:<< اقتضت رحمتهُ و حكمته أن يرسل إليهم الرسل ((مبشرين و منذرين)) يذكرونهم و يبصرونهم، و يحاولون استنقاذ فطرتهم و تحرير عقولهم من ركام الشهوات، التي تحجب عنها أو تحجبها عن دلائل الهدى و موحيات الإيمان في الأنفس و الافاق >>[3].و ليس معنى ذلك أن هذا المصدر غير ذي بال، و أن العقل يمكن أن يستغني عنه، و إنما المقصود أن العقول و الفطر تستطيع ان تهتدي إلى الله، بما بسط الله أمام الأولى من الموحيات الايمانية، و بما ركز في الأخرىمن الايمان والتوحيد، والوحي هو العاصم من كل انحراف اعتقادي.<< و لذلك

1 المصدر نفسه ، 1040/2

2 المصدر نفسه ، 1391/3

3 المصدر نفسه ، 805/2

لم يرد التكليف بمعرفة وجود الصانع، و إنما ورد بمعرفة التوحيد و نفي الشريك >>[1] . لأن وجود الله تعالى بالنسبة للوحي حقيقة لامرية فيها، و << الشك في هذه الحقيقة الناطقة التي تدركها الفطرة،وتدل عليها آيات الله المبثوثة في ظاهر الكون المتجلية في صفحاته يبدومستنكرا قبيحا >>[2].وقد ردالانبياء على أقوامهم-المعرضين عن عبادة الله، المكذبين بوحدانيته، والمكذبين ببعثه الأنبياء- ردوا عليهم بما يقطع شكهم وارتيابهم. قال تعالى : « **قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات و الارض...**» ابراهيم13. و من أين يأتي هذا الشك و كل ما في الكون يدل على أنه الواحد، و ليس هناك من دليل واحد على عدم وجوده أو وحدانيته. فإذا اهتدى الانسان إلى الله تعالى بفطرته أو عقله أوالوحي، وعرف أن الله حق، لم يبق له إلا الايمان بالله تعالى، و الاذعان له وحده.

2- الإيمان بالله :

أ حقيقة الايمان :

إذا كانت الفرق الاسلامية أثارت مسألة الايمان، وبحثتها بحثا مستفيضا، ومع ذلك انتهت فيما بينها إلىالاختلاف الكبير في مسمى الإيمان و حقيقته، بين مقصِرٍله على مجرد التصديق القلبي، أو الاقرار باللسان،أوهما معا كما هو مذهب أهل السنة الجماعة[3]. فإن سيد قطب لم يسلك سبيل هذه الفرق في بحث هذه المسألة ، و لم يناقش- هذه الفرق- في اختلافاتها في هذه المسألة كما لم يناقشها في أي مسألة أخرى ، لأنه جعل من منهجه في صياغة العقيدة عدم استحضار أي مذهب أو رأي لمناقشته و الرد عليه، و من ثم توجه إلى المصدر المعصوم مباشرة ليستمد من مضامين النصوص الشرعية حقيقة الإيمان. فمن قول الله تعالى:« **إنما المومنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم و إذا تليت عليهم ءايته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلوٰة و مما رزقنٰهم ينفقون. أولٰئك هم المومنون حقا لهم درجٰت عند ربهم و مغفرة و رزق كريم** » الانفال2-4. يستمد سيد تعريف الإيمان، وأنه << ما وقرفي القلب وصدقه العمل، فالعمل هو الدلالة الظاهرة للإيمان التي لابد من ظهورها للعيان لتشهد بالوجود الفعلي لهذا الإيمان >>[4]. و معنى ذلك أن انعدام

---

1 ابن تيمية ، درء تعارض العقل و النقل ، 308/7

2 سيد قطب ، المصدر السابق ، 2090/4

3 ابن تيمية ، كتاب الإيمان ، ص 239

4 سيد قطب ، المصدر السابق ، 1476/3

العمل ، دلالة على انعدام الإيمان الفعلي ، فلم يبق بعد ذلك إلا الايمان النظري ، الذي وإن تحقق به الانسان فهو كالعدم. و إذا كان الايمان – عند سيد قطب – تصديقا بالقلب و عملا بالجوارح، فهو كذلك إقرار باللسان، غير أنه ليس مجرد إقرار لا أثر له في حياة الانسان، و حركته في هذا الكون. يقول سيد مؤكدا على ضرورة توفر هذه العناصر الثلاثة المكونة لحقيقة الايمان : << إن الايمان ليس كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف ، وأمانة ذات أعباء و جهاد يحتاج إلى صبر >>[1]. و بهذا يتضح مدى مطابقة مفهوم الإيمان عند سيد لمفهومه عند أهل السنة و الجماعة.

وإذا كانت الفرق الاسلامية قد انشغلت بالتحقيق في المعنى الإصطلاحي للإيمان ، فإن سيد قطب قد ركز اهتمامه على بيان حقيقة الإيمان، والارتباط التلازمي بينه وبين العمل . والسبب الذي دفع سيد إلى ذلك هو ما لاحظه من مفارقة كبيرة وعجيبة بين ما يدّعيه المسلمون من إيمان، وما يمارسونه من أعمال تتنافى والايمان ، ناهيك عن التفريط والتضييع لمقتضيات الايمان، بدءا بالصلاة، وانتهاء بتحكيم شرع الله . فاعتبار الإيمان مجرد تصديق أو إقرار مع مخالفة العمل الشخصي والجماعي لذلك تمييع لحقيقته ، وإبطال للتكليف الرباني.

إن إسقاط العمل من مسمى الايمان هو إيذان للأعمال بأن تسوء ، وللسلوك بأن ينحرف، من غير أن يجد المؤمن وخزا من ضميره، أو عقابا شرعيا يسلط عليه . و قدأشار سيد إلىذلك بقوله : << فالايمان حقيقة إيجابية متحركة ما إن تستقر في الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها في الخارج في صورة عمل صالح ، هذا هو الايمان الاسلامي..لايمكن أن يظل خامدا لا يتحرك>>[2].

لقد أصبح الناس يفهمون عبارة " الايمان في القلب " فهما خاطئا ، بحيث يكفي الانسان أن يكون مصدقا بالله تعالى ليكون من حزب الله تعالى و أوليائه. و أصبحت هذه العبارة، التي ليس لها رصيد في الواقع ، هي منهج حياة كثير من المسلمين. إن سيد قطب حين يركز على الجانب العملي من الايمان، ويعتبره المؤشر الحقيقي على وجود هذا الايمان ، إنما يساير القرآن في منهجه ، ذلك أن القرآن الكريم لا يتحدث عن الايمان مجرد مشاعر طيبة في الوجدان، أو تصورات في الذهن، أو نية طيبة في القلب، و إنما يربط ذلك دائما بالعمل.<< و حيثما ذكر

1 المصدر نفسه ، 2720/5

2 المصدر نفسه ، 3967/6

الايمان في القرآن أو ذكر المؤمنون ، ذكر العمل الذي هو الترجمة الواقعية للايمان >>[1]. و مصداق ذلك في القرآن قول الله تعالى : « **إنما المومنون الذين ءامنوا بالله و رسوله ثم لم يرتابوا و جـٰهدوا بأموٰلهم و أنفسهم في سبيل الله أولٰئك هم الصٰدقون** » الحجرات 15. و مصداق ذلك من السنة قول النبي صلى الله عليه وسلم :(الايمان بضع و ستون شعبة، و الحياء شعبة من الايمان)[2]. و أمثال هذه الايات و الاحاديث كثيرة. إن مما يؤكد قيمة العمل كركن من الأركان المكونة لحقيقة الايمان ، أن القرآن الكريم يربط دائما بين الجزاء الأخروي والعمل ربطا سببيا.قال تعالى:« **... و نودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون** » الأعراف 42. وإذا كان عمل الانسان مهما كثر وصلح لن يفي و لو بنعمة واحدة من نعم الله، فإنه عز وجل قبل من عباده جهد المقل وكتب لهم به الجنة فضلا منه ورحمة ، فاستحقوها بعملهم ولكن بهذه الرحمة >>[3].

إن حقيقة الايمان إنما تتجلى في أعمال و سلوكات المؤمنين، و بقدر تمكن الايمان في القلب تظهر آثاره في شكل أعمال صالحة و ممارسات انسانية رفيعة ، كما أن حيقيقته تتجلى أيضا في مدى تأثرالقلب بهذا الايمان ، والإطمئنان به . وإذا كانت الاعمال والسلوكات دلائل ظاهرة، قد تكون صادقة، وقد تكون كاذبة، كحال المنافقين فإن التجربة الإيمانية الباطنة أشد دلالة على وجود الايمان و صدقه، لأن << الإيمان في حقيقته عمل نفسي يبلغ أعماق النفس و يحيط بجوانبها كلها من إدراك و إرادة و وجدان >>[4]. و للايمان حلاوة يجدها المرء في نفسه، كما يجد مرارة المعصية، و هي التي عبر عنها النبي صلى الله عليه و سلم بقوله : << ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان.أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفركما يكره أن يقذف في النار >>[5]. هذه الحقيقة الوجودية هي التي عبرعنها الصحابي الجليل الحارث بن مالك الانصاري رضي الله عنه أروع تعبير ، فعنه << أنه مر برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : كيف أصبحت يا حارث ؟ قال أصبحت مؤمنا حقا. قال: أنظر ما تقول فإن لكل شيئ حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ قال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي و أظمأت نهاري وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا، و كأني أنظر

---

1 - سيد قطب ، خصائص التصور الإسلامي و مقوماته ، ص 157

2 - ابن حجر ، فتح الباري ، 51/1 البخاري في الايمان باب أمور الايمان . ومسلم في الايمان باب بيان عدد شعب الإيمان

3 - سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 1291/3

4 - سليمان الخطيب ، أسس مفهوم الحضارة في الإسلام ، ص 127

5 - ابن حجر ، المرجع السابق ، 60/1 البخاري في الإيمان باب من كره أن يعود في الكفر . ومسلم في الايمان باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان .

إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، و كأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . فقال: ياحارث عرفت فالزم ..[1].

وقد كان سيد قطب – رحمه الله – شديد الحرص على بيان حقيقة الايمان النفسية ، التي من خلالها يستطيع كل انسان أن يحكم على نفسه بالصدق في الايمان أو بغير ذلك. يقول سيد : « إن حقيقة الإيمان يجب أن ينظر إليها بالجد الواجب. فلا تتميع حتى تصير كلمة يقولها لسان، و من ورائها واقع يشهد شهادة ظاهرة بعكس ما يقوله اللسان »[2] سواء في ذلك الواقع العملي المكشوف للناس أو الواقع النفسي المكشوف لصاحبه، و الذي إن خفي على الناس فلا يخفى على الله. إن القلب هو جهاز قياس شدة التوتر الايماني. فإذا كان التوتر شديدا كانت حقيقة الايمان أكثر استقرارا فيه ، و كلما ضعف الايمان أو انعدم انخفضت شدة التوتر ، إلى حد التوقف عن النبض.

و قد كانت قلوب الصحابة رضي الله عنهم شديدة الحساسية بالايمان قوة وضعفا،فعن أنس بن مالك قال : قال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله: إنا إذا كنا عندك رأينا من أنفسنا ما نحب ، فإذا رجعنا الى أهلينا فخالطناهم أنكرنا أنفسنا فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الخلاء، لصافحتكم الملائكة حتى تظللكم بأجنحتها عيانا))[3]. والحديث دليل على أن للايمان أسبابا و وسائط تقويه إلى درجة الاطمئنان، كما أن له أسبابا و وسائط تضعفه إلى درجة ينكر فيها الانسان نفسه. مع بقاء أصل الايمان في قلبه –إن كان مؤمنا أصلا–.و قد سأل ابراهيم ربه أن يريه كيف يحيي الموتىفقال:« **...رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي**...» البقرة 259.و يعلق سيد على هذا الطلب الإبراهيمي بأنه « تشوف لايتعلق بوجود الايمان وثباته وكماله واستقراره ، و ليس طلبا للبرهان أو تقوية للايمان ، إنما هو أمر آخر ، له مذاق آخر ، إنه أمر الشوق الروحي إلى ملابسة السر الالهي في أثناء وقوعه العملي»[4].وهي الدرجة القصوى التي يمكن أن يبلغها الايمان إذا ما استقر في القلب البشري ، وشتان بين هذه الدرجة من الايمان ، التي تجعل المؤمن يشعر و يعيش حقيقة الايمان، و يتذوق طعمه العذب، و بين اعتبار الايمان مجرد تصديق أو اقرار بلا عمل و من دون معايشة.

إن ما يمكن استخلاصه من هذه الجولة في مسألة الايمان، أن سيد قطب على مذهب السلف و جمهور المسلمين

---

1 - سيد قطب ، المصدر السابق ، 1478/3

2- المصدر نفسه ، 1478/3

3- الإمام البغوي ، شرح السنة ، 167/1 كتاب الايمان باب قوله تعالى وتقلبك في الساجدين .... ومسلم في التوبة باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة

4 - سيد قطب ، المصدر السابق ، 302/1

في اعتباره الايمان تصديقا إقرارا و عملا، و أن له حقيقة يجدها المرء في نفسه. كما أنه لم يناقش مسألة الايمان بطريقة جدلية سواء في بيان حده أو في مسألة زيادته و نقصانه، بل كان يرجع إلى النصوص الشرعية مباشرة يستلهم منها الحقائق، و يستنبط الأحكام دونما تعرض لخلافات الفرق التي كثرت حول هذه المسألة، كما كثرت حول غيرها من المسائل. و هو في ذلك وفيٌّ لمنهجه القائم على عدم إيراد ما أسماه بالانحرافات الفكرية و الرد عليها. وإذا كان سيد قد اهتم ببيان حقيقة الايمان. فقد اهتم إلى جانب ذلك ببيان قيمة الايمان و أثره في النفس و المجتمع.

ب- قيمـــة الايـمـــان :

لما كان الايمان عقيدة للضمير و منهجا للحياة . كانت حياة الانسان بسبب ذلك مرتبطة به أشد الارتباط . ولذلك ما فتئ القرآن الكريم يدعونا إلى الايمان بالله تعالى، والالتزام بمقتضيات ذلك الايمان وما فتئ يبين لنا قيمة الايمان و أهميته. وقد حرص سيد قطب كثيرا على بيان هذه القيمة في جل كتاباته ، والتي يمكن تلخيصها في النقاط التالية :

1- الايمان معرفة بالحقيقة الأولى :إذا كنا أحيانا نستدل بالمخلوق على الخالق. فإنه ينبغي علينا أن نستدل على المخلوق بخالقه، لأن الله تعالى هو الحقيقة الأولى و المستقرة، التي تشهدبها الفطرة والعقل و الوحي. ولما كان أصحاب المذاهب الدينية المحرفة، أوالوضعية القاصرة لا يؤمنون بالله حق الايمان، كانت نظرتهم بعد ذلك لهذا الوجود نظرة قاصرة، بل متناقضة في كثير من الأحيان مع الحقيقة و الواقع ، لأن الانسان إنما يستمد تصوراته عن الوجود من خالق الوجود بعد أن يؤمن به الايمان المطلوب. و لهذا يرى سيد أن << قيمة الايمان أنه معرفة بالحقيقة الأولى التي لا تقوم في النفس البشرية معرفة صحيحة لشئ في هذا الوجود إلا عن طريقها. فمن طريق الايمان بالله ينشأ ادراك لحقيقة هذا الوجود و أنه من صنع الله >>[1]. و ليس وليد الصدفة، أو الطبيعة الصماء. و من ثم يعرف الانسان كيف يتعامل مع هذا الوجود بمختلف كائناته و أحداثه ، يقول سيد في موضع آخر من الظلال : << إن الايمان رؤية جديدة للكون ، و إدراك جديد للجمال و حياة على الأرض في مهرجان من صنع الله >>[2]. و إذا كانت هذه واحدة من قيمة الايمانية الفكرية . فإن قيمته النفسية تتمل في :

1- المصدر نفسه ، 3163/5

2- المصدر نفسه ، 153/1

2- انشاء الانسان إنشاء جديدا : ذلك أن حياة الانسان تتناسب مع عقيدته التي يؤمن بها ، و تصوره لهذا الوجود. ومن ثم فان الإيمان بالله تعالى من خلال التصور الاسلامي يعيد تشكيل الانسان وصياغته ، في كل جوانب كينونته. يقول سيد: << **إن هذه العقيدة تنشئ في القلب حياة بعد الموت، و تطلق فيه نورا بعد الظلمات**، حياة يعيد بها تذوق كل شئ و تصوركل شيئ و تقديركل شيئ بحس أخر لم يكن يعرفه قبل هذه الحياة >>[1]. لذلك كانت حياة الانسان الأولى، و التي عاشها بعيدا عن الايمان و حقيقته، تبدو أحط من حياة الحيوان، بل تبدو مقارنة مع حياة الايمان موتا. و هي الحقيقة التي كان الواحد من المؤمنين يحس بها وهوينتقل من حياة الكفر إلى الحياة في رحاب الايمان، و هي الحقيقة أيضا التي عبر عنها القرآن الكريم فقال : ﴿ **أومن كان ميتا فأحييناه و جعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون** ﴾ الانعام 123. إن هذه الآية، لو كانت وحيدة لكانت كافية في بيان قيمة الإيمان و أهميته، لما توحي به من الاهتداء و الاستقامة و الطمأنينة، و غيرها من الشاعر النفسية التي لا يطلب الانسان بعدها إلى رضا الله و الجنة.

3- إذا كانت قيمة الايمان تتجلى في هذين المستويين الفكري والنفسي الفردي، فإنها تتجلى أيضا على المستوى الاجتماعي، فما من مجتمع من المجتمعات يجعل الايمان بالله هوأساس تصوره، وأساس منهج حياته إلا و سعد كما سعد المجتمع الأول ، فكان بذلك خير أمة أخرجت للناس . << و كانوا قبل هذا الايمان في فوضى من الأفعال و الأخلاق و السلوك و الاخذ و الترك و السياسة و الاجتماع >>[2].

إننا مهما تحدثنا عن قيمة الايمان، و مهما ضربنا لذلك الأمثلة فإننا لن نبلغ الحقيقة التي طالما عبر عنها القرآن الكريم، والتي عاشها المؤمنون الصادقون ، فجعلت منهم أمثلة يقتدى بها، ونورا يستضاء به[3]. و لقد كان القرآن الكريم- وهو يبسط قضية الايمان- يركز على أمرين اثنين : أما الأول فبيان قيمة الايمان و أهميته في حياة الفرد و المجتمع، و تحبيبه للناس و تزيينه في نفوسهم، و أما الآخر فالتأكيد على أساس الايمان و لبه ألا و هو التوحيد.

1- المصدر نفسه ، 1200/3

2- المصدر نفسه ، 3163/5

3- أنظر المصدر نفسه ، 3161/5 ، 1199/3

3- التوحيـد :

1- أهميـة التوحيـد :

تكتسـي مسألة التوحيـد أهمية قصوى في بنـاء العقيدة الاسـلامية، وذلك لأهميتـه من حيث ذاتـه، و من حيث أبعـاده، و لذلك كـانت دعـوة القـرآن الكـريم منصبـة على تخليص التوحيـد من كل شـائبة شركيـة، و بيـان أهميتـه باعتبـاره لب الرسـالات جميعـا، لارسـالة محمد صلى الله عليه وسلم فقط. و بيـان أبعـاده و متعلقـاته الفكـرية والنفسية والعملية، و لذلك كانت << قضية توحيدالله وإفـراده بالعبـاد، وإخـلاص الدين لـه، وتنزيهـه عن الشرك في كل صورة من صوره و الاتجـاه إليـه مباشرة بلا وسيـط ولا شفيع >>[1]. هي القضية الاساسية للقرآن الكريم.

إن أول مظهر من مظاهر التوحيد هو تقديم العبادة لله وحده، فبذلك أمر الله تعالى نبيه فقال : ﴿ **إنا أنـزلنا إليك الكتـاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين** ﴾ الزمر02. و من ثم فلا يستحق أحد- مهما كان شأنه- أن يُعبد من دون الله أو مع الله، فالله عزوجل أغنى الشركاءعن الشرك. وإذا كان كثيرمن الناس،

يقصرون العبادة على الشعائر التعبدية فإن ذلك فهم قاصر أو مغرض، لأن العـبادة في مفهومها العام هي الدينونة لله تعالى في كل شأن من الشؤون الخاصة و العامة، الظاهرة والخفية. ومن ثم فإن سكون الانسان و حركته إما أن تكون خالصة لوجه الله فهي العبادة لله، أو تكون غير ذلك .

إذا كان تقديم الشعائر لله تعالى وحده هو أول مظهر من مظاهر التوحيد، وأهم أثرمن آثاره، فإن استمدادالشرائع من عقيدة التوحيد أمـريساوي في القيـمة والأهمـية تقديم الشـعائر . والله تعالـى لا يرضى بتـقديم الشعائردون استمداد الشرائع، لأنه واضع الشعائر والشرائع جميعا، ولم يجعل لنا خيارا في أخذ البعض دون البعض الآخر ، و إنما أمرنا بأخذ دينه جملة، و من ذلك الشرائع، يقول سيد :<< إن الذي تمـتاز به صورة التوحيد في العقيدة الاسلامية هوتعمقها للحياة كلها، وقيام الحياةعلىأساسها واتخاذها قـاعدة للمنهج العملي الواقعي في الحياة >>[2].

إن أثار التوحيد كما تتجلىفي مسألة الاعتقاد، تتجلىأيضافي العبادةوالتشريع والأخلاق ونظام الإجتماع.

1- المصدر نفسه، 3036/5

2- المصدر نفسه، 4004/6

إن أبعاد التوحيد لاتنحصر فقط في علاقة العبد مع الله تعالى، حيث يتوجه الانسان إلى ربه معلنا عبودبته الكاملة له في جميع شؤونه . ولكنها تبدوأيضا في علاقة الانسان بالكون ، لأنهما جميعا صدرا عن مصدر واحد، ويحكمهما نظام واحد، وبينهما ارتباط وتواصل كبير . وقد سبق أن بينا أن الايمان رؤية جديدة للكون، لذ لك يرى سيد أن << القلب الذي يوحد الله يؤمن بوحدة الناموس الإلهي الذي يصرف الوجود كله ، و يؤمن إذن بأن النظام الذي اختاره الله للبشر هو طرف من ذلك الناموس الواحد، لا تصلح حياة البشر ولاتستقيم مع الكون الذي يعيشون فيه إلا باتباعه >>[1]. و من ثم فإن ما يبدو من اختلاف بين شريعة البشر وشريعة الكون، إنما هواختلاف ظاهري اقتضته طبيعة الانسان العاقلة، و طبيعة الكون غير العاقل.

إن التوحيد ليس مجرد حقيقة نحتاج إلى تقريرها بالأدلة العقلية أو الشرعية ، ولكنه حقيقة موضوعية عملية ذات أبعاد و آثار في حياة الفرد و الجماعة؛ تقوم علىأساسها العلاقة بين العبدوربه، وعلى أساسها أيضا تقوم علاقة الانسان المستخلف في هذا الكون الذي هو مجال الخلافة و مسرح العمارة ،و لذلك أولى القرآن الكريم هذه القضية أهمية بالغة. بل لذلك كله جعل الله تعالى دعوة جميع الانبياء و المرسلين منصبة على تأكيد هذه الحقيقة التي إذا ما استقرت عقيدة صحيحة في الضمير ، فإنها تتحقق بأبعادها في الواقع الفردي و الجماعي .

كان اهتمام سيد قطب بالتوحيد، لا بوصفه مجرد مسألة عقدية، و لكن باعتباره جوهر الايمان، و باعتبار أبعاده الواقعية التي لا تدع مجالا من مجالات الحياة الفردية و الجماعية إلا و كانت مهيمنة عليه و موجهة له. و قد تجلى اهتمام سيد بقضية التوحيد في ثلاث مسائل أساسية هي :

1- **البعد التشريعي** : حيث أكد سيد على أن الشعائر و الشرائع في ميزان الاسلام سواء. و إنما أكد سيد على هذا البعد لما رآه من محاولة زحزحة عقيدة التوحيد من مجال الحكم والتشريع، ولذلك ركزكثيرا على موضوع الحاكمية معتبر اياها قضية عقدية صميمة.

2- **البعد الاجتماعي**:وذلك بالمفهوم الواسع والشامل لهذه الكلمة، حيث اعتبرأن النظام الاجتماعي في المجتمع الاسلامي إنما ينبثق من التوحيد انبثاقا. و سنزيد هذه المسألة توضيحا في الفصل الأخير من هذه الرسالة.

---

1 المصدر نفسه ، 3036/5

2 أنظر ، معالم في الطريق ، ص 114

3- **علاقة الانسان بالكون** : فما من شك أن الانسان منذ وجد في هذا الكون وهو على صلة به ، وسيبقى كذلك الى حين اندثار هذا الكون. غير أن هذه الصلة لا تكون طبيعية و صحيحة، ولاتتم في توافق و تناسق مع الكون و الأنظمة المسيرة له إلا إذا كانت مستمدة من عقيدة التوحيد. و قد خصص سيد مبحثا خاصا في" المعالم" تحت عنوان"شريعة كونية " بيَّن فيه بوضوح علاقة الانسان بالكون، والوحدة التي تؤلف بينهما،ومظاهر تلك الوحدة[1]. إذا كان سيد قطب قد ركز علىهذه الأبعاد الثلاثة لعقيدة التوحيد، فليس معنى ذلك أنه أهمل الابعاد الأخرى. كلا، فقد تحدث مطولاعن العبـادة باعتبارها مقتضى من مقتـضيات التوحيد، و أكد على ضرورة النظر إلى العبادة بالمفهوم الشامل، وليس الضيق أو التجزيئي، الذي يحصرها في الجانب الشعائري. لأن الوجود معادلة طرفاها : ألوهية وعبودية. كما تحدث أيضا على توحيد الأسماء والصفات، و بيَّن المنهج الذي يجب أن يتبع في دراستها كما بيَّن أهمية وأثر معرفة أسماء الله و صفاته ، وإنما قلنا بتركيز سيد على الابعاد الأولى للتوحيد، باعتبار أن كثيرا من المؤلفين يغفلون عن هذه الحقيقة ، أوعلى الأقل لا يعطونها من الأهمية ما تستحق، ولم يركزوا عليها كتركيز سيد قطب.

و نحب في خاتمة هذا الموضوع أن نعقد مقارنة و لو بسيطة في موضوع التوحيد بين سيد قطب وعلماء الكلام، و ذلك من أجل أن يتضح أكثر تأكيد سيد على هذا الموضوع، و نعرف أكثر نوع الاهتمام الذي أولاه له.

2- موضوع التوحيد بين سيد قطب و علماء الكلام:

سنجعل هذه المقارنة تجري على مستويين اثنين :

أ- **من حيث القضايا:**

إذا كان سيد ركز على القضايا سالفة الذكر . فما هي القضايا التي ركز عليها علماء الكلام ؟

إذا رجعنا إلى مـؤلفات علم الكـلام وراجعـناها فإننا نجدأن أهم قضيةذات علاقة بالتوحيد شغلت عقول المتكلمين، واستنزفت طاقاتهم، ووجهت اهتماماتهم هي مسألة الذات والصفات. فكثر الجدل حول الصفات هل هي زائدة على الذات، أم أنها عينها. وأطلق المتكلمون العنان لعقولهم ، في مجال ليس من مجالاتـه ، ولا يملك الأدوات التـى تؤهله لبحثه . والمحققون في تاريخ الجدل الإسلامي يقولون إن كثيرا من مسائل علم الكلام،ومنها قضية الذات

---

1 أنظر ، سيد قطب ، معالم في الطريق ، ص 108 و ما بعدها

والصفات لم تكن وليدة المجتمع الاسلامي، ولكنها أثر عن ديانات أخرى كالمسيحية واليهودية، و ثقافات أخرى كالغنوصية الشرقية والفلسفة اليونانية[1]. وقد أدى الاختلاف بين الفرق الاسلامية حول موضوع الذات والصفات إلى محاذير كثيرة ، أخطرها تكفير بعض الفرق لبعض في هذه المسألة ، وكذلك نفي المعتزلة عن الله تعالى ما وصف به نفسه، لاعتقادهم أن ذلك مما يخالف التوحيد.

وإذا كانت مسألة الأسماء والصفات من المواضيع التي جعلها المتكلمون مداراهتمامهم في مبحث التوحيد ، وبطريقة ، ليس للمسلمين الأولين عهد بها فإن مما شغل المتكلمين مع ذلك أيضا تقرير وحدانية الله تعالى، فانبروا لنصب الأدلة القاطعة بوحدانية الله تعالى، من دون أدنى إلتفاتة إلى أهمية هذا التوحيد في حياة الفرد و الجماعة. و ذلك على الرغم من أن هذا العلم كان يسمى بعلم التوحيد. ولكنه في الحقيقة كان توحيدا نظريا متأثرا الى درجة كبيرة بالفلسفة والمنطق اليوناني، و علم اللاهوت المسيحي. و لذلك << فنحن لا نجد في أي كتاب من كتب علم الكلام التقليدية متكلما واحدا يتوجه إلى وعينا الشامل الكلي ليبين لنا المعاني أو النتائج الحية التي تترتب على مبدإ " الوحدانية " >>[2]. و هذا واحد من الأسباب التي جعلت سيد قطب يرفض علم الكلام جملة و تفصيلا.

لقد أهمل علم الكلام مطلقا بيان أبعاد التوحيد ومتعلقاته ، حتى التي تبدوفي حكم البديهة بالنسبة للعالم والعامي على السواء، أي تقديم الشعائر لله تعالى مع الاخلاص الكامل في ذلك. أما بيان مسألة الحاكمية، و المنهج الاجتماعي المنبثق عن التوحيد، و بيان الوحدة بين الانسان والكون ، و ما يترتب عليها من آثار فكرية و نفسية وعملية، كل ذلك و غيره لا أثر له في علم الكلام. وهو الأمر الذي يجعل التوحيد – من خلال علم الكلام – موضوعا فلسفيا بحتا، لا علاقة له بنفس ولا مجتمع.

ب- من حيث المنهج :

إذا كان التوحيد من خلال علم الكلام قد تحول إلى مجرد جدل عقيم حول بعض الموضوعات التي ما كانت تستأهل كل ذلك الجهد الذي بذل فيها. فإن المنهج الذي طرح به علم الكلام موضوع التوحيد كان هو الآخر

---

1 - أنظر : ابن قسائد الزحيلي ، نجاة الخلف في اعتقاد السلف ، ص 46

2 - فتحي حداد ، أزمة التقدم عند مفكري الإسلام ، ص 187

بعيدا كل البعد عن طبيعة و روح عقيدة التوحيد، ذات المصدر الرباني . بل كان متأثرا جدا بالمنطق اليوناني، لأنه كان قائما- خاصة في عهده الأخير - علىأبنية الاستدلال القياسي. مخالفا بذلك لطبيعة المنهج القرآني القائم على نمط الاستدلال الطبيعي، وقد سبق أن بينا أن القرآن الكريم يعتمد في تقرير حقيقة التصور الاسلامي القائم على الايمان بالله و توحيده على الكون و مشاهده[1]. و إذا كان سيد رفض علم الكلام لاهتمامه بموضوعات لا علاقة لها بالمشكلات النفسية والاجتماعية للانسان، فإنه رفض علم الكلام لمجافاة منهجه لمنهج العقيدة و طبيعة التوحيد[2] ،و لذلك راح سيد قطب يعرض العقيدة الاسلامية عموما، وقضية التوحيد خصوصامن خلال المنهج القرآني القويم الذي لا يكتفي بمخاطبة العقل خطابا ذهنيا باردا. و لكن يخاطب الكينونة البشرية بكل مقوماتها . وإذا كان القرآن الكريم قد أكثرمن الخطاب العقلي ، فإنه خطاب ذوإيحاءات وجدانية عميقة ، ليس كالخطاب الكلامي الجدلي الجاف.

بهذه المقارنة البسيطة و السريعة لموضوع التوحيد - ذي الأهمية البالغة موضوعا و منهجا - بين سيد قطب وعلماء الكلام يتضح لنا مدى الأهمية الحقيقية والعملية التي أولاها سيد للتوحيد، و هي أهمية ناتجة عن اهتمام القرآن ذاته بهذا الموضوع. كما يتضح لنا ذلك الزهدالكبير من طرف علماء الكلام في التوحيد، وعدم اهتمامهم بأبعاده الجوهرية، و مقتضياته الواقعية، على الرغم من تسميتهم لفنهم بعلم التوحيد. ومن هنا التقت نظرة سيد مع غيره في ضرورة اطراح علم الكلام و استبداله بالعقيدة الاسلامية المستلهمة من الوحي مباشرة.

3- حقيقة التوحيد :

تقوم العقيدة الاسلامية على أساس أن هناك خالقا هو الله تعالى، ينبغي أن يُوحد ويفرد بالعبادة، وأن هناك مخلوقا، هو ما سوى الله تعالى، يجب أن يوحد الله عز وجل. فسر العقائد الايمانية هو التوحيد، الذي جاءت جميع الانبياء و المرسلين بالدعوة إليه ، مصداقا لقول الله تعالى : ﴿ **و ما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ الأنبياء 25. إلا أن التحريف والتزييف شاب كل الرسالات السابقة ، فلم تسلم إلارسالة محمد صلى الله عليه وسلم، التي جعلها الله الرسالة العامة والخاتمة، فلم يبق هناك تصور ديني صحيح<< إلا التصور

---

1 - أنظر ، وحيد الدين حسان ، قضية البعث الإسلامي ، ص 104- 105

2 - أنظر ، سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 2720/5

3 - أنظر ، سيد قطب ، خصائص التصور الإسلامي و مقوماته ، ص 15

الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وحفظ الله أصوله فلم تمتد إليها يدالتحريف،ولم تطمسها كذلك الجاهليات التي طغت على حياة الناس. و من ثم أصبح التوحيد خاصية من خصائص هذا الدين »[1].

انه لا معنى للايمان بالله تعالى ، إذا لم يكن قائما على التوحيد في الذات والصفات وكذلك التوحيد في العبادة والتشريع. والخروج عن إطار التوحيد بهذا المعنى هو خروج عن إطار الإيمان . وإذا كان المشركون قديما وحديثا – على اختلاف شركهم – يؤمنون بالله تعالى خالقا ومتصرفا فإن الله تعالى حكم عليهم بالضلال والكفر ، ولم يغن عنهم ايمانهم شيئا، لافتقاده إلى التوحيد.

وإذا كانت بعض المذاهب الدينية أو الوضعية تقوم على شيء من التوحيد فإنه توحيد ناقص ، وتوحيد لم يسلم من بعض صور الشرك . فلم يبق إلا « التصور الاسلامي يتفرد بهذه الصورة الخالصة من التوحيد ، من بين سائر التصورات الاعتقادية و الفلسفية السائدة في الأرض جميعا »[2]. ومن هنا استحق هذا الدين-كماأقرته الرسالة المحمدية – أن يوصف بأنه دين التوحيد.

لقد أدرك سيد قطب أن القضية التي يجب أن تولى الاهتمام الأكبر ، على المستويين النظري و العملي هي قضية التوحيد، و ذلك ببيان أصالته و قيمته، وقيام جميع العقائد الايمانية عليه، و من ثم تحريره عمليا من كل شائبة شركية. و قد أفرد سيد قطب للتوحيد – كخاصية من خصائص التصور الاسلامي – حيزا كبيرا ضمن كتابه " خصائص التصور الاسلامي ومقوماته ". إن الاهتمام الكبير بقضية التوحيد من طرف سيد قطب أمر طبيعي، باعتبار هذا الدين دين التوحيد، و أن الانبياء و المرسلين جميعا بعثوا بالدعوة إلى توحيد الله تصورا و عبادة.

4- أصالة التوحيد :

إن التوحيد أصيل أصالة الفطرة البشرية، والانحراف عن التوحيد، والشرك بالله تعالى طارئين على هذه الحقيقة التي تشعر بها الفطرة حين تتخلص من الرواسب والموروثات الفكرية الشركية . و حين تضيق الدنيا بالانسان ، و تقهره ظروف الحياة لا يجد ملجأ إلا إلى الله الواحد الأحد، يرفع إليه أكف الضراعة، يدعوه مخلصا له الدين.

قال تعالى:« **و إذ اخذ ربك من بني ءادم من ظهورهم ذريتهم و أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيمة إنا كنا عن هذا غافلين. أو تقولوا إنما أشرك ءاباؤنا من قبل و كنا**

---

1 - [illegible] 182

2 - [illegible] 182

ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون » الاعراف 172-173. و قال تعالى : « **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين و منذرين و أنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه** ... » البقرة 211.يقول سيد تعليقا على الآية الأولى:<< إن حقيقة التوحيد مركوزة في هذه الفطرة يخرج بها كل مولودإلىالوجود ، فلا يميل عنها إلاأن يفسد فطرته عامل خارجي عنها ، عامل يستغل الاستعداد البشري للهدى و الضلال. و هو استعداد كذلك كامن تخرجه إلى حيز الوجود ملابسات و ظروف .>>[1] بل إن أصالة التوحيد لاتعبر عنها الفطرة الانسانية فقط، ولكن كل ما في الوجود يشهد بوحدانية الخالق سبحانه. يقول سيد : << إن حقيقة التوحيد ليست مركوزة في فطرة الانسان وحده، ولكنها كذلك مركوزة في فطرة هذا الوجود من حوله، وما الفطرة البشرية إلا قطاع من فطرة الوجود كله. موصولة به غير منقطعة عنه >>[2] وإنها لكذلك لأنها من خلق إله واحد ، هو الله سبحانه و تعالى. و إذا كان التوحيد أصيلا كما تشهد بذلك الفطرة البشرية ، و تشهد معها فطرة الكون ، و كما شهد بذلك القرآن الكريم ، فإن الانحراف قد يقع ، بل قد يسيطر على العقل و الفطرة بفعل كثير من المؤثرات الخارجية، و بفعل استعداد الفطرة ذاتها للضلال إذا ما توفرت أسباب ذلك[3]، قد يقع ذلك كله، حتى يظن بعض الناس أن التوحيد بدعة و الشرك هو الأصل الذي وجدوا عليه آباءهم. و من أجل أن تقوم الحجة الكاملةعلى هؤلاء الناس ، أقام القرآن الكريم من الشواهد على وحدانية الله تعالى ما لا يبقى معه شبهة يتعلق بها متعلق. أما أكبر دليل وأعظم حجة شاهدة على وحدانية الله تعالى فهي الفطرة-كما أسلفنا- فالتوحيد <<ميثاق مودع في كيانها، مودع في كل خلية حية منذ نشأتها.وهوميثاق أقدم من الرسل والرسالات >>[4]. و إنما جاءت الرسل و الرسالات لتذكر به ، وتصحح الخطأ وتقوم الاعوجاج الذي قد يطرأ على الفطرة . مصداقا لقول الله تعالى : « **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين و منذرين و أنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه** ... » البقرة 211. وأما الدليل الآخر،الشاهدعلى وحدانية الله تعالى، و الذي لا يقل أصالة و قوة عن الفطرة ، فهو هذا الكون، الذي نصبه الله تعالى كتابا مفتوحا، يقرأ فيه كل إنسان آيات الوحدانية، و يرى في أجزائه شواهدها. يقول سيد - رحمه الله - : « وآية الوحدانية ظاهرة في طريقة خلق السماوات والأرض وفي الناموس الذي يحكم الكون والنظر المجرد إلى السماوات والأرض يوحي

---

1 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 1394/3

و أنظر ، علي أحمد مدكور ، منهج التربية الإسلامية أصوله و تطبيقاته ، ص 101

2 سيد قطب ، المصدر السابق ، 1394/3

3 أنظر ، عباس محمد الكريم العقل ، مباحث في عقيدة أهل السنة و الجماعة ، ص 20

بوحدانية الإرادة المدبرة الخالقة . وما كشفه الإنسان حتى اليوم من دلائل الوحدة فيه الكفاية. >> [1] ولذلك كثيرا ما كان القرآن الكريم يلفت النظر الى الكون وما فيه من موحيات الى الفطرة والعقل دالة على وحدانية الله ، كقول الله عز وجل : **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها و ما لها من فروج . و الارض مددناها و ألقينا فيها رواسي و أنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة و ذكرى لكل عبد منيب.** « ق 6-8. و الآيات من هذا القبيل كثيرة جدا. و بقدر ما كان الدليل الكوني على وحدانية الله قويا وصادقا كان بسيطا أيضا، لا يحتاج إلى عبقرية فذة، كما لايحتاج إلى منطق و مقدمات ، وإنما مجرد النظر يوصل إلى تلك الحقيقة الكامنة في طبيعة هذا الكون. وإلى جانب هذا كله اتخذ القرآن الكريم من حقيقة النفع والضر دليلاعلى وحدانية الله تعالى. فان مالك النفع والضر هوالله وحده، وأما ما دونه من الخلق فهم لا يملكون ذلك. قال تعالى : « **واتل عليهم نبأ ابراهيم. إذ قال لأبيه و قومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين. قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا اباءنا كذلك يفعلون** » الشعراء 74/69. و في جوابهم هذا دليل على أن آلهتهم مجردأصنام لا تسمع ولاتنفع ولاتضر ، ولكنهم عكفوا على عبادتها تقليدا لآبائهم.

لا نستطرد في بيان أصالة التوحيد، و لا في إقامة القرآن لأدلته. فإن الفطرة و كل ما في الكون ينطق بذلك. و لكن الفطرة إذا طمست، و العقل إذا غشي عليه، يعميان عن رؤية الحق.و صدق الله القائل : « **قل انظروا ماذا في السموات و الارض و ما تغني الآيات و النذر عن قوم لا يومنون** » يونس 101.

5- طبيعة التوحيد :يمتاز التوحيد الاسلامي بأنه توحيد خالص، نقي من كل شائبة شركية . فهناك ألوهية تتصف بكل صفات الكمال الإلهي، وهناك عبودية لا تشارك الألوهية في أي صفة من صفاتها. و كل ما سوى الله تعالى عبد. وإذا كان الناسوت يتحد باللاهوت في بعض الديانات، أو يحل فيه، في بعض المذاهب ، فالعلاقة بين الخالق والمخلوق في الاسلام قائمة <<على أساس العبودية وحدها. لاعلى أساس نسب ولا صهر ، ولا مشاركة ولامشابهة ، في ذات ولاصفة ، ولا في اختصاص>>[2]. ويمتاز التوحيد الاسلامي بكونه ليس مجرد تصور في الضمير ، و لكنه تصور له مقتضيات واقعية في الحياة، لايستقيم هذا

---

1 المصدر نفسه ، 3038/5

2 سيد قطب ، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ،ص 190

التصور ، و لا يكون صادقا ونافعا،ما لم يحقق الانسان هذه المقتضيات و يلتزم بها في حياته الخاصة والعامة. فيتوجه لله وحده بالشعائر و الشرائع، كما يتوجه له وَحْدَهُ بالطلب والرجاء[1]. و التوحيد الاسلامي ايجابي لما ينشئه في القلب والعقل من آثار، ولما يقتضيه في الواقع من أعمال، ولما يمد به الروح من طاقات هائلة، و لما يحقق من وحدة وانسجام في النفس البشرية. << والانسان الذي يدرك من حقيقة ربه ومن صفاته ومن علاقته به ذلك القدر المضبوط لا شك يستقيم في التعامل معه بقلبه وعقله ، ولا يضطرب ولا يطيش >>[2]. و هكذا لا يبقى التصور الاسلامي مجرد أفكار نظرية ، بل يتحول إلى حقائق واقعية ، ولذلك << جاءت هذه الوحدانية في القرآن والحديث تمثل في الاهتمام بها والتركيزعليها القضية الأولى التي تبشر بها الدعوة الاسلامية >>[3]. واعتبر القرآن الكريم الموحدين جميعا من الانبياء وأتباعهم أمة واحدة، فقال تعالى :« **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** » الانبياء 91 .

6- قيمة التوحيد:

كانت وقفات سيد قطب عند موضوع التوحيد طويلة وعميقة،لا باعتباره مجرد مبحث كلامي، بل باعتباره حقيقة مستقرة في فطرة الانسان والوجود كله ، متجلية في كل مظاهره ، فيجب أن تتجلى في واقع الانسان . وقد << امتدت هذه الحقيقة إلى تصور المسلم للكون كله ، و تصوره لحقيقة القوة الفاعلة فيه ، وتصوره لحقيقة القوة الفاعلة في حياته هو بحذافيرها. كما امتدت إلى تنظيم جوانب الحياة الانسانية كلها>>[4]. ولما كان المنهج الرباني في تربية النفوس وإقامة المجتمع ينبثق أساسا من التوحيد ، اهتم سيد ببيان قيمة هذا التوحيد، وأثره في النفس والمجتمع . فاعتناق التوحيد تصورا و منهجا يحرر الانسان من كل ما يستعبده من الاشياء و الأناسي، ومن كل مخلوق. يحرر ضميره، و عبادته، و شرائعه، و كل حياته.

1- أنظر ، المصدر نفسه ، ص 190

2- أنظر ، سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 4004/6

2- سيد قطب ، المصدر السابق ، ص 194

3- عبد المجيد النجار، العقل والسلوك في التنمية الإسلامية ، ص71

4- المصدر السابق ، ص 183

يقول سيد : إن الناس في جميع الانظمة التي يتولى التشريع و الحاكمية فيها البشر –في صورة من الصور– يقعون في عبودية العباد، و في الاسلام وحده يتحررون من هذه العبودية للعباد بعبوديتهم للـه وحـده >> [1].

و العبودية لله هي الحرية بعينها، و العبودية لغير الله ذل و مهانة. ذلك :<< أن عبودية الناس لغير الله تعالى تنشئ في نفوسهم الذلة، وقد اراد الله أن يقيمها على الكرامة. وتنشئ في الحياة الظلم و البغي، وقد أراد الله أن يقيمها على القسط والعدل >>[2].وهذه المعاني حقيقة تشعر بها النفس حين تعتنق التوحيد عقيدة، كما شعرت بها نفس ربعي ابن عامر ، فأراد أن يرفع الغبن عن الناس بتحريرهم من عبادة العباد إلى عبادة الله ، و صدق الله القائل : ﴿ **ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشـٰكسون و رجلا سلما لرجل هل يستويـٰن مثلا الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون** ﴾ الزمر 28.فإذا تحرر الفرد تحررت تبعا لذلك الجماعة لأن << الاسلام في صميمه حركة تحريرية تبدأ في ضمير الفرد و تنتهي في محيط الجماعة >>[3]. هـذه الحقيقة إنما ندركها إذا نظرنا في حال الناس كيف كانوا في الجاهلية ثم كيف أصبحوا بالاسلام. و التوحيد مثلما يحرر معتنقه، فهو كذلك يعيد صياغة كلية. يعيد صياغة عقليته و نفسيته، و يغير من طبيعة تفكيره، ونوع اهتماماته. وإذاكان التوحيد يحدث هذا الأثر في النفس البشرية، فإنه بطبيعة الحال يحدث أثرا مماثلا في طبيعة الحياة الإنسانية،لأن << الحياة الاسلامية بكل مقوماتها إنما تنبثق انبثاقا من حقيقة التصور الاسلامي عن التوحيد الخالص الجازم،التوحيد الذي لا يستقيم عقيدة في الضمير ما لم تتبعه آثاره العملية في الحياة >>[4]. ويبين سيد قيمة التوحيد وأثره في النفس و المجتمع فيقول : << إنه مع التوحيد الواضح الخالص لامكان لعبودية إلا لله ولا مكان للاستمداد والتلقي إلا من الله، لا في شريعة أو نظام ، و لا في أدب أو خلق و لا في اقتصاد أو اجتماع ، و لامكانة كذلك للتوجه لغيرالله في شأن من شؤون الحياة و ما بعد الحياة.>>[5] و هكذا يتجلى لنا بوضوح هيمنة التوحيد على الكينونة الانسانية كلها، وعلى الحياة الانسانية بكل مقوماتها، و ليس في ذلك تعديا على كرامة الانسان، أومصادرة لحق من حقوقه، بل ذلك كله صيانة للانسان أن يستعبده شيئ من الأشياء كماهوصيانةله من التشتت في الفكروالاضطراب في النفس.

---

1 المصدر نفسه ، ص 198

2 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 1867/4

3 محمد عادل الهاشمي ، الإنسان في الأدب الإسلامي ، ص 389-390

4- سيد قطب ، المصدر السابق ، 367/1

- و أنظر ، فهمي حسانعان ، أسس التقدم عند مفكري الإسلام ، ص 189

5 المصدر نفسه ، 367/1

7- أقسام التوحيد:

يقسم علماء العقيدة التوحيد إلى قسمين : توحيد الربوبية و توحيد الألوهية، و يعنون بالأول أفعال الله تعالى ، و بالآخر أفعال الانسان تجاه الله تعالى، أي العبادة. جاء في مجموعة التوحيد:<< توحيد الربوبية فعل الرب مثل الخلق و الرزق و الاحياء و الاماتة و إنزال المطر و إنبات النبات و تدبير الأمور. و توحيد الإلهية فعلك أيها الانسان >>[1]. وعلماء العقيدة يجعلون توحيد الربوبية مقابلا لتوحيد الالوهية. أما سيد قطب فيرى أن العلاقة بين توحيد الربوبية و توحيد الألوهية هي علاقة الجزء بالكل، و الفرع بالأصل، فالألوهية أصل والربوبية فرع عنها. يقول سيد:<< وفي الجاهليات كلها ينحسر مجال الألوهية. ويظن الناس أن الاعتراف بالألوهية في ذاته هو الايمان. و أنه متى اعترف الناس بأن الله إلههم فقد بلغوا الغاية. دون أن يرتبوا على الالوهية مقتضاها و هو الربوبية >>[2] فقسما التوحيد عند سيد ليسا متقابلين، و إنما الألوهية تتضمن الربوبية. و مثلما يخالف سيد علماءالعقيدة- عموما- في هذه المسألة، فإنه يخالفهم أيضا في تعريف الربوبية و الالوهية. فالألوهية عندهم هي فعل العبد اتجاه الرب، أي العبادة، و هي عنده أفعال الرب سبحانه، يقول سيد :<< إن قضية الألوهية لم تكن محل إنكار جدي من المشركين، فقد كانوا يعترفون بأن الله – سبحانه – هو الخالق الرازق المحي المميت المدبر المتصرف القادر على كل شيء>>[3].

فانظر كيف جعل أفعال الله تعالى من لوازم الألوهية، و ليس الربوبية كما هو مذهب عامة علماء العقيدة. ولذلك يعرف سيد الربوبية بقوله :<< و الربوبية تتمثل في الدينونة له وحده، فلا يتقدمون بالشعائر التعبدية إلاله ، ولا يحكمون في أمرهم كله غيره وهذا معنى قوله تعالى:(**ذلكم الله ربكم فاعبدوه**)>>[4]. ويقول في موضع آخر :<< و الربوبية تعني القوامة على البشر، و تصريف حياتهم بشرع و أمر من عند الله، لا من عند أحد سواه.>>[5] و هذه المعاني يرددها سيد في الظلال كثيرا كلما استوقفته كلمة رب وإله أوعبادة وحكم. وتبعا لهذا الخلاف في تعريف المصطلحين ، خالف سيد عامة علماء العقيدة فيما أنكره المشركون . فهم يرون بأن المشركين كانوا يؤمنون بربوبية الله و يجحدون ألوهيته[6]، أما سيد فهو يرى بأن المشركين كانوا يكفرون

1- ابن تيمية وآخرون، مجموعة التوحيد، ص 56

2- 3- 4- سيد قطب، المصدر السابق، 1763/3

5- المصدر نفسه، 1853/4

6- أنظر، يوسف القرضاوي، حقيقة التوحيد،ص 32

بتوحيد الربوبية و لا يقرونه. يقول سيد: « وما كان الخلاف على مدار التاريخ بين الجاهلية و الاسلام، و لا كانت المعركة بين الحق و الطاغوت على ألوهية الله سبحانه للكون، وتصريف أموره في عالم الأسباب والنواميس الكونية. انما كان الخلاف و كانت المعركة على من يكون هو رب الناس ، الذي يحكمهم بشرعه ، و يصرفهم بأمره و يدينهم بطاعته ؟»[1].ومرد هذا الاختلاف كله إلى الاختلاف في تحديد معنى الاله و الرب. يعرف سيد الرب بقوله : « هو المالك المتصرف، ويطلق في اللغة على السيد وعلى المتصرف للاصلاح والتربية »[2]. و يعرف الإله بأنه الخالق، المدبر لأمر الكون، المتحكم في أسبابه و نواميسه. ففي معرض تعليقه على ادعاء فرعون الألوهية يقول : « إن فرعون لم يكن يدعي الألوهية بمعنى أنه خالق هذا الكون و مدبره ، أو أن له سلطانا في عالم الاسباب الكونية »[3].فانظر كيف جعل الخلق والسلطان الكوني من لوازم الألوهية،أما الألوهية التي ادعاها فرعون فهي القهر و الاستعباد لشعبه، فعبر عن الربوبية بالألوهية، لأن الربوبية من مقتضيات الألوهية و لوازمها، و لذلك عبر عن هذا الادعاء في سورة النازعات باسمه الحقيقي **«فقال أنا ربكم الاعلى »** النازعات24. و في موضع آخر يؤكد سيد هذا التعريف لمعنى الإله فيقول : « و الاله هو المستعلي المستولي المتسلط »[4]. فهو الخالق إذن و المهيمن على كل شيئ و المتصرف فيه.

إذا كانت الالوهية هي قاعدة التصور الاسلامي الأساسية، و التي تنبثق عنها الربوبية التي تعني القوامة والحاكمية لله تعالى على الخلق [5]، فإن سيدًا قد يستعير أحيانا لفظ الألوهية ليعبر به عن معنى الربوبية، و ليس ذلك تناقضا منه، أو خلطا بين المصطلحات و المفاهيم، وإنما لأن الربوبية عنده مظهر من مظاهر الألوهية. فهي من باب التعبير بالكل عن الجزء، أو التعبيربالأصل عن الفرع. وإذا كان سيد خالف عامة علماء العقيدة في تعريف هذين المصطلحين، و كان في ذلك موافقا للاستاذ المودودي في كتابه " المصطلحات الأربعة " ، فإنه لم يشر إلى هذه المخالفة، على الرغم من أنه أكثر من إيراد هذين المصطلحين، و بيان معناهما و متعلقها.و إذا كان هذا الاختلاف لفظيا فقط، و لا يترتب عليه أثر شرعي، فإنا نظن أن سيد قطب كان موفقا فيما ذهب إليه، فالقرآن

---

1 سيد قطب ، المرجع السابق ، 22/1

2 المصدر نفسه ، 4010/6

3 المصدر نفسه ، 3953/6

4 المصدر نفسه ، 4010/6

5 المصدر نفسه ، 1910/4

الكريم ذاته يستعمل كلمة الإلـه للدلالة على معنى الخالق المتصرف كما في قوله تعالى: « **أمن خلق السموات و الارض و أنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون**... » النمل (60). فانظر كيف يعقب الله تعالى على كل فعل من أفعاله الكونية بقوله " أإله مع الله ". و القرآن ذاته يستعمل كلمة الرب للدلالة على المعبود ، الذي يدين الناس له بالطاعة و الخضوع، كقوله تعالى: « **اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون الله و المسيح ابن مريم و ما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون** » التوبة 31. فلما قال عدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم : انهم لم يعبدوهم . فقال : بلى! انهم حرموا عليهم الحلال ، و أحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم اياهم)) . فقد فهم عدي من كلمة الرب معنى العبادة و التقديس و تقديم الشعائر ، و خفي عليه أن استمداد الشرائع كتقديم الشعائر كلها عبادة. وكقوله تعالى أيضا : « **قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم ألا نعبد إلا الله و لا نشرك به شيئا و لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** »آل عمران (63). << قال ابن جريج : يعني بطيع بعضنا بعضا في معصية الله >>.

فالقرآن إذن يستعمل كلمة الاله و كلمة الرب وفق المفهوم الذي أعطاه سيد لهذين الكلمتين. و إذا كان القرآن يشهد لمذهب سيد بالصحة، فان اللغة العربية تشهد له كذلك بالصحة . قال في لسان العرب : << ولا يكون إلـها حتى يكون معبودا، و حتى يكون لِعَابِدِهِ خالقا و رزاقا و مدبرا ، و عليه مقتدرا ، فمن لم يكن كذلك فليس بإلـه. >>

و لا نطيل في مناقشة هذه المسألة ما دامت لا تتعلق بجوهر الموضوع. على أن هناك ملاحظة ينبغي تسجيلها ، وهي أن سيد قطب قد أطال الحديث عن الألوهية عموما ، باعتبارها القاعدة الاساسية في التصور الاسلامي الصحيح، الذي يمتاز بالصفاء و النقاء و الشمول، و الربوبية خصوصا، باعتبارها مقتضى من مقتضيات الألوهية فقد كان المشركون قديما ينكرونها، و أصبح المسلمون يتهاونون في أمرها، بما تعنيه من معاني القوامة و الحاكمية .

و قد أكد سيد على ضرورة التمييز بين قاعدتين من قواعد التصور الاسلامي الصحيح: الألوهية و ما تستحق من خصائص الاجلال و التقديس، و ما يترتب عليها من مقتضى الطاعة و العبادة.

والعبودية، وما يترتب عليها من مقتضى الدنونة. وذلك محاولة من سيد للتمييز بين التصور الاسلامي و غيره من التصورات الأخرى، كما هو محاولة أيضا لتصحيح التصور الاسلامي الذي شابه بعض الدخن في أفهام بعض المسلمين[1] . الذين أصبحوا- أحيانا- يعتقدون في المخلوق ما لا ينبغي اعتقاده إلا في الله تعالى. أو يتقدمون للمخلوق بما لا يتقدم به إلا الله تعالى. هذاالتفريق الحاسم بين الألوهية والعبودية يسوقنا إلىالحديث عن مسألة الحاكمية، باعتبارها أهم مظهرمن مظاهر ألوهية الله تعالى و ربوبيته.

4- الحاكمية:

ا الحاكمية قضية عقدية:

الحاكمية هي الوظيفة التنفيذية التي يقوم بها المؤمن بحكم توحيده لله في ربوبيته . ولم يكن الانبياء عليهم الصلاة و السلام يكتفون بدعوة الناس إلى توحيد الله نظريا فقط، و لكن يدعونهم إلى عبادته وحده لا شريك له ، والخضوع لسلطانه في الشؤون الدنيوية والأخروية . قال تعالى : « **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى و نور يحكم بها النبيئون الذين أسلموا للذين هادوا و الربانيون و الاحبار بما استحفظوا من كتاب الله و كانوا عليه شهداء**...» المائدة 46. وقال تعالى« **و ليحكم اهل الانجيل بما أنزل الله فيه و من لم يحكم بما أنزل الله** من الكتاب **فأولئك هم الفاسقون. و أنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب و مهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله و لا تتبع اهواءهم**» المائدة 49--50. ان الحاكمية ليست مجرد مصطلح ، بل هي حقيقة واقعية، بل هي الدين ذاته. فالاسلام لا يفصل بين العقيدة و الشريعة، إذ عقيدته شريعة، و شريعته عقيدة. ان المعركة التي خاضها الاسلام ليقرر " وجوده " لم تكن هي المعركة مع الالحاد، حتى يكون مجرد التدين هو ما يسعى إليه المتحمسون لهذا الدين ! ولم تكن هي المعركة مع الفساد الاجتماعي، والفساد الأخلاقي، فهذه معارك تالية لمعركة وجودهذا الدين . لقد كانت المعركة الأولى التي خاضها الاسلام ليقرر وجوده هي معركة الحاكمية، و تقرير لمن تكون . و إذا كان القرآن المكي أولى عناية كبيرة لتصحيح العقائد، و تنقيتها من كل صور الشرك و مظاهره، فإنه و بالموازاة مع ذلك كان يبطل كل فكرة تخالف حاكمية الله تعالى، فناقش

المشركين في أمر التحليل و التحريم، و في مسألة تقسيم الحرث بين الله و بين آلهتهم، و غيرذلك من المواضيع التي تتصل اتصالامباشرا بموضوع الحاكمية، والتي لا تكون إلا لله تعالى >> و من ادعى الحق فيها فقد نازع الله أولى خصائص ألوهيته، سواء ادعى هذا الحق فرد، أو طبقة >>[1]. و قد كان المشركون يعطون هذا الحق لأصنامهم ، كما كان اليهود و النصارى يعطون هذا الحق لأحبارهم و رهبانهم. فجاء هذا الدين ليرد الأمر لله وحده[2]، و ليقول للناس كافة : **... إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم و لكن أكثر الناس لا يعلمون** ، يوسف 40.

ربما كان من الممكن جدا أن يعتنق الكفار والمشركون هذا الدين لو كان مجردعقيدة تبقى محبوسة في الضمير ، و لا سلطان لها على الحياة . أو كان سلطانها مقصورا على الحياة الأخروية فقط، مع إعطاء الانسان الحق في تصريف شؤون حياته الدنيوية كما يشاء . غير أنه << ليس هناك دين من عند الله هو منهج للآخرة وحدها لبتولى دين آخرمن عند غير الله وضع منهج للحياة الدنيا>>[3]. وربماكان ممكنا كذلك أن يعتنق هؤلاء الكافرون هذا الدين لو رضي منهم تقديم الشعائر دون الالتزام بالشرائع، كما هو حال كثير من المسلمين، الذين يدينون لله بالشعائر التعبدية، و يدينون لغير الله بالشرائع و الأحكام الحياتية. إلا أن هذا الدين قائم على أساس أن التوجه << إلى الله وحده بالشعائر التعبدية ، والطلب والرجاء والخشية والتقوى، كالتلقي من الله وحده في التشريع والتوجيه ، و منهج الحياة و نظام المعيشة، و قواعد الارتباطات و ميزان القيم و الاعتبارات. كلاهما من مقتضيات التوحيد.>>[4] فليس هناك ما هو من حق الله، و ما هو من حق قيصر ، بل الدنيا و الأخرة لله وحده، و حاكمية الله تعالى تهيمن على كل أنشطة الفردالخاصة والعامة، كما تهيمن على أنشطة الفرد والجماعة سواء بسواء، <<إنه لا ينجى الانسان من مسؤوليته تجاه تحقيق هذه الوظيفة،أن يكون متعبدا كثير الصلوات والنوافل والأذكار، فإن ذلك كله هباء لا قيمة له إذا كان يعتقد أن للانسان أن يشرع لحياته ما يشاء>>[5]. وقد أدرك سيد ضرورة تبيين هذه القضية،التي لم تحض بالإهتمام الكافي من قبل علماء العقيدة،خاصة الذين انتهجوا المنهج الكلامي ، وبسبب ذلك أصبح سيد في نظر الكثيرمن الناس مخترع هذا المصطلح ، وواضع هذه " النظرية ". والأمر ليس كذلك، لأن اهتمام سيد بها

---

1 الأنبياء، 4 1990

2 أنظر ، حسن الهضيبي ، دعاة لا قضاة ، ص 88 89

3 سيد قطب ، المستقبل لهذا الدين ، ص 16

4 سيد قطب ، خصائص التصور الإسلامي و مقوماته ، ص 190

5 سعيد رمضان البوطي ، كبرى اليقينيات الكونية ، ص 374

إنما هو أثر لتركيز القرآن الكريم عليها ، لا في العهد المدني فقط – الذي شهد نزول الشعائر والشرائع– ولكن في العهد المكي كذلك. و من يراجع سور القرآن المكي يلحظ هذا الاهتمام واضحا. و الأمر الثاني الذي حمل سيد على الاهتمام بالحاكمية ما رآه من محاولة لزحزحتها عن الحياة منذ أمد طويل من طرف أعداء هذا الدين ، بل و من لدن أبنائه . حتى انتهى الأمر بكثير منهم أن أصبحت << قضية الحاكمية في نفوسهم قضية منفصلة عن قضية العقيدة لا تحبش لها نفوسهم كما تجيش للعقيدة ! ولايعدون المروق منها مروقا من الدين ، كالذي يمرق من عقيدة أو عبادة ! وهذا الدين لا يعرف الفصل بين العقيدة والعبادة والشريعة >>[1]. بل لقد زحزحت الحاكمية عن حياة الناس إلى درجة أن أصبح من يدعو إلى تحكيم شريعة الله تعالى، التي أنزلها الله لتحكم الناس و تحكم بينهم يعد مخالفا لطبيعة هذا الدين ، بل ربما مارقا منه . و ينسى هؤلاء أو يتناسون أن العقيدة الاسلامية غير التصورات الدينية و الفلسفية الأخرى، التي تكون فيها العقيدة لأجل العقيدة فقط.

إن عقيدة التوحيد جاءت لتصحيح التصورات، ولتكون منهجا للحياة. وهي<< لا يمكن أن تتحقق بذاتها في واقع الحياة، ما لم تتمثل في نظام اجتماعي معين، و تتحول إلى تشريعات تحكم الحياة، و تكيف علاقاتها الواقعية المتجددة >>[2].

و هكذا نرى سيد قطب يرد كل أمر إلى العقيدة.باعتبارها تصورا صحيحا، وباعتبارها منهج حياة، كما نراه يركز تركيزا قويا على الحاكمية إلى درجة أن أنكر عليه قوم هذا المصطلح ، وأنكر عليه آخرون القول بالحاكمية ، ولعل الذي جعل هذا المصطلح يبدو غريبا – وما هو بغريب –أن المسلمين لم يألفوه كمبحث من مباحث العقيدة في منهجها الكلامي والفلسفي. كما أن الذين يريدون إبعاد الحاكمية من الهيمنة على الحياة و توجيه واقعاتها،كان لهم دور كبير في التشنيع على سيد، و إثارة الغبار الكثيف حول هذه المسألة. والحقيقة أن هذا الموقف لم يتعرض له سيد وحده، بل تعرض له كل مصلح يريد لدين الله أن يسود عقيدة و عبادة و شريعة بدء بالانبياء عليهم الصلاة و السلام.

إذا كان سيد قطب قد أطال الحديث عن الحاكمية – باعتبارها مقتضى من مقتضيات الربوبية – فإنه تبعا لذلك تكلم عن الجاهلية، و عن الكفر ، و غيرهما من المفاهيم الشرعية الأخرى ، وقد أكثر من إيراد هذه المصطلحات ، الأمر

---

1 – سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 1216/3

2 – سيد قطب ، معركة الإسلام و الرأسمالية ، ص 57

الذي جعل كثيرا من الناس يعطي لكلامه بعدا عقديا خطيرا. فاتهمه البعض بأنه يكفر المجتمع، و يدعو إلى اعتزاله كليا ، كما أشكل على كثير من الناس فهم المقصود الحقيقي الذي يريده سيد من إيراد هذه الكلمات الاصطلاحية . و يعنينا في هذا المجال معرفة أمرين أساسيين. أولهما مدى شرعية المصطلحات التي استعملها سيد . وأما الآخر فمعرفة الأثر الشرعي الذي يترتب على استعمال هذه المصطلحات .

ب- مدى شرعية المصطلحات التي استعملها سيد:

اذا كانت هذه المصطلحات ذات مضامين شرعية سلبية، بمعنى أنها تسلب الايمان كله أوبعضه عن المتصف بها فان القرآن الكريم و الحديث الشريف مليئان بمثل هذه الكلمات. فقد ذكرت كلمة الجاهلية في أكثرمن موضع،منها قول الله تعالى:« **أفحكم الجاهلية يبغون و من احسن من الله حكما لقوم يوقنون** »المائدة 52 . قال الحسن : من حكم بغير حكم الله فحُكْم الجاهلية »[1]. وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذروقد أتى ما ينكر عليه – ((انك امرؤ فيك جاهلية))[2]، و قد عنون ابن حجر في الفتح لهذا الحديث بباب المعاصي من أمر الجاهلية و لا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك. و قال : إن كل معصية تؤخذ من ترك واجب أو فعل محرم فهي من أخلاق الجاهلية[3].

وقد جاء الوصف في الكتاب والسنة بالجاهلية لبعض المعينين، كأبي ذرولغير المعينين ،كما جاء الوصف كذلك بالكفر وعدم الايمان. قال عليه الصلاة و السلام :« سباب المسلم فسوق و قتاله كفر »[4]. و لم يفهم العلماء من و صف الكفر هنا بأنه المخرج من الملة، و إنما كما قالوا كفر دون كفر. و كيف يكون مخرجا من الملة والقرآن الكريم يعتبر الطائفتين المؤمنتين المتقاتلتين إخوة. قال تعالى- داعيا إلى الصلح بين المؤمنين المتقاتلين- : « **إنما المومنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم و اتقوا الله لعلكم ترحمون** » الحجرات10 .وقال النبي صلى الله عليه و سلم : (و الله لا يؤمن، و الله لا يؤمن، و الله لا يؤمن، قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: من لا يأمن

---

1 - محمد ناصر الدين الالباني ، تيسير العلي القادر ، 58/2

2 - أنظر ، ابن حجر ، فتح الباري ، 84/1 ، مسلم في الإيمان باب المعاصي من أمر الجاهلية

- و أنظر ، حسن الهضيبي ، المرجع السابق ، ص 241

3 - ابن حجر ، المرجع السابق ، 464/10 البخاري في الادب باب ما ينهى عن السباب واللعن ومسلم في البر والصلة والأدب باب النهي عن السباب

جاره بوائقه)[1] . فانظر كيف أكد النبي صلى الله عليه وسلم نفي الايمان عن صاحب هذه الخصلة، وذلك بلا النافية المسبوقة بالقسم،مع التأكيد على ذلك ثلاثا. ولم يفهم العلماء من هذا الحديث–على الرغم من هذا التأكيد – عدم الايمان أصلا، المساوي للكفر ، وإنما قالوا نفي لتمام الايمان . قال في الفتح تعليقا على هذا الحديث : " و فيه نفي عمن يؤذي جاره بالقول أو الفعل و مراده الإيمان الكامل، ولاشك أن العاصي غير كامل الايمان. وقال النووي عن نفي الايمان في مثل هذا جوابان: أحدهما أنه في حق المستحل، و الثاني أن معناه ليس مؤمنا كاملا "[2].

بهذه الأمثلة يتضح لنا أن سيدا لم يكن مبتدعا حين استعمل هذه الكلمات ذات المضامين الشرعية العقدية، فقد وردت في القرآن و السنة في شأن المؤمنين. و من هنا فلا حرج على سيد حين يستعملها ليخاطب بها المؤمنين أيضا. و على الرغم من ذلك كنا نتمنى لو لم يكثرسيد من توظيفها، لأنها اتخذت ذريعة للقول بتكفير المسلمين، واعتزال مجتمعهم، بل كان من الأجدر أن تذكر مقيدة غير مطلقة،ليكون مضمونها منضبطا ومقصودها واضحا. الآن وقدعرفنا أن هذه المصطلحات شرعية لورودها في القرآن والسنة،فهل كان سيد يقصد بها مدلولها الشرعي العقدي، بمعنى نزع الايمان أصلا عن الموصوف بها و تكفيره، أم يمكن أن نحملها على أحسن الوجوه كما فعلنا ذلك عند تأويلنا للآيات و الاحاديث التي وردت بمثل هذه المصطلحات ؟

ج سيد و تهمة التكفير :

ان المنهج السليم يقتضينا أن نرد المجمل إلى المفصل، وأن نحمل الغامض على الواضح ، فنؤول معنى هذه الكلمات التأويل السليم، و لنا عذر آخر ، هو أن سيد قطب – رحمه الله – كان يتذوق كثيرا جمال اللغة العربية ، و ينساق وراء المدلول اللغوي للكلمة القرآنية دون النظر إلى دلالتها الشرعية، إلا أن تذوق لغة القرآن و إن كان أمرا حسنا و محمودا فإنه يجب أن ينضبط بالدلالات الشرعية تفاديا لكل انحراف في الفهم ، أو غلو في الحكم.

و مرة أخرى نقول: هل كفّر سيد قطب المجتمع ؟.

نملك أن نقول ان سيدا لم يكفر المجتمع، و لسنا بذلك نتحيز له، أو ندافع عنه، و لكننا نستند إلى جملة من الأدلة والقرائن تؤيدنا فيما نذهب إليه، من عدم تكفيره للمجتمع. و من ذلك :

---

1 المرجع نفسه ، 443/10

2 المرجع نفسه ، 444/10

ا تعليقه على قتل إحدى السرايا الاسلامية لرجل بعد أن ألقى عليهم السلام بقوله : << يأمر الله المسلمين إذا خرجوا غزاة ألا يبدأوا بقتال أحد أو قتله حتى يتبينوا، و أن يكتفوا بظاهر الاسلام في كلمة اللسان >> . و ذلك تصريح منه بإيمان من أظهر إسلامه، و لو بمجرد اللسان، و بالتالي فلا يحل قتله، و لا قتاله،

2- تصريحه بأن مهمته بيان معنى لا إله إلا الله، وليس الحكم على الناس،لأن الحكم على أحدمن الناس يستلزم قرينة قاطعة لا تقبل الشك، وهولايقول بفكر التكفير أبدا . فليس الذي يقول للناس إنكم أصبحتم لاتفهمون معنىلا اله إلا الله، و لا تلتزمون بمقتضياتها ، ولا تتخلقون بأخلاقها، وأنكم أصبحتم من البعدعن هذه المعاني في جاهلية، ليس الذي يقول للناس هذا يريد تكفيرهم بالضرورة، و لكن تنبيههم من غفلتهم، و تحذيرهم من المخالفة الصارخة لأحكام الاسلام.

3- تصريحه بإسلام المجتمع، ففي رده على الذين يروجون للرأسمالية و الشيوعية في ديار الإسلام، و يريدون أن يستوردوا أفكارا و تصورات غريبة على عقيدة المسلمين، في رده على هؤلاء يقول سيد :<< فالاسلام معنا هنا في الداخل، و لن نحتاج إلى استجلابه من وراء الحدود >> .فكلمة الاسلام هنا معنا في الداخل تعني بكل وضوح وجلاء أن المجتمع لا يزال مسلما، و بالتالي تنتفي تهمة التكفير التي ألصقت بسيد. و يزيد سيد إسلامية المجتمع تأكيدا فيقول: << و الاسلام صاحب لنا صديق، صاحبناه ألفا و ثلاثمئة عام على الخير و الشر، و على النعماء والبأساء، صاحبناه كارها وراضيا، وبررناه أوعققناه ولكنه بعد ذلك صديق له في الجوانح هزة، وفي المشاعرذكرى، وفي الضمائر أصداء >>[4]. فهل بعد هذا نقول إن سيدا كفر المجتمع، لما وصفه بالجاهلية !؟ لقد ابتعد المسلمون عن دينهم كثيرا، لا يماري في ذلك أحد، وهو ما عبرعنه سيد بقوله : كارها، وعققناه. فالأبوة تبقى ثابتة، و الانتساب إليها قائما حتى مع العقوق.

4- إن سيدا لا يقول بتكفير شخص أو هيئة إلا إذا نازع هذا الشخص أو هذه الهيئة الله تعالى بعض خصائص الألوهية، و منها الحاكمية، وهذا معلوم كفره من الدين باتفاق جماهير المسلمين، فالذي يقول لي الحق أن أشرع للناس ما لم يأذن به الله، أو يغير أحكام الله القطعية بحجة أنها غير صالحة، أو يزعم أن منهجه أفضل من شرع الله تعالى لا شك في كفره. ولذلك يقول سيد:<< و من نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيتة وادعاها فقد كفر

كفرا بواحا، يصبح به كفره من المعلوم من الدين بالضرورة >>[1] .فانظر كيف جعل منازعة الله حقه وصفاته هي الموجبة للتكفير ، كما يكفر الانسان إذا رضي بحكم هذا المنازع لله تعالى[2]. وقد عرف سيد قطب الجاهلية التي تكون كفرا بواحا بأنها حكم البشر للبشر ، هناك بشر حاكم ، منازع لله تعالى في ألوهيته ، و بشر محكومون راضون بهذا الحكم. يقول سيد : << فالجاهلية – كما يصفها الله ويحددها القرآن– هي حكم البشر للبشر ، لأنها عبودية البشر للبشر ، والخروج من عبودية الله ، ورفض ألوهية الله ، والاعتراف في مقابل هذا الرفض بألوهية بعض البشر و بالعبودية لهم من دون الله >>[3]. إن رفض ألوهية الله، و التمرد على الدينونة له كفر بواح ، كما أن الاعتراف بألوهية بعض البشر و الخضوع لهم كفر كذلك . و صدق الله القائل :

« **اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون الله و المسيح ابن مريم و ما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون** » التوبة 31 .

5– تصريح سيد قطب بسوء فهم كلامه ، فالذين قرأوا لسيد بعضهم فهم كلامه على غير مقصوده، وحمله محملا غير سليم إما بقصد أو بغير قصد. و قد نقل عنه الأستاذ عادل حمودة قوله : << إننا لم نكفر الناس، و هذا نقل مشوه إنما نحن نقول إنهم صاروا من حيث الجهل بحقيقة العقيدة وعدم تصور مدلولها الصحيح، والبعد عن الحياة الاسلامية إلى حال يشبه حال المجتمعات الجاهلة >>[4]. ومما يدعم هذا ما ذكرته السيدة زينب الغزالي من أنها سألت سيدا عن بعض ما ورد في كتبه مما يتخذه بعض الشباب سندا للتكفير فأكد : << أنه لا يتعرض للأحكام الشرعية فهذه يختص بها الفقهاء وهي مفصلة في كتب الفقه، و أنه لا يقول بهذا الفكر >>[5]. و قد فرق سيد بين كلمة الكفر في القرآن الكريم، و التي تدل على معان مختلفة و متعددة كالظلم و الفسق و غيرهما، و بين اصطلاح الفقهاء الذي يعني أمورا خاصة و منضبطة متى اتصف بها الانسان خرج عن ملة الاسلام[6].

---

1 سيد قطب ، في ظلال القرآن ،1990/4

2 أنظر ، عمر عبد الرحمان ،كلمة حق ،ص 59 وما بعدها

3– سيد قطب ،المصدر السابق ،904/2

4 عادل حمودة ،سيد قطب من القرية إلى المشنقة ،ص 156

5 سامة الباشا ،سيد قطب بين العاطفة والموضوعية ،الصفحة الأخيرة للغلاف

6 أنظر ، سيد قطب ، المصدر السابق ،1385/3

هذه بعض الأدلة و القرائن أثبتناها هنا لننفي فكرة التكفير التي ألصقت بسيد قطب بقصد سيء ، أوسوء فهم [1]. فهو لا يكفر أحدا صراحة إلا إذا نازع الله في خصائص ألوهيته ، أو رضي بفعل هذا المنازع و أطاعه [2]. أما من سوى ذلك فهو لا يكفره و إنما يصفه بوصف الجاهلية أو الشرك أو عدم الايمان وغيرها، وهي أوصاف أطلقها القرآن الكريم والسنة النبوية في غير ما موضع و حالة، واستعملها كثير من العلماء ، من دون أن تثير تلك الضجة التي أثارها استعمال سيد لها. يقول الشيخ مبارك الميلي : << نحن لا نكفر أحدا من أهل القبلة و نقول في غير تعيين أنه يوجد في المسلمين من يضاهون في عقائدهم المشركين >>[3]. وعلى هذا المحمل يمكن حمل كلام سيد. ثم أي فرق بين قول سيد :<< إن الذين يحكمون على عابد الوثن بالشرك، و لا يحكمون على المتحاكم إلى الطاغوت بالشرك، و يتحرجون من هذه و لا يتحرجون من تلك. إن هؤلاء لا يقرأون القرآن. ولا يعرفون طبيعة هذا الدين. فليقرأوا القرآن كما أنزله الله، و ليأخذوا قول الله بجد : ((**و إن أطعتموهم إنكم لمشركون**)) >>[4]. أي فرق بين هذا القول و قول الشيخ مبارك الميلي :<< و كثير من علمائنا اليوم بله عوامنا لم يفقهوا من العربية ما كان يفقهه أولائك الذين كانت اللغة لغتهم و الأسلوب أسلوبهم، و لهذا لم يقتلع التلفظ بالشهادتين من قلوبهم عقائد الشرك ولا حال دون نفوذه إليها >>[5]. إن كثيراً من المسلمين يجمعون بين لفظ الشهادتين و معنى الشرك بعلم أو بغير علم، و هذه حقيقة لا يماري فيها اثنان.

لقدعايش سيد قطب ظروفا عالمية و محلية كان أغلبها يشجع على الإلحادوالمروق من الدين. ولذلك حمل على عاتقه لواء الدفاع عن الدين كاملا متكاملا. و أبلى في ذلك أحسن البلاء. و لعل الحماسة لهذا الدين هي التي حملته على استعمال هذه الألفاظ بكثرة، دون إرادة معناها الشرعي في أغلب الأحيان، إلى جانب انسياقه وراء مدلولات اللغة العربية، فلبّس ذلك على كثير من الناس فظنوا أن سيدا يكفر المجتمع .

إن ها هنا قاعدة وضعها علماؤنا لعل هذا محل تسجيلها و بيانها، و هي أن إطلاق وصف الكفر على غير معين جائز ، و أما تخصيصه فغير جائز ، إلا إذا توفرت جميع الشروط كالمعرفة باللغة العربية و مدلولاتها، و معرفة

1- أنظر ، النهج السوي في الرد على سيد قطب و تابعه فيصل مولوي ، ص 05 و 09

2- أنظر ، صلاح عبد الفتاح الخالدي، في ظلال القرآن في الميزان، ص214

3- مبارك الميلي ،رسالة الشرك ومظاهره ، ص 24

4- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 1216/3

5- مبارك الميلي ، المرجع السابق ، ص 29

المعلوم من الدين بالضرورة. وانتفت جميع الموانع كحداثة عهد هذا المعين بالإسلام أو خضوعه للإكراه و غير ذلك. و لذلك قالوا :« إن المقالة أو الفعلة قد تكون كفرا أو فسقا، و لا يلزم من ذلك أن يكون القائم بها كافرا أو فاسقا،لانتفاء شرط التكفير أو التفسيق، أو وجود مانع شرعي يمنع »[1].

و أخيرا، فإننا لم نجد سيد قطب يفتي بعدم الصلاة وراء المسلمين، أو عدم دفن موتاهم في مقابر المسلمين. كما لم نجده يفتي بوجوب التفريق بينهم و بين نسائهم،أو استحلال أموالهم و دمائهم . فلو كان يعتقد بكفرهم ويقول بهذا الفكر لأفتى – على الأقل – بواحدة من هذه و أمثالها.

بناءاعلى كل ما ذكرنا ، نملك أن نقول إن سيد قطب لم يكن يقصد بحال بتلك الألفاظ التي أكثرمن استعمالها تكفير المجتمع، أو تكفير معين من الناس، إلا فيما يعتبر الكفر فيه من المعلوم من الدين بالضرورة. و إنما كان قصده بيان مدىالمخالفة الكبيرةلشريعة الاسلام،والمفارقة الكبيرة بين الشهادة المنطوق بها والواقع العملي المخالف لها.

و مما يجب تأكيده أيضا في هذا الشأن أن الحاكمية من مقتضيات ربوبية الله تعالى لكل شيء، وهي ليست بدعة ابتدعها سيد أوغيره، كما أنها ليست منعرجا في الفكر السياسي الاسلامي الحديث [2] ،إنها مبدأ عقدي، و ليست فكرة سياسية .

إن الحديث عن التوحيد و مقتضياته لا يكتمل، و لا يأخذ صورته الواضحة دون الحديث عن توحيد الأسماء و الصفات، و معرفة منهج سيد في دراستها.

1- محمد صالح العثيمين ، القواعد المثلى في صفات الله و أسمائه الحسنى ، ص 92

2- أنظر ، علي أومليل ، مواقفان في الفكر الإسلامي المعاصر ، ص 217

5- توحيد الأسماء و الصفات :

حقيقتهما و منهج دراستهما و الآثار المترتبة على معرفتهما :

إذا كان الإله في التصورات الدينية و الفلسفية الأخرى طلسما ، أو وجودا غير متميز، فإن الله في الفكر العقدي الاسلامي ذات تتصف بصفات الجمال والجلال، لا يشبه أحدا من خلقه، و لا يحل فيه، و ليس بينه و بين أحد من خلقه علاقة نسب و لا شبه ولا تسيير لشأن الكون. فالله تعالى واحد في ذاته، واحد في صفاته. و من أجل ترسيخ هذا التصور الصحيح و الواضح عن الإله وإبطال كل تلك التصورات المنحرفة كانت الدعوة الاسلامية في عهدها الأول - قاصرة على تقرير حقيقة التوحيد بصورتها هذه في القلوب، لأن التوحيد في هذه الصورة عقيدة للضمير، و تفسير للوجود، و منهج للحياة >>[1]، وقدعبرت عن ذلك سورة الاخلاص أحسن تعبيرو أبلغه.

و على الرغم من هذا الوضوح الذي جاءت به عقيدة الاسلام في شأن ذات الله و صفاته، فإن خلافا كبيرا وقع بين المسلمين حول الأسماء و الصفات، و انقسم المسلمون بسبب ذلك إلى مذاهب وطوائف، ولم يكن هذا الأمر قد حدث في العهد الاسلامي الأول ، ولكن بعد أن فشت الفلسفة والمنطق ، و صارت ذات الله تعالى و صفاته موضوعا للبحث من طرف المتكلمين . و إذا كنا قد أسلفنا القول بأن منهج سيد قطب في العقيدة منهج سلفي ، فإننا نؤكد هذا الرأي هنا من خلال مبحث الأسماء و الصفات. و هو رأي مستمد من أقوال سيد و تطبيقاته في هذا المبحث. يقول سيد:<< ولا يملك الإدراك البشري أن يدرك كيفيات أفعال الله ما دام أنه لا يملك أن يدرك ذات الله، إذ أن تصور الكيفية فرع عن تصور الماهية >>[2]. و لذلك لم يتعرض سيد لأسماء الله و صفاته بشئ من التأويل العقلي، و إنما كان يكتفي بتفسير معناها اللغوي ثم يبين الأثر النفسي و التربوي الذي يتركه ذكر هذه الأسماء و الصفات .

و قد عاب سيد على المتكلمين طريقتهم في بحث الأسماء و الصفات، إذ أنهم راموا محالا حين حاولوا تأويل صفات الله و بيان كيفيات أفعاله، واعتبرذلك جهلا و ضلالا منهجيين، يقول في هذا الصدد:<< و كذلك جهل و ضل كل من حاولوا من الفلاسفة و المتكلمين وصف كيفيات أفعال الله و خلطوا خلطا شديدا >>[3]. و إنما كان فعلهم ذلك جهلا و ضلالا لأنهم أرادوا استعمال العقل فيما لم يوضع له أصلا،وتحميله ما لا طاقة له به. فالسمعيات

1- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 4004/6

2- المصدر نفسه ، 1393/3

3- المصدر نفسه ، 1393/3

- ومنها صفات الله تعالى - إنما << جاءت للوقوف بها عند مدلولاتهاالقريبة والتصديق بها لأنها صادرة من هذا المصدر الحق، و يصعب إدراك ماهياتها وكيفياتها لأنها بطبيعتها فوق وسائل الإدراك الانساني المحدود >>[1].

لم يخصص سيد قطب للأسماء و الصفات مبحثا مستقلا، و لم يناقش الفرق آراءها المختلفة حول حقيقة الأسماء و الصفات، و إنما كان يشرحها شرحا لغويا قريبا، بعيدا عن كل تأويل. و سنضرب أمثلة تبين لنا منهجه السلفي في هذه المسألة، و نرد بذلك كل الدعاوى التي يحاول البعض بواسطتها تضليل سيد و تفسيقه :

أ - الارادة : يقول سيد : << لقد صدر الكون عن خالقه عن طريق توجه الإرادة المطلقة القادرة " كن فيكون" فتوجه الإرادة إلى خلق كائن ما كفيل وحده بوجود هذا الكائن على الصورة المقدرة له بدون وسيط من قوة أومادة، أما كيف تتصل هذه الإرادة التي لا نعرف كنهها بذلك الكائن المراد صدوره عنها، فذلك هو السر الذي لم يكشف للإدراك البشري عنه >>[2]. فهذا النص من سيد واضح في سلفيته، فهو يؤمن بأن الله مريد، و لكنه لا يدرك-ولا يريد أن يحاول إدراك- كنه هذه الإرادة، ولاكيفية تعلقها،لأنه لم يؤت ما يدرك به كنه ذلك و كيفيته.

2- الإستواء: يقول سيد : << فإذا كان الله سبحانه ليس كمثله شيء توقف التصور البشري إطلاقا عن إنشاء صورة معينة لذاته تعالى، و متى توقف عن إنشاء صورة لذاته العلية، فإنه يتوقف تبعا لذلك عن تصور كيفيات أفعاله جميعا >>[3]. و هذا هو الرأي الذي إستقر عليه سيد قطب في صفة الاستواء في الطبعة المنقحة للأجزاء الأولى من الظلال، حيث فسر الاستواء في الطبعة الأولى بأنه كناية عن الاستعلاء و السيطرة، ثم عدل عن هذا الرأي في الأجزاء الأولى المنقحة. وقد أشرنا إلى ذلك عندالحديث عن عدم التأويل باعتباره أحد قواعد المنهج .

3- و جاء ربك و الملك صفا صفا :يقول سيد عن هذه الصفة بأنها << أمر غيبي لا ندرك طبيعته ونحن في هذه الأرض. و لكنا نحس وراء التعبير بالجلال و الهول >>[4]. و نكتفي بهذه الأمثلة الثلاثة التي توضح بدقة المنهج الذي اتبعه سيد في دراسة هذا الموضوع. وقد سبق القول بأنه لم يجعل من الأسماء و الصفات مشكلة عقدية كما فعل ذلك الفلاسفة والمتكلمون من قبل، بل كان يمرها كما جاءت، مع الوقوف عند أثرها النفسي والتربوي، و هو الأمر الذي غفل عنه كثير ممن شغلوا انفسهم بالالفاظ لا بحقائقها. فإذا كنا لا نرى الله تعالى بأعيننا، و لا نتصوره بعقولنا، و لا تستطيع جميع وسائلنا المعرفية أن تدرك ذاته فإنه سبحانه << يعرف نفسه

1- المصدر نفسه ، 393/1

2- المصدر نفسه ، 106/1

3- المصدر نفسه ، 1296/3

4- المصدر نفسه ، 3906/6

لعباده بصفاته ذات الأثر في حياتهم و وجودهم، و يلمس بها مشاعرهم و قلوبهم فيثير رجاءهم وطمعهم كما يثير خوفهم و خشيتهم>>[1]. إن اثارة مثل هذه المشاعر في النفس و التجاوب معها دليل على ادراك قيمة و أهمية أسماء الله وصفاته ، و ذلك أولى من الانشغال بمحاولة معرفة حقيقتها. إنه بقدر معرفتنا بصفات الله تعالى – كما توضحها و توحي بها النصوص الشرعية بعيدا عن التأويلات العقلية المتعسفة – تكون معرفتنا بالله تعالى و طاعتنا له، و إنما يجهل حقيقة الله تعالى من يجهل أسماءه و صفاته. ولذلك أمرنا الله عز وجل بدعائه بها فقال تعالى: ﴿ **و لله الاسماء الحسنى فادعوه بها و ذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون** ﴾ الأعراف 180 . و عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ((لله تسعة و تسعون إسما مائة إلا واحدا، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، و هو وتر يحب الوتر)) [2].

و لا شك أن المقصود بالحفظ هنا ليس استيعابها عددا في الصدر فقط و لكن << حفظها تبركا بها و تلذذا بذكرها وتعظيما لقدرها >>[3].

إن استشعار عظمة الله و قدسيته و رحمته و هيمنته و غير ذلك من آثار أسمائه و صفاته، هو الأمر الذي ينبغي أن يكون في الدرجة الأولى من الاهتمام، لأن الله تعالى كما يربينا بشرعه، يربينا كذلك بأسمائه و صفاته، التي نعرف من خلالها << كيف نتسامى عن ضعفنا ونقصنا، ونتطلع إلى أعلى دائما لنراه-سبحانه – و نحاول أن نقلده في حدود طاقاتنا الصغيرة >> [4]. و نحن من دون شك لا نحاول أن ننازع الله في صفات ألوهيته، و لا نبلغ أن نتصف بما يتصف به هو، ولكن نقتبس من فيوضات أنواره، فنتعلم من الله كيف نكون رحماء، ومنفقين ، و نتعلم منه العلم و الإرادة و غير ذلك من الصفات التي تنفعنا في ديننا و دنيانا في حدود طاقاتنا البشرية.

---

1 - المصدر نفسه ، 3068/5

2 - حسن البنا ، مجموعة الرسائل ، ص 384

4 - سيد قطب ، المصدر السابق ، 3591/6

إذا كان الإله في التصورات الأخرى مثالا مجردا من كل صفة، أو له صفات ولكن لا أثر لها في واقع الحياة كإله أرسطو، فإن الله في التصور الاسلامي له صفات الجلال و الكمال و لكل منها << أثر في الكون ملحوظ، و أثر في حياة البشر ملموس، فهي توحي إلى القلب بفاعلية هذه الأسماء والصفات، فاعلية ذات أثر وعلاقة بالناس و الأحياء، و ليست هي صفات سلبية أومنعزلة عن كيان هذا الوجود، وأحواله و ظواهره المصاحبة لوجوده >>[1]. و هذه الفاعلية من شأنها أن تدع المؤمن يرى الله في كل شيء في هذا الوجود. ولعل هذا الاحساس هو الذي أوحى إلى بعض المتصوفة بفكرة "وحدة الوجود". وهي الفكرة التي رُمِي بها سيد مع كونه بعيدا عنها، بل معارض لها و مخالف لأصحابها، وقد عبر عن ذلك في غير موضع من الظلال منها قوله : << النظرية الاسلامية :أن الخلق غير الخالق وأن الخالق ليس كمثله شيء . و من هنا تنتفي من التصور الاسلامي فكرة وحدة الوجود >>[2].إن من شأن الاحاطة بصفات الله تعالى أن تجعل << ضمير المسلم و حياته و وجوده و وجود كل شيء من حوله مرتبطا بالله الواحد، الذي يصرف أمره و أمر كل شيء حوله، وفق حكمة و تدبير >>[3]. و النتيجة التي يمكن أن نخلص إليها في هذا الموضوع هي أن سيد قطب كان حريصا على بيان صفات الله تعالى وفق المنهج السلفي البعيد عن التأويلات العقلية، لاعتقاده أن كل صفة من هذه الصفات تمثل قاعدة من قواعد التصور الاسلامي الذي ظل القرآن المكي على الخصوص يجلوه في الضمير ليتحرر هذا التصور من كل شائبة شركية دينية أو فلسفية. و مجموع هذه الصفات إنما يرتد إلى صفة أساسية يقوم عليها، و يعززها في الوقت نفسه ألا و هي صفة الوحدانية .

إذا كانت هذه أهمية الصفات لتعلقها بالله تعالى، فإن أهميتها بالنسبة للإنسان أنها تخلق في نفسه مشاعر التقديس و التعظيم، و مشاعر الرغب و الرهب.فتكون خير معين له على طاعة الله تعالى، و تجعل سعيه << متناسبا مع علمه بأسماء الله وصفاته>>[4]. ونعتقد أن دراسة الأسماء والصفات بهذا المنهج أقوم وأفيد من دراستها بالمنهج العقلي الذي يحصر المعنى في اللفظ ، فلا يكون له سلطانا على النفس والقلب . وهوالحال الذي آل إليه موضوع الأسماء والصفات من خلال منهج علم الكلام.

1- المرجع نفسه ، 3532/6

2- المرجع نفسه ، 106/1

3- المرجع نفسه ، 287/1

- و أنظر ، عمر سليمان الأشقر ، التوحيد محور الحياة ، ص 22

4- عبد المجيد الزنداني ، الإيمان ، ص 70

بموضوع الأسماء والصفات نكون قد أنهينا الحديث عن التوحيد بإعتباره لب الإيمان،وأساس التصور الإسلامي، و قد كانت وقفات سيد عنده طويلة ومجدّدَة من خلال المنهج السلفي الأصيل.وإذا كانت الأشياء تتميز بأضدادها فلنجعل حديثنا الآن عن الشرك و آثاره.

6- الشرك :

1- حقيقته و أثره :

إذا كان القرآن الكريم اهتم بتجلية صورة التوحيد الخالصة من كل شائبة، و الدعوة إليه باعتباره قاعدة التصور الاسلامي الأساسية، فإنه بالموازاة مع ذلك ركز على إبطال كل صورة من صور الشرك، و التحذير منه، وقد جارى سيد القرآن في ذلك، فبقدر ما اعتنى بالتوحيد و إبراز قيمته و أهميته،اعتنى أيضا بالشرك بيانا و تحذيرا. عرف سيد قطب الشرك بأنه :<< الاعتراف لغير الله – سبحانه – بإحدى خصائص الألوهية، سواء كانت هي الاعتقاد بتسيير إرادته للأحداث، ومقادير الكائنات. أو كانت هي التقدم لغير الله بالشعائر التعبدية و النذور و ما إليها، أو كانت هي تلقي الشرائع من غير الله لتنظيم أوضاع الحياة >>[1] . فقولـه الاعتراف لغير الله بإحدى خصائص الألوهية تعريف جامع لكل أنواع وصور الشرك، سواء كان في صورة نظرية كالاعتقاد في الغير النفع والضر أو مشاركة الله في أيّ من أمور الكون بالإيجاد و الإعدام . أوعلى الأقل اعتباره واسطة بين الخلق و الخالق، سواء كان الإعتقاد نظريا – في هذه الصور و غيرها – أو كان عمليا كتقديم الطاعات و القربات، أو تلقي التشريعات والأحكام. وقد جاء في تعريف أهل السنة و الجماعة للشرك بأنه << إيجاد ألوهية مع الله أو دون الله >>[2]. وبهذا يكون تعريف سيد للشرك مطابقا لتعريف أهل السنة و الجماعة. وإذا كان عامة من يتكلمون في هذا الموضوع يركزون على الصور الساذجة " التقليدية " للشرك كاتخاذ الأصنام و تقديم القرابين، والإعتقاد بأن بعض الناس يعلمون شيئا من الغيب،أويملكون شيئا من التيسير و التدبير مع الله، وهم من يسمون خطأ بالأولياء، إذا كان هؤلاء يركزون على هذه المظاهر– و هي شرك لا محالة– فإن سيد قطب ركز أكثر على الجوانب الخفية

1- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 1063/2

2- مبارك الملي ، رسالة الشرك و مظاهره ، ص 60

للشرك[1]. و لما كان الناس تنصرف أذهانهم عند ذكر الشرك إلى تلك المظاهر التي ذكرناها فإنهم قد يغفلون عن بعض المظاهر الشركية الخطيرة، و منها تلقي الشرائع من غير الله تعالى لتنظيم أوضاع الحياة. و لذلك فهو يستغرب ممن يفصلون بين هذه الصورة والصور الأخرى. فيقول: << إن الذين يحكمون على عابد الوثن بالشرك، و لا يحكمون على المتحاكم إلى الطاغوت بالشرك، و يتحرجون من هذه

و لايتحرجون من تلك. إن هؤلاء لا يقرأون القرآن، و لا يعرفون طبيعة هذا الدين . فليقرأوا القرآن كما أنزله الله و ليأخذوا قول الله بجد: " وإن أطعتموهم إنكم لمشركون " >>[2] .ونحن نعتقد أن اهتمام سيد بهذا الجانب من الشرك راجع في جزء كبير منه للمحاولة التي كانت و لا زالت تقوم بها دوائر عديدة من أجل تقزيم دور الاسلام في الحياة، و حصره في جانب ضيق جدا ، و هو الضمير أو الجانب العبادي على أكثر تقدير ، فلا يكون هناك فرق بين هذا الدين، وغيره كالمسيحية وما سواها. وقد أوضحنا هذه المسألة عند كلامنا على الحاكمية بما يغني عن الإعادة هنا .

لا يتوقف اهتمام سيد بالشرك عند هذا المظهر فقط، و لكن يتعداه لغيره من المظاهر الخفية الأخرى كتعلق القلب بغير الله تعالى، أوالاستناد إلى بعض القيم الارضية في تقدير الاحداث و الأشياء و الأشخاص، وغير ذلك من مظاهر الشرك الخفية[3]، التي حذر منها النبي صلى الله عليه وسلم. ولم يغب عن بال سيد وهو يتحدث عن الشرك الخفي أن يميز بينه و بين الشرك الواضح الجلي . فالأول كالتضحية المشوبة بالتطلع إلى تقدير الناس . و هو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته و شركه))[4]. و الآخر كالدينونة لغير الله في شأن من شؤون الحياة. وهذا هو الشرك الأكبر. وفي مثله يقول سيد : << والامر في مثل هذه الشؤون يتجاوز منطقة الاثم والذنب بالمخالفة حين يكون طاعة و خضوعا و دينونة، لعرف اجتماعي سائد من صنع العبيد، وتركا للأمر الواضح الصادرمن رب العبيد. إنه عند ئذ لا يكون ذنبا، و لكنه يكون شركا>>[5] . وهذا التمييز من سيد بين هذين النوعين من الشرك، الاكبر والأصغر، أو الواضح و الخفي، و اعتبار

---

1 أنظر ، سيد قطب ، المصدر السابق ، 1413/3

2- المصدر نفسه ، 1216/3

3- المصدر نفسه ، 2032/4

4 الدوسي ، رياض الصالحين ، ص 497

5- سيد قطب ، المصدر السابق ، 2033/4

الأول شركا بالمعنى الشرعي، و الثاني ذنبا و مخالفة، هذا التفريق من سيد بين النوعين، صفة و حكما موافق تماما لمذهب أهل السنة و الجماعة[1].

لما كان الشرك من أكبر الذنوب التي لاتغتفر إن مات صاحبها مصرا عليها، ولما كان الشرك أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء، لما كان كذلك توجهت عناية الانبياء عليهم السلام إلى تنقية عقيدة التوحيد الصافية من كل ما يمكن أن يتعلق بها من صوره و مظاهره، والقرآن الكريم سجل حافل بدعوة الانبياء أقوامهم إلىنبذ الشرك، و تسفيه أحلام المشركين، و النيل من آلهتهم التي يعبدون من دون الله. فهذا إبراهيم عليه السلام يخاطب قومه قائلا: ﴿ ... **ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون. قالوا وجدنا ءاباءنا لها عابدين. قال لقد كنتم أنتم و ءاباؤكم في ضلال مبين** ﴾الانبياء54/52. ثم يعلن براءته من هذه الآلهة الباطلة بقوله : ﴿ ... **يا قوم إني بريء مما تشركون** ﴾ الانعام 79. وهذا يوسف عليه السلام يقول لصاحبيه : ﴿ **يا صاحبي السجن ءأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم و ءاباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم و لكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ يوسف39-40. و لقد كان من جملة ما يبايع عليه الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم عدم الشرك بالله.قال تعالى:﴿ **يا أيها النبيء إذا جاءك المومنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا و لا يسرقن و لا يزنين و لا يقتلن أولادهن و لا ياتين ببهتان يفترينه بين أيديهن و أرجلهن و لا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم** ﴾ الممتحنة 12 .

ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه :((بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا... الحديث)) [2].

و صدق الله القائل : ﴿ **و ما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ الانبياء 25. و يبين سيد أصالة التوحيد، و طروء الشرك على الفطرة فيقول : << فكل الديانات قائمة على عقيدة التوحيد. فمن أين جاء المشركون بدعوى الشرك التي تنقضها طبيعة الكون، و لا يوجد من الكتب السابقة دليل عليها >>[3].

و إنما المقصود بالديانات في كلام سيد الرسالات السماوية قبل أن يصيبها ما أصابها من تحريف.

1- أنظر ، ابن حجر ، فتح الباري ، 65/1

2 - الإمام البغوي ، شرح السنة ، 60/1 كتاب الايمان باب البيعة على الاسلام . والبخاري في الايمان باب علامة الايمان حب الانصار . ومسلم في الحدود باب الحدود كفارة لاهلها.

3- سيد قطب ، المصدر السابق ، 2374/4

إن القرآن الكريم ليبالغ في الدعوة إلى محاذرة الشرك، فيوجه التحذير إلى أطهر وأنقى قلب، قلب محمد صلى الله عليه وسلم، فيقول له : ﴿ **و لقد اوحي إليك و إلى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك و لتكونن من الخاسرين** ﴾ الزمر 62. يقول سيد قطب معلقا على هذا الأمر، الذي يبدو غريبا وهو يوجه إلى محمد وإخوانه من الأنبياء :<<وهم- صلوات الله عليهم - لا يتطرق إلى قلوبهم طائف الشرك أبدا. و لكن التحذير هنا ينبه سواهم من أقوامهم إلى تفرد الله سبحانه في مقام العبادة، و توحد البشر في مقام العبودية، بما فيهم الانبياء و المرسلون>>[1]. إذا كان الانبياء جميعا قاموا بهذا الواجب، واجب تخليص التوحيد من الشرك و مظاهره،فإن القرآن الكريم سلك إلى العقول والنفوس مسالك متعددة من أجل انقاذها مما ران عليها من شرك. فمرة يسفه أحلام المشركين و يعتبرهم بلا عقول تفكر، وإنما هم مجرد مقلدين للاباء و الاجداد. قال تعالى: ﴿ **بل قالوا إنا وجدنا ءاباءنا على أمة و إنا على ءاثارهم مهتدون** ﴾ الزخرف 21. <<و هي قولة تدعو إلى السخرية، فوق أنها متهافتة لا تستند إلى قوة . إنها مجرد المحاكاة و محض التقليد ، بلا تدبر ولا تفكر ولاحجة و لا دليل . و هي صورة مزرية تشبه صورة القطيع يمضي حيث هو منساق، و لا يسأل أين يمضي ؟ و لا يعرف معالم الطريق ! >>[2]. هذا الاتباع الأعمى يجعل الانسان يرفض الحق و يأبى النور، لأن التقليد أسره و شل فيه حركة التفكير، و طمس بصيرته. و إذا كان الايمان اختيارا مبنيا على التفكير والاقتناع، فإن التقليد - والشرك منه- مجرد اتباع أعمى، و لذلك قال تعالى معقبا على موقفهم من دعوة الانبياء : ﴿ **قل اولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه ءاباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾ الزخرف 23. كما يتخذ القرآن الكريم الاسلوب السخري و التهكمي وسيلة لإبطال الشرك و إفحام المشركين. فلقد كانت طائفة منهم تعتقد أن الملائكة بنات الله ، وكانوا هم في الوقت نفسه يكرهون البنات لأنهم ينشأون في الدعة والنعومة، ولايقدرون على القتال وقسوة الحياة.فيسخر الله منهم و يقرعهم كيف يختارون لإلههم ما لا يرضونه لأنفسهم، قال تعالى : ﴿ **ام اتخذ مما يخلق بنات و أصفيكم بالبنين . و إذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا و هو كظيم، أو من ينشؤا في الحلية و هو في الخصام غير مبين. و جعلوا الملئكة الذين هم عند الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهدتهم و يسئلون** ﴾ الزخرف 15-18.

و لا يكتفي القرآن بمثل هذه الأساليب ذات الأثر النفسي، و لكنه يسلك معهم سبيل المحاجة العقلية و الجدال

---

1 - المصدر نفسه ، 3061/5

2 - المصدر نفسه ، 3182/5

المنطقي فيقول سبحانه و تعالى مبينا و حدانيته : ﴿ **قل لو كان معه ءالهة كما تقولون إذا لابتغوا الى ذي العرش سبيلا** ﴾ الاسراء 42. غير أن هذا النزاع لم يحدث، و لو وقع لفسدت السموات و الارض، كما قال تعالى :﴿ **لو كان فيهما ءالهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾ الأنبياء 22. << ليس هناك ءالهة مع الله – كما يقولون – و الآلهة التي يدعونها إن هي إلا خلق من خلق الله، سواء كانت نجما أو كوكبا، إنسانا أو حيوانا، نباتا أو جمادا . و هذه كلها تتجه إلى الخالق حسب ناموس الفطرة الكونية ، و تخضع للإرادة التي تحكمها وتصرفها >>[1]. ولذلك كان الأسلوب الأكثر اتباعا من القرآن الكريم لابطال الشرك، وجعل عقيدته متهافتة. هو نزعه كل صفات الألوهية لهذه الآلهة المزعومة،فهي لا تخلق ولا ترزق، ولا تنفع ولا تضر ولا تملك موتا ولا حياة ولا نشورا. قال تعالى: ﴿ **أيشركون ما لا يخلق شيئا و هم يخلقون. و لا يستطيعون لهم نصرا و لا أنفسهم ينصرون. و إن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم انتم صامتون. إن الذين تدعون من دون الله عباد امثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين.** ﴾ الاعراف 194/191. يقول سيد في تعليقه على هذه الايات:<< لقد كانت وثنية مشركي العرب وثنية ساذجة–كما أسلفنا–سخيفة في ميزان العقل البشري في أية مرحلة ! و من ثم كان القرآن ينبه فيهم هذا العقل ، وهو يواجههم بسخافة ما يزاولونه من الشرك بمثل هذه الآلهة >>[2]. والقرآن الكريم مليئ بمثل هذه النماذج من الآيات التي تنزع عن هذه الآلهة المزيفة كل صفة من صفات الألوهية، وينوع القرآن من أسلوبه فمرة يتخذ التقرير أسلوبا، كما في الايات السابقة، ومرة يعتمدعلى التحدي كما في قوله تعالى :﴿ ... **قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون** ﴾ الاعراف 195. و مرة أخرى على الاستفهام التقريري و الانكاري كما في قوله تعالى : ﴿ **قل من يرزقكم من السماء و الارض أمن يملك السمع و الابصار و من يخرج الحي من الميت و يخرج الميت من الحي و من يدبر الامر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون. فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون...** ﴾ يونس31–32. ويبين سيد موقف المشركين من الله تعالى فيقول :<< إن مشركي العرب لم يكونوا ينكرون وجود الله، ولا أنه الخالق، والرازق، والمدبر إنما كانوا يتخذون الشركاء للزلفى. أو يعتقدون أن لهم قدرة

---

1 المصدر نفسه ، 2230/4

2 المصدر نفسه ، 1415/3

إلى جانب قدرة الله . فهو هنا يأخذهم بما يعتقدونه هم أنفسهم، ليصحح لهم- عن طريق إيقاظ وعيهم و تدبرهم و منطقهم الفطري- ذلك الخلط و الضلال >> [1].

هذه بعض من الأساليب التي اعتمد عليها القرآن الكريم، واتبعتها دعوة الأنبياء والمرسلين ، لتخليص التوحيد ، و إبقاء صفحته بيضاء نقية من كل شائبة شركية سواء كانت ظاهرة أو خفية، و سواء كانت في صورة تقليدية ساذجة أو صورة جديدة . << فإذا جاء بعد ذلك قوم و أشركوا مع الله غيره فقد اختاروا الضلال بعد توفر كل اسباب الهداية >> [2]. و لما كان الشرك عقيدة باطلة متهافتة،ومناقضة للتوحيدالذي هوعقيدة الفطرة السوية كان له - تبعا لذلك - اثار جد خطيرة لعل من بينها :

1- الانقطاع عن الله تعالى : وما ينقطع الانسان عن الله حتى يضل، و تستحوذ عليه الشياطين. << ويفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها. قاعدة التوحيد. و يفقد المستقر الأمن الذي يثوب إليه، فتخطفه الأهواء تخطف الجوارح ، و تتقاذفه الاوهام تقاذف الرياح >> [3]. وصدق الله القائل ﴿ **... و من يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق** ﴾ الحج 29.

2- الشرك ظلم عظيم : إن من أعظم الظلم أن يتخذ الانسان من دون الله أندادا. ظلم لله تعالى إذ أشرك معه غيره، و أقر غيره على ادعاء بعض صفات الألوهية. وظلم لنفسه إذ عبد مخلوقا لا يملك من صفات الإله شيئا. << و هذه هي الحقيقة التي يعرضها محمد صلى الله عليه وسلم على قومه فيجادلونه فيها ، و يشكون في غرضه من وراء عرضها، و يخشون أن يكون وراءها انتزاع السلطان منهم، و التفضل عليهم >>[4].

3- الشرك عبودية : فإذا كان التوحيد تحريرا للعقول و النفوس ، فإن الشرك أسر وعبودية ، و قلق واضطراب، فهو بين معبوديه << حائر لا يستقر على نهج و لا يستقيم على طريق، و لا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة التي تمزق اتجاهاته و قواه ! >>[5].

1- المصدر نفسه ، 1781/3

2- عبد الكريم غلاب ، صراع المذهب و العقيدة ، ص 369

3- سيد قطب ، المصدر السابق ، 2422/4-2423

4- المصدر نفسه ، 2782/5

5- المصدر نفسه ، 3049/5

4- الشرك سبب للخوف و الرعب : لأن المشرك يرتكن إلى ضعف و خواء، لذلك فهو دائما يشعر بقلة الامن و انعدام النصير . و إنما يشعر بالأمن من يستند إلى القوة[1] و صدق الله القائل : ﴿ **الذين ءامنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم اولئك لهم الامن و هم مهتدون** ﴾ الأنعام 83.

5- الشرك حجر على العقول : إن التوحيد مثلما يحرر نفس الانسان يحرر فكره،و لأمر ما جعل الله تعالى الايمان به رهين الارادة الحرة و الاختيار الواعي، و لم يحمل الناس عليه بالاكراه. أما الشرك فهو يوقع الانسان في الباطل و الوهم و الخرافة. و من ثم فهو يحجر على عقله، لأنه << في حقيقته عبادة لمجموعة من السدنة و الكهان تحرص على أن يظل أتباعها أسرى الجهل و الخرفات و الألغاز >>[2]. حتى إنهم ليعظمون الحقير، ويعبدون ما لايسمع ولايبصر ، ويعتقدون الغوث في المقبورين، وما إلى ذلك من الخرافات.

6- الشرك موجب للهلاك : لما كانت السيئات التي ذكرنا و غيرها من لوازم الشرك و مقتضياته ، عده الله تعالى أعظم الذنوب. و أوجب لمن مات مصرا عليه، غير تائب منه النار و عدم المغفرة. قال تعالى : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء ...** ﴾ النساء47، << فلايبقى لهم معه أمل في مغفرة، إذا خرجوا من هذه الدنيا و هم مشركون >>[3].

هذه إذا حقيقة الشرك، وذلك هو جهاد الدعوة الاسلامية على مر العصور لتخليص الناس منه و إقرار حقيقة التوحيد كاملة عقيدة للضمير و منهجا للحياة. و تلك هي بعض آثار الشرك، التي بسببها كان أعظم ذنب يمكن أن يرتكبه الانسان. و هذه الأمور كلها كفيلة بأن تجعل موضوع الشرك من أهم الموضوعات و أخطرها، وهو لا يقل أهمية عن موضوع التوحيد، بل إنه الوجه الثاني له، لأنه كما يقال : بأضدادها تتميز الاشياء. فما هي المساحة التي شغلها هذا الموضوع في الفكر الاسلامي، و ما هي المكانة التي تبوأها ؟

2- مبحث الشرك بين سيد و علماء الكلام :

إذا كنا متفقين على أن لعلم اللاهوت المسيحي أثر في مباحث علم الكلام الاسلامي، كما أن للفلسفة اليونانية و منطقها أثر كبير في منهجه. فإن ذلك ييسر علينا فهم تركيز علماء الكلام على المسائل العقلية أكثر منها على المسائل العملية. و إذا كانوا قد اهتموا بمعرفة العلاقة بين الذات و الصفات فإنهم أهملوا

---

1 - المصدر نفسه ، 492/1

2 - محمد شديد ، منهج القرآن في التربية ، ص 127

3 - محمد قطب ، المصدر السابق ، 678/2

الحديث عن الشرك على الرغم من اهميته. و لم يشر علماء الكلام لهذا الموضوع إلا من جانب واحد، و هو محاولتهم نصب الأدلة المختلفة على بشرية عيسى، و أنه ليس ابن الله كما يزعم النصارى، و إذا كان هذا حقا و واجبا، فإنه لم يكن هو التحدي الوحيد الذي يواجه العقيدة الاسلامية في هذا المجال، بل كان هناك الكثير من التحديات الشركية التي تواجه العقيدة في نفوس المؤمنين، أو في واقع الحياة الاجتماعية. و كان أولى بعلماء الكلام بالموازاة مع الاهتمام برد التحدي النصراني خاصة، أن يتوجهوا إلى نفوس المؤمنين فيحرروها من كل صور الشرك و مظاهره، سواء كانت ظاهرة أو خفية على نحوما فعل الحارث المحاسبي[1]. و أن يتوجهوا أيضا إلى نظامهم الاجتماعي فيحرروه من كل صور الشرك، ليقيموه على التوحيد. ومن باب الانصاف فإن علم الكلام اهتم أيضا بمسألة الامامة، ولكن من الناحية النظرية دون العملية التي تتصل بواقع الحياة اليومي.

و هكذا فقد أهمل علم الكلام موضوعا من أهم المواضيع و أخطرها، و ذلك بعدم إثارة مسائله الأساسية و الواقعية، و هو الأمر الذي جعل علم الكلام يعيش في عقول أصحابه أفكارا نظرية، و لم يستطع أن ينزل إلى الحياة الواقعية، أو يرفعها إلى مستواه.

من خلال هذه المقارنة البسيطة و السريعة يتبين لنا مدى العناية التي أولاها سيد لهذه الموضوع ليعالج به مشكلات حقيقية نفسية واجتماعية، في حين كان الفكر الكلامي غارقا في النظريات والموضوعات غير العملية.

من خلال كل ما سبق دراسته في الالهيات يمكن أن ننتهي إلى نتيجة أكيدة، و هي أن سيد قطب كان وفيا للمنهج الذي رسمه لنفسه في باب العقيدة، و هو منهج سلفي محض، بأسلوب متميز، و قضايا و اهتمامات ذات قيمة فكرية و عملية، خلاف ما انتهت إليه العقيدة على يدي علم الكلام. و إذا كنا قد عرفنا آراء سيد في الالهيات، فلنعرف آراءه في النبوات.

1- أنظر ، الحارث المحاسبي ، المسائل في أعمال القلوب و الجوارح و المكاسب و العقل

ثالثا : النبـوات

مقـدمـة :

يرتبـط الايمـان بالانبيـاء و المرسليـن بالايمـان باللـه تعـالى أشـد الارتبـاط، باعتبـار أن الانبيـاء هم المعـرفون باللـه، المبلغـون عنـه. و من ثم لا ينفـع الانسـان أن يؤمن باللـه دون رسـله. و صـدق اللـه القائل : « **إن الذين يكفرون باللـه و رسله و يريـدون أن يفرقـوا بين اللـه و رسـله و يقولون نومن ببعض و نكفر ببعض و يريـدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا. أولئك هم الكافرون حقا و اعـتدنا للكـافرين عـذابا مهينـا.** » النسـاء 150/149 .

I حقيقـة النبوة و النبئ :

لم نعثر على تعـريف النبوة و النبئ لدى سيـد قطب، على الرغـم من اهتمـامه الكبير بهذا الموضوع. و لعل مرد ذلك إلىأنـه لم يبحث هـذا الموضوع بحثا مدرسيا، و إنمـا كـان يهتم ببيـان أهميتـه الفكـرية و العمليـة السلوكيـة، و هي الطريقة التي سـار عليها سيـد في مسـائل العقيـدة المختلفـة. و النبوة و النبئ مشتقان من النبإ بمعنى الخبـر ، و النبوة بمعنى العلو و الشرف[1] و إذا كـان الاشتقـاقان صحيحـان، فإن الإشتقـاق الأول أبلغ في الـدلالة، لأن غير النبئ قـد يشـارك في الشرف و العلو، و لكنـه لا يشـارك في تلقي الوحي من اللـه تعـالى، فذلك مـا يتميـز بـه النبي عن بقيـة النـاس، و صـدق اللـه القـائل :« **قل انما أنا بشر مثلكم يوحى إلي** ... » الكهف 105 . و إذا كـانت النبوة هي الإخبـار عن اللـه تعـالى، و تبليـغ رسـالـته للبشر ، بعـد تلقيـها عن طـريق الوحـي، فهي أبعد ما تكون عن الذكـاء والعبقـرية والنبـوغ والسحـر و الشعوذة [2]، كما يزعـم ذلك بعض المستشرقين و اتبـاعهم، بل هي << اصطفـاء من اللـه لبعض أفراد البشر خصهـم اللـه بصفات من الادراك الروحـي لا يصل إليـها غيرهم من البشر ، و بقـدرة على تلقي وحيه >>[3] . و هـذا هو الفـارق بين النبوة، و بين مـا يصل إليـه بعض أصحـاب الريـاضيات النفسيـة و الصوفيـة، من بعض الكشوف

---

1 -أنظر ، عبد القادر الرازي ، مختـار الصحـاح ، ص 642

و انظر أحمد شهـاب الدين الخفـاجي ، نسيم الرياض ، 451/2

2 أنظر ، محمد علي الصابوني ، النبوة و الأنبياء ، ص 12

و انظر ، شهـاب الدين الخفـاجي ، المرجع السابق ، 456/2

و انظر ، حمولد ذنيبات ، العقيدة و الشريعة ، ص 67

3 - محمد المبارك ، العقيدة و العبادة ، ص 100

والمراتب العليا في الحس والادراك . ومثلما لاتنال النبوة بالرياضة النفسية فهي لا تنال بالتطلع والاستشراف ، إنما هو اختيار الله، والله يخلق ما يشاء و يختار ، فذلك الأفق أعلى من أن يفكر فيه بشر قبل أن يختاره الله له و يؤهله ليرقاه >>[1]. و هي رحمة بالنبئ المختار، وبالقوم المرسل إليهم << و الله يختار لها من يشاء ممن يعلم أنهم لها أهل، و لا علاقة بينها و بين عرض الحياة الدنيا، و لا صلة لها بقيم هذه الحياة الدنيا >>[2]. و لما اعترض المشركون على نبوة محمد باعتبار أنه ليس من علية القوم ووجها نهم، ﴿ **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾ الزخرف30 ،أنكر الله عليهم ذلك و بين لهم أن الأمر كله لله تعالى، فهو سبحانه كما يقسم بين العباد معيشتهم في الحياة الدنيا، يختص بأمر النبوة من يشاء من عباده، فقالى تعالى : ﴿ **... نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحيوة الدنيا و رفعنا بعضهم فوق بعض درجت ليتخذ بعضهم بعضا سخريا و رحمة ربك خير مما يجمعون** ﴾ الزخرف31 .<< و لعله سبحانه لم يشأ أن يجعل لهذه الرسالة سندا من خارج طبيعتها، و لا قوة من خارج حقيقتها، فاختار رجلا ميزته الكبرى الخلق و هو من طبيعة هذه الدعوة، و سمته البارزة التجرد و هو من حقيقة هذه الدعوة >>[3] و إذا كانت النبوة اصطفاء إلاهيا، فما هي طبيعة النبئ المصطفى؟

2- طبيعة النبئ :

حرص القرآن الكريم حرصا كبيرا على بيان طبيعة النبئ ، و ذلك لأجل تخليص العقيدة الاسلامية من كل شائبة شركية، حتى لا يقع المسلمون فيما وقع فيه بعض أتباع الانبياء من قبل، و خاصة أهل الكتاب الذين اختلفوا في عيسى اختلافا كبيرا فمنهم من جعله إلها و منهم من جعله ابن إله، إلى غير ذلك من الخلط الذي عبر عنه القرآن بقوله ﴿ **فاختلف الاحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم اليم** ﴾ الزخرف 65. يقول سيد : << و لتعريف الناس بربهم الحق ، و نفي كل شبهة شرك ، يعني المنهج القرآني ببيان طبيعة الرسالة، و طبيعة الرسول . ذلك أن إنحرافات كثيرة في التصور الاعتقادي جاءت لأهل الكتاب من قبل، من جراء الخلط بين طبيعة الألوهية و طبيعة النبوة >>[4]. و لم يفتأ القرآن يذكر الناس ببشرية محمد،

---

1 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 2715/5

2 المصدر نفسه ، 3187/5

3 المصدر نفسه ، 3186/5

4 المصدر نفسه ، 2069/4

و الانبياء جميعا، كقوله تعالى:« **قل انما أنا بشر مثلكم يوحى إلي...** » الكهف 105. و قوله تعالى عن عيسى عليه السلام : « **إن هو إلا عبد انعمنا عليه و جعلناه مثلا لبني إسرائيل** » الزخرف 59. و كلما سأل المشركون النبي أمرا ليس من اختصاصه، كالاتيان بأية، أو إطلاعهم على الغيب،أوغيرذلك من الأمو التي هي شأن من شؤون الألوهية، كان القرآن يرفض طلبهم محتجا ببشرية الرسول ، كما في قوله تعالى : « **و قالوا لن نومن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا. أو تكون لك جنة من نخيل و عنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا. او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا اوتاتي بالله و الملئكة قبيلا. او يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء و لن نومن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا** » الاسراء 93/90. و هكذا يؤكد القرآن للكافرين، و للناس جميعا أن الأنبياء لا يختلفون عن طبيعة البشر إلا في كونهم عبادا صالحين يوحى إليهم << و ليسوا خلقا آخر غير البشر ، و ليس لهم من خصائص الألوهية شيئ، و ليسوا على اتصال بعوالم الجن و الخفاء المسحور ! إنما هو الوحي من الله سبحانه و ليس لهم وراءه شيئ من القدرة على الخوارق – إلا بإذن الله حين يشاء– فهم بشر من البشر . >>[1] وكثيرا ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصف نفسه بهذا الوصف إذا خاطب أصحابه أو خاطب غيرهم، كقوله صلى الله عليه وسلم : ((<< إنما أنا بشر ، و انكم تختصمون إلي، و لعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه ، فلا يأخذنه ، فإنما أقطع له قطعة من النار >>[2] . بل إن الله تعالى ليصف نبيه بوصف العبودية في حال تكريمه ، كما في قوله تعالى : « **سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصا الذي باركنا حوله لنريه من ايتنا إنه هو السميع البصير** »الاسراء01 . كل ذلك ليؤكد حقيقة النبي، و أنه << عبد الله، الله ربه، و إليه متابه ومآبه، وهو بشرمن البشر، يتزوج و ينسل و يزاول بشريته كاملة بكل مقتضيات البشرية ، كما يزاول عبوديته لله كاملة بكل مقتضيات العبودية . و بهذه النصاعة الكاملة في العقيدة الاسلامية تنتهي تلك الاوهام و الأساطير المهومة في الفضاء و الظلام، حول طبيعة النبوة و طبيعة النبئ >>[3]. فليس الرسول إلـها و لا ابن إلـه، و ليس له من الألوهية و طبيعتها نصيب، بل هو بشر يوحـى إليه. و إذا كان الأمر كذلك فما هي دلائل صدق الرسول ؟ و ما هي علامات صحة دعواه ؟

---

1 المصدر نفسه ، 2070/4

2 الإمـام البغوي ، شرح السنة ، 110/10 كتاب الامارة و القضاء باب قضاء القاضي لا ينفذ إلا ظاهرا . والبخاري في الشهادات باب من أقام البينة بعد اليمين ومسلم في الاقضية باب الحكم بالظاهر و اللحن بالحجة

3 سيد قطب ، المصدر السابق ، 2070/4

3 - دلائل صدق الرسول :

ربما كان ادعاء النبوة من أعظم الادعاءات، و أشدها غرابة وخطورة ، و لذلك كان الله تعالى يؤيد أنبياءه و رسله ببعض الدلائل الشاهدة على صدق نبوتهم، و أول هذه الدلائل المعجزات،التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: « ما من نبي من الانبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما أمن ، على مثله البشر ... الحديث »[1].

و إذا كانت المعجزة دليل كل نبي. فإن الله تعالى خص محمدا صلى الله عليه و سلم ببعض المؤيدات ، و التي تنتظمها النقاط التالية:

أ- البشارة : لم يكن مبعث محمد صلى الله عليه وسلم أمرا مفاجئا ، بل تم التمهيد له على يد من سبقه من الانبياء و المرسلين. و قد ذكر القرآن الكريم أن التوراة و الانجيل بشرا بمحمد. قال تعالى : « ...و رحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون و يؤتون الزكوٰة و الذين هم بآياتنا يومنون. الذين يتبعون الرسول النبيَّ الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوريٰة و الانجيل... » الاعراف 156-157. و يبين سيد قيمة هذه البشارة فيقول : « و إنه لنبأ عظيم، يشهد بأن بني اسرائيل قد جاءهم الخبر اليقين بالنبي الأمي، على يد نبيهم موسى، و نبيهم عيسى عليهما السلام منذ أمد بعيد، جاءهم الخبر اليقين ببعثه، و صفاته، و منهج رسالته، و بخصائص ملته »[2] فإذا كفر أهل الكتاب بعد ذلك بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم كان ذلك عنادا منهم و حسدا. و أصرح بشارة ذكرها القرآن الكريم هي في قول الله تعالى : « وإذ قال عيسى ابن مريم يٰبني إسراءيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوريٰة و مبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد... » الصف 06. « و بشارة المسيح بأحمد ثابتة بهذا النص، سواء تضمنت الأناجيل المتداولة هذه البشارة أم لم تتضمنها، فثابت أن الطريقة التي كتبت بها الأناجيل و الظروف التي أحاطت بها لا تجعلها هي المرجع في هذا الشأن »[3]. و بفضل تبشير التوراة و الإنجيل بمحمد أصبح أهل الكتاب يعرفون دين محمد و طبيعته، و يعرفون محمدا و صفاته كما يعرفون أبناءهم[4]. و لعل هذا التعريف بمحمد و التبشير به لئلا يكفر به أهل الكتاب، و قد ظلوا لمدة طويلة محل الاصطفاء الالـهي. و إذا كان الكثير منهم قد كفر بمحمد حسدا من

1 الإمام النووي ، المرجع السابق ، 13/195، 196 كتاب الفضائل باب فضائل سيد الأولين والآخرين ، والبخاري في فضائل القرآن باب كيف نزل الوحي ، ومسلم في الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد

2 سيد قطب ، المصدر السابق ، 3/1378

3 المصدر نفسه ، 6/3557

4 أنظر ، محمد حسين ، الوحي ، 2/227 ، وما بعدها

عند أنفسهم، كما أخبر بذلك المولى تبارك و تعالى في قوله :« **و لما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم و كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين** » البقرة 88. فإن البعض منهم قد آمن، و لم يكتم الشهادة. و كان سببا في إيمان الكثير من الناس.

و إذا كانت البشارات أمرا يختص بأهل الكتاب أكثر من غيرهم باعتبارها واردة في كتبهم فإن الله تعالى أقام للناس ولأهل مكة خاصة دليلا آخر على صدق نبوة محمد ، وذلك بالنظر في أحواله قبل مبعثه ، فقد كان يحيا بأخلاق الانبياء و ما هو بنبئ بعد .

ب- النظر في أحواله صلى الله عليه وسلم :

من رحمة الله بعباده أن أرسل إليهم رسلا من أنفسهم ، يخالطونهم ، ويأنسون بهم ، ويتعرفون على أحوالهم، ولم يجعلهم من جنس مغاير لجنسهم، فتصعب معرفتهم، و التعامل معهم . والدارس لأحوال الانبياء جميعا ، وأحوال سيدنا محمد خاصة ، يقف على قرائن كثيرة تبلغ درجة الدلائل القاطعة على أنه نبي وليس بشرا عاديا. [1] وإذا كان بعض الصالحين قد يبلغون من الكمال النفسي و الأخلاقي مراتب قريبة من مراتب الانبياء ، فإن النبي لا يستدل بأحواله على نبوته إلا بعد ادعائه النبوة المقرونة بالمعجزة المتحدى بها. فتكون أحواله دلائل أو قرائن مؤكدة لصدق دعواه.

كانت قريش تعرف محمدا بالصدق و الأمانة و رجاحة العقل. فلما بعثه الله تعالى و أمره بإنذار عشيرته، اعتمد النبي صلى الله عليه وسلم على ما كان معروفا به بين الناس، فقال لهم – بعد أن جمعهم في صعيد واحد – : << أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا ما جربنا عليك كذبا >>[2]. إن هذا الاعتراف من قريش بصدق محمد المطلق، إلى درجة أنهم لم يجربوا عليه كذبا طول حياته، ولا يخطر على بالهم أن يكذب قط هو أكبر برهان على صدق نبوته، فما كان ليدع الكذب على الناس و يكذب على الله تعالى. و قد رضوا بتحكيمه في خلافهم حول الحجر الأسود، و كان لرجاحة عقله سببا في إطفاء نار الحرب التي كانت تذرها قد لاحت في الأفق. فلما بعثه الله تنكروا لما كانوا يعرفونه به، و رموه بالسحر و الجنون...

---

1 أنظر ، القاضي عياض ، الشفاء ، 106/2 و ما بعدها

2 - محمد سعيد رمضان البوطي ، فقه السيرة ، ص 72 البخاري في تفسير سورة تبت . مسلم في الإيمان باب وأنذر عشيرتك الأقربين .

فدعاهم الله تعالى إلى التجرد من الأهواء و العصبيات المقيتة، و التفكر في هذا الأمر بكل صدق، فقال عز من قائل : « **قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى و فرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد** » سبأ 46. << فما عرفتم عنه إلا العقل و التدبر و الرزانة. وما يقول شيئا يدعو إلى التظنن بعقله و رشده إن هو إلا القول المحكم القوي المبين >>[1].و لكنه الهوى يعمي و يصمي.

لقد عاش محمد بين أهله دون أن يتعلم القراءة و الكتابة، و من غير أن يجلس إلى من لهم علم الكتاب. و شاء الله تعالى أن يجعل معجزة هذا الرسول الأمي كتابا تقرؤه الأجيال كلها، و معجزة تبقى ما بقي على وجه الارض بشر . فلما جاءهم بهذا الكتاب سارعوا إلىاتهامه بتأليفه « **و قالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة و أصيلا** » الفرقان 05. فرد الله على افترائهم واتهامهم بقوله :« **قل انزله الذي يعلم السر في السموات و الارض إنه كان غفورا رحيما** » سبأ 06. يقول سيد : << و أكذب شيء أن يقول كفار قريش هذه المقالة، وهم يوقنون في أنفسهم أنها الفرية التي لا تقوم على أساس. فما يمكن أن يخفى على كبرائهم الذين يلقنونهم هذا القول أن القرآن الذي يتلوه عليهم محمد صلى الله عليه وسلم شئ آخر غير كلام البشر،و هم كانوا يحسون هذا بذوقهم في الكلام، و كانوا لا يملكون أنفسهم من التأثر بالقرآن. ثم هم كانوا يعلمون عن محمد قبل البعثة أنه الصادق الأمين الذي لايكذب ولا يخون. فكيف به يكذب علىالله وينسب إليه قولا لم يقله ؟>>[2]. وهم كما يعرفون صدق محمد، و كما يدركون ربانية هذا القرآن. يعلمون أيضا أن محمدا أمي ، و بالتالي يسقط كل شك، و تتهاوى كل دعوة تريد أن تجعل لمحمد في هذا القرآن نصيبا. و صدق الله القائل :« **و ما كنت تتلوا من قبله من كتاب و لا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون** » العنكبوت 48. و هكذا يبدوا تفكيرهم طفوليا . و شبهاتهم ساذجة. << فرسول الله صلى الله عليه وسلم عاش بينهم فترة طويلة من حياته، لا يقرأ ولا يكتب،ثم جاءهم بهذا الكتاب العجيب الذي يعجز القارئين الكاتبين، ولربما كانت تكون لهم شبهة لوأنه كان من قبل قارئا كاتبا >>[3]. وكفى بمغايرة القرآن لكلام البشردليلا على صدق محمد، وانتفاء شبهاتهم، التي يواجهون بها دعوته التي كانوا مستيقنين من أمرها.

إن أتباع محمد وأصحابه لم تزدهم الايام إلا يقينا بصدق نبوته، كما أن خصومه وأعداءه كلهم كانوا يشهدون

---

1 سيد قطب ، المصدر السابق ، 2914/5

2 المصدر نفسه ، 2551/5

3 المصدر نفسه ، 2746/5

– في قرارة أنفسهم – بصدق محمد، فكانوا يحاربونه بالنهار، و هم بالليل يسترقون السمع، يأسرهم القرآن يرتله محمد صلى الله عليه وسلم. و لم يكتب لأحد أن يشهد له الاتباع و الخصوم، كما كتب ذلك لمحمد، و قد شهد النجاشي بصدق نبوته لِمَا أخبره جعفر بن أبي طالب، وشهد له هرقل عظيم الروم لِمَا أخبره به أبو سفيان. لانريد أن نستقصي كل أحوال محمد و لكننا اردنا ذكر طرف منها لندلل على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم. ويبقى أكبر دليل هو المعجزة التي أيده الله بها ، و جعلها رسالته إلى الناس كافة . فلنجعل الحديث الآتي عن المعجزة و دلالتها على صدق نبوته.

جـ – المعجزة :

ما من نبي من الانبياء إلا و يؤيده الله بمعجزة يثبت بها دعواه و قد عرف علماء العقيدة المعجزة بأنها : <<أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة >>[1]. وعلى الرغم من وقفات سيدالكثيرة عند موضوع المعجزة إلا أننا لم نجد له تعريفا لها، و لعل السبب أنه لم يعالج موضوعات العقيدة معالجة مدرسية، و إنما كان يعرض لها من نواح فكرية و تربوية بدرجة أولى، كما سبق و أن أشرنا إلى ذلك.

1– بين معجزة محمد و معجزات غيره من الانبياء :

إن معجزة محمد هي من جنس الرسالة التي جاء بها بل هي مادة رسالته . فالقرآن الكريم هو المعجزة، وهو الرسالة في حد ذاتها. << و من ثم جاءت أياتها الخوارق آيات متلوة من القرآن الكريم المعجز الذي لا تنفذ عجائبه ، والذي تتفتح كنوزه لجميع الأجيال ، والذي هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، يحسونها خوارق معجزة كلما تدبروها، وأحسوا مصدرها الذي تستمد منه سلطانها العجيب >>[2]. إن أهمية المعجزة التي جاء بها محمد بقدر ما تمكن في كونها من جنس رسالته، فهي تكمن كذلك في خلودها، ذلك أن معجزات الانبياء السابقين كانت مادية مؤقتة لا ينتفع بها إلا من رآها في الزمان والمكان المحدد.أما معجزة الرسالة الخاتمة العامة فهي للناس جميعا، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:<< ما من نبي من الانبياء إلا و قد أعطي من الايات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي ،

---

1 عمر سليمان الأشقر ، الرسل و الرسالات ، ص 121

2 سيد قطب ، المصدر السابق ، 2746/5

فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة [1]. ولما كان المشركون يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم معجزات مادية حتى يؤمنوا به ، كان القرآن الكريم يلفت أنظارهم إلى المعجزة القائمة الدائمة ، قال تعالى : ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه ءايـٰت من ربه قل انما الايـٰت عند الله و إنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتـٰب يتلىٰ عليهم إن في ذٰلك لرحمة و ذكرىٰ لقوم يومنون** ﴾ العنكبوت 50-51. يقول سيد مبينا قيمة هذه المعجزة :<< إن معجزة الاسلام هي القرآن . وهو كتاب يرسم منهجا كاملا للحياة و يخاطب الفكر والقلب، و يلبي الفطرة القويمة.ويبقى مفتوحا للاجيال المتتابعة تقرؤه وتؤمن به إلى يوم القيامة. أما الخارقة المادية فهي تخاطب جيلا واحدا من الناس، و تقتصر على من يشاهدها من هذا الجيل >>[2].

إذا كانت معجزة الاسلام هي القرآن، فليس معنى ذلك أن الله لم يؤيد رسوله بغيرها، بل أيده بكثير من الخوارق المادية، إلا أنها بالنسبة للقرآن الكريم تعتبر معجزات ثانوية، غير مقصودة بالأساس، ليبقى القرآن هو المعجزة الكبرى و الأولى و المقصودة. ومن الخوارق المادية التي أيد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم خارقة الاسراء و المعراج و انشقاق القمر وغيرهما من الخوارق. و إذا كان سيد قطب يثبت هذه المعجزات لرسول الله صلى الله عليه و سلم فهو يرى بأنها ليست معجزات للتحدي و إثبات صدق الدعوى، و إنما المقصود منها الابتلاء و الامتحان. يقول سيد : << أما الخوارق التي وقعت للرسول صلى الله عليه وسلم و أولها خارقة الاسراء و المعراج فلم تتخذ معجزة مصدقة للرسالة. إنما جعلت فتنة للناس و ابتلاء >>[3]. و يرى أن عدم تأييد النبي صلى الله عليه وسلم بالخوارق المادية، و اعتبارها المعجزات المتحدى بها، يرجع إلى ثلاثة أسباب :

أما السبب الأول فهو أن البشرية قد بلغت مرحلة من النضج العقلي،على العكس ما كانت عليه على عهد الانبياء السابقين، و من ثم كان لابد أن تناسب معجزة الرسالة الخاتمة المستوى العقلي و الفكري للمخاطبين. وذلك على الرغم من أهمية الخارقة المادية المحسوسة. يقول سيد : << إن الخوارق الحسية قد تدهش القلب البشري في طفولته، قبل أن يتهيأ لإدراك الايات الكونية القائمة الدائمة و التأثر بإيقاعها الثابت الهادئ، و كل الخوارق التي ظهرت على أيدي الرسل صلوات الله عليهم قبل أن تبلغ البشرية الرشد والنضوج يوجد في الكون ما هو

---

1 الإمام البغوي ، المصدر السابق ، 13/195، 196

2 سيد قطب ، المصدر السابق ، 4/2237

3 المصدر نفسه ، 4/2237

أكبر منها و أضخم، و إن كان لا يستثير الحس البدائي كما تستثيره تلك الخوارق >> [1]. و أما السبب الثاني في عدم جعل معجزة محمد صلى الله عليه وسلم مادية، فلأن رسالته إلى الناس كافة، و هي خاتمة الرسالات، فجعل معجزته القرآن الكريم، << و لم يشأ أن ينزل آية قاهرة مادية تلوي الاعناق و تخضعها و تضطرها إلى التسليم، ذلك أن هذه الرسالة الأخيرة رسالة مفتوحة للامم كلها، و للأجيال كلها، و ليست رسالة مغلقة على أهل زمان أو أهل مكان. فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للبعيد و القريب >>[2]. وها هوالقرآن الكريم لازال معجزا يتحدى بعد أربعة عشر قرنا، و سيبقى كذلك.

وأما السبب الثالث : فهو أن الله تعالى كان يجعل الخوارق المادية مصدقة للرسل و مخوفة للأمم، فإذا كذبت الأمم رسلها بعد الاتيان بالمعجزة نزل بهم عذاب الله تعالى . ولم يشأ الله تعالى أن يهلك أمة محمد بمثل هذا العذاب، بالإضافة إلى أن المكذبين لم يكونوا يسألون المعجزات للتصديق و الايمان ، ولكن لهوى في انفسهم . << و لذلك لم يؤمن بهذه الخوارق إلا المستعدة قلوبهم للإيمان، أما الجاحدون فقد كذبوا بها في زمانهم، و من هنا جاءت الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بهذه الخوارق >>[3].

قال تعالى : ﴿ **و ما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الاولون و اتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها و ما نرسل بالآيات إلا تخويفا** ﴾ الاسراء 59. قال ابن كثير : << إن الله لم يرسل الايات التي طلبها المشركون من قريش إلا أنه قد كذب بها الأولون بعدما سألوها، و جرت سنته تعالى فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إن كذبوا بها بعد نزولها >>[4]. والحقيقة أن المشركين لم يكونوا في حاجة إلى معجزة أخرى بعد القرآن الكريم، بل هم في حاجة إلى فتح قلوبهم للقرآن.

إذا كان سيد قطب وقف مطولا لبيان أهمية وقيمة المعجزة القرآنية أمام المعجزات الحسية، فإنه يرى أيضا أن كل ما في الكون معجزة حتى ما له قانون ثابت.

1- المصدر نفسه ، 3427/6

2- المصدر نفسه ، 2585/5

3- المصدر نفسه ، 2237/4

4- محمد نسيب الرفاعي ، تيسير العلي القدير ، 36/3

2- بين المعجزة و القانون الثابت :

تعتبر المعجزة خرقا للقانون الكوني المعروف لدينا ، وقد تكون ناشئة عن قانون كوني آخر لا نعلم نحن طبيعته، ذلك ان كثيرا مما كان يعتبر في القرون الماضية معجزة، كنقل الصوت والصورة، أصبح اليوم في حكم البدهيات ولا يثير أية دهشة لدى الانسان . والحقيقة أن الانبهار بالمعجزة بقدر ما هو ناتج عن عظمة الخارقة في حد ذاتها هو أيضا ناتج عن جدتها ، وعدم إلف الحس البشري لها ، ومعلوم أن الإلف و العادة ينسيان الانسان أعظم الاشياء، و يضعفان فيه الاحساس بقيمتها و إعجازها.

ليس هناك كائن من الكائنات مهما كبر أو صغر إلا و هو معجز ، في ايجاده و تكوينه وكيفية حياته... ولذلك كان القرآن الكريم لا يفتأ يلفت أنظارنا إلى الكون ، و ما بث الله فيه من آيات معجزات كقوله تعالى : ﴿ **قل انظروا ماذا في السموات و الارض و ما تغني الآيات و النذر عن قوم لا يومنون** ﴾ يونس 101. يقول سيد : « إن الكون كله هو مجال النظر و التأمل، و كل صغيرة فيه و كبيرة آية، والقلب البشري مدعو في كل لحظة لمشاهدة الخوارق القائمة الدائمة »[1].و النظر في الكون يمد العقل والقلب بزاد كبير من المشاعر و الاحساسات الموحية بقدرة الله تعالى. و كلما تطورت العلوم، كلما لفتت بال الانسان إلى تلك الآيات العظيمة التي كان الانسان يراها ويتعامل معها ولكنه يمر عليها كأن لم يرها ولذلك لاتنبه عقله، ولا توقظ مشاعره، وصدق الله القائل : ﴿ **و كأين من – اية في السموات و الارض يمرون عليها و هم عنها معرضون** ﴾ يوسف 105. فإذا ألف الانسان الحصول على الماء دون مشقة فإنه يفقد قيمة الاحساس بالماء، وأنه آية من آيات الله، كيف لا، وقد جعل الله من الماء كل شيء حي . وإذا ألف التوالد و التناسل يغفل عن أية خلق بشر سوي من ماء مهين . إنه سواء في نظر العقل الصحيح و القلب السليم أن يخلق الله الانسان من ماء مهين أو من لا شيء، كل ذلك سواء ، و كل ذلك معجزة . يقول سيد : « إن ولادة عيسى عجيبة حقا بالقياس إلى مألوف البشر . ولكن أية غرابة فيها حين تقاس إلى خلق آدم أبي البشر ؟ »[2] . إن آفة الإلف و العادة قد تسري – نسبيا – حتى على الانبياء والمرسلين ، فهذا سيدنا زكرياء عليه السلام يضرع إلى الله أن يرزقه ولدا يرثه، و يرث من آل يعقوب، فيكون نبيا مثلهم، فلما استجاب الله له، استغرب ذلك : ﴿ **قال رب أنى يكون لي غلم و كانت امرأتي عاقرا و قد بلغت من الكبر عتيا. قال**

---

1 سيد قطب ، المصدر السابق ، 3428/6

2 المصدر نفسه ، 404/1

كذلك قال ربك هو علي هين و قد خلقتك من قبل و لم تك شيئا • مريم 7-8. و إذا كان هذا السؤال من زكريا دافعه الاستغراب، فدافعه الشوق كذلك إلى معرفة كيف يقع ذلك على كبره و عقر زوجته.

إن الانبهار قد يحصل للانسان في المشاهدات الأولى للمعجزة، ثم تتحول بفعل الزمن إلى مجرد أمر عادي. والعاقل هو من يرى أن المألوف وغير المألوف كله معجزة في أصله، سواء كان نهاية في الصغر أو نهاية في الكبر، في حجم الذر أو حجم الجبل.

إن السنن الكونية الثابتة تتيح للانسان فرصة التأمل، وإمكانية استخدام هذه القوانين، و تسخيرها لفائدته، زيادة على دلالتها على الله تعالى، و ذلك ما لا تتيحه المعجزة التي << قد تدهش القلب البشري في طفولته قبل أن يتهيأ لإدراك الايات الكونية القائمة الدائمة و التأثر بإيقاعها الثابت الهادئ >>[1]. و من هنا كان القرآن الكريم يصرف نظر المشركين عن طلب الايات القاهرة، و يدعوهم إلى التأمل في القرآن الكريم، لأنه الآية الكبرى المقروءة الدائمة، والتأمل في الكون، لأنه الآية المنظورة الدائمة أيضا. والاعراض عن ذلك قد يكون منشؤه الكفر و العناد، وقد يكون منشؤه بلادة الحس والعقل. و كل ذلك جهل وشر.

هكذا يسلك سيد طريقة القرآن في التركيز على المعجزة القرآنية، والمعجزة الكونية الثابتة، التي قد تكون أبلغ دلالة و أدوم فائدة من المعجزة القاهرة المؤقتة.

3- الأثر التربوي للايمان بالمعجزة و القانون الثابت :

لا يجد المؤمن مانعا شرعيا ولاعقليا في الجمع بين الإيمان بالمعجزة، و التي هي كما أسلفنا خرق للقانون العادي، و الايمان بالسنن الكونية الثابتة التي أقام الله عليها هذا الكون، في عوالمه المختلفة. و إذا كان الماديون يرون أن ارتباط الاسباب بالمسببات ارتباط حتمي، فإن العقلية الاسلامية تعتقد أنه مجرد ارتباط، لخضوعه لمشيئة الله تعالى، التي إن شاءت أجرت العادة، و إن شاءت عطلتها.

و إذا كان الماديون لا يؤمنون بالمعجزة، و يرونها مجرد تخلف للقانون الكوني، فإن المؤمن يعتقد أن المعجزة تدل دلالة قاطعة على إرادة الله و مشيئته المطلقة، و أن الطبيعة وقوانينها عبد طائع في يد الله تعالى. وفي ذلك

---

1 المصدر نفسه ، 3427/6

إبطال لمذهب القائلين بالطبع و الاضطرار[1]. يقول سيد في هذا الصدد : << وما يملك عاقل أن يزعم أن هذا الوجود وجد من غير مبدع . و كل ما فيه ينطق بالقصد و التدبير ، وليس أمر من أموره متروكا لُقَى أو للمصادفة>>[2].

وهكذا يجمع المؤمن في حسه بين الايمان بالمعجزة، و الايمان بالسنة الكونية، و هما جميعا من الله. وإذا كانت المعجزة تعلمنا طلاقة المشيئة الإلهية ، فإن السنة الكونية تعلمنا أن كل شيء يسير وفق نظام، لنتعلم نحن النظام، و نستخدمه فييسر علينا أعمالنا، و يخفف عنا أعباء الحياة. إن كثيرا من الناس وحتى من المسلمين، ظنوا أن المعجزة نقيض العلم . والحقيقة غير ذلك ، لأن العلم له ميدانه ، وهو العالم المشهود ، الذي يخضع لعمليات التحليل و الاختبار ، وأما المعجزة فأمر غيبي فوق العلم، و فوق العقل، و ليست من اختصاصهما. كما أن كثيرا من الناس خاصة في العالم الغربي زعموا أن المعجزة ولى زمانها ، لأن العلم تقدم فكشف كثيرا من المخبوءات و وسائله تطورت فأدركت كثيرا من الحقائق، فظنوا أن ما لم يكتشفه العلم غير موجود. وهومذهب شديد الخطر على الحقائق الدينية الغيبية ، وإن كان في حقيقته مذهبا متهافتا ، مذهب حاول أصحابه أن يؤسسوا له وهم تحت وطأة الإنبهار بالعلم و منجزاته إبان نهاية القرن الثامن عشروالقرن التاسع عشر الميلاديين. وإن كان هذا المذهب قد لقي رواجا في وقته فإنّه اليوم قدانكفأ على نفسه ليفسح المجال للوحي الإلهي المعصوم ، لكي يكون المبلغ الوحيد للحقائق الدينية، والحاكم الوحيد عليها، ومنها المعجزة.

4- الوحي :

إذا كان الناس يحتاجون إلى دلائل تقطع بصحة ادعاء النبوة ، فإنّ النبي ذاته يحتاج إلى دليل يطمئن به على أنه نبي، و ذلك هو الوحي. و الوحي مصدر مشتق من الفعل وحى و أوحى، وهو أن يكلمه بكلام يخفيه. ويتناول أيضا الإشارة و الكتابة و الرسالة و الالهام[3] . و أما في الاصطلاح فهو << الإعلام بالشرع >>[4] أو << كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه >>[5]. وهذا التعريف يخرج الوسوسات والخواطرو الالهامات والحدس ... و على الرغم من كثرة و ردود كلمة الوحي و مشتقاتها في القرآن الكريم إلا أن سيد قطب لم يورد تعريفا شرعيا له ، و إنما حاول أن يبين السعادة النفسية التي يحسها الانسان و هو يتصور ذلك

1 - أنظر ، الشاطبي ، الإعتصام ، 326/2

2 - سيد قطب ، المصدر السابق ، 3061/5

3 - أنظر ، الرازي ، مختار الصحاح ، ص 713

4 - ابن حجر ، فتح الباري ، 09/1

5 - محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ص 97

الاتصـال الكـريم و الرهيب في الوقت نفسـه بين اللـه و المختاريـن من عباده، وهواتصـال يمكن أن يشعر الانسـان بحـلاوتـه على جلالتـه، ولكن لا يستطيع أن يدرك حقيقتـه بحـال.[1]

أ- **حقيقـة الوحي :**

إن الوحي اتصال غير مباشـر بين الذات الأزليـة الأبديـة التي ليس لـها حيز في المكـان و لا حيز في الزمان، المحيطـة بكـل شيء، و التي ليس كمثلها شيء، و ذات الإنسـان المتحيزة في الزمان و المكان، المحدودة بحدود المخلوقـات[2]. و الوحي هو الذي يمكن النبي من الاطلاع على بعض الغيب ، وذلك ما يجعله يعيش بين البشـر بشرا، و لكن في الوقت نفسـه يعيش في عالم الغيب، عالم الملائكة، وعالم الجنة و النـار ... و اتصال النبي بهذا العالم <<لا يشبه اتصال الحواس بالمحسوسات، ولا العقل بالمدركات العقلية، بل هو نوع من الادراك يختلف عن ذينك النوعين من الادراك الحسي والعقلي بطبيعته الخاصة التي لا تدخـل تحت نطـاق التجـربة البشريـة >>[3].

إن الوحـي هو الفيصل بين الانسـان الذي يفكـر من عنـد نفسـه، و هو معـرض للخطإ، و كلامه قابل للأخـذ و الرد، مهما كـان كبير العقل حـاد الذكـاء واسع الثقـافة غزير العلم. والانسان الذي يبلغ عن الله تعالى ، و هو معصوم في التحمل و الأداء.

ب - **إمكـانية الوحـي :**

إذا كـان الانسـان يستطيع أن يوحـي إلى إنسـان مـا يشـاء بواسطـة الأجهـزة السلكيـة و اللاسلكيـة، حتى أضحى الاتصـال بين الفضـاء و الأرض من الأمـور العـادية التي لا تثير أدنى غرابة أو اندهاش. فإن الأمـر بالنسبـة إلى اللـه تعالى أهون، فهو عز و جل لا يعجزه شيء في الأرض و لا في السماء، و مع ذلك فقد كان الكفار يستكثرون على البشر أن يجعله اللـه نبيئا رسولا، فإذا ادعى نبي ذلك رموه بالسحر المبين. قال تعالى : **« أكـان للنـاس عجبـا أن اوحينـا إلى رجـل منهم أن انـذر النـاس و بشـر الذين ءامنـوا أن لهم قـدم صدق عنـد ربهـم قـال الكـٰفرون إنّ هـٰذا لسحـر مبين »** يونس 02 . إذا كانت هذه هي حجة <<الأقدمين البـدائيين >> فإن اعتراض <<المحدثين المتعلمين>> قائم على أساس استبعاد الإتصال بين الانسان المادي، وبين اللـه المخالف لطبيعـة كل شئ ممـا خلق. و هو في الحقيقة اعتراض متهـافت على الرغم من تلبسـه بلبوس

---

1 - أنظر : سيد قطب ، المصدر السابق ، 3170/5

3 - محمد عبد الله دراز ، العقيدة و العبادة ، ص 100

العلم، ذلك أن اللـه تعـالى قـادر على الاتصال بعبده كيف يشاء، من دون أن ندري نحن من ذلك شيء. كما أن في الانسـان طـاقات مجهـولة لا يعلمها إلى اللـه، واللـه أعلم حيث يجعل رسـالته في الانسـان ذي الطـاقة التي تحمل هذه الرسالة، و قد تكون هذه الطاقة مجهولة للناس، و مجهولة لصاحبها نفسه قبل الرسالة، و لكن الذي نفخ في هـذا الانسـان من روحـه عليم بمـا تنطوي عليـه كل خليـة ، وكل بنيـة ، و كل مخلوق ، وقـادر على أن يطّوّع الانسان لهذا الاتصال الخاص بكيفيـة لا يدركهـا إلى من ذاقهـا و أوتيهـا. >>[1] فليس بعزيز على اللـه تعـالى إذا أن يوحـي إلى من اصطفاه لرسالته ولكلامه. و ليس بعزيز على العقل البشري أيضا أن يدرك إمكـانية ذالك.

إذا كـان الوحي قـد ثبت للأنبيـاء و المرسلين، فإن سيد قطب يرى أن الدليل الأسلم على صحـة ثبـوته هـو القـرآن ذاتـه و الحـديث الشريف فهـذا القـرآن بذاتـه، بكلمـاته و نظمـه، بأسلـوبه و منهجـه دليل على أنه و حـي من اللـه تعـالى وليس من كـلام البشر، و قـد عـرف ذلك و اطمأن إليـه المؤمنون و الكـافرون على السـواء. و الحـديث الشريف أيضا دليل على ذلك خـاصة حديث بدء الوحـي. و ذلك بتمثـل جبريل للرسول صلى اللـه عليـه و سلم و ضمـه و إرسـاله مـرارا و أمـره بالقـراءة، ليتأكد محمد ذاته، و يتأكد من يبلغـه الخبر من الناس أن الذي خـاطب محمـدا هو ذات منفصلـة عن ذاتـه، رآه بأم عينـه و لم يخيـل إليـه فألقى اللـه الرعب في نفسـه لما رأى و سمـع فعاد ترتعد فرائصه[2] يقـول سيـد : << و لا سبيل إلى معـرفة شيء يقيني في هـذا الميـدان إلا مـا جـاءنا من مصدر يقيني كـالقرآن و الحـديث، و في الحـدود التي جـاء فيهـا بلا زيـادةو لا تصـرف و لاقيـاس. إذ أن الزيـادة و التصرف و القيـاس عمليـات عقليـة، و العقل هنـا في غير ميدانه، و ليس معه ادواتـه >>[3] . إن العقل قد يستطيع أن يقيم بعض الأدلة على ثبوت الوحي للرسول، و لكنه لن ينشئ اليقين الذي ينشئه النص الشرعي، و العقل أيضا عاجز عن تصور كيفية و قوع الوحي وتلقي الرسـول لـه.

إن سيد قطب لا يقبل بناء العقيدة على منهج عقلي أو علمي، وإن كان العقل والعلم من وسائل المعرفة ، غير أنهمـا يفيـدان في مجـال عـالم الشهادة، و يعجزان في مجال عالم الغيب، ليفسحا المجال للنصوص الشرعية

---

1 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 1760/3

2 أنظر ، مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ص 147 وما بعدها

3 سيد قطب ، المصدر السابق ، 1760/3

وحدها، فهي الامينة هنا و اليقينية، يقول سيد - موضحا موقفه في هذا المجال - :<< و لقد جهد ناس من المفسرين المحدثين في اثبات الوحي عن طريق العلم للتقريب، و نحن لا نقر هذا المنهج من أساسه. فللعلم ميدان، هو الميدان الذي يملك أدواته و للعلم آفاق هي الآفاق التي يملك أدوات كشفها ومراقبتها >>[1].

إن هذا القول من سيد لا يمكن حمله على نفيه لقيمة العلم أوامكانية الاستفادة منه في كثير من الجوانب الدينية، و لكنه الحرص منه ليبقى منهج دراسة العقيدة شرعيا أصيلا، بعيدا عن النظريات العلمية التي قد تنفي اليوم ما اثبتته أمس. فالوحي إذا أكثر من أمر ممكن، بل هو حقيقة ثابتة، فلم يبق سوى أن نعرف كيفية حدوثه.

جـ - كيفية الوحي :

إننا لا نعني بالكيفية حقيقة الاتصال بين الله تعالى و المصطفى من عباده لرسالته، و إنما نعني بها مقامات الوحي و طرقه [2]. و قد بين القرآن الكريم هذه المقامات فقال عز من قائل : ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم** ﴾ الشورى 48 . أما الطريق الأول فهو الوحي، و هو ما << يلقى في النفس مباشرة فتعرف أنه من الله >>[3]. و أما الطريق الثاني فهو التكليم من وراء حجاب، كما كلم الله موسى عليه السلام. و كلمة من وراء حجاب تقطع << بأنه ليس من شأن انسان أن يكلمه الله مواجهة. و قد روي عن عائشة رضي الله عنها: من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية >>[4]. وأما الطريق الثالث من طرق الوحي فهي ارسال الملك إلى الرسول فيوحي إليه بإذن الله ما يشاء. والقرآن الكريم كله نزل على الرسول صلى الله عليه و سلم بهذه الطريقة، و صدق الله القائل :﴿ **نزل به الروح الامين. على قلبك لتكون من المنذرين** ﴾ الشعراء 194/193. على أن الملك لم يكن يأتي النبي صلى الله عليه و سلم على هيئة واحدة وإنما على هيئات و صور مختلفة، أولها : ما كان يلقيه الملك في روعه من غير أن يراه كما قال صلى الله عليه و سلم : << إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها

1- المصدر نفسه ، 1760/3

2- أنظر ، ابن القيم ، مدارج السالكين ، 37/1

3 - 4- سيد قطب ، المصدر السابق ، 3169/5

و أجلها، ألا فاتقوا الله و اجملوا في الطلب >>[1]. و أما الطريقة الثانية فهي أن يتمثل له الملك رجلا، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول، كما في حديث الايمان و الاسلام و الاحسان. و الحالة الثانية أن يأتيه في مثل صلصلة الجرس، و هو أشده عليه، و الرابعة أن يرى الملك في صورته التي خلقه الله عليها، و قد وقع ذلك مرتين[2]. و هذه الحالات الأربع التي يأتي فيها جبريل النبي صلى الله عليه و سلم تضمنتها أحاديث صحيحة كحديث عائشة [3] ، و حديث النفث في الروع [4] ، و حديث انقطاع الوحي [5] ، و إذا كان القرآن الكريم حدد طرق اتصال الله تعالى بأنبياءه و رسله، في الكيفيات الثلاث السابقة، فإن الحديث الشريف أضاف طريقا رابعا و هو الرؤيا الصادقة، لقوله عليه الصلاة و السلام << رؤيا الانبياء في المنام وحي >>[6]. فلما رأى ابراهيم في المنام أنه يذبح و لده اسماعيل، علم أن ذلك أمر إلاهي فبادر إلى تنفيذه. فدل ذلك على أن رؤيا الانبياء مقام من مقامات الوحي. و قد صح عن النبي صلى الله عليه و سلم قوله :<< إنا معاشر الانبياء تنام أعيننا و لا تنام قلوبنا >>[7] .و لعل الحكمة من ذلك حتى تبقى يقظة و مستعدة لما يمكن أن يلقيه الله إليها من وحي. على أن الرؤيا المعتبرة وحيا هي ما كانت بعد النبوة لا قبلها. لأن النبوة إنما تثبت بالمعجزة التي يؤيد بها النبي من قبل و يتحدى بها المدعوين. أما ما كان قبل ذلك فهو من قبيل المبشرات، التي قد يعطيها الله تعالى حتى لعامة المؤمنين. و هي التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم : << رؤيا المؤمن جزء من ستة و أربعين جزء من النبوة>> [8]. و قد كانت الرؤيا أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم. فعن عائشة رضي الله عنها قالت :((أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلاجاءت مثل فلق الصبح...)) الحديث[9].

و إنما عبرت عنها بالوحي هنا لأنها كانت إرهاصا لنبوته و تمهيداللوحي.

---

1 البغوي ، شرح السنة ، 304/14 في الرقاق باب التوكل على الله

2 أنظر ، سيد قطب ، المصدر السابق ، 3170/5

3 - أنظر ، ابن حجر ، فتح الباري ، 18/1 البخاري في بدء الوحي باب كيف يأتيك الوحي

4 أنظر ، البغوي ، المرجع السابق ، 304/14 في الرقاق باب التوكل على الله

5 أنظر ، ابن حجر ، المرجع السابق ، 27/1 البخاري في الوحي باب أول ما بدئ به رسول الله من الوحي

6 البغوي ، المرجع السابق ، 06/4 (الحاشية) في الصلاة باب صلاة الليل والبخاري في صفة الصلاة باب وضوء الصبيان

7 عمر سليمان الأشقر ، الرسل و الرسالات ، ص 91

8 البغوي ، المرجع السابق ، 210/12 كتاب الرؤيا باب اقسام الرؤيا - وأخرجه مسلم في كتاب الرؤيا

9 ابن حجر ، المرجع السابق ، 22/1 البخاري في في بدء الوحي بالب أول ما بدء به رسول الله من الوحي

إن مما يدل على أن رؤيا الانبياء وحي،ما قصه الله تعالى علينا في القرآن الكريم من رؤيا إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يذبح ولده إسماعيل، قال تعالى: ﴿ **فلما بلغ معه السعي قال يابني إني أرى في المنام أني أذبحك...**﴾ الصافات 102. فبادر إلى تنفيذ ما أمر به وحيا في المنام، يقول سيد تعليقا على ذلك :<< و يدرك أنها إشارة من ربه بالتضحية، فماذا ؟ إنه لا يتردد و لا يخالجه إلا شعور الطاعة، ولايخطرله إلا خاطر التسليم، نعم إنها إشارة، مجرد إشارة، وليست وحيا صريحا، ولاأمرا مباشرا، و لكنها إشارة من ربه، وهذا يكفي>>[1] .

إن هذا الكلام من سيد فيه إثبات للرؤيا كمقام من مقامات الوحي، فالوحي كله وحي سواء كان مباشرا أوغير مباشر، صريحا أو غير صريح، وهل كان إبراهيم عليه السلام يعمد لذبح ابنه بيده لمجرد رؤيا رآها، لو لم يعلم أنها وحي من الله تعالى و أمر منه !؟ و ما لنا نستغرب و نتعجب أن يوحي الله تعالى إلى انبيائه في المنام، و هو الذي يكلمهم من وراء حجاب، ويرسل إليهم الملك فيرونه عيانا على هيئته التي خلقه الله عليها، فلله الأمر من قبل و من بعد.

إذا كانت النبوة اصطفاء من الله لبعض عباده، فإنها رحمة عامة بالبشرية كلها ، التي لولا وحي الله وأنبياؤه لضلت و أضلت، كما هي دائما تضل و تضل كلما ابتعدت عن هدي السماء.

5- الحاجة إلى النبوة :

إن الحاجة إلى النبوة، ومن ثم الحاجة إلى الوحي باعتباره أهم و أصح مصدر من مصادر المعرفة، يفرضه علينا السؤال التالي : هل الانسان بما أوتي من وسائل المعرفة الذاتية ، من عقل و حواس يستقل بالمعرفة ، ويستقل بتوجيه نفسه، أم أنه في حاجة إلى الوحي ليزوده بالمعرفة العلمية و العملية ؟

ما من شك أن الانسان أعطي سر المعرفة، وذلك يوم خلق الله آدم عليه السلام، وعلمه الأسماء كلها. وما من شك أيضا أن الانسان أعطي من وسائل المعرفة ما فضل به على سائر المخلوقات. و خاصة العقل ، و مع ذلك فإنه يبقى في حاجة ماسة إلى الوحي. و منشأ تلك الحاجة قصر العقل البشري على أهمية، وضعف الانسان بما ركب فيه من جهل وهوى وغيرها من عوامل الضعف التي تكون سببا في افتقار الانسان إلى المعرفة الصحيحة

---

1 سيد قطب ، المصدر السابق ، 2994/5

و الموثوقة، والتي لا يجدها إلا في الوحي المعصوم. إن الادراك البشري<< محكوم بطبيعته الجزئية غير المطلقة و محكوم بمؤثرات الهوى و الضعف الأخرى >>[1]. وهذا لا يلغي قيمة وسائل الادراك البشري، و لكن لتعريف الانسان بقدراته الذاتية النسبية التي لا يمكن أن تكون هي العمدة في المعرفة.

إن حاجة الانسان إلى النبوة و الوحي، هي حاجته إلى معرفة الاجابة الصحيحة عن الاسئلة الفطرية الثلاثة ، من أين جيئت؟ ولماذا جئت؟ وإلى أين المصير ؟هذه الاسئلة التي شغلت فكر كل عاقل، وحيرت الفلاسفة والعلماء. ولن يجدوا الاجابة الصحيحة عنها إلا من خلال الوحي المعصوم. إن ما نـراه اليوم من تخبط و حيرة، و ما عرفته البشرية في حقبها الزمنية المتعاقبة من اضطراب في الفهم و العمل انما مرده إلى عـدم الاهتـداء إلى الجواب الصحيح عن هذه الأسئلة.

إن المذاهب المنحرفة التي ظهرت على مر التاريخ من دهرية ومادية و وجودية وغيرها كانت كلها تعبيرا عن هذه الحيرة التي عاشها ويعيشها العقل البشري بعيدا عن وحي السماء. يقول سيد في هذا الشأن:<< حين يستقل هذا العقل البشري بنفسه بعيدا عن الوحي، فإنه يتعرض حينئذ للضلال و الانحراف ، وسوء الرؤية ، ونقص الرؤية، وسوء التقدير ، وسوء التدبير >>[2]

إن التدبير مبني على التقدير و مؤسس عليه، فإذا صح علم الانسان استقام منهجه ، وإذا زاع علم الانسان كان منهجه منحرفا. فالذين ظنوا الانسان ابن الطبيعة و متطور عن الحيوان، قصروا اهتـمامات الانسان على اهتـمامات الحيـوان من مأكل و مشرب و متعة شهـوانية. ذلك أن منـهج الانسان في الحياة وليد تصوراته ونظراته.إن عقل الانسان مهما كان ذكيا لايستطيع أن يستقل بالمعرفة خاصة تلك التي تتعلق بالحقائق الايمانية الغيبية.<< والذين يرون أن هذا العقل يغني عن الوحي-حتى عند فرد واحد من البشرمهما بلغ عقله من الكبر- إنما يقولون في هذه القضية غير ما يقول الله فالله قد جعل حجته على الناس هي الوحي و الرسالة >>[3].

و ليس معنى ذلك إلغاء العقل من مجال التقدير و التدبير، بل معناه الاقرار بقصوره، و الوقوف به عند حدوده المتمثلة في البحث في العالم المشهود، وتعقل وحي الله تعالى و فهم معانيه و مقاصده.إن الانسان لم يؤت العقل

---

1 سيد قطب ، هذا الدين ، ص 23

2 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 1097/2

3 المصدر نفسه ، 1098/2

وحده، و لكن أوتي معه الفطرة الشاهدة بوحدانية الله تعالى، غير أن ذلك غير كاف- على أهمية - لأن الفطرة قد تنحرف بسبب ما يتراكم عليها من أفكار خاطئة،وخرافات.فلا ينقذها بعد ذلك،ولا يعيد إليها نصاعتها إلا الوحي[1].

إذا كان الانسان لا يستقل بعقله وفطرته بمعرفة الحقائق الايمانية، ولايستطيع الإجابة عن تلك الأسئلة الفطرية الثلاثة ، و ما يتفرع عنها من أسئلة أخرى، فهو أيضا لا يستقل بوضع منهج حياته. لأن وظيفته في هذه الأرض يحددها له خالقه، الذي يعلم طبيعته و قدراته، و هو الذي يرسم له أهدافه الكبرى و غاياته السامية ، و الانسان بما فطر عليه من جهل وهوى و ضعف وعجلة وغيرها من النقائص، لايستطيع أن يضعلنفسه منهجا كاملايحقق له كرامته[2] و يحقق له ما يريده منه ربه. و لذلك فهو في حاجة إلى الوحي ليتولى هذه المهمة.

إن حاجة الانسان إلى النبوة والوحي كحاجته إلى معرفة ربه، ومعرفة نفسه، ومعرفة الوضع الذي ينبغي أن يحيا عليه، والمنهاج الذي يجب أن يتبعه، والمصير الذي يؤول إليه بعد الموت، وحاجته أيضا إلى الميزان القويم الذي يزن به المبادئ و الاعمال[3].

6- وظيفة النبيورسالته في الحياة :

إن وظيفة النبي إجمالا هي هداية الناس إلى الحق. و أما على التفصيل فيمكن تلخيصها فيما يلي :

أ- تعريف الناس بالله : لما كان التدين فطرة في الانسان ، و لما كانت الفطرة قد تنحرف لسبب من الاسباب، اقتضت رحمة الله بعباده أن يرسل إليهم من يعرفهم بالاله الحق ، و ينفي عن عقيدتهم كل شائبة من شرك. يقول سيد: و هذه الدعوة على مدار التاريخ البشري كانت تستهدف أمرا واحدا ، هو تعريف الناس بإلههم الواحد و ربهم الحق، و تعبيدهم لربهم وحده، و نبذ ربوبية الخلق[4]. و صدق الله القائل : ﴿ **هذا بلاغ للناس و لينذروا به و ليعلموا أنما هو إله واحد و ليذكر أولوا الالباب** ﴾ إبراهيم 54.

ب- تبليغ رسالة الله للناس : إنما كان الرسول رسولا لأنه يحمل رسالة شرعية من الله تعالىإلى عباده، و هو مطالب بأدائها وتبليغها كاملة، دون التفريط في شئ منها لقوله تعالى :﴿ **يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك و إن لم تفعل فما بلغت رسالته و الله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين** ﴾المائدة69

---

1 أنظر ، المصدر نفسه ، 806/2

2 أنظر ، سيد قطب ، هذا الدين ، ص 18

3 أنظر ، محمد عثمان شبير ، العقيدة و الفكر الإسلامي ، ص 107 108

4 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 1555/3

فإذا أجابه الناس فذلك ما يرجوه، و إن لم يستجيبوا له، وأعرضوا عن دعوته << فإن البلاغ يضل هو قاعدة عمل الرسول >>[1]، البلاغ بكل أشكاله و أنواعه، من البلاغ باللسان إلى البلاغ بالسنان. و لا يتوقف النبي عن التبليغ أبدا، و إنما هو دائما يذكر الناس مهما أعرضوا عنه ،إستجابة لأمر الله تعالى :« **فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر** » الغاشية 21-22. و في ذلك تعليم للدعاة إلى هذا الدين، أن البلاغ هو الوظيفة الاساسية التي ينبغي عليهم أن يقوموا بها ، حسب الظروف و الملابسات . و ليس هناك من مسوغ لترك هذا الأمر ، أو التقاعس عنه. << لقد نادى الله سبحانه الرسول صلى الله عليه وسلم و كلفه تبليغ ما أنزل إليه من ربه ، كل ما أنزل إليه. لا يستبقي منه شيئا، و لا يؤخر منه شيئا مراعاة للظروف و الملابسات، أو تجنبا للاصطدام بأهواء الناس ، و واقع المجتمع ، و إن لم يفعل فما يكون قد بلغ >>[2]. على أن النبي لا يكتفي بالتبليغ المجرد، و لكن عن طريقة التربية و التعليم.

جـ – التعليم و التزكية : فالرسول هو المعلم الأكبر و المربي الأفضل ، يعلم الناس ما علمه الله ، و يربيهم بما أدبه به ربه . << فهو يسكب من طهارة قلبه على أوضار القلوب فيغسلها ، و هو يشعل من تألق عقله الأفكار الخابية فيضيئها، ثم يبعثها هي الأخرى لتضيئ و تهدي >>[3]. و تعليم الرسول للناس و تربيته لهم تشمل الباطن و الظاهر ، و تنتظم العقائد و العبادات و السلوك.<< إنها تزكية شاملة للفرد والجماعة ، و لحياة السريرة و حياة الواقع . تزكية ترتفع بالانسان و تصوراته عن الحياة كلها و عن نفسه و نشأته إلىآفاق النور التي يتصل فيها بربه >>[4] . و ذلك مصداقا لقول الله تعالى : « **هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلوا عليهم ءايٰته و يزكيهم و يعلمهم الكتٰب و الحكمة و إن كانوا من قبل لفي ضلٰل مبين** » الجمعة 02.

د- الجهاد في سبيل الله : إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول المرحمة فهو كذلك رسول الملحمة. و إذا كان مأمورا بالتبليغ و التذكير و التربية، فهو أيضا مأمور بالجهاد في سبيل الله، لاعلاء كلمة الله ، جهاد كل من يقف في طريق الدعوة، أو يفتن المؤمنين في دينهم[5]. يقول سيد- مبينا فرضية الجهاد على رسول الله وهدفه – : << فأما الجهاد الذي كتب بعد ذلك فلم يكن لحمل الناس على الايمان . إنما كان لإزالة العقبات من

---

1 المصدر نفسه ، 2071/4

2 المصدر نفسه ، 937/2

3 محمد الغزالي ، عقيدة المسلم ، ص 186

4 سيد قطب ، المصدر السابق ، 3565/6

5 أنظر ، محمود شلتوت ، تفسير القرآن الكريم ، ص 530

وجه الدعوة لتبلغ الى الناس. فلا يمنعوا من سماعها . و لا يفتنوا عن دينهم إذا سمعوها »[1] . والحقيقة أن الجهاد نوع من أنواع التبليغ، له ظروفه و ملابساته، و إنما أفردناه بالحديث حتى لا يظن ظان أن الاسلام – وهو لا يكره الناس على الايمان – يكتفي بمجرد الدعوة السلمية . بل إن القرآن ذاته ليعتبر البلاغ اللساني جهادا. و قد ورد الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالجهاد في كثير من الآيات منها قول الله تعالى : ﴿ **فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك و حرض المومنين ...** ﴾ النساء 83. و قوله تعالى : ﴿ **لكن الرسول و الذين امنوا معه جاهدوا بأموالهم و أنفسهم و أولئك لهم الخيرات و أولئك هم المفلحون** ﴾ التوبة 89.

و يبقى هدف الرسول في البلاغ بكل أنواعه هو رد الناس إلى دين الله و حكم الله تعالى .

هـ– إقامة حكم الله : وإقامة النبي لحكم الله في الناس والحياة، هو الذي يضمن هيمنة دين الله تعالى من دون منازع. فلا تكون فتنة و يكون الدين كله لله. وقد بينت الايات أن الغرض من إنزال الكتاب هو لإقامة حكم الله، قال تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله و لا تكن للخائنين خصيما** ﴾ النساء 104. إن هذا الدين، على يد الرسل الكرام جميعا كان يستهدف << إسلام العباد لرب العباد، وإخراجهم من عبادة العباد إلىعبادة الله وحده ، بإخراجهم من سلطان العباد و حاكميتهم و شرائعهم وقيمهم وتقاليدهم، إلى سلطان الله و حاكميته و شريعته وحده في كل شأن من شؤون الحياة >>[2] . فإذا أثر بعض الناس الكفر على الايمان، و ألوهية البشر على ألوهية الله ، فإن الأنبياء يكونون قد أقاموا عليهم الحجة ، و قطعوا عليهم كل عذر .

و– إقامة الحجة على الناس : لو لم يبعث الله تعالى الانبياء و المرسلين مبشرين و منذرين ، وأوكل الناس إلى عقولهم وفطرهم لقالوا﴿ **... ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع ءاياتك من قبل أن نذل و نخزى** ﴾ طه 133. غير أن رحمة الله بعباده اقتضت بعث الانبياء لهداية الناس، وإقامة الحجة عليهم، فإذا هلكوا بعد ذلك فعن علم، يقول سيد :<< اقتضت رحمته و حكمته أن يرسل إليهم الرسل مبشرين و منذرين ، يذكرونهم و يبصرونهم ، و يحاولون استنقاذ فطرتهم ، و تحرير عقولهم من ركام الشهوات ، التي تحجب عنها أو تحجبها عن دلائل الهدىوموحيات الايمان >>[3] . إن إقامة الحجة على الناس – سواء آمنوا أم لم يؤمنوا – هي آخر مرحلة من

---

1 سيد قطب ، المصدر السابق ، 3899/6

2 المصدر نفسه ، 1555/3

3 المصدر نفسه ، 805/2

و انظر ، ابن الأثير ، جامع الأصول ، 300/9

مراحل الدعوة. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ينشهد الناس و يشهد الله وكفى بالله ... على أنه بلغ الرسالة و أقام الحجة.

هذه على العموم ، وظائف الانبياء و المرسلين ، و هي على تنوعها ترجع إلى أصل واحد هو الدعوة إلى الاله تعالى. و صدق الله القائل : ﴿ **يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا و مبشرا و نذيرا. و داعيا إلى الله بإذنه و سراجا منيرا.** ﴾ الاحزاب 45-46. و هي وظيفة أداها جميع الانبياء على مدار التاريخ البشري ، و تاريخ النبوة ، لأن مضمون الرسالة واحد ، هو تعبيد الناس لرب الناس.

7- وحدة الرسالة :

يخبرنا القرآن الكريم أن الله تعالى بعث في كل أمة رسول، ا و كلهم جاء برسالة واحدة ،هي الدعوة الى عبادة الله وحده ، و نبذ ما سواه . قال تعالى : ﴿ **و لقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت...** ﴾ النحل 36. يقول سيد : << إن موكب الايمان منذ فجر التاريخ الانساني موكب واحد موصول، يقوده رسل الله الكرام ، داعين بحقيقة واحدة ، جاهرين بدعوة واحدة ، سائرين على منهج واحد ، كلهم يدعو إلى ألوهية واحدة و ربوبية واحدة ، وكلهم لايدعو مع الله أحدا >> . إن هذا الموكب المتتابع من الأنبياء والمرسلين لهو من أعظم المظاهر الدالة على رحمة الله بعباده ، فما من أمة من الأمم إلاوبعث الله إليها من يبصرها بالحق، و يخوفها عاقبة التكذيب و الكفران.

إن العلاقة بين رسالة محمد و من سبقه من الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، هي علاقة التصديق و الهيمنة باعتبارها خاتمة الرسالات ، مصداقا لقول الله تعالى﴿ **و أنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب و مهيمنا عليه...** ﴾ المائدة 50. فهذا القرآن ، الذي هو رسالة محمد الخاتم ،هو<< الصورة الأخيرة لدين الله، و هو المرجع الأخير في هذا الشأن >> . و قد عبر النبي صلى الله عليه وسلم على هذه الوحدة بين دعوات الانبياء فقال : << أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا و الآخرة ، و الانبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى و دينهم واحد >> . و نحن لا نحتاج إلىأكثر من هذا لاثبات وحدة الدين، و لكن ينبغي معرفة ما ينتج على هذا الأمر من آثار نفسية و فكرية و واقعية.

إن الايمان بوحدة الدين يشعر المؤمن بأنه أصيل في هذا الوجود ، وأن المبتوت هو من لادين له ، أومن حرف دين الله تعالى. كما يشعره أيضا بأنه الوارث لدين الله تعالى، يقول سيد موضحا هذه الحقيقة : << تلك الوحدة الكبرى بين الرسالات جميعا ، و بين الرسل جميعا ، هي قاعدة التصور الاسلامي و هي التي تجعل من الأمة المسلمة ، الأمة الوارثة لتراث العقيدة القائمة على دين الله في الأرض، الموصولة بهذا الأصل العريق >>[1]. و هو الأمر الذي يشعر المؤمن في الوقت نفسه بواجبه الكبير تجاه الآخرين، في الوقت الذي يعشره بالفوقية التي عبر عنها القرآن بقوله:(**و لا تهنوا و لا تحزنوا و أنتم الاعلون إن كنتم مومنين**) آل عمران 139، فليس هناك من هو أعرق عند الله تعالى من المؤمن ، فلا بد له << أن يدخل في الأمة المؤمنة من لدن آدم إلى نوح إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، و يحس أنه واحد من هذه الأمة المتجانسة على مدى التاريخ ، وإن اختلفت ألوانها و ألسنتها و أمكنتها و أزمنتها >>[2]. كما أن وحدة الرسالات ، والمتمثلة في وحدة الحقائق الاعتقادية التي بلغها جميع الانبياء و المرسلين، من شأن ذلك أن يبطل الإدعاء الذي يروج له علماء الاديان، من أن العقيدة في الله عرفت تطورا من الشرك إلى التوحيد تبعا لتطور العقل البشري والحياة البشرية، والحال أن الدعوة قامت منذ آدم عليه السلام وإلى اليوم علىعبادة الله وحده لا شريك له. يقول سيد : << و أمر الاعتقاد في الله الواحد - إذا - ليس كما يزعم علماء الدين المقارن أنه تطور وترقى من التعديد إلى التثنية إلى التوحيد، و من عبادة الطواطم و الارواح و النجوم و الكواكب إلى عبادة الله الواحد. وأنه تطور و ترقى كذلك بتطور و ترقي التجربة البشرية والعلم البشري >>[3]. إن هذا الادعاء لا يثبت أمام نصاعة الآيات الناطقة بوحدة الرسالات، غيرانه ادعاء معاد لدين الله يهدف إلى إسقاط ربانية هذا الدين، << و إثبات أن الدين لم يكن قط وحيا من عند الله إنما كان اجتهادا من البشر ، ينطبق عليه ما ينطبق على تطورهم في التفكير و التجربة و المعرفة العلمية سواء بسواء >>[4]. وقد حذرسيد قطب من الانخداع بهذا الرأي المضلل، خاصة وأن بعض الكتاب المسلمين قد انساقوا وراء هذه النظرية المتهافتة و نسوا << أن آدم و هو أول البشر عرف حقيقة التوحيد كاملة، وعرف نزاهة التوحيد

---

1 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 118/1

2 محمد قطب ، دراسات قرآنية ، ص 90

3 4 سيد قطب ، المصدر السابق ، 2100/3

غير مشوبة بشائبة من التعدد و التثنية، وعرف الدينونة لله وحده باتباع ما يتلقى منه وحده. وأنه عرّف بنيه هذه العقيدة. فكانت هناك أجيال في أقدم تاريخ البشرية لا تعرف إلا الإسلام دينا، و إلا التوحيد عقيدة >> [1]. وإذا كان هذا الأمر بالنسبة لنا حقيقة لامرية فيها ، بل عقيدة نعتقدها و ندين بها ، فإن هذه الحقيقة في حاجة إلى دراسات وافية حتى تجليها في أذهان غير العارفين بها أوالظانين في ثبوتها ، سواء كانوا من أصحاب الديانات السماوية ، أو من معتنقي النظريات الوضعية، بل وحتى من المسلمين ، نجلي لهم هذه الحقيقة لنؤكد الحق الذي نؤمن به ، و ندحض تلك الأفكار الهدامة القائمة على أساس ترقي الدين من التعدد إلىالتثنية إلىالتوحيد. والتي ترمي إلى قطع الرابطة بين الانبياء، بل ترمي إلى ما هو أبعد من ذلك، و هو أن عقيدة التوحيد فكرة بشرية إقتضاها تطور الانسان و ترقيه.

إذا كانت الوحدة بين الرسالات قائمة و أكيدة باعتبار أن الدين واحد، و الديان واحد، فإن رسالة محمد تزيد على رسالات غيره من الانبياء و تهيمن عليها.

8 – بين الرسالة الخاتمة و الرسالات السابقة :

هناك خاصيتان اثنتان تميز رسالة محمد صلى الله عليه وسلم عن بقية الرسالات السابقة، فهي الرسالة المهيمنة، و هي الرسالة العامة الخاتمة. أما كونها المهيمنة فلقول الله تعالى: ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه...** ﴾ المائدة 50. فالقرآن الكريم ،الذي هو كتاب هذه الرسالة، قائم على الكتب المنزلة قبله، إليه يعود الفصل فيما آلت إليه بعد أن مستها يد التحريف و التأويل ، فهو الذي يبين ما فيها من حق و ما فيها من باطل،. و بالجملة فالحكم أولا وأخيرا للقرآن الكريم الذي سلم من التحريف، بما تكفل الله تعالى بحفظه ، قال تعالى :﴿ **انا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون** ﴾ الحجر 09. و يبين سيد هذه الهيمنة فيقول عن هذا الدين:<< فهو الصورة الأخيرة لدين الله ، وهو المرجع الأخير في هذا الشأن ، والمرجع الأخير في منهج الحياة، و شرائع الناس، و نظام حياتهم >> [2].

هذه الرسالة هي مرجع البشرية منذ بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، و إلى أن يرث الله الأرض و من عليها، هي المرجع في العقيدة القائمة على توحيد الله تعالى في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله . و هي المرجع في

---

1 – المصدر نفسه ، ص 1884 ،1885

2 – المصدر نفسه ، ص 902

تشريع العبادات، و الأحكام المنظمة للحياة للفردية و الجماعية. و هي المرجع كذلك في تكوين التصور الصحيح عن الانسان و الكون و الحياة.

إن هذه الهيمنة لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم تعني أن كل اختلاف في الدين ينبغي أن يرد إلى هذا الكتاب ليفصل فيه[1]، مهما كان نوع هذا الاختلاف و طبيعته . و من ثم يجب علىكل مسلم أن يشعر بالفخر والاعتزاز بانتمائه لرسالة الحق، و للدين الصحيح وفي الوقت نفسه يشعره بمدى المسؤولية الثقيلة والتبعةالكبيرة ، المكلف بها من قبل الله تعالى لتصحيح اعتقادات الناس، وتصحيح أوضاعهم و مناهجهم . وإذا كان اليهود يزعمون أنهم أبناء الله و أحباؤه، و يقولون بسبب ذلك " ليس علينا في الاميين سبيل". فإن المؤمن يتشرف بانتسابه لهذا الدين من غير تكبر، لأنه يفقه جيداًمعنىقول الله تعالى :﴿ **و إنه لذكر لك و لقومك و سوف تسئلون** ﴾ الزخرف 43.

إذا كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم هي المهيمنة على ما سبقها من الرسالات فهي العامة و الخاتمة أيضا.

أما دليل عموميتها فقول الله تعالى:﴿ **و ما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا و نذيرا و لكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ سبأ 28. و قول النبي صلى الله عليه وسلم : ((... و كان النبي يبعث إلى قومه خاصة و بعثت إلى الناس عامة ...))[2] . وأما دليل كون النبوات ختمت بمحمد صلى الله عليه وسلم فلقول الله تعالى: ﴿ **ما كان محمد ابا أحد من رجالكم و لكن رسول الله و خاتم النبيين و كان الله بكل شيئ عليما** ﴾ الاحزاب 40. ولقول النبي صلى الله عليه وسلم : ((مثلي و مثل الانبياء كمثل رجل بنى بنيانا ، فأحسنه و أجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، قال: فجعل الناس يطوفون به، و يعجبون له، و يقولون : هلا وضعت هذه اللبنة، قال : فأنا اللبنة، و أنا خاتم النبيين))[3].

إن كون هذه الرسالة هي العامة و الخاتمة ، يعني أن هذا الدين في صورته التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق ، و ما عداه يرجع إليه ، و يوزن من خلال ميزانه القويم . كما يعني أيضا أن الحقائق الدينية قد اكتملت ، و أنها لن تتعرض للتحريف و التزييف، لأن الله تعالى كان يرسل بين الفترة و الأخرى إلى الامم من يشرع لها ، ويصحح لها المفاهيم والتصورات التي أصابها التحريف والتشويه بفعل الأهواء والمصالح.

---

1 أنظر ، الأمين ، نفسه ، 902/2

2 البغوي ، شرح السنة ، 196/13 كتاب الفضائل باب فضائل سيد الاولين والاخرين. البخاري في التيمم ومسلم في أول كتاب المساجد

3 المرجع نفسه ، 201/13 فضل الكتاب والبناء والبخاري في المناقب باب خاتم النبيين ، ومسلم في الفضائل باب كونه خاتم النبيين

و من ثم .. كانت هذه الشريعة بمبادئها الكلية و بأحكامها التفصيلية محتوية كل ما تحتاج إليه حياة الانسان منذ تلك الرسالة إلى آخر الزمان، من ضوابط و توجيهات و تشريعات و تنظيمات، لكي تستمر، و تنمو، و تتطور، و تتجدد، حول هذا المحور و داخل هذا الاطار>>[1]. إن كون رسالة محمد هي الصورة النهائية لهذا الدين أمر لا شك فيه، وذلك يعني أن الله تعالى جعل لهذه الرسالة قابلية للاستجابة لكل المتغيرات، الفكرية العقدية، و التنظيمية العملية، في كل زمان و في كل مكان. و هذا ما ينفى زعم المبطلين الذين يلمزون هذه الرسالة بأنها إن صلحت في القرن السادس الميلادي فهي غير صالحة للقرن العشرين و ما بعده، و إن صلحت للبيئة العربية الساذجة، غير صالحة للبيئات المتمدنة. إذا كانت هذه الرسالة احتوت على ما يجعلها قابلة للاستجابة لكل تلك المتغيرات و هي بذلك قابلة للنمو و التطور، لأن الحياة في نمو و تطور مستمر، إلا أنها لا تتطور وفقا لأهواء الناس، و تلبية لرغباتهم، و لكن تتطور في إطار الأصول و القواعد الشرعية، يقول سيد: << إن هذا المنهج الالهي المشتمل على التصور الاعتقادي والشعائر التعبدية، والشرائع المنظمة لنشاط الحياة كله، يحكم ويصرف و يهيمن على نشاط الحياة كله، وهو يسمح للحياة بأن تنمو في إطاره و ترتقي و تتطور، دون خروج على أصل فيه و لا فرع >>[2]. ولهذا كانت هذه الرسالة وشريعتها متسمة بالمرونة والتطور، ولكنها غير قابلة للتمييع وفق الأهواء و الرغبات المختلفة. و تلك إيجابية من إيجابيات هذه الشريعة، و دليل على ربانيتها.

إذا كانت هذه الرسالة ابتليت ببعض الشبهات التي ما فتئ أعداؤها من المستشرقين و العلمانيين يثيرونها ضدها. فإنها ابتليت أيضا بصنفين من المسلمين. أما الأول فقد جمد على النصوص الشرعية، وحملها على ظاهرها، ولم يقبل أي تأويل تسمح به قواعد التأويل و أصوله. وأما الصنف الآخر فحمل لواء التطوير، والتطويع للنصوص الشرعية لكي تستجيب للواقعات، حتى صارت هذه الواقعات هي التي تتحكم في النصوص الشرعية لا العكس، و كلا الفهمين خاطئ. فالأول يبطل كون هذه الرسالة هي الخاتمة بجموده، والآخر يجعل أهواء الناس ومصالحهم هي المهيمنة. والخير كل الخير في التوسط والاعتدال.

بهذا نكون وفينا الحديث عن النبوة و أهميتها و الحاجة الملحة إليها، لنثقل مع سيد قطب إلى موضوع، ليس لنا به من علم إلا ما جاءنا عن طريق النبوة، و ذلك هو موضوع الغيب، و ما يكتسبه من أهمية معرفية وإيمانية.

---

1 - سيد قطب، المصدر السابق، 843/2

2 - المصدر نفسه، 833/2

أ - الـغـــيـــب:

من خصائص العقيدة الاسلامية أنها عقيدة غيبية ، ذلك أن أركان الايمان كلها من الغيب، فالايمان بالله غيب، والملائكة غيب ، والوحي المنزل على الانبياء غيب ، واليوم الآخر غيب ، والقدر غيب . فالغيب يحيط بالانسان من كل جانب.

أ- الغيب حقيقة وجودية:

ليس من شرط وجود الموجود إدراكه بالحواس ، بل يكفي للايمان بالموجود إدراك آثاره ، أوإخبار المصدر الموثوق(الوحي) بوجوده ، فإذا كنا نؤمن بوجود الكهرباء لإدراكنا لآثاره ، فإننا نؤمن بالله لإدراكنا لآثار وجوده و قدرته في أنفسنا و في الكون من حولنا . كما نؤمن ببقية المغيبات لإخبار الوحي بها. و إذا كان هناك عالم شهادة يدركه الانسان، و يعرف الكثير من سننه وقوانينه، و يتعامل معه تبعا لذلك، فهناك أيضا عالم غيب يحيط بالانسان. و الغيب ليس عدما، و لكنه حقيقة موجودة ، بل هي أثبت حقيقة. يقول سيد قطب:<< إن هناك حقيقة واحدة مستيقنة هي حقيقة الغيب، و كل ماعداها احتمالات>>[1] ، ذلك لأن الغيب ثابت بالوحي الصادق الوارد عن الله تعالى ، وأما عالم الشهادة ، و جزئيات عالم الشهادة فثابتة بحواسنا ، و بوسائل العلم المختلفة، و احتمال الخطإ وارد. و كم من نظرية كان العلم يعتقد يقينها عدل عنها . و ليس معنى ذلك أن عالم الشهادة وهم أو سراب. كلا، بل هو حقيقة،غير أن عالم الغيب حقيقة أشد يقينا.[2] و لقد ظن كثير من الناس خاصة بعد الثورة العلمية ، أن ما لم يكشفه العلم لا وجود له ، و أن من يؤمن بالغيب متخلف و غير علمي. وهو ما عناه سيد بقوله :<< إن كلمات الغيب و الغيبية تلاك في هذه الأيام كثيرا - بعد ظهور المذهب المادي - و توضع في مقابل العلم و العلمية والقرآن الكريم يقرر أن هناك غيبا لا يعلم مفاتحه إلا الله ، و يقرر أن ما أوتيه الانسان من العلم قليل >>[3]. و صدق الله القائل :﴿ **و عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو...**﴾ الأنعام 60. والقائل تعالى : ﴿ **و يسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي و ما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ الاسراء 85.

---

1 المصدر نفسه ، 2/ 1121

2 أنظر ، صلاح عبد الفتاح الخالدي ، المنهج الحركي في ظلال القرآن ، ص 437

3 سيد قطب ، المصدر السابق ، 2/1113

لما كان الانسان يشعر بإحاطة الغيب به ، كانت رغبته في استكناه هذا المجهول شديدة ، إلا ان الله تعالى حجبه عنه لعدم استعداد وسائله وطاقاته لإدراك هذه الحقيقة المستقرة ، التي لا يجحدها إلا المكابرون المطموسون، الذين يكابرون و يجادلون حتى في البينات القاطعة.

ب- موقف المؤمن من الغيب:

إذا كان بعض الناس ينكرون الغيب مطلقا ، كالذين يقولون لا إله والحياة مادة، والبعض الآخر لاينكر الغيب كله ، و لكن بعضا منه ، كالمشركين الذين كانوا لا يؤمنون باليوم الآخر . فإن الاسلام يفرض علينا التصديق بالغيب لأنه حق ، و يجعل ذلك صفة من صفات المؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿ **الذين يومنون بالغيب ويقيمون الصلوٰة و مما رزقنٰهم ينفقون** ﴾ البقرة 02 << فلا تقوم حواجز الحس دون الاتصال بين أرواحهم و القوة الكبرى التي صدرت عنها، و صدر عنها هذا الوجود، و لا تقوم حواجز الحس بين أرواحهم و سائر ما وراء الحس من حقائق >>[1] . و إذا كان أصحاب المذهب المادي اليوم يعتبرون الايمان بالغيب جهلا ، فإن المؤمن يعتقد أن التنكر للغيب هو الجهلية الحقيقية ، و إنْ تَعَالَمَ أصحابُها ، و رفعوا العلم شعارا. فالجاهل هو الذي ينكر حقيقة تشعر بها النفس، و توقن بها الفطرة، و يؤكد وجودها و حي السماء. على أن الايمان بالغيب لا يجعل المؤمن يتنكر لعالم الشهادة ، أو يكفر بالنواميس التي تسيره ، و تضبط حركته لينغمس في المجهول.

جاء الاسلام ليصحح نظرة الانسان عن الغيب، فليس الغيب عدما، وليس الغيب هوالوجودالوحيد، وبذلك جمعت العقلية الاسلامية << بين الاعتقاد بالغيب المكنون الذي لا يعلم مفاتحه إلا الله ، و بين الاعتقاد بالسنن التي لا تتبدل، والتي يمكن معرفة الجوانب اللازمة منها لحياة الانسان في الارض،والتعامل معها على قواعد ثابتة>>[2].

و بذلك ينال الانسان الحسنيين معا . العلم الكوني الذي يسخره لمنافعه ، و الايمان بالغيب الذي يصحح به إيمانه و تصوره، و يوسع به مداركه و معارفه.

إذا كان الموقف السليم من الغيب هو الايمان لا النكران ، فإن الموقف السليم منه أيضا يكون بالتسليم و الاكتفاء بالقدر الذي أخبرنا به الوحي، من دون محاولة للكشف و التنقيب. لأن مدارك الانسان مهيأة للتعامل مع عالم الشهادة، و ليس لاستكناه عالم الغيب . << و قد صان الله طاقتنا أن تتبدد في البحث وراء هذا الغيب المكنون،

1- المصدر نفسه ، 1/39

2- المصدر نفسه ، 2/1120

وأعطانا منه القدر الذي ينفعنا فلا نزيد [1]. لقد حاول كثير من الناس الاطلاع على الغيب فباءوا بالفشل، لأن الله تعالى قدر أنه لا يظهر على الغيب أحدا فقال عز وجل : « **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا. إلا من ارتضى من رسول** ... » الجن 26-27.[2] وإذا كانت مداركنا عاجزة على الاطلاع على الغيب، فإن الله تعالى حجز الغيب عنا لأنه ليس من مقتضيات الخلافة ، فالانسان إنما استخلف في الارض، في عالم الشهادة لذلك، << فقد وهب من الادراك ما يناسب هذه الخلافة. بلا نقص ولازيادة. وهناك أمور كثيرة لا يحتاج إليها في وظيفته هذه - و من ثم لم يوهب القدرة على إدراكها- إدراك ماهية أو إدراك كيفية - وإن كان موهوبا أن يدرك إمكانها[3].

إن انصراف الانسان عن محاولة استكناه الغيب، و الاكتفاء بالايمان به، يحفظ طاقته من أن تتبدد، و جهده من أن يضيع. ليستثمر ذلك كله، و يوجه كل اهتمامه إلى استكناه عالم الشهادة ، و الوقوف على أسراره بما يخدم خلافته في هذه الارض، يقول سيد قطب مبينا هذه الحكمة: << لقد منح الله هذا الانسان من المواهب والاستعدادات والقوى والطاقات ما يحقق به الخلافة في الأرض ، وما ينهض به بهذا التكليف الضخم ، ولا زيادة . وانكشاف ستر الغيب له ليس مما يعينه في هذه المهمة، بل إن انطباق أهدابه دونه مما يثير تطلعه إلى المعرفة>>[4].

فيهتدي بذلك إلى الاسرار المودعة في هذا الكون ليستخدمها لإنجاح وظيفته الأساسية ألا وهي الخلافة .

إذا كان سيد يرى أن من الحكم البالغة في عدم إطلاع الانسان على الغيب أنه ليس من لوازم الخلافة، وذلك من شأنه أن يوجه اهتمام الانسان إلىعالم الشهادة موطن الإستخلاف، فإنه يعتقد مع ذلك أن الأمر أولا وأخيرا شأن من شأن الله ، قد نصيب و قد نخطئ في إدراك طرف مما ينطوي عليه من الحكمة . لقد أراد الله هذا العالم مكنونا، << وكان الخير في هذا الذي أراده الله ، فلو علم الله أن في كشف هذا الستر المسبل خيرا لكشفه للانسان المتطلع الشديد التطلع إلى ما وراءه>>[5].إن الموقف الصحيح من عالم الغيب هو الايمان به كماورد به الشرع دون زيادة و لا نقصان، مع عدم البحث في كنهه. و هذا الموقف فوق أنه الحق له أثر في النفس كبير.

---

1 - المصدر نفسه ، 3807/6

2 - أنظر ، صالح بن فوزان الفوزان ، كتاب التوحيد ، ص 25

3 - سيد قطب ، خصائص التصور الإسلامي و مقوماته ، ص 47

4 و 5 - سيد قطب ، المصدر السابق ، 2061/5

جـ- أهمية الايمان بالغيب:

أن الايمان بالغيب يوسع مدارك الانسان ،ذلك أن علم الانسان بأن هناك عالما آخر غير هذا العالم المحسوس، عالم مليئ بالحقائق و المخلوقات ، عالم يختلف كلية عن عالم السنن الكونية التي هي في طوع الانسان ،هذا الادراك ، وهذا الاعتقاد يحرر الانسان من أسار المادة وحواجزها الضيقة ، فيكون حاله كحال من ينظر إلى النجوم من خلال منظار مزود بعدسات كبيرة ، فيراها من خلاله أضخم و أوسع ، وتتكشف له المجموعات و المجرات. أما غيره فلا يراها إلا مجرد مصابيح صغيرة متناثرة في الفضاء الواسع، ولذلك كانت الدعوة إلى الايمان بالغيب دعوة ملحة في رسالات الانبياء جميعا لأن << الايمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الانسان، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه ، إلى مرتبة الانسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس، أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس >>[1].

لقد وهب الله الانسان العقل ليدرك به ما وراء العلم المادي، إدراك وجود لا إدراك كنه ، و وهبه الروح لتشعر و تتصل بالعالم الأخر على نحو لا نحسه و لا ندري من طبيعته شيئا . أما الحيوان فهووحده الذي يعيش في إطار حواسه وغريزته. إن قيم و موازين الانسان الذي يؤمن بالغيب غير موازين وقيم من لا يؤمن إلا بالمادة، << فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته ، ويتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه ، ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود، و أن وراء الكون ظاهره وخافيه حقيقية أكبر من الكون، هي التي صدر عنها >>[2]. وإذا كان الايمان بالغيب يترك هذه الآثار في نفس الانسان ، فإن الكفر بهذه الحقيقة والتنكر لها تضييق على النفس، وحجر على المدارك، <<و أن اغلاق هذا المجال دون الادراك الانساني نكسة به إلى الوراء، وهو ما تحاوله المذاهب المادية الحسية، و تدعوه تقدمية>>[3].

إن الانسان ليس مبتوتا عن عالم الغيب ، فبعض مخلوقات هذا العالم تتصل بالانسان و تتعامل معه، و من ذلك الملائكة و الجن.

---

1 المصدر نفسه ، 39/1

2 المصدر نفسه ، 39/1 40

3 المصدر نفسه ، 1043/2

2 - الـمـلائـكـــــــــة:

أ- الإيـــــمان بالـمـلائـــكـــــة:

إن كل ما نعرفه عن عالم الغيب، هو ما أخبرنا به الله تعالى عن طريق أنبيائه و رسله، و ليس بعد ذلك مصدر يمكن أن نطلع منه على هذا العالم المكنون ، والملائكة خلق غيبي من خلق الله تعالى. << و قد جعل الاسلام الايمان بها مقوما من مقومات الايمان، لا يتم الايمان إلا به>>[1] .وهم ذوو طبيعة خيره، وهم عباد من عباد الله الصالحين ، و لكنهم << خلق آخر غير الخلق الانساني، خلق ذو طبيعة خاصة يعلمها الله>>[2]. و قد كان العرب المشركون يعرفون الملائكة و يؤمنون بهم ، غير أنهم كانوا يعتقدون فيهم اعتقادات خاطئة ، لأنهم لم يستمدوا معرفتهم بهم من الوحي المعصوم و إنما مما ترشح لديهم من تراث الآباء و الأجداد. ولذلك << كانوا يخبطون في التيه بلا دليل في تصور هذا الخلق، و في نوع علاقته بربه و نوع علاقته بالارض و أهلها >>[3] حتى أنهم كانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله ، و أنهم شفعاؤهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ **و جعلوا الملئكة الذين هم عبد الرحمن إناثا**...﴾ الزخرف 18. ثم عبدوهم، و زعموا أن الله تعالى هو الذي قدر عليهم عبادتهم. فأنكر الله عليهم صنيعهم ذلك. فقال عز من قائل :﴿ **و قالوا لو شاء الرحمن ما عبدنـهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون** ﴾ الزخرف 19.

لما كان اعتقاد كثير من الناس في الملائكة منحرفا وباطلا، فقد تصدى القرآن لذلك كله فأبطل منه ما أبطل ، وصحح منه ما صحح، وعرف الانسان بما لم يعرفه عن هذا الخلق. فهم أولي أجنحة مثنى و ثلاث ورباع، وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل ليلة الاسراء و المعراج و له ستمائة جناح، << و هو وصف لا يمثلهم للتصور ، لأننا لا نعرف كيف هم،ولا كيف أجنحتهم هذه، ولاتملك إلا الوقوف عند هذا الوصف دون تصور معين له. فكل تصورقد يخطئ>>[4]. وهكذا كل وصف يذكرلناعن الملائكة، وعالم الغيب كله، نكتفي فيه بالصورة التي يرسمها اللفظ ، دون تصورمعين ، لأن صورنا إنما نأخذها من عالم الشهادة ، وليس كذلك عالم الغيب. وإذا كان الوحي قدعرفنا بطبيعة هذا الخلق، بهذا القدر الذي رأينا، فإنه عرفنا عن صلتهم بالبشرو الحياة.

---

1 - 2 المصدر نفسه ، 1042/2

3 - المصدر نفسه ، 1041/2

4 - المصدر نفسه ، 2921/5

ب -- وظائف الملائكة:

للملائكة وظائف متعددة ، أما وظيفتهم الاساسية فهي التسبيح بحمد الله تعالى ، لقوله عز وجل: ﴿ **وله من في السموات و الارض و من عنده لا يستكبرون عن عبادته و لا يستحسرون . يسبحون اليل و النهار لا يفترون** ﴾ الانبياء 19-20. و مصداق ذلك ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم - وهو يبين كثرة هذا الخلق و تسبيحهم بحمد الله-: << إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون ، أطت السماء و حق لها أن تئط ، والذي نفسي بيده ما فيها أربع أصابع إلا وملك يمجد الله... الحديث >>[1]. وهذه الوظيفة يقوم بها الملائكة أجمعون، و هناك وظائف أخرى يقوم بها بعض أفراد الملائكة، أو بعض جماعتهم و من ذلك:

- إنزال الوحي :قال تعالى : ﴿ **وإنه لتنزيل رب العلمين. نزل به الروح الامين** ﴾ الشعراء 192-193.

- قبض الارواح:قال تعالى:﴿ **قل يتوفىكم ملك الموت الذي وُكِّل بكم ثم إلى ربكم ترجعون** ﴾السجدة11.

- إحصاء الاعمال: قال تعالى: ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ ق 18.

وهناك الكثير من الوظائف التي يقومون بها مع بني الانسان في الدنيا و يوم القيامة ، وقد أشار سيد إلى ذلك عند تعليقه على مقترح المشركين : ﴿ **و قالوا لولا أنزل عليه ملك و لو انزلنا ملكا لقضي الامر ثم لا ينظرون. و لو جعلنه ملكا لجعلنه رجلا و للبسنا عليهم ما يلبسون** ﴾ الانعام 09-10. يقول سيد :<< فهم يتعاملون مع أهل الارض في صور شتى : فهم يقومون عليهم حفظة بأمر الله ، يتابعونهم و يسجلون عليهم ، و يتوفونهم عند الموت ويبلغون الوحي للرسل منهم ، وينزلون على المؤمنين بالتأييد والمدد والتثبيت ، ويستغفرون للذين ءامنوا، ويدعون لهم الله دعاء المحب ، ويبشرون المؤمنين بالجنة عند الموت ، ويستقبلونهم بالبشرى يوم القيامة ، ويستقبلون الكافرين بالتأنيب والوعيد[2]. إن الملائكة لا تفارق الانسان أبدا ، لا في الدنيا ولا يوم القيامة وهي التي تتولى أمر تخليقه في بطن أمه ، بل لقد كان لهم شأن مع البشر منذ نشأة أبيهم آدم عليه السلام. و هذه الصلة ذات أثر كبير في حياة الانسان.

---

1 البغوي ، شرح السنة ، 370/14 كتاب الرقاق باب الخوف من الله

2 سيد قطب ، المصدر السابق ، 1043/2 - 1044 (بتصرف)

إن الإيمان بالملائكة، و كذا طبيعتهم و وظائفهم التي يؤدونها، يترتب عليه جملة من الآثار أهمها :

- طمأنة البال:ذلك أن في الانسان رغبة في استكناه الغيب، و معرفته بجزء يسير من هذا الغيب، بقدر ما يتفق و طاقاته ، يطمئن باله فيرتاح لهذا القدر الذي علمه من هذا العالم المغيب المحيط به.<< و من ثم شاءت رحمة الله بالانسان- و هوفاطره و هو العليم بتكوينه وأشواقه و ما يصلح له وما يصلحه- أن يمده بطرف من الحقائق الغيبية هذه، و يعينه على تمثلها- و لو كانت أدواته الذاتية قاصرة عن الوصول إليها، و بذلك يريحه من العناء و من تبديد الطاقة في محاولة الوصول إلى تلك الحقائق>>[1].

- الإيناس:إن الملائكة تشارك الانسان في طاعته لله تعالى، وهي كذلك تحبه وتحب له الخيرفي الدنيا والآخرة، و شعور المؤمن بذلك << يؤنس قلبه بهذه الارواح المؤمنة من حوله، تشاركه ايمانه بربه، وتستغفر له ، وتكون في عونه على الخير - بإذن الله- و هو شعور لطيف ندي مؤنس و لا شك >>[2]. إن هذا العالم المكنون بقدر ما يثير في الانسان كوامن الرهبة ، يثير فيه أيضا شعور الرغبة و الأنس ما دامت هذه الأرواح اللطيفة تحفظه و تؤازره، و تعينه على الخير.

- الاستقامة : يعتقد المؤمن أن الملائكة أطهار أبرار ، وأنهم يعلمون كل ما يكون منه، فيحمله ذلك على الاستقامة إقتداء بهم، و حياء منهم ، و خوفا من أن يسجلوا عليه ما يوجب له العذاب يوم القيامة ، فإحاطة الملك بالانسان يلقي << ظل الرقابة المباشرة على كل نفس. ظل الشعور بأن النفس غير منفردة لحظة واحدة ، وغير متروكة لذاتها لحظة واحدة. فهناك حفيظ عليها رقيب>>[3] ، وهذا التصور من شأنه أن يجعل الانسان في حالة استنفار دائمة، و مراقبة لنفسه مستمرة.

هذه بعض الاثار الطيبة التي يولدها في النفس الايمان بملائكة الله الكرام.وإذا كان الوحي قد أخبرنا بهذا المخلوق فقد أخبرنا أيضا بمخلوق آخر ، يمثل عالما بذاته ، وهم الجن.

1- المصدر نفسه ، 341/1

2 المصدر نفسه ، 342/1

- و انظر ، محمد نعيم ياسين ، كتاب الإيمان ، ص 50

3- سيد قطب ، المصدر السابق ، 1122/2

3- عـالـــم الجـــــن :

أ- حقيـــقة الجـــــن :

كلمة الجن تطلق على كل خفي . قال ابن منظور : << سموا بذلك لاجتنانهم عن الابصار، و لأنهم استجنوا من الناس فلا يرون >>[1] . والجن كالملائكة << غيب من غيب الله ، لا نعلم عنه إلا ما يخبرنا به من عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو >>[2] . وقد كان العرب المشركون يعتقدون بوجودالجن ، غير أن اعتقادهم فيه كان ينطوي على كثير من الأباطيل و الأوهام ، و قد أنزل الله تعالى سورة كاملة يبين فيها حقيقة هذا الكـائن ، كما تبين عقيدة المشركين. يقول سيد:<< كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة يعتقدون أن للجن سلطانا في الأرض، فكان الواحد منهم إذا أمسى بواد أو قفر ، لجأ إلى الاستعاذة بعظيم الجن الحاكم لما نزل فيه من الأرض >>[3] ، ومصداق ذلك قوله تعالى :﴿ **وإنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا** ﴾ الجن 06. حتى إن الجن أسلمت لما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم و بقي أولئك المشركون على ولائهم لها. ومما كان المشركون يعتقدونه أنهم << كانوا يعتقدون أن الجن تعلم الغيب و تخبر به الكهان فيتنبأون بما يتنبأون >>[4].

ب - موقف المؤمن من الجن :

إذا كان الناس مغرقون في إنكار عالم الجن، أو مغرقون في الأوهام و الاساطير حول هذا المخلوق، فإن القرآن الكريم جاء ليصحح التصور حول هذا الكائن الجني من حيث طبيعته و من حيث أصله . أما من حيث الأصل فالقرآن يخبرنا << أن هذا الخلق مخلوق من مارج من نار >> [5] . وهذا التصوير قد يفيدنا في معرفة طبيعة هذا المخلوق، و لكنه لا يعرفنا بكنهه ، لأنه غيب من غيب الله . وأما من حيث الطبيعة فهم مزودون بالقدرة على الحياة في الارض و في باطن الارض و في خارج الارض أيضا، و يملك الحركة في ذلك كله بأسرع مما يملك البشر ، و أن منهم الصالحون و منهم دون ذلك، و منهم المتمردون، المتمحضون للشر والغواية، و هم يرون بني آدم من حيث لا يراهم بنو آدم ، وشرورهم مسلطون على الانسان بالوسوسة ، ولكن ليس لهم سلطان على الذين ءامنوا وعلى ربهم يتوكلون، وكما تعيش الملائكة مع الانسان تعيش الجن كذلك، فإذا ذكرخنس، وإذاغفل وسوس، وأن الشيطان أمام الملائكة ضعيف، و أن عالم الجن قابل للهداية والغواية، و هو يحشر مع عالم الانس ويحاسب

1- ابن منظور ، لسان العرب ، 703/1

2- سيد قطب ، المصدر السابق ، 1189/3

3-4- المصدر نفسه ، 3721/6

5- المصدر نفسه ، 1189/3

ويجازى. وأنهم لا يعلمون الغيب، وأنهم لاحول لهم ولا قوة مع الله تعالى، وأن الله تعالى قد سخرهم للانسان[1] والمؤمن يعتقد بصحة كل ما أخبر به القرآن الكريم والحديث الشريف عن هذا العالم ، ولا ينشئ أي تصور آخر من غير هذا المصدر الموثوق.

وإذا كان الايمان بالملائكة يشعر الانسان بالأنس والراحة، فإن الايمان بالجن وخاصة الشياطين يجعله شديد الحذر ، كثير الذكر حتى لا يقع تحت سلطان وسوسته و صدق الله القائل : ﴿ **إنه ليس له سلطان على الذين ءامنوا و على ربهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين يتولونه و الذين هم به مشركون** ﴾ النحل 99-100. ومن عالم الجن و الملائكة ننتقل إلى عالم اليوم الآخر .

4- اليـــوم الآخـــــر:

الايمان باليوم الآخر كلية من كليات العقيدة، و ركن من أركان الايمان، ولذلك لم تخل رسالة من الدعوة إلى الايمان به، و التنبيه على أهميته.

أ - اليوم الآخر في دعوة الانبياء السابقين :

إذا كانت الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له هي الرسالة الاساسية التي بعث الله بها جميع الانبياء و المرسلين، فإن الدعوة إلى الايمان باليوم الآخر هي المحور الثاني في دعواتهم. و مثلما كان جدال الانبياء أقوامهم لتقرير وحدانية الله قويا و طويلا،كذلك كان جدالهم معهم في تقرير أن بعد الموت حياة، و أن بعد العمل حسابا، و بعد الدنيا آخرة.

إن دعوة الاسلام التي جاء بها الانبياء واحدة، فهي << من ناحية أصول العقيدة تحتوي الايمان بالله، و الايمان بالاخرة. وتوحيد الله وعدم الشرك به أصلا، ومعرفة الله سبحانه بصفاته >>[2]. وقد قص علينا القرآن الكريم كثيرا من دعوات الانبياء وما تضمنته من الامر بالايمان باليوم الآخر . فهذا نوح عليه السلام يؤكد حقيقة هذا اليوم، وذلك في مجال الرد على قومه الذين عيروه بأتباعه الذين هم- في زعمهم - أراذل. قال نوح عليه السلام :((**و يـٰقوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله و ما أنا بطارد الذين ءامنوا إنهم ملٰقوا ربهم و لكني أريٰكم قوما تجهلون**)) هود 29.

---

1 - أنظر ، المصدر نفسه ، 1189/3 و 3721/6

2 - المصدر نفسه ، 1960/4

وقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، وطاعته فيما جاءهم به من عند الله. وتلك هي الضمانة الوحيدة التي بها تغفر ذنوبهم ويؤخرون إلى الأجل الحتمي الذي إذا جاء لا يؤخر ، مصداقا لقول الله تعالى:« ... **إن أجل الله إذا جاء لايؤخر** »نوح .

إن الإيمان باليوم الآخر ، الذي هو يوم الحساب والجزاء، هذا اليوم الذي أعد الله فيه للمؤمنين ما لاعين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ، وأعد فيه للكافرين نارا تشوي الوجوه، الإيمان بهذا اليوم هو الذي جعل مؤمن آل فرعون يرفع صوته عاليا أمام فرعون الذي بلغ به العلو والاستكبار إلى حد ادعاء الألوهية ، يرفع صوته منبها الجماهير المغفلة والمستعبدة إلى حقيقة هذا اليوم وعظمته قائلا: « **يا قوم إنما هذه الحيوة الدنيا متاع وإن الاخرة هي دار القرار. من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مومن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب** » غافر 39-40.

و الإيمان باليوم الآخر هو أيضا الذي أعاد الوعي للسحرة، وأعطاهم إرادة صلبة جعلتهم يقفون موقفا عظيما - غير منتظر - مستعلين بإيمانهم على فرعون وتهديده. فلما توعدهم فرعون بقوله: « **لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين** » الشعراء 49. لم يرهبوه كعادتهم، ولم يجبنوا أمامه وقالوا:« ...**لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون. إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المومنين** » الشعراء 50-51 .ويعلق سيد على هذا الموقف الإيماني العظيم لهؤلاء السحرة الذين كانوا من قبل بطانة سوء، يرهبون جانب فرعون ويسبحون بحمده، فإذا الإيمان بالله و لقاءه يحولهم إلى دعاة حق في وجه الباطل ، يقول سيد: « يا لله، يا لروعة الإيمان إذ يشرق في الضمائر ، وإذ يفيض على الأرواح ، وإذ يسكب الطمأنينة في النفوس ، وإذ يرتفع بسلالة الطين إلى أعلى عليين . وإذ يملأ القلوب بالغنى و الذخر والوفر . فإذا كل ما في الأرض تافه حقير زهيد »[1].

إن الذين يكفرون بيوم الدين يتعجبون ويندهشون عند البعث ويقولون كما أخبر عنهم القرآن الكريم « **من بعثنا من مرقدنا** » فيكون الجواب الذي كانوا يتعامون عنه في الدنيا :« **هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون** » يس 51. فقوله تعالى: وصدق المرسلون دليل على أن جميع الأنبياء كان الإيمان باليوم الآخر هو الركن الثاني من دعوتهم بعد توحيد الله تعالى.

1 سيد قطب، في ظلال القرآن، 5/ 2597

فهـذا شعيب عليـه السلام يدعـو قـومه إلى عبـادة اللـه رجـاء أن يرحمهـم يوم القيـامة، قـال تعـالى : ﴿ **و إلى مدين أخاهم شعيبـا فقـال يـاقوم اعبـدوا اللـه و ارجـوا اليوم الآخـر و لا تعثـوا في الارض مفسدين** ﴾ العنكبوت 36 . << و هي اشارة تبين وحدة الدعوة، ولباب العقيـدة :﴿ **اعبـدوا اللـه و ارجـوا اليوم الآخـر** ﴾ >>[1]. و أما دعـوة ابـراهيم قـومـه إلى هـذا المقوم من مقومـات العقيـدة، فقـد أخـذ شكل المجـادلة كما جاء في سـورة البقـرة في الذي حاج إبـراهيم في ربه، و الذي استبعـد أن يحيي اللـه القـرية الخـاوية على عروشـها.[2] كما تمثلت دعوة ابراهيم قومه إلى الايمـان بعقيـدة اليوم الآخـر، وذلك من خـلال تعريف قـومه باللـه و صفـاته : ﴿ **الذي خلقني فهـو يهدين. و الذي هو يطعمني و يسقين. و إذا مرضت فهـو يشفين. والذي يميتني ثم يحيين. والذي أطمع أن يغفرلي خطيئتي يوم الدين** ﴾ الشعراء 78-82. ثم يسأل ربه المغفرة، و يستعين به من خزي يوم القيامة :﴿ **و لا تخزني يـوم يبعثـون** ﴾ الشعراء 87. يقول سيد : << و هكذا يجمع ابراهيم في صفة ربه عناصر العقيدة الصحيحة : توحيد اللـه رب العالمين ، واقراره بتصريفه للبشر في أدق شؤون حياتهم على الارض، والبعث والحساب بعـد الموت>> [3]. وهذا يوسف- عليه السـلام – وقـد بدأ الدعوة إلىالاسـلام في السجـن – يقـول لصاحـبي السجن ﴿ **...إنـي تركت ملة قـوم لا يومنون باللـه و هم بالاخـرة هم كـافرون. و اتبعت ملة ءابائي إبراهيم و اسحـاق و يعقـوب ...**﴾ يوسف 37-38، فدل تركه لملـة قومـه الذين لايؤمنون باللـه و يكفرون بالآخـرة، واتبـاعه لملة إبراهيم واسحـاق و يعقـوب أنهم جميعـا يدعـون إلى الايمـان باليوم الآخـر . و كما اشتملت دعـوة هؤلاء الرسل – وغيرهم- على عقيـدة اليوم الآخـر . فإن دعـوة موسى تضمنت ذلك أيضـا : ﴿ **و قـال موسى إنـي عـذت بربي و ربكم من كـل متكبر لا يومن بيوم الحساب** ﴾ غـافر 27.و هي اشـارة من موسى ليوم الدين الذي لا يكذب به إلا المتكبرون. و قد أخبرنا القـرآن الكـريم أن أهل الكتـاب فريقان مؤمن باليوم الآخـر و كـافر به، قال تعالى : ﴿ **ليسوا سـواء من اهل الكـتـٰب أمـة قـائمة يتلون ءايـٰت اللـه ءانـاء اليل و هم يسجـدون. يومنون باللـه و اليوم الآخـر ويامرون بالمعـروف و ينهون عن المنكـر و يسـٰرعون فـي الخيـرات و أولـٰئك من الصـٰلحين** ﴾ آل عمـران 113-114 .

---

1 المصدر نفسه ، 2734/5

2 أنظر ، سورة البقرة ، الآيات 257 259

3 سيد قطب ، المصدر نفسه ، 2603/5

من خلال هذه الآيات النماذج، يتضح لنا أن الايمان باليوم الآخر كان أكبر اهتمامات الرسل بعد توحيد الله تعالى. هذا الاهتمام الذي شغل حيزا كبيرا في دعوة أخر الانبياء، كما شغل حيزا كبيرا في القرآن الكريم. و تنوعت أساليبه من إخبارية و تقريرية إلى استفهامية و جدلية. كل ذلكبيبن أهمية هذه المسألة، و العناية الفائقة التي أولاها لها القرآن الكريم. قال تعالى : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى و من حولها و تنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة و فريق في السعير** ﴾ الشورى 5 . يقول سيد قطب. مبينا اهتمام القرآن بهذا الموضوع : << و قد كان الانذار الأكبر و الأشد و الأكثر تكرارا في القرآن هو الانذار بيوم الجمع، يوم الحشر . يوم يجمع الله ما تفرق من الخلائق على مدار الأزمنة واختلاف الأمكنة .. [1]. و الانذار بيوم الجمع أبلغ في الدلالة على وجوب الايمان به من الدعوة المباشرة، ذلك أن الانذار يوحي إلى النفس أن هذا اليوم حقيقة مستقرة، و إنه لكذلك فلم يبق إلا الايمان به و الاستعداد له. و يحذر القرآن الكريم من الكفران باليوم الأخر فيقول : ﴿ ... **و من يكفر بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا** ﴾ النساء 135 . كما يحذر من الغفلة عن هذا اليوم، فيقول تعالى : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون** ﴾الانبياء01 . فإذا تعامى المشركون عن هذه الحقيقة و زعموا أن لا حياة بعد الموت، جاء التأكيد بالقسم على حتمية هذا اليوم،كما في قوله تعالى : ﴿ **زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى و ربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم و ذلك على الله يسير** ﴾ التغابن 07 . يقول سيد في تعقيبه على هذه الآية : << و منذ البدء يسمي مقالة الذين كفروا عن عدم البعث زعما، فيقضي بكذبهم من أول لفظ في حكايته. ثم يوجه الرسول صلى الله عليه و سلم إلى توكيد أمر البعث بأوثق توكيد، و هو أن يحلف بربه، و ليس بعد قسم الرسول بربه توكيد >>[2]. و هكذا يتبين لنا من خلال هذه الأمثلة التي ضربناها أن كل << الانبياء عليهم السلام أخبروا الناس عن ذات الله و صفاته و أفعاله، و عن بداية هذا العالم و مصيره. و ما يهجم عليه الانسان بعد موته >>[3].

1 المصدر نفسه ، 3144/5

2 المصدر نفسه ، 3587/6

3 سيد قطب ، خصائص التصور الإسلامي و مقوماته ، ص 57

اهتم القرآن الكريم بموضوع اليوم الآخر اهتماما بالغا، و ذلك بإقامة الأدلة على أحقية هذا اليوم، و دحض شبهات المكذبين، و بيان حقائقه و مشاهده، و الاعتماد عليها في تربية الوجدان و تهذيب السلوك.

ب- اليوم الآخر في القرآن الكريم.

1 - طريقة القرآن في الاستدلال على اليوم الآخر :

إن إنكار المشركين لليوم الآخر لا يستند إلى أدنى دليل، و لكن سببه عجز عقولهم عن ادراك امكانية إحياء الانسان بعد موته، و جمعه بعد تفرق أجزائه. و قد حكى القرآن الكريم استبعادهم لهذا الأمر واستغرابهم منه فقال تعالى : ﴿ **وقالوا أءذا ضللنا في الارض إنا لفي خلق جديد** ﴾ السجدة 09. << فهم يستبعدون أن يخلقهم الله خلقا جديدا، بعد موتهم و دفنهم، و تحول أجسامهم إلى رفات يغيب في الارض، يختلط بذراتها، ويضل فيها. >>[1] و الحقيقة أن هذا الامر ليس بعيدا، وليس بغريب، و ما ذلك على الله بعزيز. و إذا كانت هذه هي شبهة القوم المكذبين، فإن القرآن الكريم كثيرا ما يلفت أنظارهم إلى آثار قدرة الله في الانفس و الآفاق. تلك الآثار التي تبدد كل شك، و تدحض كل شبهة، فكان يخاطبهم بما يعرفون ولا ينكرون، قال تعالى :﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون** ﴾ المرسلات 20-23 . إن النشأة الأولى دليل للنشأة الأخرى، والذي خلق الانسان من عدم، قادر على إعادته من رفات، فلماذا يستبعدون النشأة الأخرى، و هم يرون المواليد تخرج كل يوم إلى هذه الحياة. << إن هذه المعجزة تقع أمامهم في كل لحظة، و تحيط بهم في جنبات الكون كله >>[2] . ولكنهم يغفلون عنها بسبب كفرهم بالله تعالى. و لهذا يحاول القرآن الكريم أن يبسط لهم المسألة- و هي بسيطة - و يزيح عن عقولهم و قلوبهم الغشاوات التي رانت عليها، فأفسدت عليها رؤيتها للحق الماثل أمامها. فيعرض عليهم << آيات القدرة المبدعة في خلقهم هم أنفسهم. و في زرعهم الذي تزاوله أيديهم. و في الماء الذي يشربون و في النار التي يوقدون - و هي أبسط ما يقع تحت أبصارهم من مألوفات حياتهم - كذلك يصور لهم لحظة النهاية. نهاية الحياة على هذه الارض و بدء الحياة في العالم الآخر >>.[3] وكثيرا ما كان القرآن الكريم يعطينا أمثلة حية واقعية عن عملية البعث و النشور، وذلك من خلال مظهر الارض المخضر بعد طول جفاف و موات. و صدق الله القائل : ﴿ **و من ـ ايته أنك ترى الارض خاشعة فإذا**

---

1 - سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 2811/5

2 - المصدر نفسه ، 3358/6

3 - المصدر نفسه ، 3466/6

أنزلنا عليها الماء اهتزت و ربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير ، فصلت 38.

وهذا النوع من الاستدلال بقدر ما يلفت العقل، فإنه يأسر القلب، و يثير الوجدان. و لذلك كثيرا ما يعتمد عليه القرآن الكريم في تقرير حقيقة الآخرة، و ذلك -- لصحة مقدماته و وضوح دلالته و قرب تناوله وبعده من كل معارضة و شبهة، و جعله تبصرة و ذكرى --[1]. إن المشركين لا يعوزهم الدليل، بقدر ما يعميهم الإعراض عن رؤية الحق. على أن القرآن الكريم يعمد أحيانا إلى بعض الأدلة العقلية للبرهنة لاعلى إمكانية اليوم الآخر، و لكن على ضرورته، كقوله تعالى : « **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا و أنكم إلينا لاترجعون. فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم** » المؤمنون 116-117. و إذا كان المشركون يقرون بخلق الانسان في بطن أمه طورا فطورا، ثم يخرج للحياة الدنيا فيعمر فيها ما شاء الله، ثم يتوفاه الله فإن البعث -- حلقة في سلسلة النشأة، تبلغ بها كمالها، ويتم فيها تمامها ولايغفل عن ذلك إلا المحجوبون المطموسون، الذين لا يتدبرون حكمة الله الكبرى --[2]. إنما تبلغ سلسلة النشأة تمامها وكمالها بالبعث لأن الانسان إنما خلق للآخرة، فهناك يجازى على كل ما عمله، وصدق الله القائل على لسان مؤمن آل فرعون : « **يا قوم إنما هذه الحيوة الدنيا متاع و إن الآخرة هي دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها و من عمل صالحا من ذكر أو انثى و هو مومن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب** » غافر 39-40 .إن القرآن لا يبعد للمكذبين بيوم الدين في فلسفات معقدة،أوقضايا عقلية عويصة كتلك التي لجأ إليها الفلاسفة والمتكلمون ، و لا يكلفهم أن يبحثوا في دلائل بعيدة عن انفسهم ، وإنما يخاطبهم بما تدركه عقولهم ، وتحسه أنفسهم، ويقع تحت مداركهم.

لم يتوقف القرآن عند مجرد الاستدلال على الآخرة، و دحض شكوك المنكرين، بل أكثر من ذكر حقائق هذا العالم المكنون، و مشاهده المتنوعة.

2- حقائق و مشاهد اليوم الآخر في القرآن :

إن الفاصل بين الحياة الدنيا و الحياة الآخرة هي لحظة الموت، والموت في حد ذاته سر من أسرار الله، على الرغم من مشاهدة الانسان لهذا الأمر يوميا. و الموت غيب، فلا تدري نفس متى و لا كيف و لا أين تموت.

---

1 ابن القيم ، أعلام الموقعين ، 157/1

2 سيد قطب ، المصدر السابق ، 2482/4

والذي نعرفه عن الموت أنها حق، قال الله تعالى : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون** ﴾ العنكبوت 57 . و قد أودع الله في فطرة الانسان أن يقبر أخاه الانسان إذا مات. و بعد القبر و احواله التي أخبر عنها النبي صلى الله عليه و سلم من سؤال و ضمة و نعيم أو عذاب، بعد ذلك يأتي النشور .وقد جمع ذلك في قوله تعالى:﴿ **ثم أماته فأقبره. ثم إذا شاء انشره** ﴾عبس21-22 . و في قوله تعالى :﴿ **قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه و لكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ الجاثية 25. ولو شاء الله لبعث الأموات من قبورهم في هذه الحياة الدنيا، وهو الأمر الذي يطلبه المنكرون. و لكن ذلك لا يفيد المؤمنين به و لا يقنع المكذبين، لأن تكذيبهم منشؤه الجحود و ليس عدم الدليل، و لذلك لم يشأه الله، و أراد أن يجمع الناس كلهم ليوم لا ريب فيه. يقول سيد : << فليست هنالك حكمة تقتضي عودتهم قبل اليوم المعلوم.وهم لا يعودون لأن فريقا من البشر يقترحون هذا. فاقتراحات البشر لاتتغير من أجلها النواميس الكبرى التي قام على أساسها الوجود>> [1]. و صدق الله القائل :﴿ **و لو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات و الارض و من فيهن ...** ﴾ المؤمنون 72 .

لقد أسهب القرآن في ذكر مشاهد القيامة من بعث، و حشر، وحساب، و ميزان، و صراط، و جنة و نار، إلى غير ذلك من المشاهد التي لا تكاد سورة من سور القرآن تخلو منها، و خاصة السور المكية كسورة الصافات و ص و غيرهما من السور . و المجال لا يتسع لذكر أمثلة هنا، لأنها كثيرة جدا، و عرض القرآن لها طويل كذلك. و قد لفت نظرَ سيد قطب فألف لذلك << مشاهد القيامة في القرآن >>. على أن هناك أمرين ينبغي الاشارة إليهما في هذا الصدد. الأول : طريقة القرآن في ذكر هذه الحقائق و المشاهد، و الأخر : الغاية من ذكرها .

أما طريقة القرآن في ذكر مشاهد القيامة فهي التصوير الذي يشخص هذه الحقائق الغيبية حتى تصير مشاهد واقعية تنبض بالحركة و الحيوية ، وهو الأمر أيضا الذي جعل سيد قطب يضع في ذلك مؤلفه << التصوير الفني في القرآن >>. و بهذا الأسلوب البديع لم << يعد ذلك العالم الآخر الذي وعده الناس بعد هذا العالم الحاضر

---

1 - المصدر نفسه ، 3232/5

موصوفا فحسب، بل عاد مصورا محسوسا وحيا متحركا .. [1]. إن أسلوب القرآن في الحديث عن مشاهد القيامة، و تصوير أحداثها، ينقل الإنسان إلى ذلك العالم ليعيش فيه بكل مشاعره وأحاسيسه ، فتصبح حقائقه - مشاهد تقاس فيها الأبعاد والمسافات بالمشاعر والوجدانات والخواطر والخلجات >> [2]. لقد صور القرآن الكريم الجنة تصويرا، كما صور النار تصويرا، وصور حوار أهل النار مع أهل الجنة، ونفخ الروح في كل مشهد من مشاهدها. وفوق أن ذلك حقيقة نصدق بها و إن كنا لا ندرك كنهها ، فإنها ذات أثر نفسي عميق في تحطيم جدار الكفر ، وتقوية بنيان الإيمان.<< هذا التصوير المبدع لمشاهد القيامة هو الذي جعل الجيل الأول من المسلمين يعيشون بوجدانهم في الآخرة و هو يخطو بجسده على الارض >> [3] .و ما أروع ذلك الاحساس الذي عبر عنه الحارث بن مالك لرسول الله و قد سأله عن حقيقة إيمانه حيث قال : << عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي و أظمأت نهاري، و كأني أنظر إلى عرش ربي بارزا. و كأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها. و كأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها. فقال : يا حارث عرفت فالزم. >>[4]. إن الذي يجعل مشاهد القيامة تخلق هذا النوع المزدوج من الإحساس، إحساس الرغبة و الاطمئنان والرحمة والرضوان عند مشاهد الجنة،وإحساس الرهبة والخوف الذي يكاد يخلع القلب من أوصاله عند مشاهدالنار والعذاب والسخط، إن الذي يفعل ذلك في النفس هو الأسلوب القرآني الفريد في عرض مشاهد القيامة، حيث <<الشخصيات التي تحتويها تتكلم وتتحرك، فالملك والشيطان و الأبرار و الأشرار كل هؤلاء يتسمون بواقعية لا تغفل أدق التفاصيل النفسية >> [5].

إذا كان الاسلوب القرآني يحدث هذا الأثر في النفس، فإن ذلك الاثر ناتج أيضا عن القوة الحقيقية الكامنة في تلك المشاهد، فهي ليست مجرد صور ، أو تخاييل ولكنها حقائق واقعية ندركها ، ونحس بوقعها وقوتها من خلال ما تصوره لنا اللغة، و إلا فإن كنهها غيب من غيب الله تعالى. << فالكلمات ليست سوى رموز يختلف ما ترمز

1 سيد قطب ، مشاهد القيامة في القرآن ، ص 38

2- المصدر نفسه ، ص 39

3- محمد قطب ، دراسات قرآنية ، ص 82

4- عبد الله عزام ، العقيدة و أثرها في بناء الجيل ، ص 42

5- مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ص 203

إليـه بحسب التصورات الكامنة في مدارك الانسـان >> [1] . وتصورات الانسان أرضيـة وحقائق الأخرة ليست كذلك. و اللغـة تقرب لنا تلك الحقائق الغيبية من خلال تصوراتنا المادية الارضية، و صـدق رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم إذ قـال- فيما يرويه عن ربه تعـالى- : إن الله سبحانه وتعالى قال : << أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر >> [2].

إذا كانت هذه هي طريقة القرآن في عرض حقائق ومشاهد القيامة، فما الحكمة من عرضها ؟ إن القرآن الكريم لا يعرض هذه الحقائق و المشاهد لمجـرد العرض، و إنما لحكـم قد يكون من بينها :

1- تعريف النـاس بهـذه الحقائق ، فاليوم الأخر وإن كان غيبا ، فإن الله تعالى أراد أن يعرفنا بحقائق هذا الغيب لنعرفها و نؤمن بها. وما لم يؤمن الانسان باليوم الأخر ، لا يكون مؤمنـا، ولا يقبل منه عمل. الايمان باليوم الأخر اجمالا، والايمان باليوم الآخر تفصيلا فيما ورد به نص شرعي، كالجنة و النار، و الصراط وغير ذلك. يقول سيد موضحا هذا الأمر :<< إن الايمان بالله - بصفته التي وصف بها نفسه - و ملائكته وكتبه و رسله واليوم الأخـر و القدر خيره و شره، شرط لصحـة الاعمـال و قبولها، و إلا فهي باطلـة من الاسـاس>> [3]. فما يجب الايمان به يجب معرفته ، وما يتوقف عليه صحة الأعمال وقبولها يجب الايمان به. ولعل الحكمة الأخرى من كثرة إيراد حقائق و مشاهد اليوم الآخر هي لأجل اتخاذها وسيلة للتربية النفسية. فالترغيب بالجنة والترهيب من النار وسيلة من وسائل التربية، و القرآن الكريم يخاطب الكينونة البشرية بكل مقوماتها، ويأتيها من كل منافذها، و منها المنفذ الشعوري النفسي. إن صور العذاب في مشاهـد القيامة رعيبة، و صور النعيم فيها رخية ندية ، << و من هذا وذاك يقع التوازن في الضمير بين الخوف والطمع، والرهبة والأنس والفزع والطمأنينة. ويسير الانسان في حياته يقطع الطريق إلى الله، ثابت الخطو، مفتوح العين، حي القلب، موصول الأمل، حـذرا من المزالق، صـاعدا أبدا إلى الأفق الوضيئ لا يستهتر و لايستهيـن >>.[4] وكان من أدب الرسول صلى اللـه عليه وسلم حين يقرأ القرآن، أنه كلما مر بأيـة رحمـة ، سأل اللـه من رحمتـه ، وكلما مر بأيـة عـذاب ، استعـاذ باللـه من غضبه وسخطه.

1- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 3771/6

2- البغوي ، شرح السنة ، 206/15

3- سيد قطب ، خصائص التصور الإسلامي و مقوماته ، ص 74

4- المرجع نفسه ، ص 136

ان حديث القرآن عن اليوم الآخر ، ومشاهد القيامة يحتاج إلى وقفات طويلة و عميقة،لاستخراج العبر ، واستنباط الحكم، و قد استوقف ذلك سيد فعاش في ظلالها طويلا، وألف بسبب ذلك << مشاهد القيامة في القرآن >> .

و إذا كانت المشاهد وسيلة من وسائل التربية النفسية ، فإن الايمان باليوم الآخر ككلية من كليات العقيدة ، وركن من أركان الإيمان له أهمية كبرى و قيمة عظمى بالنسبة للإنسان في هذه الحياة.

3- أهمية الايمان باليوم الآخر :

إذا كانت الدنيا دار ابتلاء، والآخرة دار جزاء ، وإذا كانت الأولى فانية ، والأخرى هي الباقية، فإن الايمان باليوم الأخر يصبح ضرورة، و سندا قويا للانسان في هذه الحياة. فالايمان بالآخرة يوسع مدارك الانسان، فلا تبقى محصورة في هذا العالم المادي الضيق، محدودة بحدوده. فلا يرى أن الحياة هي هذه الحياة فقط، بل الحياة الحقيقية هي الأخرى. فالايمان بالآخرة << هو مفرق الطريق بين من يعيش بين جدران الحس المغلقة ، ومن يعيش في الوجود المديد الرحيب . بين من يشعر أن حياته على الارض هي كل ماله في هذا الوجود، ومن يشعر أن حياته على الارض ابتلاء يمهد للجزاء ، وأن الحياة الحقيقية إنما هنالك . وراء هذا الحيز الصغير المحدود. >> [1] و صدق الله في قوله :« **وما هذه الحيوة الدنيا إلا لهو و لعب و إن الدار الاخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون** » العنكبوت 64. فإذا ما استقر هذا الايمان في نفس وشعور الانسان، فإن نظرته لا محال ستتغير . نظرته إلى الدنيا ، ونظرته إلى متاعها ، وإلى القيم التي يحكمها الناس في حياتهم ، و يزنون بها الاشياء و الأناسي. وهو ما عناه سيد بقوله : << لا يلتقي إنسان يؤمن بالآخرة و يحسب حسابها، مع آخر يعيش لهذه الدنيا وحدها و لا ينتظر ما وراءها. لايلتقي هذا و ذاك في تقدير أمر واحد من أمور هذه الحياة و لا قيمة واحدة من قيمها الكثيرة >> [2]. ولما كان هذا الايمان يقينا عند الصفوة الأولى من هذه الأمة، كان عدوهم يعلم أنهم قوم يحرصون على الموت، كما يحرص هو على الحياة. وإنما يحرصون على الموت في سبيل الله، لأنها بداية الحياة الحقيقية. و ما يحرص أحد على الحياة إلا لتعلقه بأهدابها، و قلة يقينه في الآخرة. إن الذين لا يؤمنون بالآخرة، يحرصون على الحياة أشد الحرص لأنهم يعلمون أنهم إلى فناء، و من ثم يحاولون اغتنام جميع الفرص لتحقيق القدر الأكبر من الملذات والشهوات ، وبسلكون من أجل ذلك جميع السبل ، الأخلاقية و غير

1 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 41/1

2 المصدر نفسه ، 2759/5

الأخلاقية، فلا يملك أحدهم << أن يحرم نفسه شهوة أو يكبح فيها نزوة، و هو يظن أن الفرصة الوحيدة المتاحة له للمتاع هي فرصة الحياة على هذا الكوكب >>[1]. وما أروع و صف الله لهم حين قال: « **ولتجدنهم أحرص الناس على حيوة و من الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة و ما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر و الله بصير بما يعملون** » البقرة 95. إن الايمان باليوم الآخر يقلل المتاع في عين صاحبه و إن كان كثيرا، و يزهده فيه و إن كان نفيسا. و متاع الدنيا مهما كثر و نفس، فهو لا يساوي عند الله جناح بعوضة إذا ما قيس بخير الاخرة و متاعها. و من ثم فإن المؤمن بالاخرة يمكن أن يستعلي على الدنيا و ما فيها . طمعا فيما عند الله، و أن يخرج الدنيا من يديه و قد أخرجها من قلبه، ابتغاء فضل الله ورضوانه و إيثارا لما عنده. وقد ضرب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم مثالا رائعا في الانفاق في سبيل الله ، فكان أحدهم ينفق نصف ماله، و الآخر ينفق ماله كله، لأنه يوقن أن الحسنة بعشرة أمثالها. و أما الكافر فيضن بماله ويبخل به لأنه حريص عليه ، ولا يؤمن بالعوض الذي وعده الله المنفقين . و من هنا تبدو أهمية الإيمان بالآخرة << في تعليق أنظار البشر و قلوبهم بعالم آخر بعد عالم الارض . فلا تستبد بهم ضرورات الارض . وعندئذ يملكون الاستعلاء على هذه الضرورات.ولايستبد بهم القلق على تحقيق جزاء سعيهم في عمرهم القصير المحدود. وفي مجال الارض المحصور ، و عندئذ يملكون العمل لوجه الله وانتظار الجزاء حيث يقدره الله>> [2].

إن الايمان باليوم الآخر ليس خرافة كما يظن الماديون، و ليس رفضا للدنيا و تركا للعمل و الاستثمار فيها. فالمؤمن مكلف بالعمل للدنيا بقدر بقائه فيها، و العمل للاخرة بقدر بقائه فيها كذلك. و أخيرا فإن الايمان بالاخرة هو ايمان بعدالة الله المطلقة. هذه العدالة التي قد تفصل بين العباد في الدنيا، و لكن الفصل الأكبر يكون يوم القيامة ، حيث لا تظلم نفس شيئا ، ولو كان مثقال ذرة << و إنكار الذين كفروا للاخرة ناشئ من عدم ادراكهم لحكمة الله و تقديره . فحكمة الله لا تترك الناس سدى ، يحسن منهم من يحسن ويسيىء منهم من يسيىء ، ثم لا يلقى المحسن جزاء إحسانه ، ولا يلقى المسيىء جزاء إساءته . وقد أخبر الله على

---

1 - المصدر نفسه ، 2627/5

2 - المصدر نفسه ، 24/1

لسان رسوله أنه يستبقي الجزاء كله أو بعضه للآخرة »[1] . و صدق الله القائل :« **يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق و يعلمون أن الله هو الحق المبين** » النور 25.

5- القضاء و القدر :

أ - حقيقته :

القضاء والقدر سر من أسرار الله تعالى، لم يطلع عليه نبيا مرسلا، ولاملكا مقربا. وهو نظام الكون و مخططه. فلا شيء يقع في هذا الكون، و لا شيئ يحدث في الدنيا و الآخرة إلا ضمن نظام القضاء و القدر. فقد جعل الله لكل شيئ قدرا. يقول سيد قطب : « فكل شيء مقدر بمقداره، وبزمانه، وبمكانه، وبملابساته، وبنتائجه وأسبابه، وليس شيء مصادفة، و ليس شيء جزافا في هذا الكون كله ، وفي نفس الانسان وحياته »[2].

وقد عرفه علماء العقيدة بأنه : « وجود شيء في وقت وعلى حال بوفق العلم و الارادة و القول »[3]. فلا شيء يقع إلا بعلم الله و إرادته له، و بقول الله له " كن"، كما أخبر بذلك في قوله : « **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون** » يس 81. والايمان بالقضاء و القدر جزء من الايمان بالغيب.وهو يعني رد كل أمر لله تعالى سواء كان خيرا أو شرا. « و هي حقيقة لا يكون إيمان بغيرها »[4].ولذلك عده النبي صلى الله عليه وسلم الركن السادس من أركان الايمان، كما في حديث جبريل، وغيره من الاحاديث الصحيحة.

إن الإيمان بالقضاء و القدر ، و إدراك حقيقته ينشئ في النفس شعورا عظيما بهيمنة هذا النظام على الحياة والأحياء، و على الدنيا والآخرة، ذلك أنه ما من صغيرة ولا كبيرة، وما من جليل ولا حقير ، وما من خير ولا شر إلا و هو يحدث ضمن نظام القضاء و القدر ، لا يند عن ذلك شيء أبدا. « فالقدر هو المسيطر على كل حركة فيها، وإن جرت وفق السنة التي أودعها الله اياها »[5]. لأن قدر الله هو الذي ينفذ ما يقع في الحياة ، والكون كله، سواء كان سنة ثابته، أو معجزة خارقة . وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم نفوذ القدر المطلق وسيطرته الكاملة، فقال :((كل شيء بقدر حتى العجز و الكيس، أو الكيس و العجز))[6].

1- المصدر نفسه ، 2892/5

2- المصدر نفسه ، 3601/6

3- ابن حجر ، فتح الباري ، 477/11

4- سيد قطب ، المصدر السابق ، 3588/6

5- المصدر نفسه ، 1120/2

6- الفوزي ، شرح السنة ، 134/1 كتاب الايمان باب الايمان بالقدر. الموطأ في القدر. ومسلم في القدر باب كل شئ يقدر

و قال صلى الله عليه وسلم مبينا هيمنة القدر في الدنيا و الآخرة : ... فو الله إن أحدكم- أو الرجل- ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه و بينها غير باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها. و إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه و بينها غير ذراع أو ذراعين فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها>>[1].فهذه النصوص الشرعية الصحيحة تبين لنا مدى إحاطة الله بخلقه، فلا يقع شيء إلا بإذنه، و وفق ما قضاه الله تعالى و قدره، قبل أن يخلق الخلق. و يبين سيد قطب حقيقة الايمان بالقضاء والقدر وهيمنته بقوله :<< حركة هذا الكون كله بأحداثها و وقائعها وتياراتها مقدرة مدبرة صغيرها وكبيرها. كل حركة في التاريخ ككل انفعال في نفس الفرد، ككل نفس يخرج من صدر! إن هذا النفس مقدرفي وقته، مقدر في مكانه ، مقدرفي ظروفه كلها ، مرتبط بنظام الوجود و حركة الكون ، محسوب حسابه في التناسق الكوني >>[2]. وإذا كان المؤمن يعتقد بهذا اعتقادا جازما، فإنه يعتقد مع ذلك أن القدر سر الله المحجوب، ومحاولة الاطلاع عليه عبث و خطأ.

ب - كراهية الخوض في القدر :

إن سيد قطب، وسيرا على منهاجه في العقيدة، القائم على الاتباع و التفويض في الأمور الغيبية كلها يرى بأن الخوض في مسألة القدر عبث وخطأ، فهو عبث لأنه محاولة فاشلة، وجهد ضائع، لا يجني منه الانسان إلا خيبة الأمل، و هو خطأ لأن العقل لم يؤت من الطاقة ما يخترق به حجاب الغيب، ليطلع على سر الله في تنظيم أمر الكون، و لذلك كان سيد ينحي باللائمة على علماء الكلام الذين أكثروا الخوض في هذه المسألة على غير طريقة القرآن و منهجه. يقول سيد :<< و الذين أثاروا قضايا القضاء والقدر ، والجبر و الاختيار ، وإرادة العبد و كسبه ليجعلوا منها مباحث لاهوتية، تخضع لما تتصوره عقولهم من فروض وتقديرات، إنما يجانبون منهج القرآن في عرض هذه القضية في صورتها الواقعيةالتقريرية البسيطة، التي تقرر أن كل شيء إنما يكون بقدر من الله>>[3]. و الذين بحثوا قضية القدر من خلال المنهج العقلي، واعتبروها مشكلة، إنما ذهبوا هذا المذهب يوم أخذوا آيات القرآن الواردة في هذا الموضوع مجزأة، و منفصلة عن بعضها، و عن سياقها، فأوقعهم ذلك في التناقض. فأرادوا حله بطريقة جدلية، و منهج عقلي، و هو الامر الذي حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه،

1 - ابن حجر ، فتح الباري ، 477/11 البخاري في أول كتاب القدر . ومسلم في أول كتاب القدر

2 - سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 3440/6

3 - المصدر نفسه ، 1066/2

لما روى أبو هريرة قال : << خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم و نحن نتنازع في القدر ، فغضب حتى احمر وجهه كأنما فقئ في وجهه حب الرمان فقال : أفبهذا أمرتم ، أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه >> [1]. ولهذا اعتبر أهل السنة و لجماعة القدر سرا من اسرار الله << لايجوز الخوض فيه، والبحث عنه بطريقة العقل>>[2]. و إنما هو عقيدة تقوم على التسليم لله تعالى. وبهذا يتضح لنا مدى التزام سيد بمنهج السلف ، والتزامه بالقواعد المنهجية في فهم و صياغة العقيدة الإسلامية. و كما يكره لنا الخوض في القدر ، يكره لنا الاحتجاج به أيضا.

جـ - الاحتجاج بالقدر :

إن موضوع القضاء وا لقدر بقدر ما هو مسألة غيبية ، فهو كذلك مسألة عملية ، ترتبط أشد الارتباط بحركة الانسان. وعلى حسب فهمه لهذا الموضوع، و إدراكه لأبعاده، تتحدد طبيعة نشاطه، إما أن يجتهد ، ويبذل كل ما في وسعه لعمارة الارض . وإما أن يكسل و يتواكل ، والأمر كذلك بالنسبة لعمل الآخرة . و يوم أن خالف المسلمون توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم، و فعلوا ما نهاهم عنه، من الخوض في القدر . ظهر من يحتج لقعوده بالقدر ، بل من يحتج لمعاصيه ومنكراته التي يأتيها بالقدر .وأصبح القدر كلمة حق يراد بها باطل، و وجد أصحاب هذا المذهب في بعض الآيات والاحاديث سندا لمقولتهم. والحقيقة التي نفهمها من ديننا، ونحسها في أنفسنا أن القدر لا يعني الجبر ، و إلا كان الأمر والنهي الشرعيان عبثا. والله إنما أمرنا و نهانا لعلمه بقدرتنا على الفعل و الترك.<< و قد أجمع أهل الاسلام على أن القدر يتعزى به أهل المصائب و لا يحتج به في المعائب >>[3]. ومذهب سيد في هذه المسألة هو مذهب أهل السنة و الجماعة. و هو يبين ذلك بقوله : << فإذا قيل : إن إرادة الله تدفع الانسان دفعا إلىالهدى أو الضلال . لم تكن هذه هي الحقيقة الفعلية . وإذا قيل : إن إرادة الانسان هي التي تقرر مصيره كله لم تكن هذه هي الحقيقة الفعلية كذلك ! إن الحقيقة الفعلية تتألف من نسب دقيقة – وغيبية كذلك– بين طلاقة المشيئة الالهية و سلطانها الفاعل، و بين اختيار العبد و اتجاهه الارادي. بلا تعارض بين هذه و تلك و لا تصادم >>[4]. و قد نقلنا هذا النص على الرغم من طوله لأنه يوضح جيدا مذهب سيد المتفق تماما مع مذهب أهل السنة والجماعة، القائم على أن مشيئة الله وقدره محيطان بالبشر ، ومرد الامر كله لله ، وأن هذه المشيئة

---

1 ابن الأثير ، جامع الأصول ، 10/528، 529 وأخرجه الترمذي في أول كتاب القدر

2 سيد قطب ، الظلال السابق ، 144/1

3 ابن القيم ، إغاثة اللهفان على المصائد ، ص 281

4 سيد قطب ، الظلال السابق ، 1204/3

5 و الأدلة على ذلك من القرآن والسنة كثيرة ، انظر على سبيل المثال ص 12

المطلقة، والقدر النافذ اقتضيا ابتلاء البشر بقدر من حرية الاختيار ،>> فمن استخدمه في الاتجاه القلبي إلى الهدى والتطلع إليه والرغبة فيه- وإن كان لا يعلم حينئذ أين هو - فقد اقتضت مشيئة الله أن يأخذ بيده ويعينه ويهديه إلى سبيله . ومن استخدمه في الرغبة عن الهدى والصدود عن دلائله وموحياته ، فقد اقتضت مشيئة الله أن يضله >>[1]. و يؤكد سيد هذه الحقيقة، وهذا المذهب مرة أخرى بقوله : << إن اتجاه الانسان على هذا النحو أو ذاك داخل في حدود فطرته التي خلقه الله عليها ، والتي جرى بها قدر الله فكانت على ما كانت عليه ، وأن اتجاهه على هذا النحو أو ذاك تترتب عليه نتائج وآثار في الدنيا والأخرة يجرى بها قدر الله أيضا فتكون. وبهذا يكون مرجع الأمر كله إلى قدر الله>>[2]. إن كثيرا من الناس يعلقون أخطاءهم و معاصيهم على مشجب القدر ، فيعتنقون بذلك عقيدة المشركين الذين عبدوا الأصنام، وتعللوا بالقدر ، فقال تعالىحاكيا ما كان منهم :﴿ **وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون.** ﴾ الزخرف 19. ويعلق سيد على سخفهم هذا، و وقاحتهم تلك بقوله : << و هذا القول احتيال على الحقيقة، فإن كل شيء يقع في هذا الوجود إنما يقع وفق مشيئة الله . هذا حق . ولكن من مشيئة الله أن جعل للانسان قدرة على اختيارالهدى اواختيار الضلال. وكلفه اختيار الهدى ورضيه له. ولم يرض له الكفر والضلال.>>[3] ومع ايمان أهل السنة والجماعة بأن المعاصي تقع بقدر من الله تعالى فهم يقولون :<< يكره القول في الكفروالمعاصي إنها بقضاء الله و قدره و إرادته>>[4]. وذلك تأدبا منهم مع الله تعالى.

إن قدر الله تعالى وإن كان مسيطرا ومهيمنا على حياة البشر والكون كله . فإن الانسان ليس ريشة في مهب الريح كما يقول الجبريون ، و لكن ذو إرادة و حرية واختيار ، ومن ثم فهو مسؤول عن أفعاله ، وإن كانت هذه الأفعال وقعت بقدر الله وقدرته ، سواء الخير و الشر. يقول سيد :<< إن الله هوالفاعل الاول ، والفاعل الواحد ، لكل ما يقع في الكون ، وما يقع للناس ، وما يقع من الناس . فالناس يملكون أن يتجهوا وأن يحاولوا . ولكن تحقق الفعل - أي فعل - لا يكون إلا بإرادة من الله وقدره>>[5].

1- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 1186/3

2- المصدر نفسه ، 1066/2

3- المصدر نفسه ، 3181/5

4- الماتريدي ، كتاب التوحيد ، ص 45

5- سيد قطب ، المصدر السابق ، 718/2

ولا يختلف قول سيد في هذه المسألة مع قول أهل السنة والجماعة أن الافعال هي للانسان على الحقيقة، ولكنها مفعولة لله تعالى << فالعبد فعلها حقيقة ، والله خالقه وخالق ما فعل به من القدرة والارادة ، وخالق فاعليته >>[1]

فالعبد إذا يملك أن يباشر الفعل ليتحقق بإذن الله و قدره.

إذا كان سيد قطب يقول بأن الله هوالفاعل الحقيقي لكل ما يقع، فإنه لا يعفي الانسان من اتخاذ الاسباب، بل يرى الأخذ بها واجبا و طاعة . يقول سيد : << والمسلم يأخذ بالأسباب ، لأنه مأمور بالأخذ بها، ويعمل وفق السنة ، لأنه مأمور بمراعاتها، لا لأنه يعتقد أن الاسباب والوسائل هي المنشئة للمسببات والنتائج . فهو يرد الأمر كله إلى خالق الأسباب، و يتعلق به وحده من وراء الاسباب>>[2] . إن التعلق بالله والتوكل عليه وحده لا يكون من دون الأخذ بالأسباب لأن ذلك يعتبر تواكلا وسلبية ، وتركا لسنة الله الجارية في الكون. ولما سأل بعض الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك العمل و الاعتماد على ما كتب في مقادير هم قال صلى الله عليه وسلم : لا. ولكن اعملوا[3]. إن الاسباب لا تعمل بمفردها ، ولا بقوتها الذاتية ولكن بأمر الله لها ، فهي منفعلة وليست فاعلة << و المؤمن يأخذ بالاسباب، لأنه مأمور بالأخذ بها و الله هو الذي يقدر آثارها و نتائجها>>[4].

كان من الأمور التي شغلت بال الناس قديما وحديثا أمر الرزق والمعيشة. ولما علم الله تعالى انشغال الانسان بهذه المسألة واهتمامه بها أكثر من أي مسألة أخرى، أكد له أكثر من مرة أن الرزق من عند الله تعالى، وأنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها و أجلها، و المؤمن يجزم بذلك يقينا، و مع ذلك يأخذ بالأسباب ، كما تأخذ بها الأطيار ، تغدو خماصا ، وتروح بطانا . يقول سيد قطب شارحا هذه الحقيقة : << إن لكل مخلوق رزقا . هذا حق ، و هذا الرزق مذخور في هذا الكون ، مقدر من الله في سننه التي ترتب النتائج على الجهد . فلا يقعدن أحد عن السعي و قد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة >>[5]. إن هناك عشرات النصوص التي يبين فيها سيد قطب موقفه من الأسباب ، وهو موقف ينسجم تمام الانسجام ، بل يتطابق كل التطابق مع مذهب أهل السنة والجماعة ، ولولا مخافة الإطاله لأوردنا المزيد . ونختم حديثنا عن هذه المسألة بمسألة أثارها المتكلمون والفلاسفة ، وهي كيفية اتصال نشاط الانسان بمشيئة الله ، ما دام الانسان يأخذ بالسبب ، ويباشر العمل ، والله تعالى هوالذي يوقع الفعل

---

1 - ابن القيم ، شفاء العليل ، ص 130

و انظر ، الأشعري ، الإبانة ، ص 100

2 - سيد قطب ، خصائص التصور الإسلامي و مقوماته ، ص 120

3 - أنظر البغوي ، شرح السنة ، 131/1 132

4 - سيد قطب ، المصدر السابق ، 13/1

5 - المصدر السابق ، 1932/4

وبقدره. وهي مسأله بقدر ما تدل على حراءة عقلية في غير موضعها، تدل أيضا على ترف عقلي كبير، وإلا كان الأولى بالعقل البشري أن يقف عند حدوده، ويكتفي بميدانه. وقد أشار سيد إلى هذه المسألة من غير أن نستوقفه كثيرا، لاعتقاده أن الغيب غيب، والعقل قاصر عن إدراك كنهه، وكشف أسراره. يقول سيد قطب: << فالتفكير البشري المحدود بحدود الزمان و المكان، وبالتأثيرات الوقتية والذاتية. ليس هو الذي يدرك مثل هذه النسب وهذه الكيفيات، وليس هو الذي يحكم في هذه العلاقات والارتباطات بين المشيئة الالهية والنشاط الإنساني. إنما هذا كله متروك للارادة المدبرة المحيطة و العلم المطلق الكامل>>[1]. وهذا الكلام هو تعبيرجازم عن مدى التزام سيد بقواعد المنهج السلفي القائم على التفويض والتسليم في الأمور الغيبية، ومنها العلاقة بين المباشرة البشرية والتقدير الإلهي. وهو موقف ليس سببه العجز ،بل الادراك الجيد لحدود العقل البشري و طاقاته.

ان موقف سيد من القضاء والقدر لا يتضح أكثر، ويأخذ شكله النهائي، دون الحديث عن العلاقة بين السنن الكونية الثابتة ومشيئة الله المطلقة.

د – بين المشيئة المطلقة و الناموس الكوني الثابت :

هناك مشيئة إلهية مطلقة، وهناك سنن كونية ثابتة. قال تعالى:« **إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا. و ما تشاءون إلا أن يشاء الله...**» الانسان 30.29 . وقال عزمن قائل :« **لله الامر من قبل و من بعد و يومئذ يفرح المومنون. بنصر الله ينصر من يشاء و هو العزيز الرحيم** » الروم03-04 . ففي هذه الآيات وغيرها من النصوص الشرعية نجد القرآن الكريم والحديث الشريف يردان الأمر كله لله، ولمشيئة الله المطلقة. و مع ذلك فهما يقران بالسنن التي تنظم حياة الانسان و حركة الكون. فالنار تحرق، والماء يروي، والضرب في الارض يجلب الرزق، والمعادن تتمدد بالحرارة. والنظر ينتج رؤية وهكذا. ولكن هذه السنن كلها تجري في إطار مشيئة الله المطلقة، بل هي من مشيئة الله، لا تختلف معها ولا تناقضها. يقول سيد : << هناك ناموس ثابت، وسنن حتمية، وهناك وراء الناموس الثابت، والسنن الحتمية إرادة فاعلة ومشيئة مطلقة وهناك وراء الناموس والسنن والارادة والمشيئة حكمة مدبرة يجري كل شيء في نطاقها>>[2].

---

1 – سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي و مقوماته، ص 124

2 – سيد قطب، في ظلال القرآن، 514/1

يخطىء من يظن من الناس أنه ما دام العلم قدتوصل إلى معرفة الكثير من السنن الكونية، فإن ذلك يخرجها عن إطار المشيئة الإلـهية، فإذا وقع زلزال فليس الأمر إلى مشيئة الله، و لكن إلى توفر بعض الظروف الطبيعية التي أدت بطريقة حتمية ميكانيكية إلى حدوث ما لا بد أن يحدث. و إذا أصابت السنون الناس، فليس الأمر كذلك إلى المشيئة الالـهية، و لكن لأن السماء شحت، والحرارة ارتفعت، و غير ذلك من التعليلات والتبريرات. إن المؤمن لا ينكر التعليل،ولا يغفل قيمته العلمية ، ولكنه يجعله في إطار مشيئة الله تعالى. يقول سيدقطب مبينا هذا الموقف العلمي الإيماني في الوقت نفسه :<< فالمشيئة الالـهية طليقة، لا يرد عليها قيد ما، مما يخطر على الفكر البشري جملة، وهي تبدع كل شيء بمجرد توجهها إلى إبداعه . وليست هناك قاعدة ملزمة، و لا قالب مفروض تلتزمه المشيئة الالـهية حين تريد أن تفعل ما تريد>>[1]. << و في الوقت ذاته شاءت الارادة الالـهية المدبرة، أن تتبدى للناس – عـــادة – في صورة نواميس مطردة، وسنن جارية، يملكون أن يرقبوها، و يدركوها، و يكيفوا حياتهم وفقها، و يتعاملوا مع الكون على أساسها>>[2]. وذلك مظهر من مظاهر رحمة الله بالانسان، الذي جعله خليفة في الارض و أسند إليها أمر عمارتها. وهو مطالب بمعرفة هذه السنن و الأخذ بها لتحقيق مراد الله تعالى، هكذا فهم الصحابة هذه الحقيقة ، وعلى هذا الأساس تعامل سلفنا مع الحياة والكون ، فأبدعوا حضارة لم يشهد التاريخ لها مثيلا إلى يومنا هذا. << و لذلك لم يكن في العقلـية الاسلامـية تناقض بين السببـية و البحث عنها و العلم بها من جهة، والايمان بالله الخالق من جهة أخرى>>[3]. لأن نظام السببية يعمل بإذن الله تعالى،إن شاء أمضاه، وإن شاء أبطله كما أبطل إحراق النار ، وصيرها بردا و سلاما على إبراهيم ، وكلما فهم المسلم عقيدة الإيمان بالقضاء و القدر ، على النحو الذي بيناه كلما عادت عليه بالآثار الطيبة، و المنافع الجمة. و صان طاقته العقلية والنفسية من أن تتبدد.

هـ- الأثـر التـربـوي لـعـقـيدة الـقـضـاء و الـقـدر:

1- المعرفة بالله تعالى :

إن عقيدة القضاء والقدر تعرفنا بعلم الله الشامل، وإرادته النافذة ، ومشيئته المطلقة ، فهوالمقدر لكل شيء ، والمدبر له، والمتصرف فيه، وكل ما فيه ينطق بالقصد والتدبير ، وليس أمرمن أموره متروك لُقَىً أوللمصادفة.

---

1 - سيد قطب ، المصدر السابق ، ص 117

2 - المصدر نفسه ، ص 118

3 - محمد المبارك ، نظام الإسلام : العقيدة و العبادة ، ص 48

يقول سيد قطب: و هذا الكون و ما يقع فيه من أحداث و أطوار منذ نشأته إلى نهايته كائن في علم الله جملة لا حدود فيه و لا فواصل من زمان أو مكان . و لكل حادث موضعه في تصميمه الكلي المكشوف لعلم الله. »[1]

و إدراك هذه الحقيقة يزيد الانسان معرفة بربه و تقديسا له. فالملك كله لله، و الأمر كله للـه. قال تعالى: « **قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء و تنزع الملك ممن تشاء و تعز من تشاء و تذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير** » آل عمران 26.

2- التسليم و التفويض :

إن علم الانسان بأن الأمور خيرها و شرها تجرى بقضاء من الله وقدر . و أنه لا راد لقضاء الله و قدره، يجعله يسلم الأمر لله تعالى. فإذا جاءه الخير شكر ، و إذا جاءه الشر صبر ، إن العباد ضعاف محاويج << و الله يعلمهم في هذا القرآن أن كل شيء بقدر ليسلموا الامر لصاحب الأمر ، و تطمئن قلوبهم وتستريح ويسيروا مع قدر الله في توافق و في تناسق، و في أنس بصحبة القدر >>[2]. ولذلك كان المؤمن أثبت من الرواسي أمام أحداث الحياة، و تقلبات الزمان ما كان منها خيرا، و ما كان منها شرا، و أما غيره فهو شديد الهلع.

3- صدق التوكل على الله:

والتوكل الصادق يعني الاعتماد على الله وحده ، لعلم الإنسان أن الأمر كله له ، ولكن مع الأخذ بالاسباب. لأن الأخذ بها طاعة لله، وإن كانت لا تغني عن الله و إرادته شيئا. << و متى تحرر الانسان من ضغط الأسباب لم يعد هناك محل فيه للتوكل على غير الله >>[3]. إن الخروج إلى الجهاد لايقرب الأجل، والقعود عنه لا ينسئ فيه. كما أن الإنفاق في سبيل الله لا يفقر الانسان ، والشح لا يزيده ثراء . والله تعالى أمرنا بالأخذ بالأسباب ، وكلف المؤمن أن يدفع أقدار الشر بأقدار الخير . يدفع الجهل بالتعلم، والمرض بالتطبب والجوع بالأكل ، والعدو بالجهاد، وهكذا ، لأن << قدر الله في الناس يتحقق من خلال إرادة الناس و عملهم في ذات أنفسهم، وما يحدثونه فيها من تغييرات >>[4]. وصدق الله القائل« **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم...** » الرعد 12.

هذه بعض الآثار التي ينتجها الايمان بقضاء الله وقدره . فتدفع الانسان إلى العمل دفعا ، وإلى التعرف على الأسباب والأخذ بها لتحقيق عبوديته لله تعالى من خلالها . وإذا كان الفلاسفة والمتكلمون قد جعلوا من القضاء

1- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 3403/6

2- المصدر نفسه ، 3441/6

3- المصدر نفسه ، 1477/3

4- سيد قطب ، خصائص التصور الإسلامي و مقوماته ، ص 123

والقدر مشكلة عويصة، فإنها من خلال النصوص الشرعية ، واستنادا إلى المنهج السلفي، لا تعتبر مشكلة أبدا. وإنما المشكلة في دراسة هذه القضية وأضرابها من خلال منهج يختلف وطبيعتها .

بهذا نكون قدانتهينا من بيان أراء سيد قطب العقدية، والتي كانت كلها متطابقة مع مذهب أهل السنة والجماعة، ومبنية على القواعد التي أسس عليها منهجه السلفي.

في ختام هذا الفصل نريد أن نبين مسألة ذات بال، و هي أن العقيدة الاسلامية إذا كانت عقيدة غيبية -على الرغم من أبعادها الواقعية، إن على مستوى النفس أو المجتمع- فإن المتكلمين صيروا منها عقيدة عقلية نظرية ، ذلك أنهم اتخذوا المنطق منهجا والعقل وسيلة لدراسة كل القضايا العقدية ، حتى تلك التي هي غيبية محضة، كمسألة الذات والصفات ، هل هما شيء واحد ، أم أن الصفات زائدة على الذات. وهو سؤال ما كان ينبغي أن يطرح، وما كان ينبغي للمتكلمين أن يبذلوا جهدا في محاولة معرفة حقيقة مسألة لا طاقة للعقل بها ، كما اختلفوا أيضا حول رؤية الله تعالى، وإمكانية ذلك ، وكيفيته ، إلى غير ذلك من المسائل من هذا القبيل. ولو فرضنا-جدلا-أن الانشغال بمثل هذه القضايا سائغ ومقبول فليس بالمنهج و الكيفية التي تم بها تناولها. لأن النتيجة التي انتهى إليها المتكلمون - في كثير من الاحيان - هي الاختلاف، وربما القول على الله بغير علم، زيادة على أن هذه القضايا وكيفية دراستها لم تكن لتلمس النفس أو الواقع البشري لصياغته وفق التصور الاسلامي الصحيح.

إن المتكلمين - وهم يتناولون قضايا العقيدة بهذا المنهج - أغفلوا مسألة ذات بال و هي الغيب. هذا الغيب الذي دعا جميع الانبياء إلى الايمان به ، و جاء القرآن الكريم ليؤكد لنا أنه حقيقة واقعة . وهو الأمر الذي جعل سيد يركز عليه تركيزا كبيرا،بإقامة الأدلة على وجوده، و ينتهي إلى أنه الحقيقة المستيقنة[1]. وأن الكفر به ونكرانه هو الجهلية المطبقة. لقد أهمل المتكلمون هذه المسألة، كما أهملوا بعض جزئياتها كالإيمان باليوم الآخر وبيان قيمته الإيمانية، وأهميته في حياة الفرد والمجتمع. وأما حديثهم عن القضاء والقدر، باعتباره مسألة غيبية، فقد جعل منها مشكلة عويصة لا يمكن حلها. والسبب في ذلك هو مجانبتهم لمنهج القرآن واعتمادهم على منهج ومنطق اليونان.

---

1 أنظر ، سيد قطب ، المصدر السابق ، 1121/2

الفصل الثالث

قضـــايا عقديـــــة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمتاز العقيدة الاسلامية – مما تمتاز به – بالشمول، فهي لا تكتفي بإعطائنا التصور الصحيح عن الالـه فحسب، ولكن عن الانسان والكون والحياة كذلك. وقدكان حديث القرآن الكريم عن هذه القضايا طويلا وعميقا. و هوالأمر الذي اسوقف سيد قطب، فخصص لهذه الموضوعات حيزا كبيرا في :" خصائص التصورالاسلامي و مقوماته"، وفي " في ظلال القرآن".

أولا : الانـــسـان :

1- حـقيقـة الانـسـان و طـبيعتـه :

الانسان مخلوق من حيث الأصل من تراب، و متكاثر عن طريق التناسل. قال تـعالى : « **يـأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة...**»الحج 05 .فهذه الآية تقرر أن << الانسان ابن هذه الأرض من ترابها نشأ ، و من ترابها تكون ، و من ترابها عاش. و ما في جسمه من عنصر إلا له نظيره في عناصر أمه الارض، اللهم إلا ذلك السر اللطيف الذي أودعه الله إيـاه و نفخه فيه من روحـه >>[1]. غير أنه – كما قلنا متكاثر عن طريق التناسل << و المسافة بين عناصر التراب الأولية الساذجة والنطفة المؤلفة من الخلايا المنوية الحية ، مسافة هائلة ، تضمر في طياتها السر الأعظم ، سر الحياة>>[2]. و إذا كان الانسان مخلوقا من تراب، فإن النفخة الالـهية هي التي جعلته إنسانا سويا صالحا لأداء الوظيفة التي خلقه الله من أجلها. فالروح هي التي << تنـقل هذا التكوين العضوي الوضيع إلى ذلك الافق الانساني الكريم ، منذ بدء التكوين ، و تجعله ذلك الخلق المتفرد الذي توكل إليه الخلافة في الارض >>[3]. وهكذا نجد الانسان يجمع في تكوينه ما تفرق في الكون فهو من الارض ، يشارك النبات في نموه ، والحيوان في غرائزه، والملائكة بالنفخة العلوية ، والشياطين بقابليته للانتكاس والمعصية . فكان بذلك خلقا متفردا.

هذاالتركيب المتنوع والمتناقض،هوالذي يجعل من الانسان إنسانا. فثقلة الطين تجعله خاضعا لضرورات الطين، من طعام وشراب وشهوة و من ضعف وقصور . والنفخة العلوية تجعله أهلا للاتصال بالله ، وتجاوز نطاق العالم المادي الضيق، و الترفع عن ضروراته.

1- 2- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 2409/4

2- المصدر نفسه ، 2138/4

ولا يكون الإنسان إنسانا ما لم يوفق بين متطلبات الروح و ضرورات الجسد ، وأي محاولة لمصادرة الروح وأشواقها، أو الجسد وحاجاته هي مصادرة للانسان ذاته ، وإذا كانت المذاهب المادية تريد أن ترتد بالانسان إلى درك الحيوانية ، فإن الاسلام يطلب منه أن يحقق ذاته من خلال الموازنة بين عنصريه . يقول سيد قطب : << والتوازن بين خصائص العناصر الطينية فيه والعناصر العلوية هو الافق الأعلى الذي يطلب إليه أن يبلغه، وهو الكمال البشري المقدر له >>[1]. ولقد كان رسل الله الكرام يزاولون بشريتهم بكل متطلباتها، وهم في الوقت ذاته على اتصال بالعالم العلوي،فمثلوا بذلك الكمال البشري في أعظم وأروع صوره.

وحتى يتم تكاثره ، وبقاء نوعه إلى أجل معلوم ، جعل الله الانسان ذكرا وأنثى ، ليحافظا معا على بقاء النوع الانساني. قال تعالى : « **يـأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة و خلق منها زوجها و بث منهما رجالا كثيرا و نساء**...» النساء 01. و هذه الآية تتضمن حقائق كثيرة، ولعل هنا مجال ذكر إثنين منها . أما الأولى : فهي أن الناس جميعا من أصل واحد. و كل أفراد هذا النوع خلقوا من نفس واحدة . وإدراك هذه الحقيقة من شأنه أن يقضي، أو على الأقل يقلص في الحس من أثر << كل الفروق الطارئة ، التي نشأت في حياتهم متأخرة، ففرقت بين أبناء النفس الواحدة، و مزقت وشائج الرحم الواحدة >> . سواء في ذلك الفروق التي عرفتها الجاهليات القديمة ، أو التي تقوم على أساسها الجاهليات الحديثة ، كالجنس و اللون و غيرهما.

وأما الحقيقة الأخرى،- و هي جزء من الأولى - هي أن البشرية في جاهلياتها المختلفة كانت تنظر إلى المرأة نظرة ازدراء و احتقار ، و امتهان لكرامتها، حملها ذلك على وأد البنات، أو حبسهن- على الأقل - في البيوت. أو النظر إلىالمرأة على أنها شيطان . فجردتها بذلك من كل الخصائص الانسانية. فلما تولت الحضارة الغربية الحالية زمام قيادة البشرية، أرادت أن ترفع عن المرأة الغبن و الحيف اللذان لحقاها << فأطلقت للمرأة العنان ، ونسيت أنها إنسان خلقت لانسان، و نفس خلقت لنفس و شطر مكمل لشطر ، وأنهما ليسا فردين متماثلين>> .

وهي النتيجة الحتمية التي لابدأن تصل إليها البشرية كلما أعرضت عن شرع من قال :« **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** »الملك 14. والقائل:« **يـأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة...**»النساء 01.

ان المرأة في التصور الاسلامي أخت الرجل، لا فرق بينهما من حيث الأصل والطبيعة الانسانية. كما لا فرق بينهما من حيث الجزاء على العمل، قال تعالى :« **فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى بعضكم من بعض...** » آل عمران 195 . هكذا يسوي الاسلام بين الرجل والمرأة في الانسانية، و يجعل النساء شقائق الرجال. و لا يفرق بينهما إلا فيما يجب فيه التفريق، و إذا فضل الرجل على المرأة في بعض المواضع ، أو أعطاه أكثر مما يعطيها ، فليس ذلك تفضيلا جنسيا ، ولكن تفضيلا وظيفيا. وكذلك الأمر بالنسبة لتفضيل المرأة أحيانا. يقول سيد:« إن المنهج الاسلامي يتبع الفطرة في تقسيم الوظائف،وتقسيم الأنصبة بين الرجال والنساء ، والفطرة ابتداء جعلت الرجل رجلا والمرأة امرأة ، وأودعت كلا منهما خصائصه المميزة »[1]. و فيما سوى ذلك فالمرأة والرجل متساويان. بل هما – كما يقول سيد – نفس واحدة لها شطران. أحدهما ذكر والآخر أنثى. لقد أعطى الاسلام للمرأة كامل الحقوق الانسانية ، وسوى بينها و بين شطرها الآخر في حق التملك و الكسب، و في حق التقاضي، وجميع الحقوق المدنية.

ان المدنية الغربية التي ترفع اليوم شعار تحرير المرأة، و تزعم أنها أعطتها من الحقوق والحريات ما لم يعطها أي دين وأي منهج آخر .هذه المدنية تسلب المرأة شخصيتها حين تلحقها باسم زوجها لا باسم أبيها أوعائلتها وهو نوع من الرق في صورة متحضرة[2]. والمدنية الغربية ، والمفتونون ببريقها يرون في تكليف المرأة بوظيفة الحمل و تربية النشء ورعايته ،وإعداده ليكون صالحا لوظيفة الخلافة، التي شرفه الله بالقيام بها، يرون في ذلك إهانة للمرأة وانتقاصا من قدرها ، بل يرون ضرورة مزاحمتها للرجل في ميادين الانتاج المادي ، وهم بهذا التفكير يجعلون الانتاج و المادة مفضلا و مقدما على الانسان و تربيته. و تلك هي النتيجة الحتمية التي تنتهي إليها كل فلسفة و كل منهج لا يستمد تصوره من العقيدة الاسلامية . لذلك تقبل المرأة التي تشربت مثل هذه الأفكار المنحرفة أن تضحي بأبنائها و تربيتهم و رعايتهم في سبيل منصب الشغل . وقد زود الله تعالى المرأة بخصائص الرقة و العطف و غيرهما من الخصائص الضرورية ، للقيام بالمهمة الشاقة والخطيرة، مهمة إعداد الجيل. كما زود الرجل بخصائص الخشونة و الصلابة وغيرهما ليتقوى بها على الضرب في الأرض. و هكذا يتكامل دور المرأة و الرجل في البناء الأسري بصفة خاصة، و البناء المجتمعي بصفة عامة.

---

1 المصدر نفسه ، 643/2

2 المصدر نفسه ، 646/2

هناك ملاحظة يجب إبداؤها ، وهو أن المرأة المسلمة عرفت في العهود الأخيرة وضعا مزريا جدا. وهو وضع من صنع التقاليد البالية التي ألبست لبوس الإسلام، والإسلام منها و من أصحابها بريئ.

2- مقومات الانسان :

و نعني بها الخصائص والمميزات التي تميز الانسان عن غيره من المخلوقات . وهي ما يعبر عنها المناطقة بالماهية ، و هي مجموعة الصفات المعقولة دون المشخصة . فالانسان يتقوم من مجموعة عناصر جعلت منه إنسانا، و أهلته لما لم يتأهل له غيره من المخلوقات. فكان الخليفة في الارض دون سواه، وأول تلك المقومات الروح، وهي ذلك السر الرباني الذي نفخه الله تعالى في الانسان، وأخبربذلك في قوله- وهو يخاطب الملائكة- : « **فإذا سويته و نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين** » ص 71. و إذا كان الانسان إنسانا بروحه، فإن المذاهب المادية لماعجزت عن إدراك هذا السر بحواسها، و لم تكتشفه في مخابرها ، نفت وجوده ، واعتبرته خرافة دينية،والحال أنه سر الحياة، الذي رفع الانسان عن أصله الطيني، وماذا << يبلغ الانسان لتسجد له ملائكة الرحمان إلا بهذا السر اللطيف العظيم>>[1]. وها هو الانسان يرتد إلى الدركات السفلى، بإهماله لروحه واعتنائه بالجسد وحده ، وذلك بوحي المذاهب المادية.

إن الإنسان كما يتقوم من الروح ، فهو يتقوم أيضا من الفطرة ، الشاهدة بوحدانية الله تعالى . و سواء اعترف الانسان بهذه الفطرة واستجاب لندائها ، أو تنكر لها، كما قد يتنكر لروحه، فإن الفطرة حقيقة مستقرة يخرج بها كل مولود إلىالوجود، كما دل على ذلك القرآن الكريم والسنة النبوية[2]. فهذا العنصر الماهوي موجود في كل أفراد النوع بالقوة ، وأحاد هذا النوع يملكون بإرادتهم واختيارهم أن يخرجوه إلىحيز الفعل . و في الحالين فشهادة التوحيد المستقرة في فطرنا عنصر أكيد وأصيل من عناصر ماهيتنا. وإخراجها إلى حيز الفعل يترتب عليه تكريم الله لهذا الانسان ، و جحودها و التنكر لها يترتب عليه مسخ الله لجاحدها ، وإن أبقاه في صورة إنسان، فهو في ميزان الحق أخس من الحيوان.

بالإضافة إلى ذلك ، فإن الله تعالى ميز الانسان بالعقل، و جعله قوة واعية يميز بها الانسان بين الحق والباطل ، و النافع و الضار . و جعله مناط التكليف. فإذا فقد الانسان عقله ، خرج عن كونه إنسانا. ولذلك كان من مقاصد

1- المصدر نفسه ، 3027/5

2- أنظر ، المصدر نفسه ، 1493/3 1494

الشريعة الحفاظ على العقل، و اعتباره من الضروريات . على أن العقل المعتبر في الاسلام هو العقل المهتدي بالشرع، و ليس مجرد العقل، وقد اعتبر القرآن الكريم الكفار عديمي العقول، مع أنهم غير مجانين، و لكن بسبب عدم اهتداء عقولهم بوحي السماء، واستجابتها لأمر الله . قال الله تعالى : ﴿ **و لا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون. إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون** ﴾ الانفال 20-21.

إذا كان الله تعالى قد امتن على الانسان بالعقل، فقدامتن عليه مع ذلك بوسائل أخرى للعلم والبيان. فأعطاه السمع و البصر و جعله ناطقا. قال تعالى- ممتنا علينا بذلك- :﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا و جعل لكم السمع و الابصار و الافئدة لعلكم تشكرون** ﴾ النحل 78. وإذا كانت كثير من المخلوقات، ومنها البهائم، تشارك الانسان في بعض حواسه، فهي مشاركة قاصرة و ضعيفة << فالبهائم لها أذان و لكنها لا تسمع إلا كلمات مبهمة، و لها لسان و لكنها لا تنطق أصواتا مفهومة >>[1]. و بذلك يكون الانسان هو الذي يتمتع بهذه الحواس على الحقيقة . ونحن إذ نتكلم على هذه الحواس فليس عن جانبها الفيزيولوجي ، ولكن عن الدور الايجابي الذي تلعبه في حياة الانسان.

إذا كان الله تعالى أخذ العهد على الانسان بالإيمان به و توحيده، **وهو في عالم الذر، فإنه تعالى جعله** قابلا للتعلم، بل أخبر أنه علم آدم الاسماء كلها ، و فضله بذلك على الملائكة ، قال تعالى : ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها** ... ﴾ البقرة 30. بمعنى أنه أعطاه إمكانية تسمية الأشياء لتتمايز . << و هي قدرة ذات قيمة كبرى في حياة الانسان على الارض، ندرك قيمتها حين نتصور الصعوبة الكبرى لو لم يوهب الانسان القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات، و المشقة في التفاهم و التعامل >>[2].

إن هذه الخصائص و المميزات ، والتي تشكل ما هية الانسان، تفقد قيمتها إذا فقد الانسان إرادته وحريته. و من هنا كان هذان المقومان من أهم مقومات انسانية الانسان . فالانسان وإن كان عبدا لله تعالى، فإنه كذلك يملك أن يصوغ نفسه، و يبني ذاته كما يشاء . و هذا ما عنته الوجودية حين اعتبرت الانسان مشروعا يتولى بنفسه عملية إنشاء نفسه . و لكنها بالغت حين جعلت الانسان قيما على نفسه ، و ألغت قيومية الله تعالى مطلقا. فقد شاء الله تعالى أن يبتلي الانسان بقدر من الارادة و الحرية، و أول ما

1- المصدر نفسه ، 1493/3

2- المصدر نفسه ، 57/1

تظهر فيه هذه الإرادة و الحرية أمر الاعتقاد. فالانسان ينبغي أن يختار عقيدته بنفسه وألا يكرهه أحد على الايمان أو عدمه. يقول سيد : قضية العقيدة كما جاء بها هذا الدين قضية اقتناع بعد البيان و الإدراك، و ليست قضية إكراه و غصب وإجبار .[1]. فإذا بلغت الدعوةالانسان، وأدرك حقيقة ما يدعى إليه فقد أقيمت عليه الحجة ، ويتحمل وحده عاقبة اختياره . فإن اختار الايمان فذلك خير، وإن اختار الكفر، فهو مسؤول عن سوء اختياره. ولكنه لا يرغم على الايمان . قال الله تعالى : **(لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ...** » البقرة 255. وإذا كانت السماوات والأرض على عظمتهما لا يملكان لأمر الله ردا، فإن الانسان يملك أن ينفذ أمر الله، كما يملك أن يرده. لا لأنه يعجز الله، و لكن لأن الله تعالى امتحنه بقدر من الإرادة الحرة . وهو في النهاية مسؤول عن اختياره . إن العقيدة ما لم تكن مؤسسة على الإقتناع، والاختبار الحر فإنها تفقد قيمتها وأثرها.

إذا كانت قيمة الإرادة والحرية تتجلى في اختيار الانسان لعقيدته ، فإنها تتجلى أيضا في فعله الحضاري، .. فالاسلام يعد الحرية الانسانية أساس كل انطلاقة حضارية،لأن التقدم الحضاري يفترض وجودالارادة الحرة التي تتعامل مع الحدث الحضاري[2]. والتاريخ يشهد أن الانسان متى منح الحرية أبدع ، و متى سلبت منه حريته ، و فقد إرادته، كلما شلت طاقاته عن الإبداع ، كما حدث لإنسان المجتمعات الشيوعية و الاشتراكية. على أن حرية الإنسان ليست حرية ذاتية ، كما يزعم بعض أصحاب المذاهب المادية[3] ، الذين يسولون للانسان أن يتمرد على الله تعالى ، مادام هذا الانسان حرا . كما أن الحرية المشروعة هي تلك التي تراعي حريات الأخرين وحقوقهم ، وهي الحرية المضبوطة بالضوابط الشرعية. والتي تمكن صاحبها من الانتصار على النفس والانطلاق من أسر الشهوة[4]. فيعيش بحريته عبدا لله ، لاعبدا لنفسه أو هواه.

هذه المقومات، هي التي منحت الانسان ميزة من دون سائر الكائنات الأخرى، وتلك هي إمكانية الترقي،وتطوير امكاناته و قدراته المختلفة، سواء كانت عقلية أو نفسية أو جسمية أو عملية . وتاريخ البشرية شاهدعلى تطور الإنسان من حال إلى حال، و من وضع إلى آخر . بينما بقي الحيوان هو هو لم يتغير، و لم يتطور. على أن الترقي الصحيح والنافع هوذلك الذي يكون في إطار المبادئ الاسلامية وأهدافها الكلية . فإذا كان الانسان الغربي

---

1 المصدر نفسه ، ا/ 291

2 سليمان الخطيب ، أسس مفهوم الحضارة ، ص 194

3 أنظر ، سعيد رمضان البوطي ، حوار حول مشكلات الحضارة ، ص 119

4 أنظر ، أحمد عمر ، اليوم الآخر في ظلال القرآن ، ص 51

اليوم قدارتقى وتطور ، فإنما إرتقاء ماديا، وعلى حساب الدين والأخلاق.أما الانسان العربي يوم ارتقى وتطورفإنما في اطار العقيدة الاسلامية، والمنهج الاسلامي الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم. فكان تطوره نعمة عليه وعلى الحياة والأحياء. على أننا- بطبيعة الحال -لانعني بكلمة التطوروالارتقاء ما تعنيه الداروينية ، لإيماننا أن الانسان خلقه الله تعالى يوم خلقه في أحسن تقويم . يقول سيد قطب: << وخاصية الارتقاء العقلي و الروحي خاصية إنسانية بحتة،لايشاركه فيها سائرالاحياء في هذه الأرض >>[1]. و إذا كانت هناك بعض أنواع الحيوانات من القرود و الأسماك و الطيور عندها نوع من الاستعداد للترقي، فهو ترق غريزي غير واع.

بالإضافة إلى كل هذه الخصائص، فالإنسان يمتاز أيضا ببعض القدرات والمدارك التي لا نعرف طبيعتها ، ولا حقيقتها، وتلك هي التي تؤهله للإتصال بالملإ الأعلى، ويتلقى بها وحي الله عز وجل. يقول سيد قطب : << ففي الانسان إذن طاقات مجهولة لا يعلمها إلا الله . والله أعلم حيث يجعل رسالته في الانسان ذي الطاقة التي تحمل هذه الرسالة >>[2].

إن هذه المقومات جميعا هبة من الله تعالى، و تفضل على هذا الانسان. و ليست هي من خصائصه الذاتية التي أنشأها لنفسه إنشاء. وإدراك هذه الحقيقة يجعل الانسان لايستعمل هذه المقومات والخصائص للافساد في الارض والعلوفيها، كما هو مذهب اللادينيين. بل يستخدمها لتحقيق مهمته في هذه الأرض، مهمة الخلافة عن الله تعالى. وإذا كان الانسان يتمتع بهذه المقومات ، وهي ذات أثر إيجابي في حياته، فإنه مع ذلك يتصف بكثير من صفات الضعف و العجز ، ففيه الهوى و الشهوة و العجلة و الضعف، و هي صفات فطرية لا تنقص من قيمته شيئا إذا عرف كيف يستعلي عليها بإيمانه . وبين هذا وذاك يبقى الانسان هو الانسان، بجسده و روحه ، بجزئه النوراني و جزئه الشيطاني، يبقى من أكرم خلق الله تعالى، إذا ضبط نفسه بضوابط الشرع وسار على منهاجه.

3- تكريم الانسان :

إن الانسان ، لما يتمتع به من مميزات نفسية وعقلية وجسمية ، و للدور الذي أهله الله تعالى للقيام به في هذه الأرض ، ولمركزه بين المخلوقات جميعا كان مخلوقا كريما عند الله تعالى ، وهو تكريم خص الله به النوع الانساني ، بغض النظر عن الفروقات الفردية والجماعية بين أفراده، وبغض النظر أيضا عن جنسه ولغته ودينه،

---

1 سيد قطب ، المصدر السابق ، 3027/5

2 المصدر نفسه ، 1760/3

فهو تكريم لبني ادم على السواء. مصداقا لقول الله تعالى: ﴿ **و لقد كرمنا بني ءادم و حملنـٰهم في البر و البحر و رزقنـٰهم من الطيبـٰت و فضلنـٰهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾ الاسراء 70. كرمه الله تعالى بأن خلقه على تلك الهيئة القويمة الحسنة. وصدق الله القائل:﴿ **... و صوركم فأحسن صوركم و إليه المصير** ﴾ التغابن 3(). فالتكريم الالـهي للانسان ، يبدوفيجمال الصورة. كما يبدو في هيئته التي ركبت أطرافها وأعضاؤها تركيبا حسنا، تركيبا ييسر على الانسان مهمته في هذه الأرض . و كذلك كرمه الله بالفطرة القويمة ، الشاهدة بوحدانيته تعالى، المتوافقة مع الناموس الكوني كله . وكرمه بأن جمع فيه ما تفرق في غيره ، فجعله قبضة من طين ونفخة من روح. وصدق القائل :

و تـــزعـــم أنـــك جـــرم صـــغيـــر ∴ و فـــيـــك انـــطـــوى الـــعـــالـــم الاكـــبـــر.

كما كرمه الله تعالى بما أودع فيه من استعدادات و طاقات هائلة للقيام بوظيفة العبادة والعمارة . والانسان هو الوحيد الذي تم اعلان خلقه في الملإ الأعلى. و أسجد الله له ملائكته. و أعلن كرامته في القرآن الكريم[1].

إذا كانت كل الموجودات من صنع الله تعالى ، فإن الله تعالى أضاف خلق الانسان إلىنفسه دون بقية الكائنات، كما في قوله تعالى:﴿ **قال يـٰإبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالين** ﴾ ص .74 و ليس هناك غير الانسان استقبل في الملإ الاعلى بتلك الحفاوة والاهتمام، وهو الذي صدر الإعلان الإلـهي بشأنه ليكون خليفة في الأرض. ولم يسجل القرآن الكريم نشأة أي مخلوق ، كما سجل وفصل نشأة الانسان، سواء في ذلك الانسان الأول، آدم أبو البشر ، أو الانسان المخلوق في الأرحام.كما فصل القرآن الكريم في غيرما موضع التجربة الأولى لهذا الانسان مع عدوه الأول، الشيطان. و ذلك كله يدل على << كرامة هذا الكائن الفريد في العوالم الحية، و ضخامة دوره المنوط به ، وسعة الآفاق والمجالات التي يتحرك فيها ، وتنوع العوالم التي يتعامل معها>>[2]. فهو يتعامل مع الله و مع الملائكة و مع الجن، و يتعامل مع هذا الكون كله[3].

أكرمه الله بوسائل العلم والمعرفة ، وأكرمه بالإرادة الحرة المختارة ، التي تعطيه فاعلية أكبر ، وثقة في نفسه أعظم. يقول سيد قطب :<<و قدرة الانسان على تحكيم إرادته في شق طريقه ، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى

---

1 المصدر نفسه ، 2241/4

2 المصدر نفسه ، 1272/3

3 أنظر ، طه الدسوقي ، عقيدتنا و صيلتها بالكون و الإنسان و الحياة ، ص 250 و ما بعدها

الله بمحاولة الخاصة. ان هذا كله بعض أسرار تكريمه [1].

إن من كرامة الانسان على الله تعالى أن جعله قيما على نفسه ، متحملا تبعات أعماله و تصرفاته ، فهوليس كالملائكة المجبولة على الخير وحده ، وليس كالحيوان تسوقه غريزته . بل هو كائن مكلف يملك أن يستعلي فيكون أهلا لكرامه أخرى عند الله تعالى ، هي كرامة الجنة والرضون. مصداقا لقول الله تعالى : ﴿ ...إن أكرمكم عند الله أتقيكم... ﴾ الحجرات 13. و لكنه يملك أن يسف، فيتبع هواه و شهوته، فيخلع بذلك حلة الكرامة التي ألبسه الله اياها[2].

إن في امتحان الإنسان و تكليفه تكريما، وأي تكريم، ففي التكليف إمكانية التطور والارتقاء، حتى يبلغ الانسان أعلى درجات الكمال الانساني. أما عدم التكليف، فإنه يبقى الانسان على طبيعته خاما خاملا، بل قد يقضي ذلك على مقوماته وإمكاناته على قاعدة " العضو الذي لا يعمل يضمر " .

وبالجملة ، فان الانسان مكرم عند الله تعالى، ومظاهر التكريم بادية في تقويم خلقه ، وفي طبيعته واستعداداته، و في وظيفته ، وعلاقته بالعالم العلوي ، وعلاقته بمن حوله . وستبلغ كرامته مداها ما استقام على الطريقة ، وإذن فهي منزلة عظيمة، منزلة هذا الانسان، في نظام الوجود على هذه الارض الفسيحة، وهوالتكريم الذي شاءه له خالقه الكريم [3]. فما على الانسان إلا أن يستشعر هذا التكريم وقيمته ، ليقوم بتكاليفه وأعبائه.

4 الأثر التربوي لعقيدة التكريم :

حين يحس الإنسان أنه كائن مكرم، وأن العناية الالهية أحاطت به أكثرمن غيره. فإنه يسعى جاهدا لإرضاء الله تعالى وشكره على ما حباه به من فضل ، وما أولاه به من عناية . كما يؤدي هذا الشعوربالإنسان إلى القيام بالوظيفة التي خلق لأجلها على أحسن وجه و أتمه ، ما دام الله تعالى قد سخرله كل شيء وأعطاه من الطاقات والمقومات ما ييسر عليه عمارة الأرض. كما أن هذا التكريم ينمي في الانسان الشعور بقيمته الذاتية ، ويعطيه فعالية أكبر في هذه الحياة. << مما يتناقض تماما مع المذاهب الحسية الوضعية المادية التي تهدر قيمته كعامل أساسي مؤثر في الكون، حيث تسند الأهمية كلها للمادة و تأثيراتها الحتمية، و مع مذهب النشوء والارتقاء الذي

---

1 سيد قطب ، المصدر السابق ، 57/1

2 أنظر ، المصدر نفسه ، 3393/6

3 المصدر نفسه ، 56/1

يلحقه بعالم الحيوان [1]. على أن شعور الانسان بقيمته الذاتية، لا يعطيه الحق أبدا، في التنكر لمن أكرمه كل هذا التكريم ، وألا يجعل من نفسه إلـها من دون الله ، كما تحاول ذلك بعض الفلسفات والمذاهب.

هذه بعض الآثار التربوية التي يمكن استنباطها من تكريم الله تعالى لهذا الكائن، الذي شاء الله أن يجعله خليفة في الأرض من دون الخلائق جميعا.

5 - الـــخلافـــــــة :

شاءت إرادة الله تعالى أن يجعل الانسان خليفة في الأرض، فأعلن ذلك في الملإ الأعلى، لقوله تعالى :« **وإذ قال ربك للملـئكة إني جاعل في الارض خليفة...**» البقرة 29. وحتى يقوم الانسان بهذه الوظيفة. هيأ الله له الأرض و طوعها له بما أودع فيها من الخصائص والموافقات التي تسمح بحياة هذا الجنس، الذي هوسيد هذه الأرض، وسيد من فيها، ومن أجله خلق كل شيء فيها ، مصداقا لقوله تعالى : « **وسخر لكم ما في السمـوٰت و ما في الارض جميعا منه إن في ذٰلك لأيـٰت لقوم يتفكرون** » الجاثية 12.

و الخـلافـة بهذا المعنى تجعل الانسان في الارض << عاملا مهما في نظام الكون، ملحوظا في هذا النـظام ، فخلافته في الأرض تتعلق بارتباطات شتى مع السماوات و مع الرياح و مع الامطار و مع الشموس و الكواكب. و كلها ملحوظ فى تصميمها و هندستها إمكان قيام الحياة على الارض >>[2]. وإذا كان الله تعالى قـادرا على إعمار هذه الارض بما شاء من دون الإنسان- و هي عامرة بقدرة الله و إرادته - فإنه شاء تعالى أن يوكل إلى الانسان مهمة عمارتها، و تنمية الحياة فيها، تحقيقا لإرادة الله سبحانه. و الله تعالى قادر على أن يرزق الانسان من دون أن يبذل هذا الأخير أي جهد ، ولكنه تعالى أراد أن يسوق الرزق لعبده من خلال السعي في الأرض، و الضرب في مناكبها، وذلك من شأنه أن يرفع من قيمة الانسان، ويعطيه دافعية ذاتية تجعله يستعلي على هذا الكون و يسخره لمنافعه . لأجل ذلك أمر الله تعالى الانسان بالعمل، و كرمه به ، وأصبح العمل << و الانتاج والتنمية و التحسين في واقع الحياة الدنيا تمثل في التصور الاسلامي - والمنهج الاسلامي - فريضة الخلافة في الارض >>[3]. و إذا كان بعض قاصري الفهم، و بعض الجاحدين، يلمزون الاسلام، و يحاولون الانتقاص منه،

---

1 المصدر نفسه ، 1272/3

2 المصدر نفسه ، 60/1

3 المصدر نفسه ، 933/2

زعما منهم أن الإسلام يهمل الدنيا، ويهمل العمل والانتاج، باهتمامه بالأخرة، وإصلاح القلوب، فإن التصور الاسلامي يعتبر الانسان الذي لا يفجر ينابيع الأرض، ولا يستغل طاقات الكون المسخرة له، عاصيا لله، ناكلا عن القيام بالوظيفة التي خلقه الله لها>>[1]. والحق أن للعمل والانتاج ، والاهتمام بترقية الحياة في التصور الاسلامي قيمة كبرى لدرجة أن القرآن الكريم سوى بينه و بين الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله ، قال تعالى : « ...وءاخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله.وءاخرون يقـٰتلون في سبيل الله... » المزمل 18.

إن العمل لعمارة الارض، و استخراج كنوزها، و كفاية النفس و الأمة، نوع من الجهاد المكتوب على الانسان فترة بقائه في هذه الارض. والعمل و الانتاج زيادة على أنهما يحققان حاجة نفسية ضرورية، فهما كرامة للانسان وسبب للمغفرة. فمن بات كالا من عمل يده بات مغفورا له. << وهو في الوقت ذاته وظيفة أساسية له يحقق فيها وجوده، و ينمي فيها ذاتيته >>[2]

بقدر ما أمد الانسان بالمواهب والطاقات التي تطوع له هذه الأرض، و بقدر ما جعل الأرض ذلولا له ، وذلك كله كاف لأداء المهمة المنوطة به على الوجه الأتم ، إلا أن الله تعالى أعانه على هذه الوظيفة بمخلوق آخر ، يملك من القدرات مالايملكه الانسان، وهو الجن، وذلك لبيان قيمة الانسان ومكانته في هذا الوجود، ولتحقيق ما قد يعجز عنه من الانتاج والتنمية. قال تعالى :- عن واحد من أفراد هذا الانسان، ومن أكرمهم-:« ... يعملون له ما يشاء من محـٰريب وتماثيل وجفان كالجواب و قدور راسيات اعملوا ءال داوود شكرا وقليل من عبادي الشكور. » سبأ 13. إن الانسان مستخلف في هذه الارض ، ليحقق إرادة الله تعالى، ومن ثم فهو مأمور بعدم الخروج على منهج الله تعالى ، وبالتالي فخلافته وعمارته للارض مشروطة بشروط ، محكومة بضوابط شرعية ، وليست خاضعة لرغبته و هواه. إن العمل للدنيا في التصور الاسلامي كالعمل للاخرة ، فمثلها لا يقبل الله تعالى أن يعبد بغير ما شرع، كذلك لا يقبل من الانسان عمارة تخالف شرعه ومنهجه . يقول سيد : << وحين يرتفع الانسان إلى هذا الافق، أفق العبادة، أو أفق العبودية، و يستقر عليه فإن نفسه تأنف حتما من اتخاذ وسيلة خسيسة لتحقيق غاية كريمة >>[3].

---

1 المصدر نفسه ، 2/933

2 سيد قطب ، الإسلام و مشكلات الحضارة ، ص 108

3 سيد قطب ، الظلال ، 6/3388

ان المذاهب المادية تعتبر الارض و عمارتها سوقا تنافسية ، الغايات فيها تبرر الوسائل ، والبقاء فيها للأقوى، ومن ثم يستبيحون استعمار الشعوب، واسترقاق الاحرار ، وإهدار كرامة الانسان، وتلويث البيئة ، أما المنهج الاسلامي فيعتبر العمارة عبادة، يجب أن تؤسس على شرع الله، و تضبط بضوابطه.

إذا كان تحصيل المال وجلب الرزق والمتاع هوالحافز الأساسي الذي يدفع الناس عموما والماديين خصوصا إلى العمل و الانتاج و عمارة الارض. فإن المنهج الإيماني يرتفع بالمؤمن إلىأفق أعلى، بحيث يحرر مشاعره من الانشغال بهم الرزق، و يجعل حافزه على العمارة هو طاعة الله تعالى، قياما بواجب العبوديـة ، وأداء لفريضة الاستخلاف. ومتى تحرر من أسر شهواتها و متاعها فإنه يعيش<< في هذه الأرض شاعرا أنه هنا للقيام بوظيفة من قبل الله تعالى جاء لينهض بها فترة طاعة لله وعبادة له >>[1]. ولئن كان المسلمون اليوم، لا يدركون هذه الحقيقة و لا يتحركون بإيحائها ، لبعدهم عن جوهر الاسلام وعدم إدراكهم لحقيقته ، فإن السلف الصالح ، وعلى رأسهم الانبياء -- عليهم السلام – فقد ارتفعوا إلى هذا الافق السامق ، فاستعلوا على ضرورات الحياة وجواذبها كما قال الله تعالى عن سليمان عليه السلام :﴿ ... **فلما رءاه مستقرا عنده قال هـٰذا من فضل ربي ليبلوني ءاشكر أم اكفر و من شكر فإنما يشكر لنفسه و من كفر فإن ربي غني كريم** ﴾ النمل 41.

هذا، و إذا كانت الخلافة في الأرض يجب أن تقوم على شرط الله و شرعه، فإن شعور الانسان بأنه مستخلف، فإن ممارسته لهذه الوظيفة يترك في نفسه وحياته أطيب الأثروأعظم المنافع. فأما الفائدة الأولى فتتمثل في توفير الضروريات،وتحقيق الذات. وفي هذا المجال يقول سيد:<< إن الابداع المادي في هذه الأرض فوق أنه ضرورة لحياته، ولنمو هذه الحياة ورقيها. هوفي الوقت ذاته وظيفة أساسية له يحقق فيها وجوده وينمى فيها ذاتيته>>[2] فصيانة لكرامة الانسان أن تهدر ، و لطاقاته أن تتعطل، و للحياة ألا تتطور و تنمو، حارب الاسلام التبطل، لأنه يجعل الانسان ميتا بين الاحياء. أما الفائدة الاخرى لشعور الانسان بالاستخلاف، وممارسته له، فهي الايجابية في الحياة. فهو مكلف بالعمل، وعنده من الطاقات والمواهب كفاء ما في الكون من خيرات، << وشعوره بأنـه مكلف بالعمل و معان عليه ينفي عنه الشعور بالسلبية في نظام هذا الكون، سواء بالقياس إلى القوى الكونية، أو بالقياس إلى قدر الله تعالى >>[3]. وهو الشعور الذي كان يملأ جوانح سلفنا الصالح، وبفضله استطاعوا في فترة

---

1 المصدر نفسه ، 3387/6

2 سيد قطب ، الإسلام و مشكلات الحضارة ، ص 108

3 سيد قطب ، خصائص التصور الإسلامي و مقوماته ، ص 160

وجيزة، بل " قياسية " أن يحولوا الجزيرة العربية من مكان مغمور – لولا وجود البيت الحرام – إلى قبلة للعالم، بما أقاموا فيها من مدنية، وبما أوجد وا فيها من حركية . ولما خلت نفوس الخلف من ذلك الاحساس الكريم ، تحولوا إلى سلبيين، بل إلى عبثين ، فأصبحوا عالة على غيرهم في الأمر الجليل والحقير. وصدق الله القائل : ﴿ ...إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم...﴾ الرعد 12.

إذا كان الانسان مستخلف في الارض لينشئ و يعمر ، ويغيرويطور ، فإنه كذلك، وقبل ذلك ليعبد الله تعالى. بل إن عمارته للارض في المنظور الاسلامي هي جزء من عبوديته لله تعالى.

6 العبادة :

عبادة الله تعالى هي الوظيفة الأساسية للإنسان في هذه الحياة ، و كل الوظائف الأخرى التي يمارسها ترتد إلى هذا الاصل، وتنبني عليه . قال تعالى:﴿ **وما خلقت الجن و الانس إلا ليعبدون** ﴾ الذريات 56. ولقد كانت العبادة هي الرسالة الواحدة التي بعث الله بها جميع الانبياء والمرسلين–عليهم السلام– . فما من نبي إلا وقال لقومه: ﴿ ... **يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره...** ﴾ هود 50. و قد بين النبي– صلى الله عليه وسلم – هذه الحقيقة فقال لمعاذ رضي الله عنه : << هل تدري يا معاذ ما حق الله على الناس؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال : حقه عليهم أن يعبدوه و لا يشركوا به شيئا... >>[1]. و هكذا كان الدين في حقيقته، وعلى لسان كل رسول يتمثل في – عبادة الله وحده، و إخلاص الدين له، و الميل عن الشرك و أهله>>[2]. على أن العبادة في الاسلام تمتاز بالشمول، إلى درجة استغراق النشاط الانساني كله ، فإذا كان أهل الملل والنحل الأخرى يقصرون العبادة على بعض الشعائر والطقوس، << فإنه ليس في التصور الاسلامي نشاط إنساني لا ينطبق عليه معنى العبادة، أو لا يطلب فيه تحقيق هذا الوصف. والمنهج الاسلامي كله غايته تحقيق معنى العبادة ، أولا و أخيرا >>[3].

مصداقا لقول الله تعالى : ﴿ **قل إن صلاتي و نسكي و محياي و مماتي لله رب العالمين لا شريك له و بذلك أمرت و أنا أول المسلمين** ﴾ الانعام 164–165. فإذا كان العمل موافقا لشرع الله، ملحوظا فيه وجه الله تعالى عند ذلك عبادة، حتى و لو كان شهوة من الشهوات، فقد قال عليه الصلاة و السلام لأصحابه – و هو يبين لهم

---

1 الغوي ، أوح السنة ،

2 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 2092/6

3 سيد قطب ، خصائص التصور الإسلامي و مقوماته ، ص 109

كثرة أبواب الخير - ...و في بضع أحدكم صدقة، قالوا : يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته و يكون له فيها أجر ؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال، كان له أجر .)) [1].

إن للانسان في هذه الحياة –و بمقتضى خلافته – نشاطات متعددة و متنوعة ، منها ما له علاقة مباشرة بالعمل للدنيا، و منها ما له علاقة مباشرة بالعمل للاخرة، و الكلفي نظر الإسلام عبادة، شريطة أن يتم هذا النشاط وفق شرع الله تعالى. و من قوله تعالى:﴿ **و ما خلقت الجن و الانس إلا ليعبدون**﴾ الذاريات 56، يستنبط سيد شمولية العبادة في الاسلام، واستغراقها لجميع أوجه النشاط الانساني، فيقول :<< إن مدلول العبادة لا بد أن يكون أوسع و أشمل من مجرد إقامة الشعائر. فالجن والانس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر، والله لا يكلفهم هذا، و هو يكلفهم ألوانا أخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم >>[2]. وهو النشاط المتعلق بالخلافة، وما تتطلبه من عمارة للارض، و من ثم فإن << وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعا >>[3]. والعبادة بهذا المفهوم الواسع لم تعرف في أي مذهب أو نحلة، إذ كلها يقصر العبادة على الجانب الطقوسي، و هو على أهميته قليل جدا بالنسبة لهذا الكائن الذي كرمه الله واستخلفه في الأرض. والاسلام وحده الذي يعتبر العبادة الحقة << تحولامستمرا من رسوم العبادة وأشكالها الظاهرة إلى آثارها الإيجابية >>[4]. وإنما كانت العبادة في المنظور الاسلامي بهذا الوسع و الشمول، حتى تحقق حاجة فطرية في الانسان، الذي <<لاينفك عن وصف العبودية، لأنه كائن حي ذوحاجات و مطامع، و لأن له قلبا فإما أن يكون عبدا لله، و إلا فهو عبد لغيره>>[5]. والعبادة بهذاالمعنى ذات أثر كبير في شعور الانسان وواقعه.

7- الأثر التربوي للعبادة :

إن العبادة بمفهومها الإسلامي ذات آثارنفسية وواقعية كثيرة وعميقة ، وسنكتفي بالاشارة إلى أهمهافقط . فالعبادة أكرم وظيفة ، وأنبل عمل يمارسه الانسان في هذه الحياة ، فهي من جهة تأدية لحق الله تعالى ، وقيام بالواجب، واجب العبودية ، وهي من جهة أخرى ذات أهمية في المحافظة على وحدة الانسان الشعورية والسلوكية ، لأنها تمثل نقطة ارتكاز تتجمع إليها خيوط حياته ونشاطه فلا تتمزق شخصيتة ولا يلحقها القلق والاضطراب>>[6].

---

1 النووي ، رياض الصالحين ، ص 64

2 و 3 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 3387/6

4- صبحي الصالح ، معالم الشريعة الإسلامية ، ص 249 بتصرف

5 عمر عودة الخطيب ، لمحات في الثقافة الإسلامية ، ص 228

6 سليمان الخطيب ، أسس مفهوم الحضارة ، ص 128

فإذا قطع الانسان صلته بالله، من خلال التفريط في وظيفة العبادة ، فإنه يضطرب، ويتملكه القلق والحيرة، لأنه لا يأوي إلى ركن شديد . والواقع يشهد أن << الذين يستنكفون من العبودية لله ، يذلون لعبوديات في هذه الأرض لا تنتهي >>[1]. عبودية المال والشهوة الجنسية والمتاع الدنيوي ، وعبودية الانس ، وعبودية الجن ، وحتى عبودية الاصنام والاوهام. وقد ضرب القرآن لذلك مثلا فقال : ﴿ **ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون** ﴾ الزمر 28. لا يستويان أبدا ، فأما من أسلم لله، وأخلص العبودية له وحده، فهو يعرف مصدرا واحدا يتعلق به، و يتلقى منه << و يخدم سيدا واحدا يعرف ماذا يرضيه فيفعله، و ماذا يغضبه فيتقيه >>[2]. وأما الأخر فتتجاذبه العبوديات المختلفة ، والأرباب المتنازعون، فإذا أرضى سيدا أغضب الآخرين. أما المؤمن بالله ، الذي أخلص دينه لله، فإنه يستمتع هوبذاته << براحة الضمير ، وطمأنينة النفس ، وصلاح البال ، في جميع الأحوال >>[3]. وقد أثبتت الدراسات النفسية والاجتماعية أن الذي يمارس عبادة من العبادات ، بغض النظر عن هذه العبادة وطبيعتها ، فإنه يكون أروح ضميرا وأفضل حالا من غيره. فما بالك بالذي يمارس عبادة شرعها رب العباد، الذي يعلم ما يصلح للعباد و ما يصلحهم.

ومن كل ما سبق يخلص سيد قطب إلىأن العبادة بمفهومها الواسع تهدف إلى تحقيق امرين اثنين :

أما الأول: فهواستقرار معنى العبودية في النفس. وأما الثاني: فالتوجه إلى الله بكل خالجة في النفس، وحركة في الجوارح، و التجرد من كل شعور آخر << بهذا و ذاك يتحقق معنى العبادة ، ويصبح العمل كالشعائر، والشعائر كعمارة الأرض ، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله >>[4]. وكل عمل صغير أو كبير، ظاهر أو خفي يعتبر عبادة ، وتحقيقا لوظيفة الخلافة.

من خلال ما سبق بيانه ،أدركنا حقيقة الانسان ومكانته في الإسلام ، والوظيفة التي خلق لأجل مزاولتها في هذه الأرض. وحتى تتضح الرؤية أكثر ، وتكتمل الصورة ، يحسن بنا أن نعقد مقارنة بين الإنسان من خلال المنظور الإسلامي ، والتصورات المذهبية الوضعية المختلفة.

1- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 821/2

2- المصدر نفسه ، 3049/5

3- المصدر نفسه ، 3389/6

4- المصدر نفسه ، 3387/6

8- الانسان بين التصور الاسلامي و التصورات المذهبية الأخرى:

من الطبيعي أن يهتم القرآن بالانسان باعتباره الخليفة في هذه الأرض. كما من الطبيعي أن تهتم به المذاهب الوضعية لمكانته و دوره في هذه الحياة[1]. وما من شك في أن كلا من التصور الاسلامي والوضعي يؤثران في طبيعة النظام الحياتي الذي يقيمه الانسان. والتصور الإسلامي يفترق منذ البداية عن التصورات الوضعية ،وان أول ما يفترق فيه التصور الاسلامي عن التصور الانساني للانسان افتراقهما في تصور حقيقة الانسان و أصله. فإذا كان القرآن يعتبر الانسان مزدوج الطبيعة، فهو من طين سفلية ، ومن نفخة علوية في الوقت نفسه، وبهذه النفخة صار الإنسان إنسانا.يقول سيد: << و ما كان لهذا الكائن الصغير الحجم المحدودة القوة، القصير الأجل، المحدود المعرفة. ما كان له أن ينال شيئا من هذه الكرامة لولا تلك اللطيفة الربانية الكريمة >>[2].إذا كانت هذه هي حقيقة الإنسان في الإسلام، فإن كثيرا من المذاهب تعتبر الانسان مخلوقا طينيا فحسب لا يزيد عن الحيوان إلا بشيء من التطور والرقي[3]. وإذا كانت هناك بعض المذاهب التي تؤمن بأن الانسان مخلوق من تراب ومن نفخة إلهية ، فإنها في الواقع العملي تهمل كل الاهمال هذه النفخة ، ولا تفكر إلا في الجسد ومتطلباته المادية و الشهوانية . وهو الأمر الذي جعل << الاعلان الماركسي يذكر أن مطالب الانسان الاساسية هي الطعام و الشراب والمسكن والجنس >>[4]. إن الإنسان في القرآن فطرة وعقل وجسد وروح. ومن ثم فالإسلام لا يغفل هذه الحقائق المكونة للانسان والتي صار بها إنسانا متميزا عن الحيوان . يقول سيد قطب: << والاسلام بمنهجه الرباني يعمد إلى هذه الخصائص التي تميز الانسان و تفرده بين الخلائق فيبرزها وينميها ويعليها >>[5] . ومن هنا كانت العقيدة و حرية التفكير والاختيار الحر ، مطالب إنسانية أساسية ، مقدمة على مطالب الجسد .

تقوم الحضارة الغربية اليوم على دعامة فلسفية تعتبر الانسان مجرد حيوان يهدف إلى إشباع الرغبات المادية . أما الاسلام فهو يأخذ الكائن البشري على ما هو عليه، لا يحاول أن يقسره على ما ليس من طبيعته ، فهو واقعي في نظرته إلى الانسان و تعامله معه . ولذلك لا يحرم الاسلام المتعة الجنسية – التي صارت أكبر هم الحضارة الغربية – و لكنا يعتبرها ضرورية باعتبارها غريزة أصلية و قوية في تركيب الانسان، و وسيلة للحفاظ على

---

1 أنظر محمد قطب ، الإنسان بين المادية و الإسلام

2 سيد قطب ، المصدر السابق ، 3027/5

3 أنظر ، عبد الكريم الخطيب ، الله و الإنسان ، ص 32

4 سيد قطب ، المصدر السابق ، 2144/4

5 المصدر نفسه ، 1561/3

النوع البشري،وفي هذا الصدد يقول سيد: << لم تعد اللذة الجنسية هي المقوم الأول في حياة الجنسين في عالم الانسان، انما هي مجرد وسيلة ركبتها الفطرة فيهما ليتم الالتقاء بينهما ويطول بعدالاتصال الجنسي للقيام بواجب المشاركة في اطراد نمو النوع >>[1]. وفي مقابل النظرة المادية للانسان، هناك نظرة مضادة لها، تعمل على التخفيف من حدتها، والتقليل من آثارها السلبية، وهي النظرة المثالية ، والتي تطرفت في مثاليتها تطرف المادية في ماديتها.ومثلما ظهرت هذه المثالية في الأديان السماوية المحرفة ، وخاصة المسيحية، ظهرت أيضا في المذاهب الوضعية. وهي تهدف إلى إذلال الجسد، بتعذيبه وحرمانه من حاجاته الضرورية، لتتخلص الروح من أثقال الجسد التي ترهقها وتضايقها . وقد كانت هذه الفلسفة أكثر سلبية ومجانبة للصواب ، بتعطيلها للإنسان وطاقاته. والحقيقة أن كل هذه المذاهب كانت خاطئة وذات نتائج عكسية على الإنسان والحياة بسبب بعدها عن الوحي المعصوم.

ومثلما افترقت هذه المذاهب عن الإسلام في نظرتها إلى طبيعة الإنسان ومقوماته ، افترقت عنه أيضا في صلته بربه ، وأهدافه السامية. أما المنهج الرباني فيعتبر الإنسان عبدا لله تعالى بالاضطرار، ويجب أن يكون عبدا له بالاختيار .وأن وظيفة الإنسان في هذه الحياة هي عبادة الله تعالى ، وهدفه بلوغ مرضاته عز وجل <<وأن تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار >>[2].مصداقا لقول الله تعالى:« **وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون** » الذاريات56. وأما المذاهب الوضعية فلا تجعل للإنسان صلة بالله تعالى، ولا تجعل لله دخلا في نشاط الإنسان وتصرفاته . ومن ثم فهو مطلوق اليد في هذه الحياة يعمل ما يرضيه هو لا ما يرضي ربه تعالى.ومن هنا وجدنا هذه المذاهب ترفع من قيمة الإنسان وتنوه بشأنه لا من أجل تكريمه، وبيان مكانته في هذا الوجود وإنما من أجل رفع وصاية الله تعالى عنه . فما دام الإنسان واعيا ومقتدرا فلا حاجة به إلى من ينوب عنه في تنظيم حياته، حتى ولو كان ذلك هو خالقه الذي يعلم ظاهر أمره وخافيه ، مصداقا لقول الله تعالى :« **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** » الملك14 .

وإن مما تفترق فيه النظرة القرآنية للإنسان عن المذاهب الوضعية ، إختلافها حول طبيعة ما أودع الله تعالى في هذا الكائن من طاقات، وما زوده به من قدرات . فهذه القدرات والمواهب هبات إلهية ومنح ربانية << أعطيها

---

1 المصدر نفسه ، 620/2

2 المصدر نفسه ، 3387/6

الإنسان لينهض بتلك الأمانة الكبرى »[1]،وهو مطالب بأداء واجب الشكر عليها ، وقد كانت معرض الامتنان الالهي على عباده كما في قوله تعالى : ﴿ **قل هو الذي أنشأكم و جعل لكم السمع و الابصار و الافئدة قليلا ما تشكرون** ﴾ الملك 23. إن هذه الصفات الانسانية هي فيض من الصفات الالهية، و لذلك لما غفلت المذاهب الوضعية عن حقيقتها، استعملتها سلاحا فتاكا في أيدي الأقوياء ، و« انتقلت هذه الصفات إلىعامل اضطراب وشقاء في حياة الانسان ، وهي إنما ركبت فيه لتكون عامل سعادة و رقي و نظام »[2].

بناء على ما تقدم اختلفت النظرة كذلك إلى قيمة الانسان بين المنهج الايماني و المذاهب الوضعية. فأما المذاهب الوضعية فإنها تزن الانسان بجنسه أو لونه أو ثروته، و كم عانت البشرية من ويلات جراء هذا الميزان المجفف « وقد حارب الاسلام هذه العصبية الجاهلية في كل صورها و أشكالها ليقيم نظامه الانساني العالمي »[3] الذي يوزن فيه الناس بميزان إلـهي ، ويحتكمون فيه إلى قيم سماوية ، قيم وضعها للناس من خلق هذا الانسان ، هو أعلم بحقيقته وطبيعته ، وهذه القيم ترتد كلها إلى قيمة أساسية ، متى تحقق بها الانسان كان كريما عند الله وعند العباد، وهي قيمة التقوى . يقول سيد : « وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله . إنما هناك ميزان واحد تتحدد به القيم ، و يعرف به فضل الناس ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ .. و الكريم حقا هو الكريم عند الله »[4]. إن هذا الانسان، الذي وقع عليه الاختيار الالهي ليكون خليفة في الأرض يفقد من قيمته بقدر مايتعرى من التقوى،ويفقد كرامته بقدر ما يبتعد عن منهج الله،ويصير أشبه بالحيوان لابالانسان. إن الانحراف والطغيان الذي يميز حضارة هذا القرن ، إنما هو نتيجة حتمية للجهل بالانسان، لا من حيث تكوينه البيولوجي، و لكن من حيث طبيعته و صلته بالله ، و مهمته الاساسية في هذا الوجود، و من أجهل الجهل أن يجهل الانسان نفسه.

ان المذاهب المادية التي تقوم على أساسها الحضارة الغربية اليوم مذاهب قائمة على العداء الطبيعي للدين، وهو عداء ابتدأ ضد الكنيسة و ضلالاتها التي كانت تفرضها على العقول باسم الله، و دين الله. وانتهى بالعداء لكل دين، بل العداء لله، الذي أصبح في نظر واضعي هذه النظريات و منشئ تلك المذاهب عدوا للانسان، وبذلك

1- المصدر نفسه ، 3646/6

2- سعيد رمضان البوطي ، كبرى اليقينيات الكونية ، ص 66

3- سيد قطب ، المصدر السابق ، 3348/6

4- المصدر نفسه ، 3348/6

5- انظر ، المودودي ، نظام الحياة في الإسلام ، ص 36-37

أصبحت هذه المذاهب أشد انحرافا و تطرفا .

إن فلسفة ابعاد الله ودين الله في الفكر الغربي، لم يتوقف عند حد الدراسات الانسانية فحسب، بل تعدى ذلك إلى العلوم الطبيعية البحتة ، وعوض الله تعالى بالطبيعة . وقد أدت هذه الفلسفة إلى أمرين خطيرين:أما الأول فنفي وجود الله، أوعلى الأقل نفي تدخل الإلـه في شؤون الانسان. فالانسان مستقل بذاته ، وقائم على نفسه ،وبالتالي فهوفي غنى عن الله. وأما الآخرفهواحتقار الانسان، من حيث أرادت هذه المذاهب أن تعلي من شأنه وترفع من قيمته . و سنعطي أمثلة لتتضح هذه الفلسفة، و أبعادها الخطيرة.

إن الداروينية – كما أسلفنا القول – تزعم بأن الانسان لم يكن في البدء في هذه الصورة الحسنة، والتقويم الحسن لأنه صورة متطورة عن الحيوان، يمتاز عليه بشيء من التفكير والارادة، و ما سوى ذلك[1]. و ترى هذه النظرية أن أصل المخلوقات كلها هو وحيد الخلية ، كما ترى أيضا أنه لا يوجد هناك أنواع ثابتة وأصلية ، فتنوع المخلوقات إنما هو تنوع مؤقت ، أملته ظروف البيئة والحياة ، فإذا ما تغيرت هذه الظروف فإن هذه الانواع ستتغير شكلا ومضمونا إلىأنواع أخرى. والمستند الذي تقوم عليه هذه النظرية هوالتشابه الموجود بين الكائنات الحية مع بعضها البعض، و خاصة التشابه بين الانسان و بعض الثدييات.

ومن دون أن نطيل في بيان فلسفة هذه النظريات و مستنداتها ، نملك أن نؤكد الحقيقتين اللتين قررناهما آنفا . و هي أن هذه النظرية تنفي وجود الله مطلقا أو على الأقل تنفي التدخل المباشر لله تعالى في خلق الموجودات جميعا، والانسان بصورة خاصة، وقلنا بصورة خاصة، لأن الانسان في عقيدتنا هو سيد المخلوقات. ونحن في غنى عن سرد الدلائل القاضية ببطلان هذه النظرية، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن هذه الدراسة لاتتسع لمثل هذا الموضوع ، ويكفي أن الله تعالى أخبرنا أنه خلق الإنسان يوم خلقه في أحسن تقويم.

ومادام الانسان حسب مزاعم هذه النظرية، مجرد حيوان، فلا شك أن مطالبه هي مطالب الحيوان، و لا شك أنه ليست له أية خصوصية و لا كرامة. و لا شك أيضا أنه غير مكلف من قبل الالـه بشيء، و غير مسؤول على شيء. و من ثم فحياته الأولى و الأخرة هي هذه الحياة، التي يجتهد أن يحقق فيها بعض المطالب و الشهوات

---

1 أنظر ، سيد قطب ، المصدر السابق ، 2143/4 و 2459/4

الحيوانية وتلك أبأس صورة للإنسان ، وأكبر إهانة له ، وأسوأ نهاية تريده هذه المذاهب أن ينتهي إليها . وصدق الله القائل: **لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين** ، التين 4-5.

إذا كانت الداروينية تضع الانسان في هذه المنزلة، بعد أن تنفي تدخل الاله في شأنه، فإن نظرية التحليل النفسي الفرويدية تعتبره مجموعة من الغرائز يسعى لتحقيق شهواته الجنسية ، بدافع اللاشعور الذي يسوق الانسان إلى تلبية هذه الغرائز باعتبارها حسب هذه النظرية ، المقوم الأساسي للانسان، و الموجه الأكبر ، بل الوحيد لمختلف نشاطاته . و هذه النظرية ترسم للانسان << صورة الفرد الذي يسعى جاهدا طوال حياته لتحقيق لذائذه ، مدفوعا إلى ذلك بدفعة " الليبيد " (LIBIDO) و هي الطاقة الشهوانية التي لا تكف عن الالحاح >>[1].

وإذا كانت مقولات هذه النظرية ، وأصولها التي بنيت عليها معروفة ، لا تحتاج منا إلى بيان، فإن الذي يهمنا هو الانطباع الذي تتركه ، والآثار التي تخلفها في النفس والمجتمع . فهذه النظرية تترك في أذهاننا انطباعا مفاده أن الانسان ، والذي قلنا بأنه يتمتع بكثير من المقومات التي تميزه عن الحيوان، وأولها الروح، هذا الانسان في حقيقته ليس أكثر من مجموعة من الغرائز ، وخاصة الجنسية . فأي كرامة بعد ذلك تبقى لهذا الانسان ، وأي ميزة تميزه عن العالم الحيواني . ومن ثم فليس بالانسان حاجة إلى الدين ، كما ليس بالحيوان حاجة إلى ذلك . ولم تجد هذه الفلسفات غضاضة في تطبيق النظريات والاحكام التي انتهت إليها، من خلال التجارب التي تجريها على الحيوان، كالقرود والفئران وغيرهما ، متجاهلة كل الفروق الجوهرية بين الانسان، وهذه الحيوانات.

وغير بعيد عن هاتين النظريتين ، هناك نظرية أخرى ، لا تقل إمعانا في قطع الصلة بين الخالق والمخلوق، محاولة منها للرفع من قيمة الانسان. و تلك هي الوجودية . والوجودية مذهب قائم على أساس أن الانسان يصنع نفسه بنفسه[2]، وهو منذ ميلاده إلى وفاته يباشر هذه المهمة . فالانسان عند الوجوديين مشروع، يصنع نفسه بنفسه بتجدد واستمرار . وإذا كنا نحن المسلمين نؤمن بأن الانسان ، بما أوتي من إرادة، وإمكانية الارتقاء ، يستطيع أن يطور من قواه المختلفة ، هذه القوى التي أودعها الله فيه ، وهو الذي يخرجها إلى الفعل بفضل مجاهدته . وليس هذا ما تعنيه الوجودية من قولها الإنسان مشروع ، ليس هذا بيقين ، إنما تعني أن الانسان لا يتمتع بأي مقوم من

1- محمد قطب ، الإنسان بين المادية و الإسلام ، ص 30

2- أنظر ، سعيد رمضان البوطي ، العقيدة الإسلامية و الفكر المعاصر ، ص 177-178

المقومات، وأنه يخرج إلى هذا الوجود بدون ماهية ، وهو الذي يتولى صنع ماهيته بنفسه بعد ذلك . وبالتالي فهذا المذهب يقطع صلة الانسان بربه،حين ينتكر للفطرة، والمقومات الأساسية التي ميزالله بها الانسان، وكرمه لأجلها. ان الوجودية ، بانبنائها على هذه الفلسفة انتهت إلى العبثية والقلق والغموض في حال الانسان و مصيره[1]. وقد ذكرنا عند حديثنا على أهمية النبوة ، والحاجة إليها . أنها هي التي تجيبنا على الاسئلة الفطرية الملحة . من أين جئت؟ ولماذا جئت ؟ وإلى أين المصير؟. وهل يملك الانسان الذي تزعم الوجودية أنه يتولى صنع ماهيته بنفسه أن يجيب الإجابة الصحيحة والواضحة عن هذه الاسئلة !؟ والجواب، كلا.

انه لا يملأ فراغ الانسان إلا الفكرة الدينية. ولما كان الوجوديون يكفرون بالدين، ويقطعون صلتهم بالله ، لم يجدوا ما يملؤون به فراغهم النفسي، إلا " تقليعات الهيبي " وغيرها من الاشياء العبثية التي يزاولونها ، وعلى رأسها الجنس والمخدرات.

واذا كانت هذه المذاهب والنظريات تقطع صلة الانسان بخالقه ، و ربما تجحد الخالق أصلا، وتنزل بالانسان من مقام التكريم إلىدرك الحيوانية، وتبتعد به من ساحات الإطمئنان النفسي والاجتماعي إلى مجاهل العبثية والقلق، فإن الشيوعية ليست بأقل إجراما في حق الانسان من سابقاتها .

تقوم الشيوعية على اعتقاد أن لا إلـه و الحياة مادة. فالمادة هي الالـه في المفهوم الشيوعي إن كان هناك إلـه. وبالتالي فالانسان عبد للمادة . و هو مجرد عملة في عالم الاقتصاد. و من ثم فهدف الانسان الاول و الأخير هو المتاع المادي، و توفير الانتاج . وبالإضافة إلى ذلك فإن الشيوعية تصادرحق الانسان في حرية الاعتقاد وحرية التفكير ، وهي المقومات التي فضل بها الانسان على الحيوان.ومن هنا اختلفت النظرية الشيوعية عن العقيدة الإسلامية القائمة على أساس << أن العقيدة وحرية التفكير والإرادة والاختيار هي مطالب أساسية كالطعام والشراب والمسكن والجنس ، بل هي أعلى منها في الاعتبار >>[2] . والدليل على أن الشيوعية تصادر إرادة الانسان و حريته هواعتبارها الواقعات الاقتصادية هي التي تحدث كل تغييرفي سيرورة التاريخ. << وهي تنكر أن يكون في هذه الحياة مؤثر في سيرها، خارج عن مادتها.>>[3] وهي بهذا الاعتقاد الخاطئ لا تنفي فقط فاعلية الانسان،

---

1 سيد قطب ، المصدر السابق ، 1263/3

و انظر : محمد محمد حسين الوطني ، المرجع السابق ، ص 202 203

2 سيد قطب ، المصدر السابق ، 2144/4

3 سيد قطب ، معركة الإسلام و الرأسمالية ، ص 109

بل تنفي وجود الله ، باعتباره الفاعل الأول ، والفاعل الحقيقي لكل ما يقع في هذه الحياة . كما تنفي النبوات، باعتبار أن الانبياء هم المبلغون للحقائق الإيمانية، و التي يكون لها الدور الأساسي في التغيير .

ننتهي من هذه الجولة القصيرة، مع هذه النظريات والمذاهب، والتي قامت أساسا على عداوة مكينة لله ولدين الله بدافع العداء للكنيسة . ننتهي إلى أن هذه المذاهب تنفي وجود الله ، إما نفيا مطلقا، وذلك بنفي ذاته . أونفيا غير مطلق، و ذلك بنفي تدخل الله في كل أمر يتعلق بالانسان والحياة. كما أن هذه المذاهب كلها تمتهن كرامة الانسان بجعله مجرد حيوان متطور. وبقصر رغباته وأشواقه و حاجاته في حاجات البهيمة، من طعام و شراب و جنس. وحتى أولئك الذين رفعوا من قيمة الانسان بنفي تدخل الله في شؤونه امتهنوا كرامته أيضا إذ قطعوه عن مصدره فانتهى إلى العبثية والضياع.

إن هذه المذاهب ، مثلما جنت على الانسان كفرد ، جنت عليه كمجموعة ، سواء في ذلك المجموعة الصغيرة " الأسرة " أوالمجموعة الكبيرة " المجتمع " والانسانية جمعاء . ويستوى في هذه الجناية المذاهب الفردية كالرأسمالية ، أوالمذاهب الاجتماعية كالشيوعية[1]، و واقع أروبا الاجتماعي و الفردي يشهد على ذلك.

إذا كانت هذه المذاهب قد جنت على الفرد والأسرة والمجتمع ، فلأن العلوم الانسانية برمتها سواء، في ذلك علم النفس و علم الاجتماع أ والفلسفة والاقتصاد وعلم التاريخ، كلها بنيت على منهج معاد في طبيعته للدين ولله، وهي مناهج تصدر إلينا نحن المسلمين، ونتلقاها بكل إعجاب وشغف.والواجب يحتم علينا ضرورة إقامة العلوم الانسانية على المنهج الايماني . ذلك أن هذه العلوم لا تصح ولاتستقيم معها الحياة ، إلا إذا بنيت على أصول صحيحة وأصيلة. وأول هذه الأصول : الايمان بالله تعالى باعتباره خالقا و قيوما. و الايمان بكرامة الانسان، وأنه مخلوق في أحسن تقويم.

إذا كانت هذه نظرة المذاهب الوضعية إلى الانسان. فهو في المنظور الاسلامي مخلوق كريم، بما ميز به على الحيوان،وكريم باستخلافه في الارض،وكريم بعبوديته لله تعالى،وأخيرا هوكريم بكونه أهلا للتكليف والمسؤولية.

---

1 أنظر ، نعمان عبد الرزاق السامرائي ، في التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص 102

9 - التكليف و المسؤولية :

أ حقيقة التكليف و طبيعته:

ان الانسان هو الكائن الذي اختاره الله ليكون خليفة في الأرض، وفق أوامره تعالى و نواهيه، مع ما أعطاه الله من عقل وإرادة و حرية ميزه بها عن بقية المخلوقات ، التي تطيع الله تعالى طاعة جبلية ، وهذه المقومات هي أساس التكليف والمسؤولية . يقول سيد : << و في التصور الاسلامي إعلاء من شأن الارادة في الانسان فهي مناط العهد مع الله ، و هي مناط التكليف و الجزاء >> [1]. وهو المعنى الذي أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى : « **إنا عرضنا الامانة على السموات و الارض و الجبال فأبين أن يحملنها و أشفقن منها و حملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا** » الأحزاب 72. ولاشك أن الحكمة من التكليف لا تظهر إلاعندما يكون المكلف يملك إمكانية الأداء وعدمه ، وإمكانية الوفاء والخيانة في الوقت نفسه. ومهما يكن اختلاف المفسرين في معنى هذه الأمانة وحقيقتها ، فإنه يمكنهم الاتفاق على أمر أساسي يقلص هوة الاختلاف بينهم ، وهو أن الامانة تتضمن معنى التكليف والطاعة . ذلك أن الوظيفة التي ناطها الله بالانسان في هذه الحياة هي العبادة ، بالمفهوم الواسع والشامل لهذه الكلمة.

و يرى سيد قطب أن المقصود بهذه الامانة ، هي معرفة الانسان ربه ، والاهتداء إليه ، والاتصال به ، والالتزام بطاعته الكاملة[2]. و الفرق بين طاعة الانسان لربه ، و طاعة المخلوقات الأخرى له، كبيروذو أثر عميق في النفس وذو دلالة كبرى في الواقع ، ذلك أن طاعة الانسان واعية و مدركة ، وطاعة غيره جبلية أو غريزية أو طبيعية و من ثم كان الانسان مكلفا، و كان هذا التكليف رفعة للانسان و تكريما له.

لعل القرآن الكريم إنما عبر عن التكليف بالأمانة لما بينهما من الاشتراك . فإذا كانت الامانة إيداع شيء عند مؤتمن يوجب المحافظة عليه ، مع أدائه كامل عند الاستحقاق. فإن التكليف في حقيقته إيداع لأوامر الله تعالى و نواهيه عند الانسان المكلف وهو مأمور بالمحافظة على هذه التكاليف من دون أن يزيد فيها أو ينقص منها، و الالتزام بها و تطبيقها ، كما بلغها و طبقها الرسول صلى الله عليه وسلم.

---

1 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 61/1

2 أنظر ، المصدر نفسه ، 2885/5-2886

ان قيمة التكليف تكمن فيما يتضمنه من مشقة. و قد قال علماؤنا إن المشقة أساس التكليف. و التكليف في اشتقاقه مأخوذ من الكلفة ، وهي تحمل ما يشق على النفس. والحقيقة أن الكلفة والمشقة غير آتية من جهة المكلف به من الأمر أو النهي، ذلك أن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها . ولكنها آتية من جهة ضعف الانسان وجهله. ولذلك يطمئن المؤمن إلى رحمة الله وعدله ، لعلمه وإحساسه بأن هذه التكاليف << داخلة في طوقه ، ولولم تكن داخلة في طوقه ما كتبها الله عليه ، فإن ضعف مرة أو تعب مرة ، أو ثقل العبء عليه ، أدرك أنه الضعف لا فداحة العبء >>[1]. بل إن التكاليف هي التي تخفف على الانسان أعباء الحياة و مشاقها ، و قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهرع إلى الصلاة كلما حزبه أمر ، و يقول : أرحنا بها يا بـلال. وإذا كان المسيحيون إنما كتبوا الترهبن على أنفسهم هربا من ضغط الحياة ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم جعل رهبانية أمته الجهاد في سبيل الله تعالى، و هو أشق أنواع التكاليف، لأن فيه هلاك النفس و المال.

إن التكليف ليس إرهاقا للانسان، و ليس قطعا للطريق أمامه ، حتى لا يتمتع بالطيبات ، ولا يلبي جميع رغباته وشهواته. بل هوفي حقيقته ومغزاه تربية للانسان وإرادته ، وتمييز له عن الحيوان . إذ لابد للانسان أن يتغلب على ضعفه ، سواء في ذلك ضعفه الجسماني، أوضعفه النفساني، ولابد للانسان أن يعلي في نفسه نفخة السماء، و يتسامى بها على الطين وثقلته ، وذلك لا يكون إلا بالتكليف . يقول سيد قطب معلقاعلى منع آدم من الأكل من الشجرة << فبغير محظور لا تنبت الارادة، ولايتميزالانسان المريد من الحيوان المسوق، ولا يمتحن صبر الانسان على الوفاء بالعهد و التقيد بالشرط >>[2].

لقد كان التكليف هو الأمر الذي أصدره الله للانسان، في الملإ الأعلى بعد انتهاء " حفل التكريم " ، كما أخبر بذلك القرآن الكريم : « **وقلنا يآدم اسكن انت و زوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين** » البقرة 34. وهذا إن دل على شيء ، فإنما يدل على قيمة التكليف وأهميته بالنسبة للإنسان.

وإذا كان التكليف في حقيقته هو الطاعة والعبادة ، فإن العبادة في المفهوم الاسلامي تتضمن العمارة . والانسان مكلف من قبل الله تعالى بعمارة الأرض كما هو مكلف بأداء الشعائر التعبدية ، سواء بسواء . وهو المخلوق

---

1 المصدر نفسه ، 1/344

2 المصدر نفسه ، 1/58

الوحيد الذي شاءت إرادة الله تعالى أن تسلمه - زمام هذه الأرض، و تطلق فيها يده، و تكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع و التكوين، و التحليل و التركيب، و التحوير و التبديل، و كشف ما في هذه الارض من قوى وطاقات [1]. وهذه القيمة التي تعطيها العقيدة الاسلامية للتكليف، وهذا التصور الذي تنشئه لدور الإنسان هو في حقيقته دليل على صلاحية هذه العقيدة للإنسان، وصلاح الإنسان بهذه العقيدة ، وهو في الوقت نفسه أحسن رد على أولئك الذين يلمزون الدين بأنه مخدر للشعوب ، وأنه يدعوا إلى التبطل والترهبن . وإذاكان هذا الزعم يصدق على المسيحية كما صورتها الكنيسة في وقت من الأوقات. فإنه لا يصدق على دين الله عموما ، والرسالة الخاتمة خصوصا.

وإذا كانت بعض المذاهب الوضعية تقوم على فلسفة مفادها أن الانسان مكلف ، فإنما هو التكليف بالعمل للدنيا، دون العمل للأخرة . ومن ثم نراهم يقدسون العمل، و لكن العمل لأجل الانتاج المادي . وكأن المادة هي إلـههم. و مثلما تغفل هذه المذاهب التكليف بمعناه الصحيح و الأصيل ، أي عبادة الله تعالى و طاعته ، بالتزام أمـره ، و الانتهاء عن نهيه ، والوقوف عند حدوده ، من خلال مجاهدة كبيرة و مستمرة للنفس، للتغلب على أهـوائـها و ضعفها، قلت مثلما أغفلت هذه المذاهب هذا المفهوم أغفلت، بل جحدت مسؤولية الانسان عما كلف به أمام الله تعالى . وإن أقرت ببعض المسؤولية المدنية.

إن التكليف في التصور الاسلامي تتبعه مسؤولية . فالانسان بما أنه مكلف فهو مسؤول عما كلف به ، ومحاسب عليه ومجازى ، بالاحسان إن أحسن، وبالإساءة إن أساء . و المسؤولية في التصور الاسلامي دنيوية وأخروية. فأما في الدنيا فإن الانسان يحاسب على أعماله أمام جهاز الحكم والقضاء . ولا يترك الانسان هملا دون حسيب ولا رقيب. يقول سيد : << و حين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاء حسنا و مكانا كريما و عـونا و تيسيرا ، ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبـة وإهـانة و جـفوة ، عند ئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصـلاح و الانتاج [2]. أما حين يعيث المفسدون في الأرض، ولا يجدون نكيرا من أحد، خاصة من طرف ولي الأمر ، فإن الشر يستشري ، و ربما انتقلت العدوى إلى من كان يمنعه الخوف أوالحياء.

---

1 المصدر نفسه ، 56/1

2 المصدر نفسه ، 2201/4

ان الاسلام لا يقول كما تقول النصرانية : (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر). و لا يقول كما يقول اليهود:(ليس علينا في الاميين سبيل). ولكنه يقر العدل و يأمر بالاحسان. قال تعالى: ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين** ﴾ النحل 126.

واذا كانت المسؤولية و الجزاء في الاسلام يتم طرف منه في هذه الدنيا فإن الطرف الآخر، والمسؤولية الكاملة، والجزاء التام لا يتم إلا يوم القيامة . وصدق الله القائل:﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ﴾ الزلزلة 8-9. إن المسؤولية و الجزاء الأخروي مرتبط بالمسؤولية والجزاء الدنيوي ، سواء في ذلك المحسن والمسيئ ، لأن حساب الدنيا قد يخطئ أو يقصر . أما حساب الآخرة و جزاؤها فهو القسط . وما << يناله الانسان من شيء في هذه الارض ليس نصيبه كله، إنما هو قسط من ذلك النصيب . وما يفوته هنا من الجزاء لا يفوته هناك ، فلا ظلم ولا بخس ولا ضياع >>[1].

إن العقيدة الاسلامية واضحة و منطقية في هذه المسألة ، كما هي واضحة و منطقية في كل المسائل. فهي تجعل المسؤولية فردية ، والجزاء فرديا، في كل عمل يزاوله فرد، أو يكلف به . و من ثم فكل إنسان يتحمل بمفرده تبعات أعماله وتصرفاته ، ومثلما لا يؤاخذ الانسان بكسب غيره، فإن غيره لا يتحمل عنه شيئا. قال الله تعالى: ﴿ **...ولا تزر وازرة وزر أخرى...** ﴾ الاسراء15. يقول سيد : << و ما من نفس تحمل وزر أخرى، و ما من أحد يخفف حمل أحد ، إنما يسأل كل عن عمله، و يجزى كل بعمله و لا يسأل حميم حميما >>[2].لقد كان المشركون يعتقدون الشفاعة في الملائكة والاصنام عندالله ، والنصارى يعتقدون أن عيسى عليه السلام هو المخلص، وغير ذلك من الظنون والأوهام التي يعتقدها غيرهم . والاسلام يقرر أنه << ليست هناك خطيئة موروثة في الاسلام، كالتي تتحدث عنها تصورات الكنيسة. كما أنه ليست كناك كفارة غير الكفارة التي تؤديها النفس عن نفسها >>[3].

وهذا لا يعني أن سيدا ينفي الشفاعة، التي أثبتها الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام، كما أثبتها لبعض المؤمنين بل يثبتها[4]، ولكن بعد تقرير فردية التبعة، التي تشهد بها النصوص الشرعية الكثيرة، بل و يشهد بها حتى العقل المجرد. وشعور الإنسان بأنه مكلف يضفي عليه إكراما. وإدراكه بأنه مسؤول له آثار نفسية ذات قيمة في حياته.

---

1 المصدر نفسه، 11/1-12

2 المصدر نفسه، 2217/4

3 المصدر نفسه، 755/2

4 أنظر: المصدر نفسه، 2375/4

ب - الأثر التربوي للايمان بالتكليف و المسؤولية :

1 - **الارتقاء النفسي** : إذا كان الانسان قد أعطي قابلية الارتقاء والسمو، فإن التكليف هو أحسن وسيلة لتحويل هذه القابلية إلى واقع ملموس، ذلك أن التكليف مبني على المشقة ، و مجاهدة النفس، والعمل على إيجاد التوازن بين أشواقها ورغباتها. فكلما جاهد الانسان نفسه كلما ازداد ايمانا واهتداء و تربية ، و حصلت له من المعارف والمشاعر والقدرات ما لم يحصل له من قبل ، وما لم يحصل لغيره.

2- **تحقيق القيمة الانسانية** : فالانسان بغير تكليف لا يفرق في شيء عن الحيوانات والجمادات . وإذا كان الانسان عبدا الله بالاضطرار، فهو كذلك ابن ارادته ، يملك أن يصنع [illegible] نفسه الصنعة اللائقة به كانسان مكرم ، إذا راعى تكاليف الله تعالى وأوامره ، أما إذا تحلل منها فإنه ينتكس ، ويرتد إلى أسفل سافلين ويصير أبخس مخلوق [1].

3- **الرضى و عدم التبرم** : إن إيمان الانسان بأنه مكلف بما في طوقه ،وعلمه بأن الله لم يجعل عليه في الدين من حرج، كل ذلك يملأ نفسه رضى عن الله تعالى و تكاليف هذا الدين، وذلك بتصوره << رحمة ربه وعد له في التكاليف التي يفرضها الله عليه في خلافته للأرض، و في ابتلائه في أثناء الخلافة >>[2].

4 - **الخوف و الطمأنينة** : فالانسان الذي يعلم أن الله محاسبه على كل ما يصدر منه ، وإن كان متناهيا في الصغر ، يخاف من هذا اليوم. و لكنه في الوقت نفسه يطمئن إلى حكم الله وعد له وإحسانه لعلمه أن الله تعالى لا يحمله أوزار غيره. وفي الوقت نفسه وعده بالعفو والمغفرة، والله لا يخلف الميعاد. وإدراك هذه الحقيقة << يثير في كل قلب شعور الخوف وشعور الطمأنينة . الخوف من عمله وكسبه، والطمأنينة من أن لا يحمل تبعة غيره >>[3]. وهذا الشعور المزدوج هو الذي يقيم النفس والقلب علىصراط مستقيم،فلا يتملكهما الخوف إلى درجة اليأس والقنوط ، ولاتنسيهما الطمأنينة إلى حد الغفلة والتهاون. وذلك ما يدعوه إلى حسن المراقبة والمحاسبة. تلك هي بعض الآثار النفسية والتربوية التي يطبعها في حس المؤمن ونفسه شعوره بأنه مكلف من قبل الله تعالى. وبهذه الجولات بين التصور الإيماني للإنسان والتصورات الوضعية، ننهي حديثنا عن الإنسان سيدالكون وعمدته.

---

1 أنظر ، سورة الشعراء ، الآيتين 175-176

2 سيد قطب ، المصدر السابق ، 344/1

3 المصدر نفسه ، 755/2

ثـــــانيـــا : الـــكـــــون :

مـــقـــدمـــــة:

إذا كان القرآن جاء بالأساس إلى الانسان، ليكون مصدره في معرفته بربه ، ودستوره في تنظيم حياته ، وبذلك كان الانسان من أهم موضوعاته الاساسية، فإن حديث القرآن عن الكون لا يقل أهمية عن حديثه عن الانسان.

1- حـديـث الـقـرآن عـن الـكـون:

لا تكاد تخلو سورة من سور القرآن الكريم من الحديث عن الكون، ومظاهره العلوية والسفلية ، بل إن كثيرا من السور أخذت أسماءها من مفردات هذا الكون و مظاهره، كسور: الشمس، القمر، الليل، الفجر، الضحى ، الانشقاق ، الانفطار ، الحديد ، البقرة ، الأنعام، الزلزلة، العنكبوت، النمل، النحل، الكهف، وغيرها من السور . و قد اتخذ القرآن الكريم الكون مادة للتبصرة والتذكرة . كما في قول الله تعالى : ﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها و زيناها و مالها من فروج. و الارض مددناها و ألقينا فيها رواسي و أنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة و ذكرى لكل عبد منيب** ﴾ ق6/8.يقول سيدقطب: << وعلى مشهد السماء المبنية المتطاولة الجميلة، و الارض الممدودة الراسية البهيجة يلمس قلوبهم >>[1]. فتتكشف الحجب التي كانت تغطي بصائرهم، فيعرفون الحق الذي نطق به القرآن مثلما ينطق به الكون. و كما يتخذ القرآن من مفردات الكون مادة للايمان بالله ، و ترسيخه في النفوس، و نفي الشرك، وإبطال مزاعم المشركين ، يتخذ أيضا من حادثاته مادة لاستجاشة الفطرة ، واستحياء عوامل الرغبة والرهبة ، والخوف والطمع والوجل من الله تعالى، فهو دائما وأبدا << يوجه القلوب والأنظار توجيها مكررا مؤكدا إلى هذا الكتاب المفتوح. الذي لا تفتأ صفحاته تقلب فتتبدى في كل صفحة آية موحية >>[2].

يعتبر القرآن الكريم النظر إلى الكون، والتفكر في خلق الله ،المبثوث في هذا الكون، من صميم العبادة . ومن هنا قال القرآن الكريم : ﴿ **إن في خلق السماوات و الارض و اختلاف الليل و النهار لآيات لأولي الالباب . الذين يذكرون الله قياما و قعودا و على جنوبهم و يتفكرون في خلق السماوات و الارض ربنا ما خلقت هذا باطلا**

1- المصدر نفسه ، 3359/6

2- المصدر نفسه ، 544/1

سبحانك فقنا عذاب النار » آل عمران 190-191. ومن هنا دعا النبي صلى الله عليه وسلم بالويل على من قرأ هذه الآيات ثم لم يتدبرها .

إذا كان الكون باتقانه وإحكامه وتناسقه يدل على عظمة الخالق وحكمة الصانع، فإن فساده هوالعلامة الكبرىعلى مجيئ يوم القيامة . ومن هنا كان القرآن الكريم يذكرالانسان دائما بالفساد الذي يلحق هذا الكون ، والزلزلة العظيمة التي تخلخل أركانه ، والدوي الهائل الذي يقطع هدأته . والكيفية التي يصور بها القرآن الكريم هذه الحوادث العظيمة، تجعل مجرد تصور وقوعها، والصدمة القوية التي تحدثها، كفيلة بإعادة الوعي للانسان، الذي كثيرا ما يفقد هذا الوعي بسبب الإلف والعادة . وفي مثل هذا الموقف نقرأ قول الله تعالى:« **إذا الشمس كورت. وإذا النجوم انكدرت. وإذا الجبال سيرت... علمت نفس ما أحضرت** »التكوير 01-14.وغيرها من النصوص.

إن الآيات التي تتحدث عن الكون عديدة، و متنوعة الاغراض و المقاصد. و إذا كان القرآن الكريم ميسرا للذكر فإن الله تعالى جعل الكون ميسرللتدبر والتفكر كذلك . وفي هذا المعنى يقول سيد: << إن هذا الكون هو كتاب الحق المفتوح ، الذي يقرأ بكل لغة ، و يدرك بكل وسيلة ، و يستطيع أن يطالعه الساذج ساكن الخيمة و الكوخ، و المتحضر ساكن العمائر و القصور >>[1]. و ما كانت عناية القرآن بالكون لتبلغ هذه الدرجة لولا أنه يدل على الله و يهدي إلى الحق.

2- دلالة الكون على الله :

مثلما يدل القرآن بآياته الناطقة على الله تعالى، يدل الكون بمشاهده البادية على الله عز وجل كذلك. ولذلك جمع الله تعالى بين الآيات القرآنية والآيات الكونية لدلالتها علىوحدانيته ومظاهر قدرته تعالى ، كما في صدر سورة الجاثية. قال تعالى:« **حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم. إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين.** » الجاثية 1-2. فكما أن القرآن منزل من عند الله، دال على ربوبيته وألوهيته، فكذلك الكون. يقول سيد:<< إن أي كلام لن يبلغ كلام الله في القرآن. و إن أي إبداع لن يبلغ إبداع الله في الكون >>[2]. فالكون بذاته دال على الله تعالى ، وإتقان مفرداته وإحكام نظامه دال على قدرته وحكمته البالغة .

---

1 المصدر نفسه ، 3360/6

2 المصدر نفسه ، 3224/5

ان من أوليات المنطق العقلي، أن الحادث دال على المحدث، ولذلك اتخذ القرآن الكريم أدلته من الكون، ليقرر بها المشركين ، ويلزمهم الحجة . وقد اخبرنا الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام كيف أبطل عبادة الكواكب التي كان قومه يعكفون عليها، و بين لهم أنها ليست آلهة، و لكنها مخلوقة لله تعالى، لا تنفع ولا تضر. وصدق الله القائل : « **ومن ـ ايـاته الـيل والـنـهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون** » فصلت 36.

حين يبتعدالإنسان عن المنهج الالهي، قد يغفل عن أبسط الأشياء وأبدهها ، ومن ذلك دلالة المخلوق على الخالق، بل قد يضل فيتخذ المخلوق إلها من دون الخالق . والنظر في الكون، وتملي مشاهده للاستبصار، يعصم الإنسان من التردي الى هذا القرار السحيق. ولذلك كان المنهج الالهي يدعونا دائما إلى النظر ، لأن مصاحبة الكون بالتدبر والمشاهدة ـ كمايقول سيد ـ << تنبه الإدراك البشري إلى معرفة الصانع من صنعته ، وإجلاله بإدراك عظمته من عظمة صنعته وحبه بإدراك عظمة أنعمه >>[1]. فهذا الكون يدل على الله تعالى من حيث وجوده، ومن حيث ربوبيته وألوهيته ، وصفات هذه الالوهية والربوبية . وإذا كانت الرواسب الفكرية قد تطمس الفطرة القويمة، فإن كتاب الكون المفتوح ينورها ويبصرها. ولذلك كان المنهج القرآني يتخذ << من هذا الوجود مجاله الاول لتجلية حقيقة الالوهية >>[2]. علىأن عناية القرآن بالكون لم تتوقف عند هذا الحد الذي سبق بيانه ، بل تعدت ذلك لبيان صلة الله بالكون، وهي صلة الخالق بالمخلوق، والسيد بالعبد .

3صـــلـــة الـلـــه بـالـكـون :

إذا كانت الفلسفات الضالة تزعم أن الكون خلق صدفة ، أوعلى أكثر تقديرأن الله خلق مادته الأولى ثم تركه لعمليات الكون والفساد الطبيعية . فإن القرآن الكريم يرتفع فوق هذه المزاعم الباطلة ، ليؤكد حقيقة مطلقة ، وهي أن هذا الوجود عبارة عن معادلة ، طرفاها خالق و مخلوق. فالله هوالخالق، وما سوى الله فمخلوق، وليس هناك مشابهة بينهما، وليس هناك نسب يجمعهما ، فالصلة إذا بين الله تعالى و الكون هي صلة الخالق بالمخلوق، فالله تعالى هو خالق هذا الكون بأسره. قال تعالى : « **الحمد لله فاطر السموٰت و الارض جاعل الملئكة رسلا أولي أجنحة مثنى و ثلاث و رباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيئ قدير** » فاطر 01. فهو منشئ هذه

---

1 ـ سيد قطب ، خصائص التصور الإسلامي و مقوماته ، ص 142

2 ـ سيد قطب ، المصدر السابق ، 1805/3

الخلائق الهائلة، ما نرى منها وما لا نرى. ولم يستطيع أحد من الاولين والاخرين أن يدعي خلق أي شيء،لأنه يعلم أن ذلك من اختصاص الله تعالى، وهو القادر على ذلك وحده . وقد تحدى القرآن الكريم المشركين أن يأتوا بما خلقت آلهتهم التي يدعون من دون الله .فقال تعالى: ﴿ **وأذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين** ﴾ لقمان 10.

إن هذا الكون لم يأت صدفة، ولم تقتضه العوامل الطبيعية ، إنما خلقه الله تعالى بكلمة "كن" فكان . ومن ثم فهو ملك الله تعالى، يتصرف فيه كيف يشاء ، فهو ربه ومليكه ومليك كل شيء ، وليس لأحد أن ينازع الله في شيء من هذا الكون . قال تعالى:﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ الفاتحة 01. وقال تعالى : ﴿ **الحمد لله الذي له ما في السماوات و ما في الارض و له الحمد في الاخرة و هو الحكيم الخبير** ﴾ سبأ 01. ويشرح سيد مدلول هاتين الآيتين فيقول: << فليس لأحد معه شيء، و ما لأحد في السماوات والارض من شرك، فله سبحانه كل شيء فيهما >>[1] ، و هذه الحقيقة المقررة ذات مدلول كبير وأثر عظيم. فإذا كان الله هو الخالق لكل شيء والمالك له كان الخضوع لغير الله تعالى خرافة وإثما عظيما.وفي تقرير هذه الحقيقة إثبات للتوحيد وإبطال للشرك .

إن صلة الله بالكون لا تقتصر على الخلق والإبداع فقط، ولكن تمتد للإشراف على تسييره وتنظيم حركته، ليؤدي الدور الذي خلقه الله من أجله ، ذلك أن الله تعالى لم يخلق هذا الكون عبثا، وإنما خلقه بالحق. وصدق الله القائل: ﴿ **و ما خلقنا السماء و الارض و ما بينهما باطلا...** ﴾ ص26 . وقد حفظ الله هذا الكون ابتداء بإحكام الصنعة وإتقان البناء، كما حفظه من خلال الناموس الذي يحكمه، والقانون الذي يضبط حركته قال تعالى ﴿ **... ويمسك السماء أن تقع على الارض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم** ﴾ الحج 63. يقول سيد : << و الله سبحانه يمسك السماء أن تقع على الارض بفعل ذلك الناموس الذي يعمل فيها ، وهو من صنعه ، إلا بإذنه ، و ذلك يوم يعطل الناموس ، الذي يعمله لحكمة ويعطله كذلك لحكمة >>[2]. وكما يحفظ الله تعالى الكون من الزوال والفساد إلا بإذنه ، فهو ـ سبحانه ـ القيم عليه بعلمه وحكمته ، وإرادته وقوته ، قال تعالى:﴿ **الشمس و القمر بحسبان** ﴾ الرحمان 03. ومن إيحاءات هذه الآية ومثيلاتها << تتجلى دقة التقدير، في تنسيق التكوين و الحركة >>[3] .

---

1 المصدر نفسه ،2891/5

2 المصدر نفسه ، 2441/4

3 المصدر نفسه ، 3448/6

فلا خلل و لا اضطراب و لكن حكمة و تقدير . لأن الله تعالى هو الذي يسير الكبيرة والصغيرة في هذا الكون، كما قال تعالى : **يدبر الامر من السماء إلى الارض...** » السجدة 04. فما يحدث من خير في هذا الكون فمن الله، وما يحدث فيه من شر فمن الله كذلك. وليس للطبيعة إلا أن تستجيب لأمر الله تعالى، وللنواميس التي حكمها فيها ، – وهي من أمر الله – وذلك من شأنه أن ينفي العفوية والمصادفة والضرورة في كل ما يجري في الكون[1].

إن الكون – على ضخامته – ليس أكثر من عبد لله تعالى ، وإذا كان الانسان يملك أن يعصي في بعض الأحيان فإن الكون لا يملك إلا أن يطيع . قال تعالى : « **ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها و للارض ايتيا طوعا او كرها قالتا أتينا طائعين** » فصلت 10. يقول سيد تعليقا على هذه الآية :<< إنها إيماءة عجيبة إلى انقياد هذا الكون للناموس ، وإلى اتصال حقيقة هذا الكون بخالقه اتصال الطاعة والاستسلام لكلمته ومشيئته >>[2]. هذه الاستجابة المطلقة من الكون لله تعالى ، ترتقي إلى درجة العبادة، وإلى أسمى مظاهر العبادة، وهي التسبيح بحمد الله والسجود لعظمته و جلاله، كما قال تعالى: « **ألم تر أن الله يسبح له من في السموات و الارض والطير صافات كل قد علم صلاته و تسبيحه و الله عليم بما يفعلون** » النور 40 . يقول سيد:<< وإن الكون ليبدو في هذا المشهد الخاشع متجها كله إلى خالقه، مسبحا بحمده، قائما بصلاته وإنه لكذلك في فطرته>>[3] لأن العلاقة التي تربطه بالله تعالى هي علاقة العبودية المطلقة ، وهي العلاقة ذاتها التي تربط الانسان بالله تعالى. ذلك أن الكون والانسان يشكلان في واقع الأمر وحدة مترابطة و متناسقة.

4- الوحدة بين الانسان و الكون :

إذا كان الإنسان يختلف اختلافا جوهريا عن الكون ، فإن وراء هذا الاختلاف وحدة متينة . وحدة في الخلق والنظام والوظيفة والمصير .إن خالق السماوات والارض، وخالق الوجود كله، هو خالق الانسان. وكل واحد من هذه المخلوقات تعلقت به إرادة الله تعالى فكان، على الهيئة والطبيعة التي أراده الله تعالى أن يكون عليها . وكثيرا ما نجد القرآن الكريم يربط بين خلق الانسان و خلق الموجودات الكونية الأخرى، ليبين لنا الصلة الكاملة بين الانسان والكون من حيث المأتى، كما في قوله تعالى : « **إن ربكم الله الذي خلق السموات والارض في**

1- أنظر ، المصدر نفسه ، 1299/3

2- المصدر نفسه ، 3114/5

3- المصدر نفسه ، 2522/4

سنة أيام ثم استوى على العرش يغشي اليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين » الاعراف 54. فهذه الآية تجمع بين خلق الله تعالى للانسان وخلقه للكون، فربنا هو رب الشمس والقمر والنجوم وغيرها من المخلوقات، الكل صادر عن الله تعالى.

إن من مظاهر الوحدة بين الانسان والكون، أن الله تعالى جمع في هذا الانسان ما تفرق في الكون من عناصر مختلفة، ففي الانسان عناصر التراب، وفيه طبع ملائكي كما فيه طبع شيطاني، وفي الانسان غرائزحيوانية، كما فيه خصائص نباتية ، وكلماتطور العلم كلما كشف لنا جديدا عما بين الانسان ومفردات الكون الأخرى من صلة واتحاد، فيعمق إيماننا بالوحدة بين الانسان والكون.

مثلما هناك وحدة بين الانسان والكون من حيث الخلق ، هناك أيضا وحدة بينهما من حيث النظام الذي يضبط حركتهما. وإن أختلفت شريعة كل واحد منهما في الظاهر بسبب اختلاف طبيعة الانسان الحر المريد، عن طبيعة الكون المستسلم المنقاد. وإذا كان سيد قطب لم يفتأ ينبه في كتبه الفكرية على هذه الوحدة التنظيمية، فإنه خصص لها فصلا كاملا في المعالم تحت عنوان:" شريعة كونية " أكد فيه هذه الحقيقة وفصلها تفصيلا، ومما جاء فيه قوله : << إن هذا الوجود كله من خلق الله ، اتجهت إرادة الله إلى كونه فكان ، وأودعه الله – سبحانه – قوانينه التي يتحرك بها، و التي تتناسق بها حركة أجزائه فيما بينها، كما تتناسق به حركته الكلية سواء >>[1].

والانسان بطبيعة الحال مفردة من مفردات هذا الوجود ، تحكم كيانه نواميس من وضع الله تعالى تتسق حركته مع حركة بقية المفردات الوجودية الأخرى، لا فرق بين كبيرها وصغيرها ، لأن النظام الذي يسير المجرة هو نفسه النظام الذي يسير الذرة. وهو نظام موافق لنشاط الإنسان والمتمثل في وظيفة الخلافة .

زيادة على الوحدة بين الانسان و الكون من حيث النظام الذي يسير كيانهما ، هناك مظهر آخر من مظاهر هذه الوحدة، و يتجلى في الوحدة بين نظام الكون و شريعة الانسان المنزلة. وإذا كان الله تعالى أودع الإنسان قوانين وسننا تنظم سير كيانه البيولوجي والنفسي، فإنه أنزل إليه شريعة تنظم علاقته بالله والإنسان والوجود من حوله. وهذه الشريعة إن كانت تبدو عند النظرة الأولى قانونا ينظم العلاقة بين الانسان وربه ، أي علاقة العبد بالمعبود، و هي كذلك ، فإنها أيضا ذات صلة كبيرة مع النظام الكوني ، ويوضح سيد قطب هذه الصلة العضوية بينهما

---

1 – سيد قطب ، معالم في الطريق ، ص 109

فيقول: « و ما من كلمة من كلمات الله ، ولا أمر ولا نهي، ولاوعد ولا وعيد، ولا تشريع ولا توجيه إلا هي شطر من الناموس العام، و صادقة في ذاتها صدق القوانين التي نسميها القوانين الطبيعية»[1]. فلايصح إذا أن نميز بين عناصر النظام الإلهي ،وإن جاز هذا التفريق فلمجرد بيان اختلاف طبيعتهما الظاهرية، علىأن يوحد الفكر والقلب بينهما، فننظر إليهما على أساس أنهما شريعة واحدة. هذه وضعت لتحكم الوجود في جانبه المادي، اللإرادي ، وتلك لتحكمه وتنظم جانبه الواعي الارادي (الانسان). إن شريعة الله المنزلة لا تستهدف فقط تنظيم وتقنين أعمال الإنسان ونشاطاته الأخروية، ولكن، وبالموازاة ، مع ذلك جاءت لتنظيم أعماله و شؤونه الدنيوية ، في علاقته مع أخيه الانسان، و علاقته مع الكون عموما.

إن الالتزام بشريعة الله كما هو واجب لتحقيق العبودية لله تعالى ، هو كذلك واجب لتحقيق التناسق مع الكون.

« و من ثم توحدالنظرة الاسلامية بين الحق الذي يقوم عليه هذا الدين، والحق الذي تقوم عليه السماوات والأرض، و يصلح عليه أمر الدنيا و الآخرة »[2]. وقد أكد القرآن الكريم أن اتباع أهواء الناس يفضي إلى فساد السماوات و الأرض. و تلك إشارة تؤكد الوحدة العضوية بين الحق الذي تقوم عليه شريعة الله للبشر، والحق الذي يقوم عليه نظام الكون، قال تعالى :« **ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والارض ومن فيهن...** » المومنون 72. فالحق إذا واحد، سواء كان في صورة قوانين كونية، أو شرائع سماوية .

من هذا المنطلق يرى سيد قطب ضرورة الالتزام بشريعة الله تعالى، وعدم الخروج عليها. ومن المنطلق ذاته يرى أن الانسان مهما كان ذا ثقافة واسعة، وفكر ثاقب، لايستطيع أن يضع لنفسه شريعة تنظم حياته، و تجعلها متناسقة مع الوجود من حوله ، وذلك بسبب عدم إحاطة الانسان بجميع السنن الكونية، و أطراف الناموس العام. و ما من مرة حاول الانسان أن يستعيض عن شريعة الله المنزلة بشريعته الوضعية ، إلاوحصل الفصام النكد بين فطرته ، التي هي طرف من شريعة الله وحياته. و وقع الشقاق بينه وبين الكون من حوله. إنه مهما بلغ الانسان من درجة عالية ، و مرحلة متقدمة في تسخير الكون ، من خلال كشف سننه و نواميسه ، فإنه يبقى في أمس الحاجة إلى شريعة الله تعالى ليعرف من خلالها كيف يعيش مع هذا الكون في صداقة وأنس تامين .

1- المصدر نفسه ، ص 111

2- المصدر نفسه ، ص 113

إن ما أفرزته الحضارة الغربية اليوم من مشكلات بيئية وإيكولوجية ، إذا كان بعض أ سبا به الاستعمال المستمر للطبيعة ، فإن سببه الرئيسي الاستعمال المفرط وغير الطبيعي للطبيعة، أين يهتم الانسان بتحقيق سعادته و رغبته الأنية، و لو على حساب سعادة الآخرين، وعلى حساب الطبيعة. يقول سيد :<< يتحقق الخير للبشرية عن طريق اهتدائها و تعرفها في يسر إلى أسرار هذا الكون. والطاقات المكنونة فيه ، والكنوز المذخورة في أطوائه ، و استخدام هذا كله وفق شريعة الله، لتحقيق الخير البشري العام ، بلا تعارض و لا اصطدام >>[1]. ومن هنا يخطئ من يظن أن شريعة الله تعني الانسان في التعرف على الكون، و اكتشاف نواميسه ، بله أن تصده عن اكتشافها . كما يخطئ ايضا من يظن أن التعرف على الكون و تطويعه يغني الانسان عن الالتزام بشريعة الله تعالى، بله أن يكون ذلك متعارضا معها .

إذا كانت الوحدة بين الانسان و الكون تتجلى في وحدة المصدر ، و وحدة النظام ، فإنها تتجلى كذلك في وحدة الوظيفة والمهمة. فهذا الوجود كما قلنا من قبل، معادلة طرفاها خالق ومخلوق، أوعابد ومعبود. فالله هو الخالق و المعبود، و ما سواه مخلوق عابد، مصداقا لقول الله تعالى : ﴿ **و لله يسجد من في السموات و الارض طوعا و كرها و ظلالهم بالغدو و الاصال** ﴾ الرعد 16. و لقوله تعالى: ﴿ **يسبح له السموات السبع و الارض و من فيهن و إن من شيء إلا يسبح بحمده و لكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا** ﴾ الاسراء 44. فإذا كان كل شيء يسجد لله تعالى ويسبح بحمده. فإن الانسان واحد منها. وبالتالي فهو يملك، بما أعطاه الله من حرية الاختيار ألا يسجد لله، و من هنا خصه الله تعالى بالذكر في قوله سبحانه :﴿ **و ما خلقت الجن و الانس إلا ليعبدون** ﴾ الذاريات 56.

إن النصوص الشرعية و هي تصور هذه الحقيقة ، حقيقة سجود كل شيء لله تعالى ، بما في ذلك الظواهر الطبيعية ، كالريح والرعد والمطر وغيرها، تنفخ الروح، حتى في الجمادات، فيتمثلها العقل و كأنها كائنات عاقلة واعية، شأنها شأن الانسان. << و إذا الكون كله بما فيه من شخوص و ظلال جاثية خاضعة عن طريق الايمان أو غير الايمان سواء، كلها تسجد لله >>[2].

---

1 المصدر نفسه ، ص 113

2 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 2052/4

إن الماديين لا يرون في هذه الكون إلا مادته الصماء . ولا يتعاملون معه إلا في إطار مادته ، ولا يحبونه إلا بقدر ما يعود عليهم بمنافع مادية . أما أهل الايمان فهم ينظرون إلىهذا الكون على أنه أخو الانسان. حتى لتكاد النصوص الشرعية تجعل له روحا و سمعا و إدراكا و مشاعر . و هم لذلك يتعاملون معه على أنه مادة ، و لكن على أساس أنه عابد لله تعالى . وبقدر ما يعملون على تسخيره ، للانتفاع بخيراته ، فهم يتخذونه مجالا للنظر و الاعتبار ، مما يزيدهم معرفة بالله تعالى و يزيدهم إيمانا واهتداء. وإذا كان المسلمون اليوم فقدوا كثيرا من هذا الإحساس في نظرتهم للكون وتعاملهم معه ، فلأنهم ابتعدوا كثيرا عن هدي السماء ، الذي ألقى بهذا الشعور الندي في روع المؤمنين الأولين ، وما تزال آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم توحي بهذه المعاني لأصحاب العقول المتفتحة والقلوب المبصرة .

إن من أبرز مظاهر الوحدة بين الانسان والكون كونهما يقومان في هذه الحياة بوظيفة واحدة، هي وظيفة العبادة و الدينونة لله وحده. وكما أن الكون لايفتر من التسبيح بحمد الله تعالى ، فإنه بالإضافة إلى ذلك يتجاوب مع الإنسان المسبح بحمد ربه ، حين يبلغ مرتبة من صفاء النفس وشفافية الروح ، كما حدث ذلك مع داوود عليه السلام، قال تعالى :﴿ **و لقد ـ اتينا داوود منا فضلا يـ جبال أوبـي معه و الطير وألنا له الحديد** ﴾ سبأ 10.

يقول سيد رحمه الله ، تعليقا على هذه الاية : << و الآية تصور من فضل الله على داوود عليه السلام أنه بلغ من الشفافية و التجرد في تسابيحه أن انزاحت الحجب بينه و بين الكائنات، فاتصلت حقيقتها بحقيقته، في تسبيح بارئها وبارئه ، ورجعت معه الجبال و الطير ، إذ لم يعد بين وجوده و وجودها فاصل و لا حاجز ، حين اتصلت كلها بالله صلة واحدة مباشرة >>[1].

و لعل هذه الرتبة من الفضل لا يبلغها إلا الأنبياء ، إلى درجة أنهم يرون الملائكة عيانا ، على هيئتها كما حدث ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد يكرم الله تعالى بعض الآحاد من الناس فيكشف لهم ما لم يكشفه لغيره. فإذا لم يوفق الله الانسان لبلوغ هذه المنزلة العظيمة ، فلا أقل من أن يستصحب معه هذا الشعور الندي، شعور الوحدة بينه ككائن عاقل واع، و بين الكون غير العاقل في الخضوع لله تعالى و التسبيح بحمده.

1- المصدر نفسه ، 2897/5

إن شعور المؤمن بهذا التوجه الواحد، بينه و بين جميع المخلوقات كلها، إلى الله تعالى، فوق أنه حقيقة مستيقنة فإنه يزيده ايمانا، و يستجيش في نفسه الرغبة في طاعة الله و عبادته، كما يثير فيها دواعي الاستحياء من الله، الذي يقدره الكون غير الواعي، في حين يغفل ، أو يستنكف الانسان الواعي المكرم عن عبادته ، و تقديره حق قدره . و هو ما عناه سيد بقوله : << و حين تشف الروح و تصفو فتتسمع لكل متحرك أو ساكن و هو ينبض بالروح ، و يتوجه بالتسبيح ، فإنها تتهيأ للاتصال بالملإ الأعلى ، و تدرك من أسرار هذا الوجود ما لا يدركه الغافلون >> [1]. ذلك أن أسرار الكون و عجائبه لا يدركها الانسان بعقله فقط ، أو بالوسائل والأدوات الكاشفة ولكن بالروح أيضا حينما تصفو وتشف . و قد يؤتى الانسان عقلا ذكيا ، ولكن بسبب ظلمة روحه يغلق الله دونه أبواب هذا الكون ، و يسدل عليه أستاره ، فلا يهتدي إلى أسراره ، و لا يهتدي إلى خالقه و خالق أسراره. إن أجناس الوجود كلها لها نوع شعور و إحساس ، حتى إنها لتحب و تكره، و ترضى و تسخط ، وإن كنا نحن محجوبين عن ادراك طبيعة ذلك. و قد كان الشجر والحجر يسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد حن إليه الجذع الذي كان يخطب إليه، فلما اتخذ الرسول المنبر سمع له نحيب[2]. كل ذلك يدل على << أن الوجود كله خاضع لمنهج الله ، والوجود الخاضع لمنهج الله يحب الانسان الخاضع لمنهج الله ، و يأتلف معه، و ينسجم معه >>[3]. أما الانسان العاصي فإن الوجود لا ينسجم معه، ولا يرضى عنه ، واسمع إلى هدهد سليمان عليه السلام كيف ينكر على بلقيس وقومها عبادتهم للشمس من دون الله، رب السماوات و الارض. قال تعالى-حاكيا عن الهدهد-: « **وجدتها و قومها يسجدون للشمس من دون الله و زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون. ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات و الارض و يعلم ما يخفون و ما يعلنون** . » النمل 24-25.

مثلما يكون الانسان مع الكون وحدة من خلال العناصر سالفة الذكر ، فهو يكون معه أيضا وحدة في المنتهى و المصير ، فإذا كان مصير الانسان إلى انتهاء و فناء ، فكذلك مصير الكون كله . قال تعالى: « **كل من عليها فان. و يبقى وجه ربك ذو الجلال و الاكرام** » الرحمن 24-25. فهذا النص << يرسم مشهد الفناء الخاوي،

---

1 - المصدر نفسه ، 2231/4

2 - أنظر ، المصدر نفسه ، 2522/4

3 - محمد متولي الشعراوي ، القضاء و القدر ، ص 78

و سكون الموت المخيم بلا حركة >>[1]. الفناء الذي يلف بردائه كل كائن من الكائنات ، ماكان منها ذا روح أو غير ذي روح ، و يرسم في الوقت ذاته حقيقة البقاء، و لمن يكون.

إن كل من يستمد وجوده من غيره يموت و يفنى، و لا يبقى إلا القائم بنفسه، الحي القيوم. و إذا كانت ظاهرة الموت تنفذ في الإنسان كل يوم قضاء الله وقدره النافذ ، فإن هذا الكون يتعرض باستمرار لكثير من عمليات التغيير والتبديل، هي التي يسميها بعضهم عمليات الكون والفساد.وهي ليست في حقيقتها إلا صورة من صور الموت التي تعتري هذا الوجود باستمرار. أما الموتة الكبرى التي تنتظر هذا الكون ، فهي عند انفراط عقد نظامه واختلال توازنه ، وهي التي جعلها الله تعالى علامة لقيام الساعة ، كما أخبر بذلك القرآن الكريم في العديد من السور. كما في سورة التكوير و الانفطار و الانشقاق و الزلزلة و غيرها من السور.

لا يختلف فناء الانسان عن فناء الكون ، إلا من حيث أن الانسان موقوف يوم القيامة للحساب باعتبار أنه مكلف ، وأما الكون فقد حفظه الله تعالى من شدة السؤال ومحنة الموقف . ولذلك كان بعض الصحابة يتمنى أن لو كان تبنة ، أو أن أمه لم تلده ، لعلمهم أن الموقف عصيب ، والحساب شديد .

إذا كانت الوحدة بين الانسان والكون قائمة ، ومتجلية في أكثر من مظهر، كما سبق بيانه ، فإن لذلك أثرا في شعور الإنسان ، وأثرا في تعامله مع الكون باختلاف مفرداته .

5- أثر الوحدة بين الانسان و الكون في شعور الانسان و حياته :

يهدف التصور الاسلامي إلى إبراز الوحدة بين الانسان و الكون، و ملء فكر و شعور الانسان بها ، و من شأن ذلك أن يؤدي إلى التناسق والتوافق بين حركة الانسان و حركة الكون . غير أن ذلك لا يكون إلا بالتزام الانسان بشريعة الله ، كما يلتزم الكون بالنظام الذي يضبط حركته. يقول سيد :<< إن شريعة الله هي طرف من قانونه الكلي في الكون ، فإنفاذ هذه الشريعة لا بد أن يكون له أثر إيجابي في التنسيق بين سيرة الناس و سيرة الكون >>[2]. والحقيقة أن الالتزام بشريعة الله ، لا يحقق التوافق بين الانسان و الكون فقط ، و لكن مع الفطرة كذلك . ذلك أن الانسان إذا لم يكن ملتزما بشريعة الله، يحدث أن يصطدم أولاوقبل كل شيء مع فطرته السوية،

---

1 سيد قطب ، المصدر السابق ، 3454/6

2 المصدر نفسه ، 17/1

التي تؤمن بما يؤمن به هذا الكون العريض. ويجلي سيد قطب هذه الحقيقة، التي يدركها كل عاقل ، وكل مؤمن، فيقول : << والناس إما أن يعيشوا بمنهج الله هذا بكليته فهم في توافق مع نواميس الكون، و فطرة الوجود ، و فطرتهم هم أنفسهم . و إما أن يعيشوا بأي منهج آخر من صنع البشر ، فهم في خصام مع نواميس الكون ، و تصادم مع فطرة الوجود ، و مع فطرتهم هم أنفسهم بوصفهم قطاعا من هذا الوجود >>[1]. و حينما تشبع المسلمون الأولون بهذه الحقيقة ، وتشربوا معناها ، انساحوا في هذا الوجود ، مصاحبين له و مسخرين له ، و عاشوا معه في تناسق و توافق كاملين. و لم ينظروا إلى الكون على أنه عدو، و أنه في طبيعته معاد للوجود الانساني ، و من ثم لا بد من الصراع معه لقهره والسيطرة عليه . كما لم ينظروا إليه أيضا ، وهم يستصحبون معهم الشعور بأخوة الكون و صداقته – لم ينظروا إليه ـ على أساس أنه يستحق التقديس و التأليه، كما فعل ذلك بعض الناس، فعبدوا بعض المخلوقات ، كالشمس والقمر ، أو الحجارة والبقر ، وغيرذلك . فالمؤمن لا يشعر بالخوف والذعر من الكون ، حتى يقدسه ويعبده . وإنما يشعر بأخوته فيأنس به ، خاصة عندما يعلم أنه عبد لله تعالى مثله مثل الإنسان سواء بسواء .

إن هذا الكون ، الذي جعله الله مسرحا لخلافة الإنسان ، ليس مستعصي الولوج ، كما أنه ليس منكشفا إنكشافا . و هو الأمر الذي يفرض علينا ضرورة التعرف على سننه و نواميسه ، وتسخيره من خلالها ، تحقيقا لإرادة الله تعالى في الإستخلاف .

6- الكون مسخر للإنسان:

لما قضى الله تعالى باستخلاف الإنسان في الكون ، واستعماره في هذه الارض ، شاءت إرادته سبحانه وتعالى أن ييسر للإنسان وظيفته وأن يسهل عليه مهمته ، فجعل الكون ذلولا له ، حتى لا يجد مشقة في عمارة الأرض، وتنفيذ مشيئة الله تعالى فيها . وأمره بتسخيره واستعماله ، وذلك من فضل الله على الناس . وقد ورد التنبيه على هذا التذليل ، في معرض الإمتنان علي بني آدم ، في آيات كثيرة من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى :

﴿ **و سخر لكم ما في السموات و ما في الارض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ الجاثية 12.

1- سيد قطب ، المستقبل لهذا الدين ، ص 11

و قوله تعالى: « **هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها و كلوا من رزقه و إليه النشور** » الملك 15 . واذا كان الله تعالى قد سخر لنا مفردات الكون ، فقد سخر لنا ظواهره المختلفة كذلك . قال تعالى : « **و سخر لكم الليل و النهار...** » النحل 12. يقول سيدقطب:<< فلقد سخر الله لهذا الانسان ما في السماوات و ما في الارض من قوى و طاقات و نعم و خيرات مما يصلح له و يدخل في دائرة خلافته >>[1]. فهذا الكون مسخر للانسان بما يعطيه من خيرات، و بما يمكنه من نفسه دون اعتراض ، متى اهتدى الانسان إلى النواميس التي تحكمه ، والتي من خلالها يمكن تسخيره.

إن القانون الذي بني عليه الكون، و ضبطت به حركته ، أن الكون ينقاد للانسان طوعا ،متى أمسكه من زمامه، و ذلك إكرام من الله تعالى لهذا الانسان، وإتمام لنعمته عليه . و كما يسخر الانسان الكون تسخيرا ماديا ، وذلك بالإنتفاع بأرزاقه وثرواته المختلفة ، فهو يسخره كذلك تسخيرا علميا، بحيث جعله الله تعالى مجالا واسعا للبحث والنظر . ومادام الانسان يتأمل فيه ، فهو في كل يوم يكتشف جديدا ، من سنن الله الكونية، هذه السنن التي تذلل للانسان الكون ، وتمهده له تمهيدا << و لو لا هذا الاهتداء إلى طرف السر ما استطاع الانسان بقوته الهزيلة المحدودة أن ينتفع بشيء من قوى الكون الهائلة ، بل ما استطاع أن يعيش معها >>[2]. وفي الوقت الذي يهمل فيه المسلمون اليوم الكون إهمالا يكاد يكون كليا ، يقطع غيرهم كل يوم أشواطا هائلة في تسخيره واستثماره. وبفضل ذلك شيدوا مدنية دانت لهم بها الدنيا كلها ، وإن كانت مدينة عرجاء ، لأنها في الوقت الذي تتشبث فيه بالأرض ، تعرض عن هدي السماء، وتأبى أن تتعامل مع الكون بشريعة الله، التي هي طرف من النظام الذي يحكم الكون كله . فهذا الكون إذا ليس مجالا للثروة فقط ، ولكنه أيضا مجال للاستبصار والاعتبار وكم من الايات التي ترشد الانسان عموما، والمؤمن خصوصا ، إلى التأمل والتدبر للاهتداء والاسترشاد. كقوله تعالى :« **قل انظروا ماذا في السموات و الارض...** » يونس 101. و هذا التأمل مثلما يفيد الانسان في التعرف على الكون، يفيده أولا في التعرف على الله تعالى صاحب الصنعة المحكمة والخلقة المتقنة.

لقد خلق الله هذا الكون جميلا ليتمتع الانسان بجماله ، ويستروح بمناظره ، وحتى ينطبع هذا الجمال في نفسه

---

1 2 - سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 3226/5

فلايصدر عنه إلا جميل. وفي هذا المعنى يقول الله تعالى:« **ولكم فيها جمال حين تريحون و حين تسرحون** » النحل 06 . ويقول :« **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها و زيناها و ما لها من فروج** » ق 06، بل إن الأرض لتتزين للانسان ، وتبدي مفاتنها له ، فتأسره بزينتها ، وتسحره بجمالها ، كما عبر بذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: «... **حتى إذا أخذت الارض زخرفها وازينت**...» يونس 24. يقول سيد تعقيبا على هذه الآية : « و ليست النعمة هي مجرد تلبية الضرورات من طعام و شراب و ركوب ، بل تلبية الاشواق الزائدة على الضرورات ، تلبية حاسة الجمال و وجدان الفرح »[1]. إن الاسلام لا يحرم الزينة و الجمال ، بل يأمر بالتزين والتجمل ، بشرط الترفع على الميل الحيواني **الهابط** الذي يعتبر المقابح زينة و جمالا.

لا يكتفي سيد ببيان حقيقة الكون من خلال المنهج الإيماني فقط، بل كثيرا ما يعمد إلى المقارنة بينه وبين المناهج الوضعية والتصورات البشرية، غير المستهدية بهدي خالق هذا الكون. وهو ما سنتعرض له في الفقرة الموالية.

7- الكون في القرآن و المذاهب الاخرى :

إن هذه المقارنة السريعة التي سنجريها بين المنهج الايماني و المنهج الوضعي في نظرتهما إلى الكون، ذات منفعة كبرى ، فمن شأنها أن تفسر لنا تصرفات الانسان إزاء الكون ، وتعطينا إمكانية تصحيح بعض المواقف والتصرفات التي تقع خاطئة ، وأحيانا مدمرة لحياة الكون والانسان على السواء ، كلما ابتعدالإنسان عن المنهج الايماني . ويبين سيد أول افتراق بين المنهجين في تصورهما للكون، والإمكانات التي يتيحها للإنسان ، فيقول : « بينما يقف الماديون في نظرتهم إلى الكون عند هذا الحد ينطلق بنا القرآن من منطق الكون هذا فيدفع تفكيرنا إلى ما وراء هذه الحدود ويتجاوزها إلى التفكير في خالق الكون»[2]. والمقصود بالحد في كلام سيد، هو المادة. وإذا كان الكون هو دليلنا إلى معرفة الله تعالى وتقديره حق قدره ، فإن الاسلام يعلمنا أن هذا الكون جزء منا ونحن جزء منه ، ولذلك فموقفنا منه « موقف التعرف والصداقة لا موقف التخوف والعداء »[3] ، كما بينا ذلك من قبل، وقدعبر عن هذه الحقيقة، وذلك الإحساس نبي الرحمة بقوله: « أحد جبل يحبنا ونحبه »[4]. فإذا كان الكون ينظر إلينا نظرة الصداقة و المحبة فواجب الانسان العاقل أن يكون في مستوى هذه النظرة.

1- المصدر نفسه ، 2161/4

2- محمد المبارك ، نظام الإسلام العقائدي ، ص 22

3- سيد قطب ، المصدر السابق ، 25/1

4- الدعوي ، شرح السنة ، 120/1

شاع بين أصحاب المذاهب الوضعية مصطلح " الصراع " مع الكون ، وهو تصور خاطيء ، وموقف منحرف ناتج عن اعتقادهم أن قوى الكون مضادة لوجود الانسان. ولعل هذه الرواسب الفكرية تسربت إلى الفكر الغربي من تلك النظرات البدائية السطحية، التي كانت ترى في ظواهر الكون قوى مخيفة ، وربما تقربت إليها بصنوف العبادة استرضاء لها، و كسبا لرحمتها ، وهي الإعتقادات التي كانت سائدة في الفكر الخرافي القديم ، ولا تزال موجودة في ما يمكن تسميته بالفكر الخرافي الحديث ، الذي ينتشر في آفاق كثيرة ، ومنها البلاد الإسلامية .وإذا كان كثير من أتباع المذاهب الوضعية اليوم ينظرون إلى الكون نظرة صداقة ، ويتعاملون معه تعاملهم مع الكائن الحي الواعي . إلا أن موقفهم هذا جاء متأخرا، وناقصا في كثير من جوانبه ومنطلقاته .

في ظل المنهج الايماني نشأت حضارة راقية، شملت المادة و الروح معا، و تم فيها الحفاظ على الانسان والكون المسخرله ، و أصبح الكون أخا للانسان. ليس أخوة مادية فحسب و لكن أخوة روحية ، يحس بحقيقتها ، ويدرك قيمتها ، من يتفيؤ ظلال قول الله تعالى :﴿... **و سخرنا مع داوود الجبال يسبحن و الطير و كنا فٰعلين** ﴾ الانبياء 78. و من هنا كانت وصايا الاسلام بالمحافظة على الطبيعة والبيئة ، وعدم إذايتها، والحث على تنميتها بالغرس و الزرع و التطهير ، ومنع تلوبثها . و ها هي المجتمعات البشرية تعاني اليوم من الآثار السلبية للتلوث البيني ، الناتج عن الاستعمال المفرط و غير المنضبط للطبيعة ، وتقييم المؤتمرات للمحافظة على البيئة ، وتنشئ جمعيات " للسلام الاخضر ". إن هذه العواقب ليست فقط نتيجة حتمية لعمليات الاستثمار الواسعة في هذا الكون، و لكنها كذلك نتيجة حتمية للنظرة غير الصحيحة ، وغير الواقعية للكون ، الذي صار مجالاللتنافس المسعور بين مختلف القوى لتحقيق أكبر قدر من الانتاج والرفاهية والسيطرة ، حتى و إن أدى ذلك إلى الفتك بالانسان وإفساد الطبيعة و تلويث البيئة ،وهو الأمر الذي حذرالقرآن من مغبته ، في مثل قوله تعالى:﴿... **و لا تفسدوا في الارض بعد إصلٰحها ذٰلكم خير لكم إن كنتم مومنين** ﴾الاعراف84. فهذه الارض صالحة بطبيعة تكوينها ونظامها لحياة الانسان عليها ، وصالحة بشريعة الله التي يجب الاحتكام إليها ، لأن الإيمان << رؤية جديدة للكون ، وإدراك جديد للجمال، وحياة على الارض في مهرجان من صنع الله >>[1].أما الكفر، والإعراض عن منهج الله فعاقبته فساد الكون والحياة.

---

1 - سيد قطب ، المصدر السابق ، 153/1

ثالثا : الحياة :

1- حقيقة الحياة في القرآن :

يقوم التصور الاسلامي على أساس أن الانسان مستخلف في هذه الارض ليحيا فيها و يعمرها ، حتى تستجيب لمتطلباته ، << والحياة في هذا الكون مقصودة و ليست فلتة عابرة. و قد روعي في تصميم الكون وفي ناموسه أن يسمح بظهور الحياة >>[1]. و الايات الدالة على هذا المعنى كثيرة، منها قوله تعالى : « **و الارض مددناها و ألقينا فيها رواسي و أنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة و ذكرى لكل عبد منيب. و نزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات و حب الحصيد. و النخل باسقات لها طلع نضيد. رزقا للعباد..** » ق 7-11 .وقد سبق أن بينا في موضوع الخلافة، قيمة العمل والانتاج والتنمية في المنظور الاسلامي. و في ذلك تلبية لضرورات الانسان ، و حاجاته في هذه الدنيا . على أن الاسلام يجعل الحياة حياتين . حياة في الدنيا و للدنيا ، و حياة للآخرة ، فكما يعمل الانسان لدنياه ، ينبغي أن يعمل أيضا لآخرته ، بل أكثر ، لأن الحياة الأخرة هي الدائمة . وترك العمل لها يجعل الحياة الدنيا لا تساوي شيئا . يقول سيد : << وما أقصر الحياة الدنيا و ما أضيقها حين تحسن النفس الانسانية أنها لا تتصل بحياة سواها >>[2]. إن الفطرة القويمة تستشعر وجود حياة أخرى، ينال فيها الإنسان ما لم ينله في الدنيا. و للانسان أشواق كبرى ، وآمال عظمى يستحيل تحقيقها في هذه الحياة القصيرة، ذات المتاع القليل . ومن هنا يقرر الاسلام << أن ما يناله الانسان من شيء في هذه الارض ليس نصيبه كله ، إنما هو قسط من ذلك النصيب ، وما يفوته هنا من ذلك الجزاء لا يفوته هناك >>[3]. وهكذا يضمن التصور الاسلامي الحسنيين، إذ يجمع بين خير الحياة الدنيا وخير الحياة الأخرى، << فلا يفوت على الإنسان دنياه لينال آخرته، و لا يفوت عليه آخرته لينال دنياه >>[4]. ولن يجد الإنسان أي تعارض أو تناقض بين العمل للدنيا والعمل للآخرة ، مادام الانسان ملتزما في ذلك كله بمنهج الله ، الذي كلف الإنسان بالعمل للدنيا، كما كلفه بالعمل للآخرة . وقد عاش الأنبياء وأتباعهم رهبانا بالليل وفرسانا بالنهار ، وضربوا بذلك المثل بالعمل للآخرة والدنيا معا في توافق وانسجام . غير أن إرادة الله تعالى شاءت أن تجعل هذه الدنيا على جانب كبير من الاغراء والاستهواء ، مما قد يغري الإنسان فيطلبها ويهيم بحبها ، وينسى الآخرة والعمل لها . ولذلك طالبه بالاستعلاء

---

1 سيد قطب ، السلام العالمي و الإسلام ، ص 17

2 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 92/1

3 المصدر نفسه ، 11/1-12

4 المصدر نفسه ، 933/2

على شهواتها وزخرفها ، وزهده في متاعها ، ترغيبا له في ما عند الله من النعيم المقيم في الآخرة. قال تعالى : ﴿ **إنما الحيوة الدنيا لعب و لهو...** ﴾ محمد 37. وقال تعالى : ﴿ **إنما مثل الحيوة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما ياكل الناس و الانعام حتى إذا أخذت الارض زخرفها وازينت و ظن أهلها أنهم قادرون عليها أتيها أمرنا ليلا او نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس كذلك نفصل الايات لقوم يتفكرون** ﴾ يونس 24. ويعقب سيد قطب على هذه الآية فيقول : << فهذه الحياة الدنيا في عمومها ليست إلا لهوا و لعبا، حين لا ينظر فيها إلى الآخرة ، حين تكون هي الغاية العليا للناس >>[1]. أما حين ينظر الانسان إليها على أساس أنها مجال استخلافه ، ينفذ فيها المشروع الذي كلفه الله تعالى بتنفيذه ، لينتقل بعدها إلى حياة أخرى،حيث يلقى هناك جزاءه . فإنها في هذه الحالة ، وبهذه النظرة الايمانية ، تعتبر خير متاع للانسان وتصير بذلك مزرعة للاخرة، يزرع فيها الانسان الخير ، و تتغير بذلك حقيقتها – في المفهوم البشري- من متاع زائل، إلى زاد نافع. وقد عبر سيد عن المفهوم الحقيقي للحياة ـ حين ينظر إليها من خلال المنظور الإيماني ـ أحسن تعبير وأدقه فقال :<< إن الحياة في التصور الاسلامي تمتد طولا في الزمان ، و تمتد عرضا في الافاق، و تمتد عمقا في العوالم، و تمتد تنوعا في الحقيقة، عن تلك الفترة التي يراها و يتذوقها من يغفلون الحياة الاخرة من حسابهم و لا يؤمنون بها >>[2]. فليست الحياة إذا هي تلك اللحظة التي يعيشها الانسان في هذه الدنيا ، ولا هي ذلك المتاع المادي ، الذي يتقلب فيه الانسان في وقت محدود ، و ليست الحياة في التعامل مع العالم القريب المشاهد فقط ، بل الحياة أيضا والحياة الحقيقية هي التي تنتظر الإنسان هناك في العالم الآخر. وما لم يشعر الانسان بهذه الامتدادات في الازمان و الآفاق والعوالم ، فإنه يبقى يمارس حياة حيوانية . وإذا كان الله تعالى فضل الإنسان على الحيوان بما أعطاه من مقومات ، وبما ميزه به من خصائص ، فإنه فضله عليه بنوع الحياة التي أرادها له ، وكلفه بها .وفي هذا الصدد يقول سيد : << إن الحياة للارض ، حياة تليق بالديدان والزواحف والحشرات والهوام و الوحوش و الانعام. فأما الحياة للاخرة فهي الحياة اللائقة بالانسان الكريم على الله >>[3].

إن تعلق الإنسان بالحياة الدنيا يهدر كرامته، ولا يسمح له إلا بتحقيق جزء ضئيل جدا من مشروع خلافته، وإن تقدم في صناعة الحياة الدنيا ، وحقق في جوانبها المادية المختلفة فتوحات واسعة . والتعلق بالدنيا يولد في النفس

---

1 – المصدر نفسه ، 2751/5

2 – أحمد فائز ، اليوم الآخر في ظلال القرآن ، ص 03

3 – سيد قطب ، المصدر السابق ، 2219/4

الجشع والطمع ، والحرص و طول الأمل ، و كلها رذائل منكرة لا يرضاها المؤمن بحال ، ولا يقبلها منه الله تعالى ، بل هي من صفات الكافرين بالله تعالى واليوم الآخر ، الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ **ولتجدنهم أحرص الناس على حيوة و من الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة و ما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر و الله بصير بما يعملون** ﴾البقرة95. ان الاسلام ـ وان كان ينفر من الركون إلى الدنيا ، والاغترار بها ـ لا يحرم السعي ، بل يجعله واجبا كالصلاة ، مصداقا لقول الله تعالى : ﴿ **فإذا قضيت الصلوة فانتشروا في الارض و ابتغوا من فضل الله...** ﴾ الجمعة 10. و لا يحرم متاع الحياة، بل يعتبره من الطيبات. وينكر على من يحلل و يحرم بغير حق و بغير علم ﴿ **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده و الطيبت من الرزق قل هي للذين ءامنوا في الحيوة الدنيا خالصة يوم القيمة كذلك نفصل الايت لقوم يعلمون** ﴾ الاعراف 30.

و السعي للاخرة لا يحرم المرء من لذائذ الدنيا الطيبة ، إنما يمد بالبصر إلى آفاق أعلى، فلا يكون المتاع في الارض هو الهدف و الغاية »[1]. و اذا كان قد ظهر في فترة من فترات التاريخ الاسلامي من يزهد الناس في الحياة، و يعتبرها سجنا، و يعتبر خيراتها خبائث ، والعمل لها مضيعة للوقت، فإن الاسلام بريئ من هذا الفهم ، بالإضافة إلى أن ذلك الفهم كانت له ظروف خاصة أملته ليصير واقعا معيشا يقابل واقعا آخر مناقضا له ، هو واقع الخلود إلى الارض واتباع الشهوات . وإذا كان المسلمون اليوم يسيرون فوق أرض تزخر بالخيرات والبركات و لكنهم لا يهتدون إلى استثمارها ، والإنتفاع بخيراتها، حتى يكون عدوهم هو من يستثمرها، و يحوز خيراتها، فإنما هو إثم اقترفه المسلمون، و الاسلام بريئ منه . إن الدنيا سلاح ، يوم تملكها ولا تملكك، ولكنها شر يوم تملكك، أو يوم تفرط فيها و تضيعها ، ليغتنمها غيرك فيتنصر بها عليك، وينشر بها مبادئه. والاسلام لا يحض الناس « على الزهد في متاع الحياة الدنيا و الفرار منه وإلقاؤه بعيدا. إن هذا ليس من روح الاسلام ولا اتجاهه ، إنما يعني مراعاة الاخرة في هذا المتاع والوقوف به عند حدود الله »[2].

فالمنهج الرباني يوجب العيش للدنيا والاخرة معا. العيش للدنيا بقدر البقاء فيها، والعيش للاخرة بقدر الخلود فيها.

1- المصدر نفسه ، 2218/4

2- المصدر نفسه ، 2751/5

شتان بين أن يختار الإنسان لنفسه ، و أن يختار له الله تعالى، العليم بما يصلح له ، وما ينفعه في هذه الحياة، وما هو خير له يوم القيامة . ذلك أن الإنسان ، بما ركب فيه من ضعف وهوى وعجلة ، لا يستطيع أن يختار لنفسه الأصلح والأنفع ، فهو دائما يطلب العاجل حتى وإن كان فيه هلاكه ، وهلاك غيره . وصدق الله القائل : « **بل تؤثرون الحيوة الدنيا. والآخرة خير وابقى** » الاعلى 17/16. ولا ينبغي أبدا أن نفهم من هذا أن الإسلام يخيرنا بين الدنيا والآخرة، بل هو يطلب إلينا أن نعيشهما معا ، في توافق وانسجام ، ودون إفراط أو تفريط ، فإذا وجد الانسان في نفسه ميلا عظيما إلى متاع الحياة الدنيا، وتعلقا به مع نسيان الآخرة والعمل لها فإن التشريعات الاسلامية و التوجيهات الربانية كفيلة بالحد من هذا الميل . وقد ضرب سليمان عليه السلام المثل، الأعلى في الجمع بين الدنيا والآخرة ، فهو الذي سأل الله تعالى أن يهب له ما لم يهبه ، ولن يهبه لغيره ، من الملك ، فاستجاب الله دعاءه ، فأعطاه من كل شيء بل سخر له الريح تجري بأمره ، والجن طوع يده ، فكان سليمان عليه السلام أعظم ملك عرفته الدنيا . غير أن ذلك كله لم يطغه ولم ينسه واجب الشكر والاعتراف لله تعالى بالفضل، فلما رأى عرش بلقيس مستقرا عنده قال:« ... **هذا من فضل ربي ليبلوني ءاشكر ام اكفر** ...» النمل 41 .وكان عبد الرحمان بن عوف أغنى أهل زمانه ، ولكنه لم ينخدع بما أوتي من مال ومتاع ، ولم ينس اليوم الآخر والعمل له ، فإذا قدم إليه ما يشتهي من الطعام بكى ، وأمسك عن الأكل ، وقال نخشى أن تكون حسناتنا عجلت لنا .إن الإسلام لا يخير الناس بين الدنيا والآخرة إلا في أحوال و ظروف إستثنائية ،لا يستطيع الانسان أن يجمع فيها بين الدنيا والاخرة، فإذا تعارض العمل للآخرة مع العمل للدنيا ـ وقليلا ما يتعارض ـ فإن الاسلام يرغب الانسان في الاخرة، لأنها الباقية ، ويزهده في الدنيا لأنها فانية . في حين نجد المذاهب الوضعية ـ في أغلبها ـ لا ترضى من الانسان إلا إحدى الحياتين، إذ لا سبيل - في نظرها - إلى الجمع التوفيقي بينهما، فبعضها يدعو إلى الرهبانية، و التقلل من الدنيا إلا بقدر الضرورة، و هو مذهب ساد عند بعض أهل الكتاب [1]. والبعض الآخر لا يهمه في هذه الحياة إلا المتاع و الشهوات . أما العمل الصالح ، والمبادئ و القيم و الاخلاق فهي عندهم بضاعة المفلسين وتجارة المخدرين ، حتى صار كل شيء في عرف هؤلاء، يوزن بقدر ما يساوي

1 أنظر ، سورة الحديد ، الآية 26

من مال و متاع. حتى الانسان المكرم أصبح يقيم بالمال و المتاع ، و قد انتهكت حقوق الإنسان ، التي أوصى الإسلام بصيانتها ، وشدد النكير على منتهكها ، واضطهدت شعوب بأسرها ، وأبيدت أخرى لأنها لا تملك المال و المتاع،. و تاريخ الحضارة الحديثة، و واقع الحضارة المعاصرة حافل بهذه المآسي.

إن المنهج الرباني ينظر إلى هذه الأشياء الدنيوية على أنها متاع، يشاركنا فيه حتى الحيوان، و ليست قيما، ومن ثم فما يجوز أن يوزن بها الناس << إنما القيمة الحقة للباقيات الصالحات من الأعمال والاقوال والعبادات >>[1] وصدق الله القائل:« **إن أكرمكم عند الله أتقيكم...** » الحجرات 13 اوليس أغناكم. ولما كان المال والمتاع في عرف هؤلاء قيمة ذاتية تقيم بها الاشياء ، وحتى الأناسي، صار هدف الانسان و غايته تحقيق أكبر قدر من المال والمتاع ، واللذة والشهوة، حتى أصبحت مدنية اليوم، مدنية المال والشهوة الجنسية، دون أدنى رعاية للقيم الدينية والأعراف الانسانية ، وذلك فساد في التصور ، وفساد في الهمم ، والاعمال.فالإسلام لا ينظر إلى العمارة والحضارة على أنها << مجرد الانتاج المادي مع تحطم القيم الانسانية ، و مع انتكاس البشر إلى مدارج الحيوانية >>[2] . بل هي قبل ذلك تحقيق لكرامة الانسان ، من خلال القيم و المبادئ الرفيعة.

إن الحياة من خلال التصور المادي حياة ضيقة و قصيرة لا تسع طموح وآمال الانسان الممتدة خارج هذا العالم المادي المحدود . وفي هذا المعنى يقول سيد :<< و ما أقصر الحياة الدنيا و أضيقها حين تحس النفس الانسانية أنها لا تتصل بحياة سواها، و لا تطمع في غير أنفاس و ساعات على الارض معدودة >>[3] . إن تصور حياة أخرى غير هذه الحياة- فوق أنه حقيقة واقعة - يفسح للانسان مجالا واسعا للأمل الحقيقي و الحرص الحقيقي، الأمل في رحمة الله ، والحرص على ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر ، من صنوف الخير و أنواع المتاع، و صدق الله القائل :« **فما أوتيتم من شيء فمتاع الحيوة الدنيا و ما عند الله خير و أبقى للذين ءامنوا و على ربهم يتوكلون** »الشورى 33. فإذا علم الانسان هذه الحقيقة واستيقنهاإنقطع أمله في الدنيا و ضعف حرصه على متاعها ، وقوي حرصه و طلبه لما هو خير وأبقى . إن التصورات الأرضية تحول الحياة الدنيا إلى جيفة منتنة تتقاتل عليها ذئاب جائعة، أما التصور الايماني فإنه يجعلها زادا طيبا يأخذ منه الانسان ما يبلغه إلى هدفه الأخير ، الجنة. فإذا انشغل بجمع الزاد و الإكثار منه تحول الزاد إلى هدف، و لم يبلغ

---

1 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 2272/4

2 المصدر نفسه ، 1807/3

3 المصدر نفسه ، 92/1

هدفه الحقيقي، وانتهى وقت الرحلة قبل الوصول. إنما يزاول المسلم هذه الحياة الدنيا، و هو يشعر أنه أكبر منها و أعلى قيمة ، ويستمتع بطيباتها ، و يعلم أنها حلال ، و يجاهد لترفيتها لأنها مزرعة للاخرة ، مع ايقانه بأنها صغيرة و زهيدة ، ولكنها طريق إلى نعمة الله الكبرى[1]. وهكذا يعطي الاسلام التصور الصحيح و الواضح والواقعي ، المنسجم مع فطرة الانسان ، عن الحياة كما أعطاه من قبل عن الانسان والكون ، فتظهر أمامه جميع التصورات البشرية ، مهما كانت عبقرية واضعيها ، تظهر أنها تصورات طفولية لا تستجيب لطموحات الإنسان الذي اختاره الله تعالى على علم ليكون خليفة في هذه الأرض . إن كل تصورلا يستمد شرعيته من هدي السماء ينتج سلوكا خاطئا، و يؤدي إلى نتيجة لا تحمد عقباها، في الأولى والأخرة.

إن العقيدة الاسلامية ليست مجرد تصورات عن عالم الغيب، و لكنها تصور للكون بكل مفرداته، كما هي تصور للحياة بكل تشعباتها ، وأبعادها الاجتماعية .

رابـــعـــا: الـبـعـد الاجـتـمـــاعـــي للعقيـــــدة :

إذا كانت العقيدة الاسلامية تهتم بالانسان كفرد ، فتعطيه التصور الصحيح عن الله والانسان والكون والحياة، فهي تهتم به أيضا كجماعة، فترسم له المنهج الذي ينظم من خلاله حياته الإجتماعية وعلاقاته الإنسانية.

1- عـلاقـــة العقيـــدة بالقضـــايـــا الاجتمـــاعية :

إن أتباع المذاهب الدينية المحرفة ، وأصحاب المذاهب المادية يجعلون الحياة الدنيا و شؤونها ، من صلاحية الانسان وحده، ويقولون ((ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر)). ولكن المنهج الايماني يجعل الأمر كله، والوجود كله لله تعالى، وليس لقيصر إلا أن ينفذ إرادة الله و مشيئته في هذه الحياة وفق شرع الله تعالى. وقد وضح سيد هذه الحقيقة بقوله : << الاوضاع الاجتماعية بجملتها، و الاوضاع السياسية بجملتها ، و الاوضاع الاقتصادية بجملتها هي فروع عن التصور الاعتقادي>>[2]. و قد سبق أيضا و أن جلينا هذه المسألة عند حديثنا عن شمولية العقيدة الاسلامية .

و لم يكن هذا الارتباط الوثيق بين العقيدة و شعب الحياة الاجتماعية بدعة في رسالة ـ محمد صلى الله عليه ـ

---

1 - المصدر نفسه ، 1070/2

2 - سيد قطب ، العدالة الاجتماعية في الإسلام ، ص 199

أو في مشروع الدعاة إلى الله تعالى من بعده ، الذين يريدون تحكيم شرع الله عز وجل في كل فروع الحياة - لم يكن ذلك بدعة - بل هو الأمر الذي جاء به كل الانبياء. فإذا كان شعيب عليه السلام جاء بالعقيدة ليعالج بها قضية التصور ، فلكي يعالج بها أيضا مشكلة اقتصادية خطيرة ، تتمثل في التطفيف ، وما ينجر عنه من آثار اقتصادية و خلقية. قال تعالى : ﴿ **و إلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره و لا تنقصوا المكيال و الميزان إني أريكم بخير و إني أخاف عليكم عذاب يوم محيط** ﴾هود 83. ويعقب سيد على هذا الأمر فيقول:« إن المعاملات و الاخلاق لابد أن تستند إلى أصل ثابت لا يتعلق بعوامل متقلبه. هذه نظرة الاسلام، و هي تختلف من الجذور مع سائر النظريات الاجتماعية و الاخلاقية »[1]. و لابد أن يختلفا ما دامت الأولى ترد الأمر كله إلى الله، إلى عقيدة التوحيد، و الأخرى ترد الأمر إلى البشر ،وأهوائهم المتقلبة، و مصالحهم المتضاربة. و إذا كان شعيب-عليه السلام- جاء ليحارب هذا الفساد الاقتصادي من خلال العقيدة - فإن لوطا - عليه السلام- جاء ليحارب الفساد الاخلاقي، و الانحلال و الشذوذ الجنسي الذي شاع و فشا في قومه، قال تعالى : ﴿ **و لوطا اذ قال لقومه أتاتون الفاحشة و أنتم تبصرون. أإنكم لتاتون الرجال شهوة من دون النساء بل انتم قوم تجهلون** ﴾ النمل 56-57. و إنه لشذوذ ما بعده شذوذ. أن يشذ قوم بأسرهم عن قانون الفطرة، القائم على أساس التزاوج بين الذكر و الانثى في الخلق كله، فيدعون النساء و يأتون الرجال.

و كما تعالج العقيدة الجانب الاقتصادي و الاخلاقي في الحياة، فهي كذلك علاج و منهاج للجانب السياسي منه. و قد تجلى ذلك في دعوة موسى عليه السلام الذي أراد أن يقضي على ظاهرتي الاستبداد السياسي و الاستضعاف و الهوان. فقد كان فرعون يدعي الألوهية، و يستضعف بني اسرائيل فيستحي النساء و يقتل الرجال. فأرسل الله اليه موسى ليرده عن هذا الطغيان، فقال الله لموسى : ﴿ **إذهب الى فرعون إنه طغى** ﴾ طه 23، و ليس هناك طغيان هو أشد وأقبح من طغيان فرعون الذي ادعى الربوبية. و كان لابد أن يخلص موسى بني إسرائيل من استبداد فرعون، و تلك رسالته هو و أخوه. مصداقا لقوله تعالى : ﴿ **فأتيا فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل و لا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك و السلام على من اتبع الهدى** ﴾ طه46. ويعقب سيد على هذه الآية بقوله : « ففي هذه الحدود كانت رسالتهما إلى فرعون. لاستنقاذ بني إسرائيل، والعودة بهم إلى عقيدة

1- سيد قطب ، المصدر السابق ، 1917/4

التوحيد [1]. و بقاؤهم تحت حكم فرعون و استبداده قد يخرج بهم من التوحيد إلى الشرك بالله تعالى ، لأن سلطان الخوف على القلوب كبير ، و الاستعباد قد يؤدي إلى العبودية.

من خلال هذه النماذج يظهر لنا بوضوح مدى الارتباط الوثيق بين العقيدة والحياة وشعبها. وإذا كانت الرسالات السابقة قد اهتمت ببعض القضايا الاجتماعية، كما نفهم ذلك من قصص الانبياء في القرآن. فإن الرسالة الخاتمة تناولت الظاهرة الاجتماعية بكل شمول و عمق. تناولت الجانب السياسي بشقيه، الداخلي و الخارجي، فحددت معالم الحكم و ما يستلزمه من شورى، و ما يتطلبه من عدل، و ما يقتضيه من أمانة. حتى سميت سورة قرآنية بكاملها باسم " الشورى ". و حددت أيضا ضوابط المعاملة السياسية الدولية، فتحدثت عن المفاوضات و العهود و الموالاة و المعاداة و السلم و الحرب. كما اهتمت الرسالة الخاتمة بالجانب الاقتصادي فعالجت أخطر مشكلة عرفها الانسان في التعامل المالي، و هي الربا. ودعت إلى التضامن المعيشي. وضبطت قواعد التعامل التجاري و المكاتبات المالية. و أما اهتمامها بالجانب الاخلاقي و التربوي فكان أكثر من كل شيء، و أعمق من كل شيء. فحاربت الخمر و جميع المسكرات، و قد عجزت أمريكا بترسانتها المالية و الاعلامية من التقليص من حدتها ، والتقليل من آثارها. ووضعت التشريعات الكفيلة بتحرير العبيد، لاعتبارها الرق مشكلة أخلاقية واجتماعية ، و عملت على تطهير المجتمع من كل مظاهر الانحراف النفسي و الاجتماعي. والايات التي انتضمت هذه الابعاد المختلفة للعقيدة الاسلامية تفوق الحصر . و نكتفي هنا بذكر بعض الأمثلة. قال الله تعالى: ﴿ **و الذين استجابوا لربهم و أقاموا الصلوٰة و أمرهم شورى بينهم و مما رزقنٰهم ينفقون** ﴾ الشورى35.وقال:﴿ **لا ينهىٰكم الله عن الذين لم يقٰتلوكم في الدين و لم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم و تقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين** ﴾ الممتحنة 08. وقال تعالى :﴿ **يٰأيها الذين ءامنوا أوفوا بالعقود...** ﴾ المائدة 01. وقال تعالى: ﴿ **يٰأيها الذين ءامنوا إنما الخمر و الميسر و الانصاب و الازلٰم رجس من عمل الشيطٰن فاجتنبوه لعلكم تفلحون** ﴾ المائدة 92. و قال تعالى :﴿ **يٰأيها الذين ءامنوا اتقوا الله و ذروا ما بقي من الربوٰ إن كنتم مومنين . فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله و رسوله و إن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون و لا تظلمون** ﴾ البقرة 277-278. و هناك مئات الأمثلة من الايات التي تبين البعد الاجتماعي للعقيدة. يقول سيد

---

1 المصدر نفسه . 233/4

عن هذه الخاصية من خصائص العقيدة الاسلامية : << إنها العقيدة التي تتسع فتشمل كل نشاط الانسان في كل حقول الحياة، فلا تقتصر مهمتها على حقل دون حقل، و لا على اتجاه دون اتجاه.>>[1] و يقول في موضع أخر، مؤكدا هذه الحقيقة : << إنها لا تتولاه فردا و تهمله جماعة، ولا تتولاه في حياته الشخصية و تهمل نظام حكمه أو علاقات دولته و مجتمعه بسائر الدول و المجتمعات >>[2]. إن من يزعمون- خاصة من المسلمين- أن العقيدة الاسلامية، عقيدة للضمير وحده ، أو للفرد وحده ، يجنون على هذه العقيدة أكبر جناية ، ويسيئون إليها ، وإلى أنفسهم أكبر إساءة، يقول سيد : << و قد كنا نتجنى على عقيدتنا الضخمة، و نظن بها عن جهالة أوعن غرض، أنها لا تسعفنا بالحلول العلمية المحددة لمواجهة الحياة العصرية و مشكلاتها، و بخاصة في الحقل الاجتماعي ، و الحقل الدولي >>[3]. و هي التهمة التي يصر العلمانيون على رمي العقيدة الاسلامية بها، وهم يعلمون يقينا أنها منها بـراء. إن هذه النظرة الضيقة للعقيدة، بحصرها في الجانب الشعوري، و قصرها على العلاقة الخاصة بين العبد وربه، نظرة متأثرة بما انتهت إليه النصرانية،التي انتقم منها ابناؤها بعد زوال ملكها ، وانتهاء سيطرتها عليهم. فأراد أعداء الاسلام، وبعض أبنائه الأغرار أن يكرسوا هذه النظرة على كل دين،بما في ذلك عقيدة الاسلام. يقول سيد:<< إن قصة العزلة بين الدين و الدنيا لم تثبت في العالم الاسلامي، و لم يعرفها الاسلام >>[4]. ذلك أن فكرة المجتمع ليست فكرة غريبة على العقيدة الاسلامية، بل هي أصيلة و صميمة ، والعقيدة الاسلامية باعتبارها منهجا للحياة لم تأت لأحاد الناس بقدر ما جاءت لمجموعهم << ولن يستقيم هذا الدين في عزلة عن المجتمع، و لن يكون أهله مسلمين،وهم لا يحكمونه في نظامهم الاجتماعي والقانوني والمالي >>[5]. إن الانسان بما اودع الله من طبائع الاجتماع ، لايستطيع أن يعيش وحده ، بل هو لا يستطتع أن يعيش في مجتمعه الأصغر- الأسرة- لحاجته الملحة للجماعة، وحاجة الجماعة اليه.

إن اهتمام العقيدة بقضايا المجتمع و شؤونه المختلفة، ليس اهتماما ثانويا، أو شكليا، بل هو اهتمام أصيل و أكيد إلى درجة انبثاق المجتمع و نظامه منها انبثاقا. و قد عبر القرآن عن هذه الحقيقة فقال: ﴿ **كنتم خير أمة اخرجت للناس** ﴾ آل عمران 110. يقول سيد قطب:<< إن النظام الاجتماعي الاسلامي، و قد انبثق من العقيدة الاسلامية،

1- سيد قطب ، السلام العالمي و الإسلام ، ص 10

2- المصدر نفسه ، ص 11

3- المصدر نفسه ، ص 12

4- سيد قطب ، العدالة الاجتماعية في الإسلام ، ص 08

5- المصدر نفسه ، ص 11

و تكيف وجوده بالشريعة الاسلامية، يجب أن يظل دائما خاضعا في نموه و تجدده للأصل الذي انبثق منه، و للشريعة التي كيفت وجوده >>[1]. وهذا ما يتميز به النظام الاجتماعي الاسلامي عن غيره من النظم الاجتماعية الأخرى، فهو من وحي العقيدة، و هو دائما يبقى خاضعا لهذه العقيدة، مع مشروعية الاقتباس من النظم الأخرى، في إطار ما تسمح به العقيدة الاسلامية.

إن المناوئين لهذا الدين، والمعارضين له، قد يقبلون منه أن يكون عقيدة للضمير، و قد يقبلون منه أن يكون شعائر تعبدية. و لكنهم لا يقبلون منه أن يكون موجها للحياة، و منظما للمجتمع، خاصة في مجال الحكم و التسيير، و هو الأمر الذي تأباه طبيعة هذا الدين، و هذه العقيدة. << فما جاء هذا الدين لينزوي في الصوامع و المعابد، أو يستكن في القلوب والضمائر ،إنما جاء ليحكم الحياة ويصرفها، ويصوغ المجتمع وفق فكرته الكاملة عن الحياة، لا بالوعظ والارشاد، بل كذلك بالتشريع والتنظيم>>[2]. وقد أسس النبي صلى الله عليه وسلم سلطة ترعى النظام الاجتماعي الاسلامي المنبثق من العقيدة الاسلامية، و لم يكتف بمجرد الترغيب والترهيب، ولم يجعل الأمر إلى الناس و أهوائهم، بل إلى الله و شرعه.

إذا كنا قد أقمنا - مع سيد قطب - الدليل على البعد الاجتماعي للعقيدة الاسلامية، فإن هذا البعد يمتاز بجملة من الخصائص لعل من بينها :

1- الشمولية : و تتمثل هذه الشمولية في عدم مغادرة العقيدة للصغيرة و الكبيرة من شأن المجتمع في جوانبه المتعددة، السياسية و الاقتصادية و الاخلاقية و غير ذلك. و قد سبق القول بأن << الاوضاع الاجتماعية بجملتها، و الأوضاع السياسية بجملتها، و الأوضاع الاقتصادية بجملتها هي فروع عن التصور الاعتقادي >>[3]. و ضربنا لذلك أمثلة عديدة من القرآن الكريم. كما تتمثل شمولية البعد الاجتماعي للعقيدة الاسلامية في كيفية حل المشكلات الاجتماعية على اختلافها وتنوعها. يقول سيد:<<فهذا الدين لايعالج مشكلات الحياة الانسانية أجزاء وتفاريق، ولا

---

1 سيد قطب ، نحو مجتمع إسلامي ، ص 138

2 - سيد قطب ، معركة الإسلام و الرأسمالية ، ص 55

3- سيد قطب ، العدالة الإجتماعية في الإسلام ، ص 199

يقيم كلا منها على أصل لا علاقة له بسائر الأصول [1]. والأصل الذي ترتد إليه جميع المشكلات الاجتماعية و تحل على أساسه هو التوحيد. لأن ميزة هذا الدين هو الوحدة بين جزئياته جميعا .

2- الانبثاق و الارتكاز : فالنظام الاجتماعي كما قلنا، ينبثق انبثاقا من العقيدة الاسلامية، على عكس ما هو واقع في المناهج الأخرى، حيث الأعراف و التقاليد، و الأهواء و المصالح، هي التي تؤسس للنظام الاجتماعي، فيتلون بلونها، أما النظام الاجتماعي الاسلامي فصبغته ربانية لقوله تعالى : ﴿ **صبغة الله و من أحسن من الله صبغة و نحن له عابدون** ﴾ البقرة 137. و بسبب هذا الانبثاق كانت << العقيدة الاسلامية واضحة الأثر في كل جزئيات النظام الاسلامي ما قرب من هذه العقيدة في الظاهر ، كالعبادات و الاخلاق، و ما بعد عنها في الظاهر كالمعاملات المالية، و الارتباطات الاقتصادية والعلاقات السياسية، داخلية أو خارجية>>[2]. و مثلما ينبثق النظام الاجتماعي من العقيدة، و يصطبغ بصبغتها، كذلك يرتكز عليها في نموه و تطوره، و احتكاكه بغيره من النظم و المناهج الأخرى، و يرتكز عليها أيضا في حل ما يجد من مشكلات اجتماعية مختلفة، وبذلك يبقى محميا داخل سياج العقيدة، من دون أن يؤثر فيه أي عامل آخر خارجي فيفقد خصوصيته و ذاتيته.

3- الحل العلمي و الواقعي للمشكلات الاجتماعية: إذا كان أصحاب المذاهب الوضعية يدعون أنهم يملكون الحل الأمثل للمشكلات الاجتماعية المختلفة، و ذلك باعتمادهم على الدراسات النفسية و الاجتماعية المختلفة، فإن الواقع أثبت أن حلولهم جزئية و وقتية، وهم لا يحلون مشكلة إلا بخلق مشكلة أخرى، قد تكون أكبر من أختها.أما العقيدة الاسلامية فهي التي تسعف المجتمع بالحلول الكلية العملية، و في التاريخ أمثلة كثيرة، يوم كانت العقيدة الاسلامية هي المهيمن على حياة الأفراد و الأمة. يقول سيد مبينا قيمة هذه العقيدة وحلولها: <<انها تقدم هذه الحلول، و تقدم معها القوة الضامنة لتحقيقها و حمايتها. قوة الدافع الفطري العميق للعقيدة الدينية >>[3]. فإذا كانت سلطة القانون تنام، فإن سلطة العقيدة لا تنام، و إن توارت فترة لسبب من الأسباب.

هذه أهم خصائص البعد الاجتماعي للعقيدة كما يراها سيد قطب. و به نكون قد بينا بوضوح و بالدليل تغلغل العقيدة في النظام الاجتماعي، و هيمنتها على جميع شعبه. ولم يبق لنا سوى وقفة مع سيد قطب لبيان مبررات تطبيق النظام الاجتماعي الاسلامي.

1- سيد قطب ، السلام العالمي و الإسلام ، ص 13 14

2- سيد قطب ، نحو مجتمع إسلامي ، ص 142

3- المصدر السابق ، ص 07

2 مبررات تطبيق المنهج الاجتماعي الاسلامي :

مثلما اهتم سيد قطب ببيان توغل العقيدة الاسلامية لجميع شعب الحياة الاجتماعية، أهتم أيضا ببيان مبررات تطبيق النظام الاجتماعي المنبثق من هذه العقيدة. فأول هذه المبررات وأهمها أنه منهج رباني وغيره من المناهج و النظم وضعية. و المنهج الرباني كامل متكامل، والمنهج البشري قاصر بقصور واضعه، مهما بلغ من العبقرية والذكاء. يقول سيد:<<إن الخاصية الرئيسية التي تفرد بها النظام الاجتماعي الاسلامي من سائر النظم الاجتماعية التي عرفتها البشرية قبل الاسلام و بعده، هي أنه نظام رباني، و أنها نظم وضعية >>[1]. و النظام الرباني مثلما يحقق جميع رغبات وأشواق الفرد و الجماعة، فإنه كفيل أيضا بالحفاظ على التوازن الاجتماعي من خلال اقتناع الناس جميعا بهذا النظام و التزامهم بتطبيقه، مهما اختلفت الظروف، و تعاقبت الانظمة السياسية المتعددة.

بالاضافة إلى ربانية مصدره، فإن تطبيق النظام الاجتماعي فريضة شرعية << و نحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج ابتداء لنحقق لأنفسنا صفة الاسلام >>[2]. و قد قررنا فيما سبق أن الايمان قول وعمل، و ليس العمل سوى الالتزام بشرع الله تعالى في كل شعبة من شعب الحياة. و من مقتضيات هذا الايمان الاقرار لله تعالى بحق التشريع و وضع مناهج و نظم الحياة، و قد أوضحنا هذه الحقيقة عند الحديث عن الحاكمية بما يغني عن الاعادة هنا. و الاسلام في معناه القريب هو الاستسلام لله تعالى، والرضى بشرعه في العقيدة والعبادة والسلوك و التنظيم الحياتي للفرد و الجماعة.

إذا كان الالتزام بالنظام الاجتماعي الاسلامي فريضة شرعية، فهو كذلك ضرورة بشرية، باعتباره النظام الوحيد الذي يحقق السعادة للانسان، حين لا يحرمه ضرورة من ضروراته، في قصد واعتدال، و حين يجعل لحياته هدفا أسمى من الاهداف الدنيوية الضئيلة. فالاسلام هو << المنهج الذي يحقق كرامة الانسان و يمنحه الحرية الحقيقية، و يطلقه من العبودية >>[3]. أما المناهج الأخرى فقد عجزت عن تحقيق تلك السعادة المنشودة على الرغم من وفرة الانتاج. و إذا حققتها للبعض، فعلى حساب الآخرين. و هي في الأخير تمتهن كرامة الانسان من حيث تبتغي الاحسان اليه. و لعل أكبر مهانة له أن قصرت مطالبه في حاجاته الجسدية، و جعلته عبدا لها.

1 - سيد قطب ، المصدر السابق ، ص 136

2 - سيد قطب ، هذا الدين ، ص 17

3 - المصدر نفسه ، ص 18

إن المنهج الاسلامي كامل، و قابل للتطبيق في كل زمان و مكان، بما يحقق أبهر النتائج و أعظمها، و المناهج البشرية قاصرة، بقصور الانسان وضعفه.

إن من دواعي الالتزام بالمنهج الاسلامي كذلك كونه المنهج الوحيد الذي يعطى التصور الصحيح و المنسجم عن الانسان و الكون والحياة. والانسان في أي نظام من الانظمة لا يستطيع أن يقوم بوظيفته في هذه الارض إذا كان يفتقد للتصور الصحيح و المنسجم عن الكون و الحياة، و موقعه هو فيهما. و لقد حاول الفلاسفة و المفكرون منذ القديم تفسير الوجود فلم ينتهوا فيه إلى قول سديد، فبقي الاسلام وحده هوالذي يملك الاجابة الصحيحة عن ذلك السؤال، و من ثم فمنهجه هو المنهج الوحيد القائم على أصوله، و في هذا المعنى يقول سيد : << كل نظام لحياة البشر لا يقوم على أساس من هذا التفسير الشامل لا يقوم على جذوره الطبيعية، وهونظام مصطنع لايمكن أن يعيش طويلا وهو مصدر شقاء للبشر طوال مدة قيامه فيهم >>[1]. و هو ما ينطبق اليوم على الحضارة الغربية و النظام الاجتماعي القائم على أساس تصوراتها المعادية للدين.

هناك ميزتان أخريان تجعلان من تطبيق النظام الاجتماعي الاسلامي ضرورة بشرية فوق أنه فريضة شرعية، و أولها ما اتسم به هذا النظام من يسر، و اليسر هو ميزة الاسلام في جميع تشريعاته و نظمه وصدق الله القائل : « **... ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج...** » المائدة 07. و القائل تعالى : « **يريد الله أن يخفف عنكم و خلق الانسان ضعيفا** » النساء 28. والمقرر عند علماء الاسلام أن الشريعة الاسلامية مبنية على جلب التيسير و رفع المشقة و الحرج. يقول سيد مبينا خاصية هذا الدين : << إنه يعرف طريقه إلى النفس البشرية منذ اللمسة الأولى، و يعرف دروبها و منحنياتها فيتدسس إليها بلطف،و يعرف مداخلها ومخارجها فيسلك إليها على استقامة، و يعرف قواها و مقدراتها فلا يتجاوزها أبدا >>[2].

إن الذين يلمزون الاسلام و تشريعاته بأنها أغلال أمام حرية الانسان، و عقبات أمام أشواقه و رغباته، و أوزار ثقيلة على كاهله، إن الذين يفعلون ذلك إما جاهلون بحقيقة الاسلام و طبيعته، أو متحاملون ضده، أو ناس غلبتهم أهواءهم و شهواتهم، فلا يريدون أن ينضبطوا بضابط أو يتحلوا بخلق . إذا كان اليسر هو الميزة الأولى للاسلام ومنهجه، فإن الميزة الأخرى هي أن النظام الاسلامي ذو تأثير عميق في الحياة، نظرا للقيم التي فرضها، و الآثار

---

1 المصدر نفسه ، ص 24

2 المصدر نفسه ، ص 30

الايجابية العميقة التي أحدثها. وعلى الرغم من أن الاسلام نحي عن قيادة الحياة ، وتصريف شؤونها منذ أمد بعيد. إلا أن الآثار التي أحدثها لازالت موجودة إلى اليوم يقول سيد : << استطاعت هذه الفترة أن تقرر في واقع الحياة البشرية مبادئ وتصورات، وقيما و موازين، لم يسبق أن تقررت في تاريخها كله، بمثل هذا الوضوح، وبمثل هذا العمق، و بمثل هذا الشمول للنشاط الحيوي كله >>[1] فتغير مفهوم الألوهية والربوبية، كما تغيرت النظرة للانسان و الكون و الحياة. و تغيرت النظرة – تبعا لذلك – للقيم و الموازين التي يوزن بها الأناسي و الأشياء.

إن هذا التأثير الشامل و العميق لم يحدث في أرض بور ، و عقول خالية من أية فكرة أخرى بل حدث ذلك كله في وسط مشحون بمعتقدات وأفكاروقيم معادية للاسلام ونظامه. وما هي إلا فترة وجيزة حتى اكتسح الاسلام الساحة، وصبغها بصبغته ، وما ذلك إلا للروح التغييرية ، والقوة الذاتية التي يتميز بها هذا الدين.

وإذا كانت الحياة اليوم تقوم على رؤى وتصورات مخالفة لطبيعة هذا الدين ونظامه و هي رؤى و تصورات تملك من الوسائل المختلفة ما يمكنها من فرض هيمنتهاوسيطرتها، فإن الاسلام قادر اليوم على أن يحدث مثل ذلك الأثر ، وربما أكبر من ذلك لأنه يملك رصيد التجربة بالاضافة إلىقوته التغييرية الذاتية . ولكن بشرط واحد، هوأن يفسح له المجال ، ويسمح له بالعمل ، وأن يحمله رجال يؤمنون به ويلتزمون به ، رجال يكونون في مستوى إيمان والتزام الجيل الأول بهذا الدين.

إن الظروف اليوم أكثر ملاءمة للتمكين لهذا الدين منها يوم نزل لأول مرة . ذلك أن الاسلام وإن انحسرت موجته ، وفقد هيمنته على الحياة في شعبها المختلفة، فإنه ترك بصمات واضحة هي بمثابة << خطوط عريضة، و مبادئ ضخمة قد استقرت في حياة البشرية، وصارت مألوفة للناس، وزالت عنها الغربة التي استقبلوها بها يوم جاءهم بها الاسلام أول مرة >>[2]. و هو الأمر الذي يجعل إمكانية انتزاع الاسلام القيادة من الجاهلية مرة أخرى، كما انتزعها منها أول مرة، و لذلك نحن نومن أن المستقبل لهذا الدين « **...ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز** » الحج 38.

---

1 - المصدر نفسه ، ص 45

2- المصدر نفسه ، ص 79

3- اهتمام سيد قطب بالبعد الاجتماعي للعقيدة :

إن كان علم الكلام قصر همه على القضايا العقلية النظرية، من دون أن يواجه مشكلة الوظيفة الاجتماعية للدين، فإن سيد قطب اهتم بالبعد الاجتماعي للعقيدة إهتماما واضحا و كبيرا. و لعل الذي دفعه إلى ذلك أمران، أولهما أصالة هذا الموضوع من خلال النصوص الشرعية الكثيرة التي تناولته، خاصة في القرآن الكريم وبينت مدى ارتباطه العضوي بالعقيدة وارتكازه عليها . والآخر تلك الحملة المسعورة التي شنت على العقيدة الاسلامية محاولة لتفريغها، وذلك بافراغها من محتواها الاجتماعي بشموليته، فكان لابد من اماطة اللثام عن هذه المحاولة الماكرة، كما كان لابد من إبراز البعد الجتماعي للعقيدة بخصوصياته التي ذكرناها.

إن اهتمام سيد بهذا الموضوع تدل عليه آثاره التي خصص جزءا كبيرا منها لبيان تعمق العقيدة الاسلامية للحياة الاجتماعية، و من أشهر ما ألف في ذلك كتاب : " العدالة الاجتماعية في الاسلام " . وهو با كورة أعماله في هذا المجال. و قد شرح في هذا الكتاب طبيعة العدالة الاجتماعية في الاسلام و أسسها ووسائلها ، كما تحدث فيه عن سياسة الحكم و المال في الاسلام، و غير ذلك من الموضوعات ذات الطابع الاجتماعي، ثم توالت أعمال سيد في هذا المجال فكتب " نحو مجتمع إسلامي " حيث بين فيه طبيعة المجتمع الاسلامي و خصائصه التي يمتاز بها عن المجتمع غير الاسلامي. و في كتابه " هذا الدين " عرض سيد إلى بيان مبررات تطبيق الاسلام عموما، ومنه النظام الاجتماعي الاسلامي. و لسنا في حاجة إلى التدليل أكثر على اهتمام سيد بالبعد الاجتماعي للعقيدة، فنحسب أن فيما ذكرنا الآن و من قبل الكفاية، ثم إن مؤلفاته بعناوينها و محتواها تؤكد هذه الحقيقة.

و نحن بصدد الحديث عن هذا الموضوع، نود أن نشير ، و لو باختصار لأهم المميزات التي طبعت فكر سيد في هذا المجال. و التي يمكن أن نلخصها في النقاط التالية :

1- الشمولية: بحيث كتب سيد في كل فروع النظام الاجتماعي الاسلامي ، وأفاض الحديث عن الجانب الاجتماعي المعيشي، و خصص لذلك كتاب : " العدالة الاجتماعية في الاسلام "، بالاضافة إلى ما كتبه عن هذا الموضوع في كتبه الأخرى خاصة " معركة الاسلام و الرأسمالية ". كما تحدث سيد عن البعدالاقتصادي والمالي للعقيدة الاسلامية، و خاصة في كتابيه سالفي الذكر ، و تحدث مطولا - في الظلال - عن الربا، باعتباره مشكلة

اقتصادية خطيرة. و كتب في المجال السياسي الداخلي والخارجي، فأفاض الحديث عن مسألة الحكم والحاكمية . و خاصة في " الظلال " و " المعالم ". و تحدث عن تنظيم المجتمع و العلاقات التي تحكمه، و الآداب التي تربط بين أفراده، و ذلك في كتاب " السلام العالمي و الاسلام " كما تحدث عن طبيعة المجتمع الاسلامي و خصائصه، و كيفية انبنائه، و خصص لذلك كتابه " نحو مجتمع إسلامي " ، كما كتب في العلاقات السياسية الدولية، وذلك في " السلام العالمي و الاسلام ". كما كتب أيضا عن الحضارة و الثقافة، و ذلك في " معالم في الطريق " .

وهكذا يتبين لنا أنه ما من مجال من المجالات الاجتماعية إلا وكتب فيه ، لا كتابة عرضية ، ولكن كتابة عميقة ودقيقة وأحيانا موسعة.

2- العمق و الدقة : لم تكن كتابات سيد في هذه الموضوعات عرضية وسطحية ولكنها اتسمت بشيء من الدقة والعمق والتحليل ، خاصة في القضايا الاجتماعية والاقتصادية ، وقد تجلت هذه الدقة في الاستدلال لهذه القضايا، والبرهنة النظرية والعملية لصحتها ووا قعيتها، والردود على كل الشبهات التي ألصقت بالعقيدة الاسلامية في بعدها الاجتماعي . والمقارنة بين النظام الاسلامي ، والنظم الوضعية الأخرى ، سواء في مجال الاقتصاد أو السياسة أو الاجتماع، أو الثقافة و الحضارة. و في كل ذلك كان سيد يناقش القضايا الواقعية التي يعيشها المجتمع، فقد تناول موضوع سوء توزيع الملكية والثروة ، ومشكلة العمل والأجور ، وضعف الانتاج ، وقضية الحكم وما يثار حولها من شبهات ، وقضية المرأة . ولا نستطيع هنا أن نضرب أمثلة، فالمجال لا يتسع و لكننا نحيل القارئ على كتاب " معركة الاسلام و الرأسمالية " فهو خير مثال لذلك.

3- الاستناد إلى العقيدة : ما دام النظام الاجتماعي الاسلامي منبثق من العقيدة، فيجب الاستناد والاعتماد على هذه العقيدة لفهم طبيعة القضايا والمشكلات الاجتماعية المختلفة . يقول سيد : << يصعب إدراك طبيعة أي جانب من هذه الجوانب المتعددة ، وفهمها فهما حقيقيا، بدون دراسة العقيدة الاسلامية، وفكرة الاسلام عن الكون و الحياة و الانسان، ثم الربط بين هذه الفكرة الكلية، و بين أي جانب من جوانب الحياة في الاسلام >> . و إذا جاز لنا ألا نعتمد على العقيدة ، و ألا نعود إليها عند دراسة الظواهر الطبيعية، المتعلقة بالعلوم المخبرية البحتة، فالامر يختلف بالنسبة لأوجه النشاط ذات الصبغة الاجتماعية والفلسفية التي ينبغي تحليلها وتفسيرها وصياغتها من خلال

النظرة الاسلامية للكون و الحياة و الانسان. و منها أمور الثقافة والفن. يقول سيد: << إن لدى المسلم الكفاية من بيان ربه الصادق عن تلك الشؤون ، و في المستوى الذي تبدو فيه محاولات البشر في هذه المجالات هزيلة ومضحكة . فضلاعن أن الأمر يتعلق تعلقا مباشرا بالعقيدة >>[2]. إن للمجتمع الاسلامي رؤيته الخاصة لهذه المسائل، وتلك القضايا،وللمجتمع غير الاسلامي رؤيته الخاصة، فرؤية المجتمع الاسلامي منبثقة من العقيدة،التي هي من وحي السماء،بينما رؤية المجتمع غير الاسلامي من وضعه هوذاته.

إذا كانت المجتمعات الغربية اليوم تدعي التحضر، و تعير المجتمعات الاسلامية بالتخلف، فإن لسيد قطب رأيا في هذا الموضوع، لعل هذا المجال ببانه.

4 - الاسلام هو الحضارة :

هذا عنوان استعرناه من " معالم في الطريق ". وقد كتب سيد تحت هذا العنوان يشرح المواصفات، و الأسس التي يقوم عليها مجتمع ما فيكون متحضرا، وبقدر ما تتخلف هذه العناصر، يكون متخلفا. فالمجتمع المتحضر هو الذي يكون أفراده أحرارا حرية تامة، لا بالمعنى الغربي للحرية، فتلك عبودية من نوع آخر، و لكن بالمعنى الاسلامي الذي أدركه الصحابة فتحررت أنفسهم، و خرجوا ليحرروا غيرهم، ليدخلوهم في عبادة الله وحده. و ذلك يقتضي أن تكون الحاكمية لله في هذا المجتمع، و السيادة لشريعة الله، لا للاغلبية، أو الوجهاء أو أحد آخر.

والمجتمع المتحضر هو الذي يكرم فيه الانسان لإنسانيته، فيكون هو القيمة العليا في المجتمع، و ليس المادة سواء في صورتها النظرية (الماركسية) أو المادية الانتاجية. وإذا كانت المادة ضرورية من أجل خلافة الانسان، فإنه لا ينبغي أن تحتل مكانة الانسان من حيث القيمة والاعتبار . لأن في ذلك إهدارا لقيمة الانسان، سيد المادة والكون كله.كما أن المجتمع المتحضر هو المجتمع القائم على أساس الأسرة التي تتولى رعاية النشء ، وتنمي فيه القيم الانسانية. أما حين يقوم المجتمع على أساس العلاقات " الحرة " بين الرجال و النساء ، فتسود النزعات الحيوانية بدل القيم الانسانية ، وهو التخلف بعينه . والمجتمع المتحضر هو الذي يقوم فيه الإنسان بالخلافة في أرض الله، على شرط الله ، أما مجرد الابداع المادي ، والانتاج الوفير ، من دون رعاية منهج الله تعالى، فلا يسمى حضارة، لأنه يتحول إلى وسيلة للبطش بالضعفاء من الامم و الشعوب.

فالحضارة إذا لها أصول ثابتة، و قيم أساسية، هي التي يقوم عليها مجتمع ما فيكون متحضرا و إلا كان متخلفا مهما بلغ من الرقي المادي . وهذه الاصول هي المقومات الرئيسية للحضارة، و تتمثل في : << العبودية لله وحده، والتجمع على أصرة العقيدة فيه ، واستعلاء إنسانية الانسان على المادة، وسيادة القيم الانسانية التي تنمي إنسانية الانسان لا حيوانيته ، وحرمة الاسرة ، والخلافة في الارض على عهد الله وشرطه ، وتحكيم منهج الله و شريعته وحدها في شؤون هذه الخلافة >>[1]. هذا التعريف للحضارة من طرف سيد قطب يتفق مع التعريف القائم على أن الحضارة = الانسان + التراب + الوقت .فالانسان هو الخليفة الذي يتفاعل مع التراب (الارض) من خلال وظيفة الخلافة و الوقت هو مدة الاستخلاف. إلا أن سيد قطب يؤكد على ضرورة الفكرة الدينية التي ينبغي أن تصطبغ بها هذه الحضارة ، وأن تقوم على أساسها . والفكرة الدينية ليست سوى منهج الاسلام، الذي يجعل العبودية لله وحده، و يقصر التجمع الانساني على أصرة العقيدة وحدها . ومن ثم إعلاء الانسان بإعلاء قيمة الانسانية. فالحضارة التي هي إنتاج بشري، ينبغي أن تكون أولا وقبل كل شيء في خدمة الانسان لا من حيث المادة فقط ، ولكن أولا وقبل كل شيء من حيث روحه و قيمه وإنسانيته [2].

إذا كانت الفكرة الدينية ضرورية لقيام الحضارة، فإن الفكرة الدينية الصحيحة و الوحيدة التي يمكن أن تقوم عليها حضارة إنسانية بأتم معنى الكلمة فهي الفكرة الاسلامية لأنها المنهج الوحيد الذي << يسمح لجميع القوى الانسانية أن تعمل، و يمنح الزاد المناسب لكل جوعة من جوعاتها: فكرية كانت أو روحية أو مادية، و بحكم أنه نظام عالمي يمكن للبشرية كلها أن تستظل بلوائه >>[3].

إن الحضارة في المفهوم الاسلامي تمتاز عنها في المفهوم الغربي بكونها تعتني في المقام الأول بالجانب الروحي والأخلاقي، كما تعتني بالجانب المادي . أما في المفهوم الآخر ، فهي لا تزيدعلى اعتنائها بالجانب المادي ، ولذلك اعتبرها سيد حضارة قاصرة ، ونفى عن المجتمعات التي يسودها هذا النوع من الحضارة صفة التحضر ، فقال : << إن المجتمعات التي تسود فيها القيم والأخلاق والنزعات الحيوانية، لايمكن أن تكون مجتمعات متحضرة، مهما تبلغ من التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي>>[4]. وليس معنى هذا الكلام أن الانتاج المادي لا قيمة له في البناء

---

1 - المصدر نفسه ، ص 132

2 - سيد قطب ، نحو مجتمع إسلامي ، ص 29

3 - المصدر نفسه ، ص 40

4 - سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 1258/3

الحضاري كلا، وإنما المقصود وجوب تأسيسه على القيم الدينية والاخلاقية، التي تعلي إنسانية الانسان، في الوقت الذي يخضع الانسان لعبودية واحدة، هي عبودية الله تعالى، و تحرره من كل أصناف العبوديات الأخرى. و يبين سيد قطب أهمية العنصر المادي في الحضارة فيقول : << إن المجتمع الرباني المسلم لا يحتقر المادة ، لا في صورة " النظرية " باعتبار المادة التي تؤلف كيان هذا الكون الذي نعيش فيه، و لا في صورة " الانتاج المادي " و الاستمتاع به. فالانتاج المادي من مقومات خلافة الانسان >>[1].

لقد اخفقت الحضارة الغربية في تحقيق السعادة للانسان الغربي، بشقيه الرأسمالي والشيوعي، على الرغم من كثرة الانتاج ، ومن زخرف الحياة ، لأنه إنتاج وزخرف مقطوع عن أصله ، وهو الايمان بالله . و من ثم كانت هذه الحضارة << كالطائر الذي يرف بجناح واحد جبار بينما جناحه الآخر مهيض، فيرتقي في الابداع المادي بقدر ما يرتكس في المعنى الانساني >>[2]. إن الحضارة الغربية تنتج اليوم الكثير ، وتخترع كل يوم جديدا . واستطاعت بتطوير التكنولوجيا أن تسخر الجو والبر والبحر ، كما استطاعت بهذه التكنولوجيا أن تستعمر شعوبا كثيرة، عهودا مديدة . واستطاعت أن تغزو أمما بسلعها و أفكارها في الوقت نفسه . ولكنها لم تحقق للانسان الغربي السعادة، وإن حققت له الرفاه المادي ، ولم تسد جوعته لأن جوعته أكثر من المادة، وأسمى منها . جوعة إلى فكرة دينية تملأ فكر الانسان بالتصور الصحيح عن الله والانسان والكون والحياة.

حينما نتحدث عن الحضارة الاسلامية ، وا لمجتمع الاسلامي الذي يقوم على أساس هذه الحضارة ، يقفز الذهن ليسترجع صورة المجتمع الاسلامي الأول، الذي بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم تشكيله، وتم الخلفاء الراشدون بناءه. و يقف الناس أمام صورة هذا المجتمع مختلفين، منهم من يرى أن العودة إلى مثل هذا المجتمع هو التخلف و الرجعية بعينها، ومنهم من يرى أن ذلك أمر مستحيل. إن هاتان النظرتان خاطئتين من الأساس، لأنهما قائمتان على اعتقاد أن صورة المجتمع الاسلامي واحدة لا تتغير بتغير الزمان والمكان والحال. والحقيقة غير ذلك. يقول سيد : << إن الصورة أو الصور التاريخية للمجتمع الاسلامي ، ليست هي الصورة أو الصور النهائية لهذا

1- المصدر نفسه، 1258/3

2- المصدر نفسه ، 17/1

المجتمع، بل إن هناك صورا متجددة أبدا، يمكن أن تحمل هذا الوصف " إسلامي " و تنبثق من الفكرة الاسلامية الكلية، و تعيش في إطارها العام ..."[1]. فالمهم إذا في صورة المجتمع الاسلامي، أن لا يخرج هذا المجتمع عن الاطار العقدي، و أن يلتزم بشرع الله و منهجه، و لا عليه بعد ذلك أن يغير في نمط المعيشة و أشكال التعاون كما لا عليه أن يطور من هيئاته وتنظيماته بما يستجيب لتجدد الحياة ، وتطور أقضيتها ، حتى وإن دعا ذلك إلى الاقتباس ممن يخالفنا في المبدإ و الغاية. و لم يصبح المجتمع الاسلامي الأول في عهد عمر الفاروق رضي الله عنه كما كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم نظرا للتغيرات التي أدخلها عمر على نظام الحياة، خاصة في الجانب التسييري لشؤون الدولة و دواليبها.

إن اعتبار المجتمع الاسلامي مجتمعا منغلقا سببه قصور الفهم، أو سوء النية وخبث الطوية، ممن يحاولون إزاحة الاسلام عن الطريق ليفسح المجال للأهواء البشرية، والأفكار المستورة. و أصحاب هذا الفكر يلقون بهذه الشبهة في وجه دعاة المشروع الاسلامي، زاعمين أن المجتمع الانساني اليوم أصبح قرية صغيرة بفضل وسائل الاعلام التي قربت أطرافه المترامية ، وأن مصالح العالم اليوم أصبحت متشابكة ، وأن عملية التأثر والتأثير اليوم بين المجتمعات المختلفة أضحت واسعة النطاق . والنظام الاسلامي لا يستجيب لكل هذه التغيرات الجوهرية ، وإنما يستجيب لها النظام العلماني وحده. والحقيقة << أن الاسلام لا يحرم الانتفاع بالتجارب البشرية في كل ما لا يمس أصلا من أصول الشريعة ، فلا حرج في الانتفاع بتجارب البشر في تحديد الحاجات الاجتماعية المتجددة وضبطها بوسائل البحث المتجددة >>[2]. فالاسلام لا يحرم علينا أن ننشئ ديوانا أو جهازا أو برلمانا أو وزارة أو غير ذلك، بشرط واحد، هو عدم مخالفة أصول الشريعة الاسلامية. لأن النظام الاجتماعي الاسلامي متلما ينبثق من العقيدة، يظل في حركيته و تغيره و تطوره مرتكزا عليها.

إن الحضارة ، أي حضارة لا بد أن تقوم على أساس ديني صحيح، لأن الدين وحده هو الذي يجعل لحياة الانسان معنى ، وهو الذي يجعل للانسان غايات أسمى من الغايات الدنيوية الضئيلة ، وهو الذي يلبي جميع رغبات وأشواق الانسان، من دون أن يطغى جانب على آخر ، و لن يكون هذا الدين إلا الاسلام، في صورته النهائية التي جاء بها محمد بن عبد الله– صلى الله عليه وسلم.

1- سيد قطب ، نحو مجتمع إسلامي ، ص 47

2- المصدر نفسه ، ص 139

و من هنا يرى سيد أن الحضارة الغربية المادية استنفدت أغراضها ، ولم يعد لديها ما تعطيه للانسان. بعد أن أعطته الانتاج المادي الوفير . وأعطت الإنسان الغربي شيئا من الحرية والاخاء والمساواة، و هي مبادئ إنسانية وبراقة ، ولكنها تحولت بفعل الزمن إلى وهم لا حقيقة له . و واقع اروبا الحالي يشهد على ذلك، ناهيك عن واقع ما يسمى بالعالم الثالث.

إن الحضارة الغربية اليوم بشقيها ، الرأسمالي والشيوعي لم تعد تقدم للانسان إلا الضرورات والمطالب التي يشترك فيها مع الحيوان، من طعام و شراب و لذة حسية و كأن الانسان جسد بلا روح، و كأن الانسان حيوان بلا قيم ولا أخلاق ولا دين. ومن ثم يمكن القول إن الحضارة الغربية << قد استنفدت أغراضها ، ولم يعد لديها ما تعطيه للبشرية من مبادئ وأفكار تسمح للحياة بنمو جديد، وتطور جديد وكل حضارة إنما تعيش بمقدار ما تملك أن تعطي للبشرية من رصيد في إدراك الحياة، وبمقدار ما يسمح هذا الرصيد للحياة بالامتداد والنمو والترقي >>[1].

وليس كذلك الشأن بالنسبة للاسلام ، والحضارة الاسلامية التي قامت على أساسه بما يحمل من عناصر الخلود، التي يشهد له بها العام والخاص، والصديق والعدو، ولذلك << فالاسلام لم يكن في يوم من الايام إلا دين التقدم والمدنية والتحرير الانساني والعزة والكرامة والمجد >>[2]. و هو كما طبق بالأمس ، فأنتج أروع مجتمع وأرقى حضارة قابل اليوم للتطبيق ليعطي ثمارا كالتي أعطاها بالأمس.

إذا كان القرن العشرون هو قرن الصراع بين شقي الحضارة الغربية ، أي بين الفكر الرأسمالي والفكر لشيوعي، فإن سيد قطب يتنبأ بانتهاء هذا الصراع الداخلي للحضارة الغربية، ليبدأ الصراع الحقيقي بينها و بين الاسلام [3]. باعتباره البديل الحضاري المناقض لها، و البديل الحقيقي و الملائم في الوقت نفسه. و من ثم فالحضارة الغربية ستقوم بمحاولة دفاع ذاتية لسد الطريق أمام المارد الاسلامي. و قد صدقت نبوءه سيد قطب، فمنذسقوط الشيوعية حولت الحضارة الغربية سهامها نحو الاسلام، باعتباره العدو الحقيقي- في نظرها-، والخطر الماحق الذي يهدد مستقبلها . وأصبح هم الكتاب الغربيين و معاهد الدراسات الاستراتيجية هو رصد الحركة الاسلامية وتشويه صورتها ومحاولة قمعها. وإلا كيف نفسر تواطؤ الغرب جميعا ضد مسلمي البوسنة والهرسك في أبشع تراجيديا لم تعرف صورتها حتى الحربان العالميتان ، وفي الوقت الذي يرفع فيه الغرب شعار حق الشعوب في تقرير

---

1 المصدر السابق، ص 18

2 عبد المنعم خفاجي ، الإسلام و الحضارة الإنسانية ، ص 18

3 أنظر، المصدر السابق ، ص 39

المصير ، و حق الاقليات في الإحتفاظ بشخصيتها و ذاتيتها، يضطهد المسلمون في كل مكان. إن هذه لصورة من صور الحرب المعلنة على الاسلام،والحضارة الاسلامية من طرف الحضارة الغربية، و لئن كان دافع هذه الحرب هو العداوة التقليدية للاسلام وأهله، فإن الخوف من اكتساح الاسلام وحضارته لأرجاء واسعة من المعمورة، وحتى فى قلب أروبا، هو السبب الثاني، إن لم يكن الأول.

إذا كان " فوكوياما " يتنبأ في " نهاية التاريخ " بأن المستقبل للنظام اللبير الي وحضارته، فإن سيد قطب يعتقد بأن المستقبل للاسلام. وهو ليس اعتقادا نابعا من العاطفة الدينية، بقدر ما هو اعتقاد نابع من المعرفة بطبيعة هذا الدين، بربانيته و مبادئه السامية، وتلبيته لجميع أشواق و رغبات الفرد و المجتمع من دون طغيان، و بما يرسمه من منهج متفرد، و لذلك فمثلما كان الاسلام هو البديل للحضارة الرومانية فسيكون بديلا عن الحضارة الغربية.

يقول سيد قطب في هذا الصدد : << وإذا كان فساد العقائد وفساد النظم في القرن السادس قد جعل الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فجفاف الحضارة المادية و خواؤها ، وعجزها عن إمداد البشرية بأهداف تعيش من أجلها، وأحلام تقود خطاها في مصاعد الحياة... سيدفع بالناس من جديد إلى الاسلام>> . وذلك ما يلقي على المسلمين تبعة كبرى ، تتمثل في التحقق بالاسلام عقيدة وسلوكا و نظاما ، كما تتمثل في الدعوة إلى الاسلام مع حسن عرضه ، وبيان محاسنه ، وإغراء الناس به .لأنه إذا اقتنع بعض الآحاد من الناس بالمبادئ النظرية للاسلام، فإن الأمم و الشعوب عموما لا تنجذب نحوه إلا إذا رأته ممثلا في مجتمع، مترجما في حياة.

و المستقبل للاسلام، لأن النظام المنبثق منه << هو أعدل النظم و أكثرها توازنا و مراعاة للفطرة، و إطلاقا للقوى والطاقات الصالحة لتعمل على إنماء الحياة وترقية الحياة >> . ونحن في هذا العرض السريع لانستطيع أن نورد جميع خصائص و مقومات النظام الاسلامي التي تجعله النظام البديل، و تجعل المستقبل له ولحضارته. وسنجلى ذلك أكثر عند الحديث عن أهمية العقيدة و أثرها.

5- أهمية العقيدة و أثرها في النفس و المجتمع :

كان من الممكن أن يكون هذا الموضوع مقدمة لهذه الرسالة، و لكننا آثرنا أن نجعله خاتمة لها، لأنه بمثابة زبدة القول، و خلاصة الدراسة. و حتى تتصح أكثر أهمية العقيدة الاسلامية الصحيحة و أثرها في النفس و المجتمع،

سنعقد بعض المقارنات و نضرب بعض الأمثلة من المجتمعات القائمة على أساس غير عقدي صحيح، فبأضدادها تتميز الأشياء.

إن أهمية العقيدة وآثارها النفسية والاجتماعية كثيرة ومتنوعة ، والحياة الانسانية تطلعنا كل يوم بجديد في هذا الموضوع.ولكننا سنقتصر على ذكربعض العناصر الاساسية، لاعتقادنا أنها أصول ترجع إليها بقية الفروع لأخرى.

1- إن العقيدة الاسلامية باعتبارها أخر كلمة الله إلى البشر ، وباعتبارها محفوظة من التأويل والتحريف ، من خلال حفظ نصوصها الشرعية، هي التي تملك التصور الصحيح والشامل عن الوجود، وخالق الوجود. وهي بذلك تبين علاقة الانسان بالله ، وعلاقته بقوى الكون الظاهرة والخفية . يقول سيد :<< ودين الله هو الذي يقدم التفسير الشامل الكامل للوجود، و علاقته بخالقه العظيم، و لمركز الانسان في هذا الوجود، و لغاية وجوده الانساني >>[1]. وهذا في رأينا أهم ما تقدمه العقيدة للانسان، ذلك أن نقطة بداية حياة الانسان، والاساس الذي تبنى عليه هو المعرفة الصحيحة بالله والوجود ، والعلاقة بين الخالق والمخلوق ، وكذا العلاقة بين مفردات الوجود ذاتها . والمعرفة الصحيحة بالانسان ، في مصدره وغايته ونهايته . وبقدر جهل الانسان بهذه الحقائق يكون انحرافه وضلاله ، ومن ثم شقوته في هذه الحياة ، وتاريخ الإنسان خير دليل على ذلك.

2- إن العقيدة بهذا المفهوم هي التي ترسم للانسان منهج حياته، والانسان عاجز عن التكفل بهذا الموضوع، بسبب قصور عقله ، وتمكن الهوى من نفسه ، ومحدودية نظرته التي تتأثر كثيرا بالواقع و لا تستطيع تجاوزه. و من ثم فهو في حاجة إلى هذه العقيدة التي ترسم له أهدافا أكبر من طموحاته الذاتية الآنية . أعم من جيله ، وأبعد من حاضره، وفوق ذلك كله فالعقيدة بمنهجها ذلك تحقق للانسان الانسجام التام مع نفسه،والموجودات من حوله، يقول سيد موضحا هذه الحقيقة : << والناس إما أن يعيشوا بمنهج الله هذا بكليته فهم في توافق مع نواميس الكون وفطرة الوجود و فطرتهم هم أنفسهم ، وإما أن يعيشوا بأي منهج آخر من صنع البشر فهم في خصام مع نواميس الكون وتصادم مع فطرة الوجود و مع فطرتهم هم أنفسهم بوصفهم قطاعا من هذا الوجود >>[2]. والحقيقة التي يشهد بها التاريخ أن البشرية لم تعرف استقرارا نفسيا واجتماعيا، ولم تسعد كما سعدت واستقرت يوم عاشت تحت

1- سيد قطب ، المستقبل لهذا الدين ، ص 18

2- المصدر نفسه ، ص 11

لواء هذا الدين عقيدة و شريعة. و إذا كانت هذه التجربة إنما عرفها قطاع صغير من البشرية في مكان و زمان محدودين، فإن إشعاعات تلك الحقبة امتدت إلى آفاق أبعد و أزمان أرحب.

والحقيقة التي يشهد بها التاريخ البشري أيضا أن الحضارة الغربية اليوم، على اختلاف مناهجها لم تحقق لأهلها الانسجام المطلوب والسعادة المنشودة رغم كثرة الانتاج، و توفر أسباب اللذة. و كانت على بقية الشعوب الأخرى لعنة، بما جرته عليها من ويلات و كوارث. وإذا كانت قيمة هذه العقيدة فيما تقدمه للناس من منهج شامل متكامل يحقق للانسان الاستقرار والسعادة الفردية والجماعية، فإن قيمتها أيضا بما تسعف به الانسان من حلول لمشكلاته المختلفة، و الضمانات الكافية لتحقيقها و حمايتها [1].

3- إن العقيدة الاسلامية هي العامل الأساسي في حركية المسلم، و في تفاعله مع الوجود، و ذلك عكس ما يروج له قاصروا الفهم و المغرضون. و لم تكن هذه العقيدة في يوم من الايام تجربة عزلة و رفض للنشاط الملموس مثل النصرانية كما صورتها الكنيسة في العصور الوسطى. و العقيدة عامل أساسي في فعالية الانسان باعتبار أنها لا تنفر من العمل للدنيا ، بل تنفر من التبطل ، و لا تستغرق وقت الانسان و حياته بالشعائر التعبدية المحضة ، بل جعلت لذلك أوقاتا محددة ليتفرغ الانسان بعدها للعمل و الانتاج.

وفي ظل العقيدة الاسلامية << يستطيع الانسان أن يعيش الحياة الدنيا بكل فاعليته الحضارية في الوقت الذي يعيش لأخرته >>[2]. وهي التجربة التي عاشها الصحابة رضي الله عنهم كأفراد وكجماعة ، وهي التجربة التي يستطيع أن يعيشها كل مؤمن صادق من دون أن يغير من طبيعته البشرية شيئا. وهو ما عناه سيد بقوله : << وهذا المنهج ليس منهج اعتقاد و إيمان و شعور قلبي و تقوى فحسب، و لكنه كذلك – و تبعا لذلك – منهج حياة إنسانية واقعية، يقام، و تقام عليه الحياة >>[3]. ولذلك كان التارك للعمل – في نظر الاسلام – عاصيا، غير قائم بواجب الخلافة، والاسلام يحفل بالعمل كقيمة دون النظر إلى صورته، ولذلك كان الذي يحتطب فيكفي نفسه وعياله، خيرا من الذي يسأل الناس.

4- إن العقيدة الاسلامية في حقيقتها تحرير للإنسان من كل الأغلال المادية و المعنوية التي تكبله و ترهقه، فهي تحرر القلب من أن يدين لغير الله، لأنه وعاء يحتاج دائما إلى أن يمتلئ، فإذا لم يملأه الماء ملأه الهواء. لقد كان

---

1 سيد قطب ، السلام العالمي و الإسلام ، ص 7 8

2 سلمان الخطيب ، أسس مفهوم الحضارة في الإسلام ،ص197

3 سيد قطب في ظلال القرآن ،2/931

الناس دائما – وهم كذلك اليوم – يخضعون لقوات مختلفة، يدينون لها و يحبونها. و إذا كان بعض الناس يعبد الاصنام، و بعضهم يعبد اليوم البقر . فان الماديين خصوصا و الذين لا يدينون بعقيدة صحيحة – و هي ليست سوى الاسلام – إنما يعبدون المادة و الشهوة. يقول سيد – وهو الذي أمضى اربعين سنة يدرس الثقافة و الفكر الغربي، و هو الذي قضى سنتين يرصد فيها حياة و حركة الناس في أمريكا– يقول : << و كانت البشرية وقد انفلتت من قيود العقيدة الدينية قد انطلقت إلى عبادات جديدة فأمريكا مثلا قد نبذت كل المقدسات التي عرفتها البشرية في تاريخها كله، واتخذت لها ءالهة ثلاثة جديدة : الانتاج والمال واللذة >>[1]. و ما يقال عن أمريكا يقال عن غيرها من الشعوب و الامم الأخرى.

مثلما تحرر العقيدة القلب من الاتجاه لغير الله، فهي كذلك تحرر العقل و الفكر من كل الخرافات و الاوهام. إن عبادة الاصنام أو عبادة البقر خرافة،وإن اعتقاد النفع و الضر في المخلوق وهم. و لكنها تصير عقيدة مقدسة في العقل الذي لم يسترشد بالعقيدة، و ينضبط بضوابطها.والغربيون اليوم على الرغم من التقدم العلمي و الصناعي الذي وصلوا إليه، لازالوا يعتقدون ببعض الخرافات و لا يعرف العقل زيف هذه الاعتقادات إلا حين يستنير بنور

العقيدة، كما أدركها الصحابة من قبل، فخرجوا لتحرير الناس من عبادة العباد، و إخراجهم من جور الأديان و ضيق الدنيا إلى عبادة الله و عدالة الاسلام و سعة الدنيا و الآخرة.

إن العقيدة الاسلامية هي التي تملك وحدها أن تحرر روح الانسان من سجن الشهوات، لتحلق في الآفاق الرحبة، مستعلية بإيمانها على الطين و ثقلتها مهما كانت براقة و جذابة. هذه المادة التي أصبحت اليوم الصنم الذي يسجد له الشرق و الغرب، وحتى المسلمون بسبب وهن صلتهم بعقيدتهم. والمادة على أهميتها لا تصلح أن تكون الهدف السامي للانسان في هذه الحياة ، ولا يمكن أن تملأ فراغه وتسد جوعته حتى و إن حقق منها بغيته. وميزة الاسلام . . أنه يشدهذه الحياة النامية على الأرض إلى آفاقها العليا في السماء، كي لا تتردى في حضيض المادية المطلقة فتصاب بالجفاف و الخواء الذي انتهت إليه حضارة الرجل الابيض >>[2].

---

1 – سيد قطب ، نحو مجتمع إسلامي ، ص 7 ، 8

2 – المصدر نفسه ، ص 35 ، 36

5- إذا كانت العقيدة الصحيحة ثورة تحريرية للفرد والمجتمع ، فإنها المصدر الوحيد لغذاء الروح، هذا المصدر الذي لا يمكن تعويضه بأي مصدر آخر ، سواء كان ماديا في صورة إنتاج و وفرة، أو كان معنويا في صورة مذاهب فكرية و روحية. والتي إن استطاعت أن تقلص قليلا من الفراغ النفسي للفرد، فإنها لا تستطيع بحال أن تبلغ ما بلغت العقيدة الاسلامية باعتبارها ربانية المصدر ، وهي تنزيل من اللطيف الخبير. إن الدول الغربية اليوم تنتج كثيرا ما في ذلك شك، وهي بهذا الانتاج تحسب العالم الأول، وهي بهذا الانتاج أيضا تستعمر دولا وتستعبد شعوبا، و لكنها في الوقت نفسه تعيش فراغا نفسيا و روحيا هائلا.وقد عم هذا البلاء البشرية كلها، بسبب سيطرة ثقافة الحضارة الغربية . يقول سيد:<< إن هذه البشرية تعاني من الشقاء والقلق و الحيرة و الاضطراب، و تهرب من واقعها النفسي بالأفيون و الحشيش و المسكرات، و بالسرعة المجنونة، و المغامرات الحمقاء، و " بالتقاليع " السخيفة... وذلك على الرغم من الرخاء المادي و الانتاج الوفير والحياة الميسرة >>[1]. والسر في ذلك أن للانسان أشواقا أخرى غير مطالب الجسد، ولا يمكن بحال أن تعوض المطالب المادية الاشواق الروحية، بل إنها تعمق من حدتها، وتؤكد على ضرورة تحقيقها.

إن أروبا و أمريكا تعرف اليوم عودة كبيرة إلى الاسلام، فعدد الداخلين في دين الله يعرف تزايدا مستمرا، تقدره الدراسات الغربية ذاتها بالآلاف. و ذلك بالرغم من تقاعس المسلمين عن واجب الدعوة إلى الله تعالى، و عرض محاسن الاسلام على القلوب الخاوية و الأرواح العطشى، وعلى الرغم أيضا من التشويه المستمر لصورة الاسلام في أذهان الغربيين من طرف وسائل الاعلام ومراكز الدراسات، ولذلك يبقى السبب الوحيد لهذا الإقبال هو إدراك الغربيين - و قد جربوا جميع الحلول، و تعاطوا مختلف الادوية - أن الحل في الاسلام، على الرغم من التخلف الذي يطبع حياة المسلمين في مختلف جوانبها.

إن هؤلاء العائدين إلى الاسلام،مثلما أدركوا أن الحضارة الغربية استطاعت أن تجد الدواء الشافي لأغلب الأمراض العضوية، فإنهم ادركوا أيضا. أن<< الإيمان بالله عزوجل أنجع علاج نفسي يقي الانسان من أمراض هذا العصر المتعددة، والمتمثلة في أكثر مظاهرها بالخوف والقلق >>[2]، الذي أدى بكثير من الناس إلى اليأس والاحباط، فالتمسوا العلاج في الهروب من الواقع عن طريق المخدرات، و التمس كثير منهم العلاج فوضع حدا لحياته عن

---

1 سيد قطب ، هذا الدين ، ص 26

2 محمد عبد الرحيم عدس ، من خصائص النفس البشرية ص 71

طريق الانتحار ، الذي لم يصر ظاهرة فردية، بل أصبح حالة اجتماعية تعاني منه المجتمعات الغربية. و قد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى الايمان باعتباره العلاج الأمثل، فهو علاج للقلق و اليأس و الاحباط، كما هو علاج للمادية الطاغية. فقال عليه الصلاة و السلام : ((<< عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن :إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له >>)) [1] . فقوله صلى الله عليه وسلم:((وليس لذلك لأحد إلا للمؤمن)) دليل على أن الايمان بالله وحده هو العلاج الوحيد للامراض النفسية المختلفة. وهو ما يستطيع المسلمون اليوم أن يقدموه للبشرية الحيرانة و الخائفة، ما داموا لا يملكون أن يقدموا لها في الوقت الراهن الانتاج المادي.

وإنما كان الايمان بمثابة علاج سحري للنفس من أدوائها لأنه في حقيقته << قوة دافقة ، تجمع جوانب الكينونة البشرية كلها،وتتجه بها إلى وجهة واحدة،وتطلقها تستمد من قوة الله >>[2]. وأما خلو النفس من الايمان فإنه يشتتها ويضعف قوتها. فلا تقوى على احتمال الزمان وصروفه.

هذه أهم العناصر الأساسية التي تبين لنا أهمية العقيدة، ودورها في النفس والمجتمع والتي ظل القرآن الكريم طيلة ثلاثة عشرة عاما يتنزل لبيان حقائقها، وإصلاح ما أفسدت الجاهلية منها.حتى تكون عقيدة للضمير ،ومنهجا للحياة، وغذاء للروح، ومثلما أحيت هذه العقيدة أمة ميتة من قبل وجعلتها أمة شاهدة على الناس،بما حملت إليهم من هداية وبما أعطتهم من حضارة ، فإنها اليوم الأمل الوحيد لانقاذ البشرية من طوفان الحضارة الغربية الذي يكاد يغرق السفينة بمن فيها،وهي اليوم كذلك السلعة الغالية التي يملك المسلمون عرضها على الناس،بشرط أن يحسنوا الدعوة إليها والعمل بها ، مصداقا لقول الله تعالى :﴿ **ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله و عمل صالحا و قال إنني من المسلمين** ﴾ فصلت 32.

بهذا نكون قد أعطينا خلاصة واضحة عن البعد الاجتماعي للعقيدة ، من خلال رؤية سيد قطب ، والتي اتسمت – في رأينا – بكثير من التحليل و الدقة، و المقارنة مع النظم الغربية إثباتا لصلاحية العقيدة الاسلامية كي تحكم الحياة الانسانية، و تنظم شؤونها كما فعلت ذلك من قبل، فأنتجت أرقى حضارة، و أسمى إنسان، و أنقى مجتمع.

---

1 الدعوي ، رياض الصالحين ، ص 27

2 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 1338/3

وبهذا نكون قد أتينا على نهاية هذه الدراسة العقدية ، والتي انصب اهتمامنا فيها على بيان منهج سيد في فهم وصياغة العقيدة ، وبيان آرائه العقدية ، والتي اتسمت بالالتزام الكامل بالفهم السلفي ، مع تجاوز كثير من الموضوعات التي ولدها الجدل الكلامي بين الفرق الاسلامية. وإذا كان سيد تجاوز هذه المباحث، فإنه ركز كثيرا على ابراز التصور الاسلامي فيما يتعلق بالانسان والكون والحياة باعتبارها قضايا عقدية. كما اهتم أيضا بابراز البعد الاجتماعي للعقيدة باعتبارها منهجا للحياة. والبديل الوحيد لمختلف الافكار التي تهيمن على الحياة البشرية، والتي لم ولن تفلح في تحقيق السلام للفرد والأسرة والمجتمع والعالم، بسبب انقطاعها عن الله تعالى.

ومما تجدر الإشارة إليه في نهاية هذه الدراسة، أنني اكتفيت بتوضيح الفكر العقدي كما يتصوره سيد قطب ، دون التعرض للحكم له أوعليه ، ولعل الفرصة تسنح مرة أخرى لتناول هذا الجانب ، أوقد يتناوله غيري، وأكون بذلك قد ساهمت في فتح باب من أبواب الخير ، وأسأل الله تعالى أن يجعل ذلك في ميزان حسناتي، آمين .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخاتمة :

بعد هذه الحولات مع سيد قطب في فكره العقدي، نأتي إلى تسجيل النتائج التي توصلنا إليها ، وهي التالية :

1 - إلتزام سيد بمنهج السلف في العقيدة إلتزاماكاملا، من خلال اعتماده على القرآن والسنة في استلهام التصورات العقدية دون تأويل . مع مخالفة السلف في عدم الأخذ بخبر الواحد في العقيدة ، لاعتقاده أن التصورات الاعتقادية تتطلب النصوص الشرعية المتواترة. وهذا في رأينا - و إن كان مخالفا لمنهج السلف - إلا أنه لا يعتبر خروجا عن الأصل، والقواعد الكلية لهذا المنهج.

2 - رفضه رفضا تاما وقاطعا لكل المناهج العقدية المتأثرة بالفكر الفلسفي أو العلمي التجريبي سواء في ذلك علم الكلام والفلسفة. أومنهج المدرسة العقلية بزعامة الشيخ محمد عبده. ومنهج إقبال المتأثر بفلسفة هيجل و أوجيست كونت. لاعتقاده أن هناك جفوة أصيلة بين العقيدة الاسلامية ذات المصدر الرباني ، والمناهج البشرية القاصرة والتي أدت إلى إطفاء جذوة العقيدة في النفوس وإضعاف فاعليتها في الحياة ولذلك دعا بقوة إلى ترك هذه المناهج، وصياغة العقيدة من خلال منهجها الأصيل المستوحى من النصوص الشرعية مباشرة.

3- تميزت دراسة سيد للعقيدة الإسلامية بالشمول، فقد رد جميع موضوعات العقيدة إلى أصلين كبيرين هما: الألوهية ، والعبودية. و كان غرض سيد من ذلك هو إعطاء التصور الاسلامي الصحيح ، الذي ينبغي أن يواجه التحديات المذهبية المختلفة التي أصبحت تغزو المسلمين. ومن أجل ذلك لم يكن سيد يهتم كثيرا بتتبع الموضوعات الجزئية التي دأب الكثير من المؤلفين على إثارتها. كما وجدناه لا يعني كثيرا بالتعريفات الاصطلاحية وإنما ببيان حقيقة وقيمة هذه المسألة أو تلك كالنبوة والقدر وغيرهما.

4- رفضه القاطع لاستحضار القضايا الخلافية والانشغال بالرد عليها، لأن التصور الصحيح - حسبه - لا يبنى من خلال الرد على الانحرافات العقدية التي حدثت في بعض فترات التاريخ الاسلامي، بل من شأن هذه الطريقة أن تولد إنحرافات جديدة . ولهذا كان يستقي موضوعاته وفكره العقدي من النصوص الشرعية مباشرة. وليس من المؤلفات المبنية على الجدل والقضايا الخلافية بين الفرق.

5- ركز كثيرا على موضوع التوحيد، باعتباره العمود الفقري للعقيدة الاسلامية. وأبرز قيمته في الحياة الواقعية للانسان. خاصة فيما يتعلق بمسألة الحاكمية التي هي مسألة عقدية أولا وأخيرا. حتى وإن كانت غائبة في أبحاث علم الكلام. وقد بين سيد ما ينبني عليها من أحكام، وما يترتب عليها من آثار. وبذلك أخرج سيد موضوع التوحيد من الاطار الكلامي الذي وضعه فيه المتكلمون. وصيروا به التوحيد قضية نظرية جدلية لا علاقة له بالأفعال الفردية والجماعية. فأخرجه سيد من هذا الاطار إلى الواقع العملي حيث يكون أساس التصورات الاعتقادية. وأساس السلوكات الفردية والجماعية. كما حاول سيد أن يبين كذلك الوحدة بين المخلوقات جميعا من حيث الأصل والقوانين التي تحكمها سواء كانت قوانين طبيعية أوشرعية. وهوالأمر الذي يؤدي إلى ضرورة التعارف والتجانس والتوافق بين مخلوقات الله كلها، وخاصة بين الانسان والكون مما يقضي على فكرة الصراع. وبهذا تكون العقيدة الاسلامية حقا عقيدة التوحيد.

6- ابراز حقيقة الانسان، ومكانته في الوجود، و دوره في الحياة. باعتباره الكائن المحوري في هذا الكون، والخليفة في الأرض القائم بوظيفة العبادة والعمارة. و قد أكثر سيد من مقابلة النظرة الاسلامية للانسان بغيرها مما أتاح لنا التعرف على النظرية الاسلامية حول الانسان، الذي يبالغ مذهب في تقديسه و تأليهه، في حين يبالغ مذهب أخر في إذلاله وامتهانه.

7- اعتبار العقيدة أصلا وإطارا.أصلا نستسقي منه تصورنا الصحيح عن الله والانسان والكون والحياة. وإطارا نؤسس داخله كل أفكارنا ومناهجنا وأنظمتنا الحياتية المختلفة. فكل شيء يبدأ من العقيدة ويعود إليها. وأي فكر، وأي نظام، لم تكن العقيدة الاسلامية هي مرجعه يعتبر باطلا ولاغيا. وذلك من شأنه أن يعيد للعقيدة الاسلامية مرجعيتها وهيمنتها على الفكر والسلوك.

8- اهتم سيد قطب كثيرا ببيان البعد الاجتماعي للعقيدة، باعتبارها عقيدة للضمير ومنهجا للحياة. خلاف ما دأب عليه المتكلمون في دراستهم للعقيدة حيث حولوها إلى مجرد مسائل عقلية مقطوعة الصلة في كثير من الأحيان بالواقع، و خلاف ما استقر في ضمائر الكثير من المسلمين بله غير المسلمين من أن العقيدة لاعلاقة لها بالحياة

ولـذلك كرس سيد قطب الكثير من مولفاته لبيان نظرية الاسلام الاجتماعية المنبثقة من العقيدة. والانتصار لـها بالادلة الشرعية، والتاريخية والواقعية مما يجعل العقيدة الاسلامية في بعدها الاجتماعي تمثل جدار مقاومة منيع أمام تحديات المناهج والنظريات الاجتماعية الغـربية، بل يجعلها البديل الأفضل أمام إفـلاس المناهج الغربية، و مصادمتها للإنسان، الذي وضعت لخدمته.

9- على الرغم من عدم الدراسة الشرعية، والتخصص في مجال العقيـدة الاسلامية. إلا أن سيد أبان عن فهم واسع وصحيح للعقيدة، وتصور شامل لها، وإحاطة كبيرة بقضاياها، وما ثار حولها من جدل، والملابسات التي صاحبت ذلك. وهو الأمر الذي مكنه من تجاوز علـم الكـلام وقضـاياه، إلى ما يخدم العقيدة في ذاتها و الأمة الاسلامية أمام التحديات الكبرى التي تواجهها سواء كانت تحديات فكرية أو واقعية عملية.

10- من خلال دراستنا لمجمل ما كتب سيد يتبين لنا مدى سعة ثقافته، و كبير اطلاعه، خاصة في مجال العلوم الانسانية الغربية، التى قضى أزيد من اربعين سنة في مدارستها. الأمر الذي مكنه من تـأييد التصـور والمنـهج الاسلاميين، وإبطال الكثير من النظريات الغربية ، التي تتنافى والعقيدة الاسلامية. خاصة تلك النظريات المتعلقة بالانسان من حيث أصله وطبيعته كنظرتي داروين وفرويد.وكان عمل سيد في ذلك أشبه بعمل الغزالي أبي حامد الذي عكف على دراسة الفلسفة حتى أحاط بما لم يحط به الفلاسفة أنفسهم ثم عاد فهدمها، وقوض أركانها.

11- يرى سيد أن نقطة البدء في العودة إلى الاسلام ، هي العودة إلى العقيدة الاسلامـية فـهما والـتزاما، وأنه لا يصح تطبيق الاحكام الشرعية ، ولا يصلح الاحتكام إلى المنـهج الرباني، إلا بعودة أكيدة و صحيحة إلى العقيدة. حتى يتشرب المجتمع الاسلامي اليوم العقيدة كما تشربها المسلمون الأوائل . لاعتقاده أن المجتمع الاسـلامي اليوم أشبه حالا بالمجتمع الجاهلي في الفترة الأولى للبعثة المحمدية . وهو رأي يخالف فيه كثير من المفكرين سيدا. وتبعا لهذا الموقف يرى سيد أنه لا يمكن استفتاء الاسلام في المشكلات الواقعية، لأنها نتيجة لتطبيق مناهج مخالفة للاسلام. والاسلام لايحل المشكلات بطريقة آلية بحتة ، كما هوالحال بالنسبة للمناهج البشرية ، وإنما يحلها عن طريق اعتناق العقيدة أولا كما اعتنقها السلف.

12 - نستطيع القول إن سيد قطب لا يقول بفكر التكفير . وإنما أراد من خلال استعماله " المفرط " لكلمة الجاهلية، وغيرها من الكلمات التي قد تؤدي – إن حملت على ظاهرها – إلى القول بالتكفير ، أراد أن يبين ما آل إليه المجتمع الإسلامي من وضع يشبه إلى حد كبير حال المجتمع الجاهلي، على المستوى الفردي والجماعي. حتى وإن كان أفراد هذا المجتمع يعلنون الشهادة، إلا أنهم لا يفهمون معناها. ولا يلتزمون بمقتضياتها،ويخالفونها مخالفة صريحة و كبيرة.

13- إذا كان سيد لا يقول بفكر التكفير ، فإنه تبعا لذلك لايدعو إلى مقاطعة المجتمع ، ولكن إلى ممارسة العزلة الشعورية، التي من شأنها أن تحفظ على المؤمن عقيدته وتميزه. وتحفظه من كل الآثار السلبية للمجتمع ومظاهره الجاهلية ذات الضغط النفسي الكبير . و لهذا دعا إلى الإستعلاء بالايمان من غير كبرياء، و ممارسة واجب الدعوة إلى الله بكل حب وتواضع . و يرى أن العصبة المؤمنة التي تمارس هذه العزلة الشعورية هي المهيأة لتكون نواة للمجتمع الاسلامي المنشود.

14- لقد أغنى سيد الساحة الاسلامية بكثير من الأفكار، التي بقدر ما وجدت من يتحمس لها، ويبشر بها، باعتبارها تعبير أصيل عن الفكرة الاسلامية في أبعادها المختلفة ، وجدت من يرفضها ويناوؤها. ويعتبرها تطرفا فكريا، وانحرافا عن الفهم الصحيح للاسلام.

كما فرض استعمال الكثير من المصطلحات ذات المضامين العميقة والأساسية ، كمصطلح : الجاهلية، الحاكمية، العزلة ، المفاصلة ، الطاغوت. وغيرها. وهي المصطلحات التي جعلت فكر سيد راديكالي وثوري. وجعلت الكثير من الناس يبني عليها أحكاما هامة ، أخطرها القول بالتكفير ، خاصة وأن استعمال سيد لهذه المصطلحات اتسم بكثير من التعميم، وقلة الضبط والتدقيق وهوما جعل مجال التأويل لهذه الكلمات الإصطلاحية واسعا ومتاحا.

15- امتاز فكر سيد قطب بالشمول في النظرة، والعمق في البحث ، والجدة في القضايا و الاستقلالية في الرأي، والصلابة في الموقف. وهو ما جعله فكرا متميزا، ومحلا للدراسة و الاهتمام.

16- مثلما أكد سيد على العقيدة الاسلامية باعتبارها أصلا و إطارا. أكد أيضا على خصائصها التي ميزتها عن كل تصور مذهبي، سواء كان أصله سماويا كالمسيحية و اليهودية،أو كان من وضع البشر .و هو الأمر الذي يجعل

من العقيدة الاسلامية تصورا **صحيحا** وشاملا. ويكسبها صفة الأحقية والصوابية والصلاحية. فتكون بذلك المرجع الوحيد الذي ينسجم مع **الفطرة و** واقعات الحياة.

وبعد، فإني لا أزعم لنفسي الإحاطة الكاملة بفكر سيد قطب العقدي ، فإن ذلك يحتاج إلى جهد أكبر، وعمل أشمل. ولكن أحسب أنني استطعت أن أبرز صورة متكاملة عن هذا الجانب من فكر سيد. **كما حاولت الإ جابة** عن بعض الأسئلة التي كثيرا ما تطرح حول فكره ، وإزالة بعض الغموض الذي كان بطبعه . **إلا أن همي** الأكبر كان هو إبراز رؤية سيد للعقيدة الاسلامية ، والمنهج الذي ينبغي أن تدرس من خلاله، حتى تؤدي في واقع الناس اليوم ما أدته في واقع الناس بالأمس . والله أسأل أن يوفقني في المستقبل لإتمام النقص ، وتجاوز ما قد يكون من خطإ. ومن اجتهد فأصاب له أجران، و من اجتهد فأخطأ فله أجر الاجتهاد.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرست الآيات القرآنية

الآيـــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
الحمد لله رب العالمين ...	الفاتحة	01	194
الذين يؤمنون بالغيب ...	البقرة	02	136
و إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ...	-	29	173
و قلنا يا آدم اسكن أنت و زوجك الجنة ...	-	34	187
و لما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ...	-	88	113
و لتجدنهم أحرص الناس على حياة ...	-	95	153
صبغة الله و من أحسن من الله صبغة ...	-	137	216
لا إكراه في الدين ...	-	255	169
يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله و ذروا ما بقي من الربا ...	-	277	213
رب أرني كيف تحي الموتى ...	-	259	72
فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ...	آل عمران	07	47
قل اللهم مالك الملك توتي الملك من تشاء ...	-	26	169
قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم ...	-	63	87
كنتم خير أمة أخرجت للناس ...	-	110	214
ليسوا سواءا من أهل الكتاب أمة قائمة ...	-	113	145
إن في خلق السموات و الأرض و اختلاف الليل و النهار ...	-	190	191
و لا تهنوا و لا تحزنوا و أنتم الاعلون ...	-	193	131
فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم ...	-	195	166
يريد الله أن يخفف عنكم ...	النساء	28	218
إن الله لا يغفر أن يشرك به ...	-	47	107
فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله و الرسول ...	-	59	43
فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ...	-	83	129
إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ...	-	104	129
و من يكفر بالله و ملائكته ...	-	135	146
إن الذين يكفرون بالله و رسله و يريدون أن يفرقوا ...	-	149	109
رسلا مبشرين و منذرين ...	-	164	68
يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ...	المائدة	01	213
ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج ...	-	07	218
إنا أنزلنا التوراة فيها هدى و نور ...	-	46	88
و ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ...	-	49	88
و أنزلنا إليك الكتاب بالحق ...	-	50	132-130
أفحكم الجاهلية يبغون ...	-	52	91
يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ...	-	69	127
يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر و الميسر ...	-	92	213
و عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ...	الأنعام	60	135
يا قوم إني بريء مما تشركون ...	-	79	103
و من كان ميتا فأحييناه و جعلنا له نورا ...	-	123	74-61

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قل إن صلاتي و نسكي و محياي و مماتي لله رب العالمين ...	الأنعام	164	176
و لله الأسماء الحسنى فادعوه بها ...	الأعراف	18	99-41
قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ...	-	30	208
ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ...	-	42	71
إن ربكم الله الذي خلق السموات و الأرض ...	-	53	195
و رحمتي و سعت كل شيء ...	-	156	112
و إذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ...	-	172	80-64
و لقد ذرأنا لجهنم كثير من الجن و الإنس ...	-	179	66
إنما المومنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ...	الأنفال	02	69
و لا تكونوا كالذين قالوا سمعنا و هم لا يسمعون ...	-	20	168
اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون الله ...	التوبة	31	94-87
لكن الرسول و الذين ءامنوا معه جاهدوا ...	-	89	129
أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم ...	يونس	02	121
حتى إذا أخذت الأرض زخرفها و ازينت ...	-	24	204
قل من يرزقكم من السماء و الأرض ...	-	31	105
و ما كان لنفس أن تومن إلا بإذن الله ...	-	100	51
قل أنظروا ماذا في السموات و الأرض ...	-	101	82
يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ...	هود	50	176
و إلى مدين أخاهم شعيبا ...	-	81	212
يا صاحبي السجن ...	يوسف	39	103
إن الحكم إلا لله ...	-	40	89
وكاين من آية في السموات والأرض يمرون عليها ...	-	105	108
و لله يسجد من في السموات و الأرض ...	الرعد	12	176
إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ...	-	16	198
قالت رسلهم أفي الله شك ...	إبراهيم	13	69
إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافضون ...	الحجر	09	132
و لكم فيها جمال حين تريحون و حين تسرحون ...	النحل	06	204
و لقد بعثنا في كل أمة رسولا ...	-	36	130
و الله أخرجكم من بطون أمهاتكم ...	-	78	168
و إن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ...	-	126	189
سبحان الذي أسرى بعبده ليلا ...	الإسراء	01	111

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و لا تزر وازرة وزر أخرى ...	الإسراء	15	189
قل لو كان معه آلهة كما تقولون ...	-	42	105
تسبح له السموات و الأرض و من فيهن ...	-	44	198
و إذا مسكم الضر ...	-	67	65
و لقد كرمنا بني آدم ...	-	70	171
و قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ...	-	90	111
و يسألونك عن الروح ...	-	185	135
قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي ...	الكهف	105	111-109
قال رب أنى يكون لي غلام ...	مريم	07	118
إذهب إلى فرعون إنه طغى ...	طه	23	212
و لتصنع على عيني ...	-	39	48
فأتياه فقولا إنا رسول ربك ...	-	46	212
ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ...	-	133	129
اقترب للناس حسابهم و هم في غفلة معرضون ...	الأنبياء	01	146
لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ...	-	22	105
و ما أرسلنا قبلك من رسول إلا يوحى إليه أنه ...	-	25	103-79
ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ...	-	52	103
و سخرنا مع داود الجبال يسبحن ...	-	78	205
إن هذه أمتكم أمة واحدة ...	-	91	83
يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث ...	الحج	05	164
و من يشرك بالله فكأنما خر من السماء ...	-	29	106
و لينصرن الله من ينصره ...	-	37	219
و يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ...	-	63	194
ولواتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ..	المومنون	72	197-149
أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ...	-	116	148
ألم تر أن الله يسبح له من في السموات و الأرض ...	النور	40	195
و قالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه ...	الفرقان	05	114
و اتل عليهم نبأ إبراهيم ...	الشعراء	69	82
الذي خلقني فهو يهدين ...	-	78	145
و إنه لتنزيل رب العالمين ...	-	192	140
نزل به الروح الأمين ...	-	193	123
و جدتها و قومها يسجدون للشمس ...	النمل	24	200

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ...	النمل	41	175 209
و لوطا إذ قال لقومه ...	-	56	212
إن في خلق السموات و الأرض ...	-	62	87
و إلى مدين أخاهم شعيبا ...	العنكبوت	36	145
و ما كنت تتلوا من قبله من كتاب ...	-	48	114
و قالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ...	-	50	116
كل نفس ذائقة الموت ...	-	57	149
و ما هذه الحياة الدنيا إلا لهو و لعب ...	-	64	152
لله الأمر من قبل و من بعد ...	الروم	03	159
هذا خلق الله ...	لقمان	10	194
يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ...	السجدة	04	195
و قالوا أإذا ضللنا في الأرض ...	-	09	147
قل يتوفاكم ملك الموت ...	-	11	140
ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ...	الأحزاب	40	133
يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا و مبشرا و نذيرا .	-	45	130
إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال .	-	72	186
الحمد لله الذي له ما في السموات و الأرض ...	سبأ	01	194
قل أنزله الذي يعلم السر في السماء و في الأرض ..	-	06	114
و لقد آتينا داوود منا فضلا ...	-	10	199
يعملون له ما يشاء من محاريب و تماثيل ...	-	13	174
و ما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ...	-	28	133
قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله ...	-	46	114
الحمد لله فاطر السموات و الأرض ...	فاطر	01	193
إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ...	يس	181	154
فلما بلغ معه السعي قال يابني ...	الصافات	102	125
و ما خلقنا السماء و الأرض و ما بينهما باطلا ...	ص	26	194
فإذا سويته ونفخت فيه من روحي...	-	71	167
قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي...	-	74	171
إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ...	الزمر	02	75
و الذين اتخذوا من دونه أولياء ...	-	08	64
ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ...	-	28	178-84

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

... أوحي إليك و إلى الذين من قبلك ...	الزمر	62	104
و قال موسى إني عذت بربي و ربكم ...	غافر	27	145
يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ...	–	39	148
ثم استوى إلى السماء و هي دخان ...	فصلت	10	195
و من أحسن قولا ممن دعا إلى الله و عمل صالحا ...	–	32	232
و من آياته الليل و النهار و الشمس و القمر ...	–	36	193
ومن آياته أنك ترى الارض خاشعة...	–	38	147
لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه...	–	41	50
ليس كمثله شيء...	الشورى	09	47–41–35–34
فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا...	–	33	210
والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة...	–	35	213
ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا...	–	48	123
وكذلك أوحينا إليك روحا من امرنا...	–	52	146
ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض ليقولن ...	الزخرف	08	64
أم اتخذ مما يخلق بنات...	–	15	104
وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمان إناثا...	–	18	139
وقالوا لو شاء الرحمان ما عبدناهم...	–	19	139
بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة ...	–	21	104
قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ...	–	23	104
وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين...	–	30	110
نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ...	–	31	110
و إنه لذكر لك و لقومك ...	–	43	113
إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ...	–	59	111
فاختلف الأحزاب من بينهم ...	–	65	110
حم تنزيل الكتاب ...	الجاثية	01	192
و سخر لكم ما في السموات و ما في الأرض ...	–	12	202–173
قل الله يحييكم ثم يميتكم ...	–	25	149
إنما هذه الحياة الدنيا لعب و لهو ...	محمد	37	207
يد الله فوق أيدهم ...	الفتح	10	47
يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله...	الحجرات	01	39
إنما المؤمنون إخوة ...	–	10	91
إن أكرمكم عند الله أتقاكم ...	–	13	172
إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله و رسوله ...		15	71

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

. ناظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها ...	ق	06	196 -82
. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي...		07	206
ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد...	-	18	140
وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون...	الذاريات	56	198-176
والشمس والقمر بحسبان...	الرحمان	03	194
كل من عليها فان...	-	24	200
لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين...	الممتحنة	08	213
يا أيها النبي إذا جاءك المومنات يبايعنك...	-	12	103
وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله.	الصف	06	112
فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض...	الجمعة	10	208
هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم...	-	02	128
وصوركم فأحسن صوركم...	التغابن	03	171
زعم الذين كفروا إن لن يبعثوا...	-	07	146
ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير...	الملك	14	180-165
هو الذي جعل لكم الارض ذلولا...	-	15	203
أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا...	-	22	62
قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والابصار...	-	23	181-32
وإنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن...	الجن	06	142
وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا...	-	08	44
عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا...	-	26	137
وآخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله...	المزمل	18	174
عليها تسعة عشر...	المدثر	30	44
إن هذه تذكرة...	الإنسان	29	159
ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار...	المرسلات	20	147
فقال أنا ربكم الاعلى...	النازعات	24	86
ثم أماته فأقبره...	عبس	21	149
إذا الشمس كورت...	التكوير	01	192
يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم...	الإنفطار	06	33
بل تؤثرون الحياة الدنيا...	الأعلى	16	209
فذكر انما أنت مذكر...	الغاشية	21	128
لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم...	التين	04	183
قل هو الله أحد.....	الإخلاص	01	34

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرست الأحـاديث النبويـــة

الحديث	المرجع	الجزء و الصفحة	الصفحـ
أول ما بـدىء به رسول الله من الوحي الرؤياالصالحة..	فتح البارى	22/01	125
أحـد جبل يحبنا ونحبه	شرح السنة	120/01	205
أنا أولى الناس بعيسى بن مريم...	فتح البارى	478/06	130
إنا إذا كنا عندك رأينا من أنفستا ما نحب...	شرح السنة	167/01	73
أنا أغنى الشركاء عن الشرك...	رياض الصالحين	497	103
إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا و لا تنام قلوبنا.	الرسل و الرسالات(الأشقر	91	125
أني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون...	شرح السنة	370/14	141
إنك امرؤ فيك جاهلية...	فتح البارى	84/01	92
إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي...	شرح السنة	110/10	112
إن روح القدس نفث في روعي...	-	304/14	125
أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي...	فقه السيرة (البوطي)	72	114
بايعوني على ألا تشركوا با لله شيئا...	شرح السنة	60/01	104
هل تدري يا معاذ ما حق الله على الناس...	-	93/01	177
وكان النبيء يبعث إلى قومه خاصة...	-	196/13	134
وفي بضع أحـدكم صدقة...	رياض الصالحين	64	178
كل شيء بقـدر...	شرح السنة	34/01	155
الإيمان بضع وستون شعبة...	فتح البارى	51/01	72
لله تسعة و تسعون إسما...	مجموعة الرسائل (البنا)	384	100
مامن نبيء من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات...	شرح السنة	196-195/13	113
من يولد يولد على الفطرة...	-	154/01	65
مثلي ومثل الانبياء كمثل رجل بنى بنيانا...	-	201/13	134
سباب المسلم فسوق وقتاله كفر	فتح البارى	464/10	92
عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله اه خير...	رياض الصالحين	28	233
فو الله إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة...	فتح البارى	477/11	156
رؤيا الأنبياء في المنام وحـي	شرح السنة	06/04	125
رؤيا المؤمن جزء من أربعين جزء من النبوة.	-	210/12	125
خير الناس قـرني...	جامع الأصول	66/14	39
خرج علينا رسول الله ونحن نتنازع في القدر	-	529-528/10	157
ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان...	فتح البارى	60/01	72

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرست المصادر و المراجـــع

أولا : كتب سيد قطب (مرتبة حسب غزارة المادة العلمية وأهميتها بالنسبة لهذا البحث)

1- سيد قطب ، في ظلال القرآن ط، 12 دار الشروق 1986/1406

2- سيد قطب ، خصائص التصور الاسلامي و مقوماته، ط ، 08 دار الشروق 1983/1403

3- سيد قطب ، معالم في الطريق،ط،10 دار الشروق 1983/1403

4- سيد قطب ، العدالة الاجتماعية في الاسلام ط،13 دار الشروق 1993/1413

5- سيد قطب ، نحو مجتمع اسلامي، ط، 04 دار الشروق 1980/1400

6- سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن، ط، 08 دار الشروق 1993/1413

7- سيد قطب ، هذا الدين، ط، 09 ، دار الشروق 1987/1407

8- سيد قطب ، الاسلام و مشكلات الحضارة ،ط، 08 دار الشروق 1983/1403

9- سيد قطب ، معركة الاسلام و الرأسمالية، دار الكوثر الجزائر

10- سيد قطب ، السلام العالمي و الاسلام، ط، 06 دار الشروق 1982/1402

11- سيد قطب ، المستقبل لهذا الدين، دار الشروق

12- سيد قطب ، مشاهد القيامة في القرآن، دار المعارف مصر 1966/1386

ثانيا ، ما كتب حول سيد

13- أحمد فائز ، اليوم الآخر في ظلال القرآن،ط، 02 (بدون دار نشر) 1980/1400

14- مركز الملك فيصل للبحوث و الدراسات الاسلامية ، النهج السوي في الرد على سيد قطب و تابعه فيصل مولوي، رقم التوثيق 77078

15- سالم البهنساوي، سيد قطب بين العاطفة و الموضوعية، دار الدعوة للطباعة و النشر و التوزيع مصر

16- على أومليل، موقفان في الفكر السياسي الاسلامي المعاصر ،مركز الدراسات والابحاث الاقصادية
والاجتماعية - تونس1986
17- عادل حمودة ، سيد قطب من القرية إلى المشنقة، ط، 01 مطبعة أطلس القاهرة 1987
18- عبد الله عوض الخباص ، سيد قطب الاديب الناقد ، شركة الشهاب باتنة الجزائر
19- صلاح عبد الفتاح الخالدي ، في ظلال القرآن في الميزان، ط01، شركة الشهاب باتنة
الجزائر 1986
20- صلاح عبد الفتاح الخالدي، المنهج الحركي في ظلال القرآن،ط، 01، شركة الشهاب
باتنةالجزائر 1988

ثالثا : مراجع أخرى

21- أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين،
22- أبو حامد الغزالي ، تهافت الفلاسفة ،ط ، 03 دار المشرق بيروت 1986
23- أبو الحسن الأشعري ، الإبانة في أصول الديانة، ط، 01 دار القادري بيروت
1991/1412
24- أبو منصور الماتريدي ، كتاب التوحيد، تحقيق فتح الله خليف، ط، 02 دار المشرق
بيروت 1986
25- أبو الأعلى المودودي ، موجز تاريخ تجديد الدين و إحيائه
26- أبو الأعلى المودودي ، نظام الحياة في الاسلام دار الشهاب باتنة الجزائر 1988
27- أبو الأعلى المودودي ، المصطلحات الأربعة في القرآن، ط، 09 دار القلم الكويت
1984 /1405

28 - ابن تيمية ، درء تعارض العقل و النقل تحقيق محمد رشاد سالم، ط،01 مطابع جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية 1981/1401

29- ابن تيمية ، كتاب الايمان، مطبوعات ميموني للنشر و التوزيع الجزائر 1988

30- ابن تيمية ، مجموع الفتاوى مكتبة المعارف، الرباط

31- ابن تيمية، مجموعة التوحيد دار الفكر بيروت

32- ابن القيم، مدارج السالكين، ط، 01 دار الفكر للطباعة و النشر الجزائر 1408/ 1988

33- ابن القيم ، أعلاه الموقعين، تحقيق عبد الرحمـن الوكيل دار إحياء التراث العربي بيروت

34 - ابن القيم ، شفاء العليل دار الفكر 1978/1398

35- ابن الجوزي ، تلبيس إبليس، ط، 02 دار الفكر 1368 هـ

36- ابن الوزير ، إيثار الحق على الخالق في رد الخلافات إلى المذهب الحق ط01 دار الكتب العلمية بيروت 1983/1403

37- ابن الحجر ، فتح البار ..ي، دار المعرفة للطباعة و النشر بيروت

38- ابن الأثير ، جامع الاصول من أحاديث الرسول ط02 دار إحياء التراث العربي بيروت 1980/1400

39- ابن قائد النجدي ، نجاة الخلف في اعتقاد السلف، تحقيق أبو اليزيد العجمي دار الصحوة للنشرو التوزيع القاهرة 1985/1405

40- ابن رشد ، فصل المقال، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر 1982

41- ابن خلدون ، المقدمة ط07 دار القلم بيروت 1989/1409

42- ابن منظور ، لسان العرب دار المعارف القاهرة

43- أجناس جولد تسيهر ، العقيدة و الشريعة في الاسلام، ترجمة و تعليق محمد يوسف موسى و أخرون دار الرائد العربي 1946

44- آدم متز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، تحقيق عبد الهادي أبوريدة، ط، 04 دار الكتاب العربي بيروت

45- أحمد علي الملا،دراسة في علم العقيدة الاسلامية، ط،01 دار اليمامة دمشق 1986/1406

46- أحمد شهاب الدين الخفاجي ، نسيم الرياض في شرح الشفا للقاضي عياض، دار الضياء قسنطينة و قصر الكتاب البليدة الجزائر

47- أحمد أمين ، ضحى الاسلام، ط، 10 دار الكتاب العربي بيروت

48- الإيجي ، المواقف في علم الكلام، عالم الكتب بيروت

49- البغدادي ، الفرق بين الفرق بتحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت

50- البغوي ، شرح السنة- تحقيق شعيب الأرناؤوط،ط، 02 المكتب الاسلامي بيروت 1983/1403

51- وحيد الدين خان ، قضية البعث الاسلامي ، المنهج و الشروط، ترجمة محسن عثمان الندوي، ط، 01 دار الصحوة للنشر و التوزيع القاهرة 1984/1405

52- الحارث بن أسد المحاسبي ، المسائل في أعمال القلوب و الجوارح و المكاسب و العقل تحقيق و تعليق عبد القادر أحمد عطا ، ط،01 عالم الكتب القاهرة 1969

53- حسن الهضيبي ، دعاة لاقضاة، دار الصديقية للنشر الجزائر 1989

54- حسن البنا ، مجموعة الرسائل، ط، 02 المؤسسة الاسلامية للطباعة و الصحافة و النشر بيروت 1981/1401

55- طه الدسوقي ، عقيدتنا و صلتها بالكون و الانسان و الحياة، دار الهدى للطباعة مصر 1984/1405

56- يحي هاشم فرغل ، الاسس المنهجية لبناء العقيدة الاسلامية، دار الفكر العربي 1978

57- يحى بن شرف النووي ، رياض الصالحين، المكتبة العصرية بيروت 1990/1410

58- يحي بن شرف النووي ، الأربعون النووية، دار البعث قسنطينة 1986/1406

59- يوسف القرضاوي ، حقيقة التوحيد، دار البعث قسنطينة 1986/1406

60- مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ط04 دار الفكر بالتعاون مع الملكية للاعلام والنشر والتوزيع الجزائر 1987/1407

61 مالك بن نبي ، وجهة العالم الاسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر دمشق 1986/1406

62- محمد سعيد رمضان البوطي ، كبرى اليقينيات الكونية، ط،08 دار الفكر دمشق 1982/1402

63- محمد سعيد رمضان البوطي ، العقيدة الاسلامية و الفكر المعاصر، مطبعة خالد بن الوليد 1409/1988

64- محمد سعيد رمضان البوطي ،حوار حول مشكلات الحضارة ط03 الدار المتحدة للطباعة والنشر و رحاب الجزائر 1990/1410

65- محمد سعيد رمضان البوطي ، فقه السيرة، ط،11 دار الفكر الجزائر 1991/1412

66- محمد المبارك،نظام الاسلام العقائدي في العصر الحديث، دار البعث الجزائر 1989/1409

67- محمد المبارك ، نظام الاسلام العقيدة و العبادة، ط، 02 1981/1401

68- محمد الغزالي ، عقيدة المسلم، دار الشهاب، باتنة الجزائر 1985

69- محمد قطب ، دراسات قرآنية، ط05، دار الشروق 1988/1408

70- محمد قطب ، الانسان بين المادية و الاسلام ط، 09 دار الشروق 1988/1408

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

71- محمد البهي ، الجانب الالهي من التفكير الانساني، ط، 05 دار الفكر بيروت 1972/1391

72- محمد صالح العثيمين ، القواعد المثلى في صفات الله و أسمائه الحسنى، دار السلفية الجزائر 1990/1411

73- محمد عبده ، رسالة التوحيد، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر

74- محمد عبده ، تفسير القرآن الكريم (جزء عم) شركة الشهاب الجزائر

75- محمد بن أبي بكر الرازي ، مختار الصحاح دار الجيل بيروت 1987/1407

76- محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ،ط،08 مؤسسة الرسالة بيروت 1986/1407

77- محمد حسن آل ياسين ، مفاهيم إسلامية،ط،02 دار مكتبة الحياة بيروت 1972/1392

78- محمد شديد ، منهج القرآن في التربية، ط،01 مؤسسة الرسالة 1987/1407

79- محمد علي الصابوني ، النبوة و الانبياء، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع الجزائر

80- محمد هشام سلطان ، العقيدة و الفكر الاسلامي،ط، 02 مكتبة رحاب الجزائر 1988/1408

81- محمد عبد الرحيم عدس ، من خصائص النفس البشرية في القرآن دار الآفاق الجزائر 1990/1410

82- محمد توفيق صدقي ، الدين في نظر العقل الصحيح،ط، 02 مطبعة المنار مصر 1346

83- محمد عادل الهاشمي ، الانسان في الأدب الاسلامي، مكتبة الطالب الجامعي مكة المكرمة 1986/1406

84- محمد نسيب الرفاعي ، تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير ،ط، 03 دار لبنان للطباعة و النشر 1980/1400

84- محمد نعيم ياسين ، كتاب الايمان، دار الشهاب باتنة- الجزائر 1987

85- محمد متولي الشعراوي ، القضاء و القدر ، دار الشهاب باتنة الجزائر

86- مبارك بن محمد الميلي ، رسالة الشرك و مظاهره، ط،03 دار البعث قسنطينة- الجزائر 1982/1403

87- محمود شلتوت ، تفسير القرآن الكريم،ط، 10 دار الشروق 1983/1403

88- ناصر بن عبد الكريم العقل ، مباحث في عقيدة أهل السنة و الجماعة،ط،01 دار الوطن للنشر الرياض 1992/1412

89- نعمان عبد الرزاق السامرائي ، في التفسير الاسلامي للتاريخ، دار الشهاب باتنة- الجزائر

90- سالم البهنساوي ، الحكم و قضية تكفير المسلم،ط، 01 دار الانصار القاهرة 1977

91- سعيد حوى ، الله جل جلاله، ط، 03 دار الكتب العلمية- بيروت 1981/1400

92- سعيد حوى ، الرسول، ط04 دار الكتب العلمية - بيروت 1979/1399

93- سليمان الخطيب ، أسس مفهوم الحضارة في الاسلام،ط،01 الزهراء للاعلام العربي 1986/1406

94- عبد الحميد بن باديس ، مجالس التذكير،ط،01 دار البعث قسنطينة- الجزائر 1982/1402

95- عبد المجيد الزنداني و آخرون، الايمان،ط،01 الدار السلفية - الجزائر 1991/1411

96- عبد المجيد النجار ، في فقه التدين فهما و تنزيلا،ط،01 كتاب الأمة ، قطر 1990/1410

97- عبد المجيد النجار ،العقل والسلوك في البنية الاسلامية، مطبعة الجنوب، تونس 1980/1400

98- عبد المجيد النجار ،المقتضيات المنهجية لتطبيق الشريعة الاسلامية،دار المستقبل، الجزائر

99- عبد الله عزام ، العقيدة و أثرها في بناء الجيل، مكتبة الزهراء، الجزائر 1991/1411

100- عبد الكريم غلاب ، صراع المذهب و العقيدة، الدار العربية للكتاب- ليبيا، تونس 1979/1399

101- عبد الكريم الخطيب ، الله ذاتا و موضوعا،ط، 03 دار الفكر العربي 1983

102-عبد الكريم الخطيب ، الله و الانسان، دار الفكر العربي

103- عبد المنعم صالح العلي العزي ، أصول العقيدة الاسلامية، دار الشهاب للطباعة و النشر باتنة- الجزائر

104- عبد المنعم خفاجي ، الاسلام و الحضارة الانسانية ،ط،01 دار الكتاب اللبناني- بيروت 1973/1393

105- عبد الحليم محمود ، التفكير الفلسفي في الاسلام، دار الكتاب اللبناني 1985

106- عمر عبد الرحمن ، كلمة حق، دار الاعتصام 1987

107-عمر سليمان الأشقر ، التوحيد محور الحياة، ط02 مكتبة الفلاح- الكويت 1986/1406

108- عمر سليمان الأشقر ،العقيدة في الله،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجزائر 1989

109- عمر سليمان الأشقر، الرسل و الرسالات- قصر الكتاب- الجزائر

110- عمر عودة الخطيب، لمحات في الثقافة الاسلامية ط07 مؤسسة الرسالة - بيروت 1991/1412

111- عباس محمود العقاد ، الفلسفة القرآنية، المكتبة العصرية- بيروت،

112- علي أحمد مدكور ، منهج التربية الاسلامية أصوله و تطبيقاته،ط، 01 مكتبة الفلاح الكويت 1987/1407

113-علي الشابي،مباحث في علم الكلام والفلسفة،ط،02 دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع تونس 1984

114- علي سامي النشار وعمار جمعي الطالبي ، عقائد السلف- شركة الاسكندرية للطباعة والنشر

115- فهمي جدعان ، أسس التقديم عند مفكري الاسلام،ط، 02 المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1981

116-فتحي الدريني ، دراسات و بحوث في الفكر الاسلامي المعاصر ط01 دار قتيبة للطباعة والنشر و التوزيع بيروت 1988/1408

117- صالح بن فوزان الفوزان ، كتاب التوحيد، مطبعة سفير- الرياض

118- صبحي صالح ، معالم الشريعة الاسلامية ط02 دار العلم للملايين بيروت 1980/1400

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرست الموضوعـات

مقدمة 01

مدخل حول حياة سيد قطب و أبعادها الفكرية 05

1- سيد قطب في سطور 05

2- شخصيته و العوامل المؤثرة فيها 06

أ - العوامل المؤثرة في شخصية سيد 06

ب- صفاته النفسية 13

جـ- مميزاته الفكرية. 14

الفصل الأول

منهج سيد في دراسة العقيدة و موقفه من منهج الكلام و الفلسفة 17

1 - كلمة حول المنهج 18

2- تمهيد 20

أولا : منهج المتكلمين في العقيدة و موقف سيد قطب منه 20

1- تعريف بعلم الكلام و أسباب نشأته 20

2- منهج المتكلمين في الاستدلال على المسائل العقدية 22

3- موقف سيد قطب من علم الكلام 24

ثانيا : منهج الفلاسفة في العقيدة و موقف سيد قطب منه 30

1- طبيعة الفلسفة و منهجها 30

2- محاولات التوفيق بين العقيدة و الفلسفة و مجالات ذلك 30

3- موقف سيد قطب من المنهج الفلسفي 35

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثالثا : منهج السلف في العقيدة و موقف سيد منه 39

رابعا : منهج سيد قطب في دراسة العقيدة 43

أ منهج الفهم و الاستنباط 43

1- الكتاب و السنة 43

2- استبعاد المؤثرات الفكرية و العقدية 45

3- إخضاع العقل لمقررات الوحي 46

4- عدم التأويل 47

5- الجمع بين النصوص 50

6- استحضار الجو الذي نزل فيه القرآن 52

ب- منهج الصياغة و التقرير 53

1- العزوف عن القالب الفلسفي 53

2- عدم استحضار الانحرافات و الانشغال بالرد عليها 55

3- الواقعية 56

4- الشمولية 58

5- تبيان خصائص العقيدة الاسلامية و مميزاتها 61

6- إبراز أثر العقيدة في النفس و المجتمع 62

الفصل الثاني

آراء سيد قطب العقدية 64

أولا : الالهيات 65

1- الطريق إلى معرفة الله: أ - الفطرة ب - العقل جـ - الوحي 65

2- الايمان بالله : أ - حقيقته ب - قيمة الايمان 70

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

3- التوحيد : 1- أهمية التوحيد 2- موضوع التوحيد بين سيد قطب و علماء الكلام 76

3- حقيقة التوحيد 4 - أصالة التوحيد 5- طبيعة التوحيد 6- قيمة التوحيد 7- أقسام التوحيد

4 - الحاكمية : أ- الحاكمية قضية عقدية ب- مدى شرعية المصطلحات التي استعملها سيد 89

جـ- سيد قطب وتهمة التكفير

5- توحيد الاسماء و الصفات : حقيقتها و منهج دراستها و الأثار المترتبة على معرفتها. 96

6- الشرك : 1- حقيقته و أثره 2- مبحث الشرك بين سيد و علماء الكلام. 102

ثانيا : النبوات 110

1- حقيقة النبوة والنبئ 110

2- طبيعة النبئ 111

3- دلائل صدقة : أ- البشارات ب- النظر في أحواله جـ- المعجزات : 113

1- بين معجزة محمد و معجزات غيره 2- بين المعجزة و القانون الثابت

3- الأثر التربوي للمعجزة

4- الوحي : أ- حقيقته ب- إمكانيته جـ- كيفيته 121

5- الحاجة إلى النبوة 126

6- وظيفة النبي و رسالته في الحياة 128

7- وحدة الرسالة : حقيقتها و أهمية الايمان بها 131

8- بين الرسالات السابقة و الرسالة الخاتمة 133

ثالثا : السمعيات 136

1- الغيب : أ- الغيب حقيقة وجودية ب- موقف المؤمن من الغيب 136

جـ- أهمية الايمان بالغيب

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2- الملائكة : أ- الايمان بالملائكة ب- وظائف الملائكة 140

جـ- الأثر التربوي للايمان بالملائكة

3- عالم الجن : أ- حقيقة الجن ب- موقف المؤمن من الجن 143

4- اليوم الآخر : أ- اليوم الآخر على دعوة الانبياء السابقين 144

ب- اليوم الآخر في القرآن الكريم 148

1- طريقة القرآن في الاستدلال على اليوم الآخر

2- حقائق و مشاهد اليوم الآخر في القرآن الكريم

3- أهمية الايمان باليوم الآخر

5- القضاء و القدر :أ- حقيقته ب- كراهية الخوض على القدر جـ- الاحتجاج بالقدر 155

د- بين المشيئة المطلقة والناموس الكوني الثابت هـ- الأثر التربوي لعقيدة القضاء والقدر

الفصل الثالث

قضـايا عـقديـــة 164

أولا : الانسان 165

1- حقيقة الانسان 165

2- مقومات الانسان 168

3- تكريم الانسان 171

4- الأثر التربوي لعقيدة التكريم 173

5- الخلافة 174

6- العبادة 177

7- الاثر التربوي للعبادة 178

8- الانسان بين التصور القرآني و التصورات المذهبية الأخرى 180

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

9- التكليف و المسؤولية : أ- حقيقة التكليف و طبيعته 187

ب- الأثر التربوي للايمان بالتكليف و المسؤولية 191

ثانيا : الكون 192

مقدمة

1- حديث القرآن عن الكون 192

2- دلالة الكون على الله. 193

3- صلة الله بالكون 194

4- الوحدة بين الانسان و الكون 196

5- أثر الوحدة بين الانسان و الكون في شعور الانسان و حياته 202

6- الكون مسخر للانسان 203

7- الكون في القرآن و المذاهب الاخرى 205

ثالثا : الحياة 207

1- حقيقة الحياة في القرآن 207

2- الحياة بين المنهج القرآني و المنهج الانساني 210

رابعا : البعد الاجتماعي للعقيدة 212

1- علاقة العقيدة بالقضايا الاجتماعية 212

2- مبررات تطبيق المنهج الاجتماعي الاسلامي 218

3- اهتمام سيد بالبعد الاجتماعي للعقيدة 221

4 - الاسلام هو الحضارة 223

5- أهمية العقيدة و أثرها في النفس و المجتمع 228

الخاتمة 235

الهوامش 240

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية